

تفسير الحداد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحداد اليمني

تحقيق

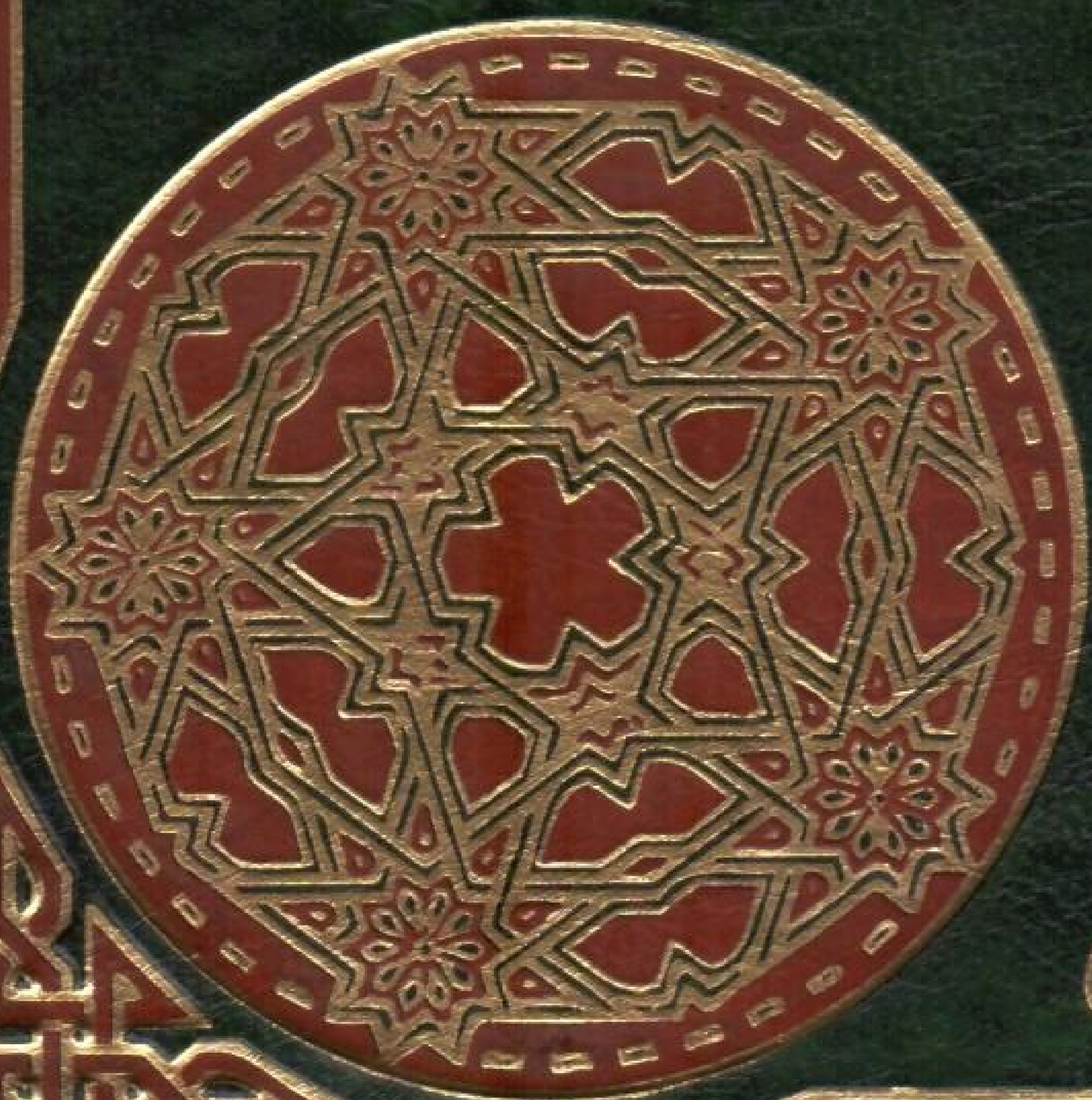
الدكتور محمد إبراهيم يحيى

أستاذ مساعد تفسير القرآن وعلومه

بالجامعة الأسمرية - زليتن - ليبيا

المجلد الخامس

تفسير الحداد



دار المدار الإسلامي

تفسير الحداد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحداد اليمني

تحقيق

الدكتور محمد إبراهيم يحيى

أستاذ تفسير القرآن وعلومه
بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية
زليتن - ليبيا

الجزء الخامس

دار المدار الإسلامي

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopyings, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير/اي النار 2003 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4165/ 2001
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-062-X
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دَارُ المَدَارِ الإِسْلَامِيّ

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb
بيروت ـ لبنان

توزيع دار أويـا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فـاكـس: 4442758 . 21 . 00218، طـرابـلـس ـ الـجـمـاهـيـريـة الـعـظـمـى

سُورَةُ المُؤمِنُون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ
مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ
أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ
۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾.

قال أبو بكر: سورة المؤمنين مكية، وهي أربعة آلاف وثمانمائة حرف، وألف وثمانمائة وأربعون كلمة، ومائة وثماني عشرة آية. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان، وما تقر به عينه عند نزول ملك الموت**»[1].

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ أي فاز ونجا وسعد المصدقون باللَّه ورسوله. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**لما خلق اللَّه جنة عدن، وخلق فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم قال لها تكلمي فقالت: قد أفلح المؤمنون ثلاثاً ثم قالت: أنا حرام على كل بخيل ومراء**»[2]. قرأ طلحة بن مصرف: قد أفلح المؤمنون، على المجهول أي أبقوا في الثواب[3]، وحرف ـ قد ـ في اللغة لتزيين الكلام وتحسينه وقيل لتقريب الحال الماضية إلى الحال الآتية، تدل على أن فلاحهم

---

(1) ذكره الزمخشري في: الكشاف من غير سند: 3/ 45، والثعلبي في تفسيره، الكشف والبيان عن أبي بن كعب.
(2) ذكره الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس.
(3) الثعلبي في المرجع نفسه، والقرطبي في تفسيره: 12/ 102.

قد حصل وهم عليه في الحال. وهذا أبلغ في الصفة من تجريد ذكر الفعل. والفلاح: هو البقاء والنجاح. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ أي متواضعون خائفون، ويقال: ساكنون بالقلب والجوارح فلا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، كما روي عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم أنه رأى رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لو خشع قلبه لخشعت جوارحه**»[1]، وعنه صلى اللَّه عليه وسلم أنه كان إذا وقف في الصلاة رفع بصره نحو السماء فلما نزلت هذه الآية جعل بصره إلى موضع سجوده[2].

وحقيقة الخشوع: هو جمع الهمة لتدبير الأفعال والأفكار. وعن الحسن أنه كان يقول: إن الخاشعين هم الذين لا يرفعون أيديهم في الصلاة إلاّ في التكبيرة الأولى. وقال ابن عباس: معنى قوله تعالى: ﴿خَٰشِعُونَ﴾ أي أذلاء. وقال مجاهد: الخشوع هو غض البصر وخفض الجناح[3]. وكان الرجل من العلماء إذا قام إلى الصلاة يهاب الرحمن أن يسند بصره إلى شيء، وأن لا يحدث نفسه بشيء من الدنيا. وقال عمرو بن دينار[4]: ليس الخشوع والسجود والركوع ولكنه السكون، وحسن الهيئة[5] في الصلاة[6]. وقال عطاء: هو أن لا تعبث بشيء من جسدك في الصلاة[7]. وعن أبي ذر قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه فلا يحركن الحصى**»[8]. وقيل نظر الحسن إلى رجل يعبث بالحصى، ويقول: اللَّهم زوجني من الحور العين فقال له الحسن: بئس الخاطب أنت تخطب وأنت تعبث[9].

---

(1) الثعلبي في المرجع نفسه.

(2) رواه الحاكم في المستدرك: 2/ 393. والبغوي في تفسيره؛ 4/ 138.

(3) ذكره الثعلبي في تفسيره.

(4) أبو محمد عمرو بن دينار الجمحي كان مفتي أهل مكة ثقة ولد بصنعاء وتوفي بمكة سنة ست وعشرين هجرية. تهذيب التهذيب: 8/ 30.

(5) في ك: الهمة.

(6) الثعلبي في تفسيره.

(7) القرطبي في تفسيره: 12/ 103.

(8) القرطبي في المرجع نفسه.

(9) الثعلبي في المرجع نفسه.

وقال قتادة: الخضوع هو وضع اليمين على الشمال في الصلاة[1] وقال بعضهم: هو جمع الهمة لها، والإعراض عما سواها. قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾ قال الحسن معناه: عن المعاصي معرضون. وقال الزجاج: هو كل باطل ولهو ولعب وهزل[2]. وقيل اللغو الذي يعرضون عنه: هو كل ما لا فائدة فيه. ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ۝٧٢﴾[3] أي شغلهم الجد فيما أمرهم اللَّه عن كل باطل ولهو ولعب وعن كل ما لا فائدة فيه من قول وفعل. وقال مقاتل: اللغو: هو الشتم والأذى. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ أي مؤدون فعبر عن التأدية بالفعل لأنه فعل. قال ابن عباس: يعني به: الصدقة الواجبة. وقيل معناه: والذين هم للعمل الصالح فاعلون. ويدخل في هذا كل فعل يزكو به الإنسان ويحمد عليه كما يقال: ما أعطى اللَّه أحداً لقمة إلا أوجب عليه فيها زكاة. فزكاة العلم: نشره وتعليمه، وزكاة الجاه: إغاثة الملهوف. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥﴾ أي يحفظونها عن الحرام ويعفون عما لا يحل لهم. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أي يلامون في إطلاق ما حرم عليهم إلا على أزواجهم أو إمائهم فإنهم لا يلامون فيه. قال مجاهد يفرض على الرجل حفظ فرجه إلا من امرأته، وأمته فإنه لا يلام على ذلك. قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ۝٧﴾ أي من طلب للوطء طريقاً سوى ما أحل اللَّه من النساء الأربع أو ما ملكت اليمين فأولئك هم المتجاوزون من الحلال إلى الحرام فمن زنا فهو عاد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ۝٨﴾ أي والذين هم لما انتهوا عنه فيما بينهم وبين اللَّه وبين الناس حافظون حتى يؤدوه على وجهه. والرعي: هو القيام على إصلاح ما يتولاه كما قال صلى اللَّه عليه وسلم:

---

(1) الثعلبي نفسه.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 6 بتصرف.
(3) سورة الفرقان (25)، الآية: 72.

«**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[1]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[2] وقرأ ابن كثير ـ لأمانتهم بالتوحيد لأنه مصدر واسم جنس فيقع على الكثير ـ والأمانة قد تكون بين العبيد كالودائع وأشباهها، وتكون بين اللَّه وبين عبده كالصيام، والاغتسال من الجنابة، والصلاة فيجب على المؤمنين الوفاء بجميع حقوق الأمانات قوله تعالى: ﴿وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ العهد يشتمل على طاعة اللَّه التي يجب الوفاء بها، وعلى جميع العقود والأيمان، والنذور. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ أي يواظبون على الصلاة ويجتهدون في إقامتها لمواقيتها بفرائضها وسننها وآدابها. وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي أهل هذه الصفات التي ذكرها اللَّه من أول هذه السورة إلى هاهنا هم الوارثون الذين يرثون يوم القيامة منازل أهل النار من الجنة التي كانت لهم لو أطاعوا اللَّه ورسوله. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما منكم من أحد إلا وله منزلان، منزل في الجنة ومنزل في النار فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزلته**»[3]. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ الفردوس في اللغة: هو البستان الجامع لمحاسن أجناس الكروم وغيرها. وقال عكرمة: هو الجنة بلغة الحبشة. وفي الحديث: إن حارثة بن سراقة قتل يوم بدر فقالت أمه: يا رسول اللَّه إن كان ابني من أهل الجنة لم أبك عليه، وإن كان من أهل النار بالغت في البكاء عليه. فقال يا أم حارثة: «**إن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى من الجنة**»[4]. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**لقد أنزلت عليّ عشر آيات من أقامهن دخل الجنة**». ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ إلى آخر الآيات العشر[5]. وقال مجاهد: من حفظ العشر من سورة المؤمنين ورث الفردوس. قال ابن عباس: الفردوس خير الجنان. وقال

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 10/ 375، رقم: 5200، كتاب النكاح. وأخرجه البيهقي في الشعب 7/ 480، رقم: 11063 عن ابن عمر.

(2) سورة النساء (4)، الآية: 58.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب: 1/ 341، رقم: 377، فصل في فداء المؤمن.

(4) يراجع الطبقات الكبرى لابن سعد: 3/ 387، رقم: 182، 6 ـ 8/ 311، رقم: 456، والسيرة النبوية لابن هشام: 2/ 627.

(5) أخرجه أحمد في المسند: 1/ 34.

صلى الله عليه وسلم: «**إن الله غرس الفردوس بيده ثم قال: وعزتي وجلالي لا يدخلها مدمن خمر، ولا ديوث**». قالوا: ما الديوث يا رسول الله؟ قال: «**الذي يرضى الفواحش لأهله**».

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ أي خلقنا آدم من سلالة سلّت من طين والسلالة: ما سل من الشيء أي نزع واستخرج منه. يقال للنطفة سلالة والولد سليل وسلالة. قال مجاهد: السلالة من مني آدم[1]. وقال عكرمة: هو الماء يسل من الظهر سلاً والمراد بالانسلال ولد آدم[2]. وهو اسم جنس يقع على الجميع. والمعنى: خلقنا ابن آدم من سلالة من طين أي من صفوة ماء آدم الذي هو من الطين. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾ أي ثم خلقنا ولد آدم من نطفة في موضع حريز يعني الرحم مكن فيه الماء بأن هيىء لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الذي جعل له. وإنما سمي المني سلالة لأنه سل من أصلاب الرجال وترائب النساء ثم يكون قراره في أرحام الأمهات. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي صيرنا النطفة دماً منعقداً ثم صيرنا الدم لحماً بلا عظم ـ والمضغة هي القطعة الصغيرة من اللحم ـ وقوله

---

(1) الطبري في تفسيره: 10/ 12.
(2) البغوي في تفسيره: 4/ 14.

تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا﴾ أي حولنا المضغة عظاماً ثم ألبسنا العظام لحماً ليكون أبهى في المنظر، وليكون اللحم وقاية للعظم. قرأ ابن عباس ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا﴾ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بأن جعلنا فيه الروح بعد أن لم تكن، ثم جعلناه ذكراً أو أنثى إلى أن أعطيناه الفهم والتمييز ليأخذ ثدي أمه عند الحاجة فيرتضع ويبكي إذا تضرر بشيء. وقال مجاهد: يعني قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ يعني سوينا شبابه، وقال قتادة: يعني أنبتنا شعره وأسنانه[1].

وقيل معناه: أعطيناه العقل والقوة والفهم ورتبناه حالاً بعد حال إلى أن بلغ إلى أن يتقلب في البلاد. قيل إذا اجتمع الماء المتخلق منه الولد فأول الحالات أن يزيد ثم يستحيل ذلك الماء علقة وهو دم عبيط جامد ثم يصير مضغة، وفي تلك الحالة تظهر الأعضاء النقيصية كالقلب والدماغ والكبد. والقلب أول عضو يتكوّن ثم الدماغ ثم الكبد ثم تتنحى بعضها عن بعض وتتخطط الأطراف ثم يصير لحماً على عظام وعظام البدن مائتان وأربعون عظماً فإذا نفخ فيه الروح لأربعة أشهر انقسم دم الحيض ثلاثة أقسام قسم يتغذى به الولد، وقسم يحتبس إلى النفاس، وقسم يصعد إلى الثدي. وإنما تنفخ الروح في الجنين لأربعة أشهر لأنه يكون نطفة أربعين يوماً، ثم يكون علقة أربعين يوماً ثم يصير مضغة أربعين يوماً، ثم تنفخ فيه الروح ويكون الولد في بطن أمه معتمداً على رجليه وراحة يديه على ركبتيه وظهره إلى وجه الأم ووجهه إلى ظهرها حتى لا تتأذى الأم بنفسه، وإنما خلق اللّٰه عينيه في رأسه لتكون مشرفة على جميع الأعضاء في الجهات كلها كالطليعة للعسكر وأصلح المواضع للطلائع المكان المشرف، وجعلها في كهفين حراسة لهما وتوفيراً لصونهما، وجعل لهما الهدب ليدفع ما يطرأ لهما، وخلق اللّٰه الأنف لينحصر فيه الهوى المستنشق لترويح الرئة والدماغ، وخلق الفم وعاء لجمع الكلام وخلق اللسان آلة للنطق، ولتقليب الطعام الممضوغ، والمضغ يكون في جانبي الفم حراسة لأداة النطق، وخلق الشفتين غطاء للفم والأسنان ومحبساً للعاب ومعيناً على الكلام وجمالاً في الصورة، والأسنان تقطع والأنياب تكسر والأضراس تطحن، وخص الفك

---

(1) ذكر القرطبي في تفسيره 12/ 110، قولي: مجاهد وقتادة.

الأسفل بالتحريك لأن التحريك للأخف أحسن لأن الأعلى يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة لأن الحركة تضعفها، وجعل ماء الأذن مرّاً لئلا تقيم فيها الهوام فإذا دخلت الأذن دابة لم يكن لها هم إلا الخروج، وجعل ماء العين مالحاً لئلا تذوب وجعل ماء الفم عذباً ليطيب طعم المطعم، وخلق اللَّه الأصابع آلة لعمل الأشياء كالكتابة والصياغة والخياطة وجعلها على الكف لتحفظ ما يجعل فيه، ولم يخلق الأصابع خالية من العظام لتكون أفعالها قوية، ولم يجعل عظامها مجوفة لتكون أقوى على القبض والحركات، وجعل القلب في وسط الصدر لأنها أعدل الأماكن وقد تكون أميل قليلاً إلى اليسار لتبعد عن الكبد، والرئة وطاء للقلب ووقاية له وهو بيت النفس ومنزل الفرح، وخلق اللَّه الأمعاء كثيرة التلافيف ليطول سير الغذاء فيها فلا يحتاج الإنسان إلى الغذاء في كل وقت، وخلق اللَّه القدم أخمص لتمسك الماشي في الدرج.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي أحسن المصورين المحولين من حال إلى حال. ومعنى قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي استحق التعظيم والثناء وقيل دام لم يزل ولا يزال وقوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ لا يقتضي أن يكون معه ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ كما قال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾[1]. ويقال أحسن الخالقين أي أحسن المقدرين فإن الخلق هو التقدير كما قال تعالى مخبراً عن عيسى: ﴿أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾[2] أي أقدر لكم من الطين. قال ابن عباس: كان عبد اللَّه بن أبي سرح يكتب لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فأملى عليه هذه الآية فلما بلغ إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ خطر بباله ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾. فلما أملاها عليه النبي صلى اللَّه عليه وسلم كذلك قال عبد اللَّه: إن محمداً نبي يوحى إليه وأنا نبي يوحى إلي فلحق بمكة[3]، فمات كافراً[4]. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ

---

(1) سورة الفرقان (25)، الآية: 24.
(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 49.
(3) القرطبي في تفسيره: 12/ 110.
(4) تحكي المراجع بأن عبد اللَّه بن سعد بن أبي السرح أسلم وحسن إسلامه، وشارك في الفتوح الإسلامية في أفريقية وغيرها، وتوفي بعسقلان سنة سبع وثلاثين هجرية. الاستيعاب: 2/ 918.

ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿15﴾﴾ أي بعد الحياة والخلق الحسن والصورة الحسنة ميتون عند انقضاء آجالكم. قرأ شهيب العقلي: لمائتون ـ بالألف[1] ـ والميت والمائت الذي لم تفارقه الروح وهو سيموت والميت بالتخفيف الذي فارقته الروح فلذلك لم يخفف لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿30﴾﴾[2]. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿16﴾﴾ يعني من قبوركم للجزاء والحساب. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ أي سبع سماوات سميت طرائق لأن كل شيء فوق شيء فهو طريقة يقال طارقت نعلي إذا ركبت جلداً على جلد، ويقال سميت طرائق لأنها طرق الملائكة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ﴾ أي وما كنا عن حفظ السموات وعن إنزال المطر على العباد وقت الحاجة غافلين، ولو جازت الغفلة علينا لسقطت السمٰوات بعضها على بعض. قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أنزلنا المطر من السماء بقدر الحاجة إليه، أي بقدر ما يكفيكم للمعيشة وقيل بقدر يعلمه اللّٰه. وقوله تعالى: ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعلناه ساكناً ومستقرة في الأرض مثل العيون والغدران والركايا. وعن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «**أنزل اللّٰه من الجنة خمسة أنهار سيحون وهو نهر الهند، وجيحون، وهو نهر بلخ ودجلة والفرات وهما نهرا العراق، والنيل وهو نهر مصر أنزلها اللّٰه من عين واحدة من أسفل درجة من درجاتها على جناحي جبريل[3] وذلك قوله تعالى:** ﴿فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾».

فإذا كان عند خروج ياجوج وماجوج أرسل اللّٰه جبريل فرفع من الأرض القرآن والعلم والحجر الأسود وهذه الأنهار الخمسة، فيرفع ذلك إلى السماء فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ﴾ فإذا رفعت هذه الأشياء من الأرض فقد أهلها خير الدين والدنيا قوله تعالى: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ﴾ أي أخرجنا لكم بذلك المطر بساتين من نخيل وكروم وإنما خصها

---

(1) الثعلبي في تفسيره، الكشف والبيان: خ.
(2) سورة الزمر (39)، الآية: 30.
(3) الثعلبي في المرجع نفسه.

بالذكر لأنها أشراف الأثمار. وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أي في البساتين فواكه كثيرة سوى النخيل والأعناب ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ بإباحة اللَّه لكم تأكلونها صيفاً وشتاء. قوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ أي وأنبتنا بذلك المطر شجرة وهي الزيتونة تخرج من جبل سيناء، قيل معنى سيناء: البركة كأنه قال من جبل البركة. وقرىء طور سَيناء بفتح السين[1] واختلفوا في المراد بالطور قال بعضهم: هو الجبل الذي ناجى موسى ربه عليه[2]. يقال: إن أصل شجرة الزيتون من ذلك الجبل أي أول ما نبتت فيه. وقال بعضهم: هو جبل بالشام[3] كثير الأشجار والثمار. قيل إن الزيتونة أول شجرة نبتت في الأرض بعد الطوفان، قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ قرأ أكثر القراء تنبت بفتح التاء وضم الباء أي بثمار فيها الدهن يعني الزيت. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الباء[4] ومعناه بمعنى الأول والباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلدُّهْنِ﴾ للتعدي يقال أنبته ونبت به ونبت الشيء وأنبت بمعنى واحد قال الشاعر[5]:

رأيتُ ذَوِي الحاجات حول بيوتهم ∴ قطيناً لهم حتى إذا أنبت البقل[6]

ويجوز أن تكون الباء زائدة على قراءة من ضم التاء. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[7]. قوله تعالى: ﴿وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ يعني الأدام لأن الزيت إدام يصبغ به الخبز يقال: صبغ وصباغ كما يقال لُبس ولباس.

---

(1) نسب ابن مجاهد في كتابه السبعة: ص 445 هذه القراءة إلى عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي.
(2) ذكره الطبري في تفسيره: 15/ 19 عن ابن عباس.
(3) وذكره الطبري في المرجع نفسه عن ابن زيد.
(4) ذكر هذه القراءة ابن مجاهد في المرجع نفسه.
(5) زهير بن أبي سلمى المزني، ديوانه: ص 111، الدار القومية ـ القاهرة 1964م.
(6) ينظر معاني القرآن للفراء: 2/ 233، وهو من شواهد المحتسب لابن جني: 2/ 89، ومغني اللبيب: 1/ 102، وشرح شواهد المغني: 1/ 314، واللسان لابن منظور: قطن.
(7) سورة البقرة (2)، الآية: 195.

قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿21﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿22﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿23﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿24﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿25﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿26﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿27﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً﴾ أي لعظة ودلالة على وحدانيتنا لو اعتبرتم واستدللتم نسقيكم مما في بطونها يعني اللبن، ولكم فيها منافع كثيرة من الأولاد والأوبار والأصواف والأشعار والركوب على الإبل ومنها تأكلون يعني لحومها. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿22﴾﴾ أي تحملون على الإبل في البر وعلى السفن في البحر وهذا كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] يقال إن الله تعالى جعل للناس مركبين مركباً ليناً ليبس البر ومركباً يابساً للين البحر. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ أي أرسلناه إليهم ليدعوهم إلى عبادتنا ﴿فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ عبادة غيره ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ من قومه أي الأشراف منهم والرؤساء قالوا لسفهائهم ما هذا الذي يدعوكم إلى التوحيد إلا بشر مثلكم أي آدمي ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي يتقدم عليكم بدعوى النبوة ليكون له الفضل عليكم فتكونوا له تبعاً، ولو شاء الله أن يرسل إلينا رسولاً من عنده لأرسل ملائكة من عنده ما سمعنا بمثل هذه الدعوى في آبائنا الأولين ولا أرسل إليهم بشراً فهو إلا رجل به جنة أي قالوا ما نوح إلا رجل به جنون، فتربصوا به حتى حين، أي فانتظروا حتى يموت

(1) سورة الإسراء (17)، الآية: 70.

نستريح منه فلما يئس من إيمانه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿26﴾﴾ أي أعنّي عليهم بتكذيبهم إياي وجحودهم نبوتي، والمعنى انصرني بإهلاكهم جزاء لهم بتكذيبهم. قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي أرسلنا إليه جبريل وأمرناه أن يعلمه صنعة الفلك ليصنعه بمرأى منا فإذا جاء أمرنا بنجاتك وإهلاكهم ونبع الماء من تنور الخابزة. وعن علي رضي اللّه عنه إن معنى قوله تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي طلع الفجر. وقوله تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي احمل في السفينة من كل حيوان ذكراً وأنثى كما روي أن اللّه تعالى حشر إليه جميع الحيوان حتى أخذ من كل جنس زوجاً ويقرأ من كلٍ زوجين بالتنوين[1]. فعلى هذه القراءة يكون الفعل واقعاً على زوجين، وأما على القراءة الأولى فالفعل واقع على اثنين. قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ معناه واحمل فيها أهلك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي إلا من حق عليه العذاب منهم بكفره وهو ابنه كنعان وامرأته وأهله. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أي لا تسألني نجاة الذين ظلموا من أهلك إنهم مغرقون مع الأجانب.

قال اللّه تعالى:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿28﴾
وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿29﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ
﴿30﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿31﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿32﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿33﴾
وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿34﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا
أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿35﴾﴾.

---

(1) قال ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 445. قرأ حفص عن عاصم ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ منوناً. وقال: وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم (من كل زوجين) بلا تنوين.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ أي إذا اعتدلت في السفينة راكباً واستقرّ بك وبمن معك الفلك في الماء ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ أي أنزلني من السفينة موضعاً مباركاً. وقال بعضهم أراد به الإنزال في السفينة وهو الأقرب لأنه إنما أمر بهذا الدعاء في حال استوائه على السفينة فاقتضى له السفينة هي المنزل دون منزل آخر. وقراءة العامة ـ مُنزلاً ـ بضم الميم على المصدر أي إنزالاً مباركاً، وقرأ أبو بكر بفتح الميم وكسر الزاي أي موضعاً مباركاً[1]. قال مقاتل يعني بالبركة أنهم توالدوا وكثروا وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ أي أنت خير المنزلين في الدنيا والآخرة وهذا اللفظ سنة لكل من أراد أن ينزل منزلاً. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ معناه: إن في أمر نوح والسفينة وهلاك أعداء اللّه لدلالات على قدرة اللّه ووحدانيته ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي وما كنا إلا مبتلين بإرسال الرسل إليهم أي مختبرين إياهم نرى طاعة المطيعين، ومعصية العاصين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿31﴾﴾ أي ثم خلقنا من بعد هلاك قوم نوح قوماً آخرين يعني عاداً ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني هوداً عليه السلام فإن أول نبي بعد نوح هو هود عليه السلام فقال لهم ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ إلى آخر الآية ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي جحدوا البعث والنشور ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي متعناهم في الدنيا وأعطيناهم من نعيم العيش ووسعنا عليهم ومتعناهم. قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾ أي قال أشراف قوم هود ورؤساؤهم الذين جحدوا البعث والنشور ومتعناهم في الحياة الدنيا ﴿مَا هَٰذَآ﴾ أي ما هو إلا بشر مثلكم يأكل من الطعام الذي تأكلون منه ويشرب من الذي تشربون فليس هو أولى بالرسالة منكم. قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿35﴾﴾.

قال اللّه تعالى:

---

(1) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 445، ومكي بن أبي طالب في الكشف: 2/ 128.

﴿ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿36﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ
بِمَبۡعُوثِينَ ﴿37﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿38﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿39﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿40﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ
فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿41﴾ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿42﴾ مَا
تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿43﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ
فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿44﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿45﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿46﴾
فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿47﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿48﴾
وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿49﴾ ﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿36﴾ ﴾ معناه: لئن أطعتم آدمياً مثلكم إنكم إذاً لمبعوثون وهذا القول منهم دليل على غاية جهلهم حيث عبدوا أصناماً لا تضر ولا تنفع ولم يعدوا ذلك خسراناً. والأصنام أجسام مثلهم بل دونهم ثم عدوا عبادة اللَّه وطاعة هود خسراناً، فقالوا: أيعدكم أنكم إذا متم وصرتم تراباً وعظاماً بالية أن تخرجوا من قبوركم، هيهات هيهات أي بعداً بعداً لما تخافون من البعث بعد الموت وهذه كلمة استنكار واستبعاد، ويقرأ هيهات بسبع قراءات[1] بالنصب والكسر والرفع والتنوين وغير التنوين والسكون فمن نصب جعلها مثل: أين وكيف، وقيل لأنهما أداتان مثل خمسة عشر وبعلبك، ومن رفعه جعله مثل: منذ وقط وحيث، ومن كسره جعله مثل: أمس. قال الشاعر[2]:

تذكَّرت أياماً مضين من الصبا ∴ وهيهات هيهاتاً إليك رجوعها

---

(1) يراجع النحاس في إعراب القرآن: 3/ 113، وابن جني في المحتسب: 2/ 90، والفراء في معاني القرآن: 2/ 235، والقرطبي في تفسيره: 2/ 122.

(2) عبد اللَّه بن محمد الأحوص الأنصاري، شاعر هجاء من طبقة جميل، عاصر جرير، والفرزدق، له ديوان شعر مطبوع، سكن المدينة، ثم قدم دمشق وتوفي بها سنة مائة وخمس من الهجرة. الشعر والشعراء: ص 204.

لقد باعدت أم الحمارس دارها ∴ وهيهات من أم الحمارس هيهات

ومعنى هيهات: بعد الأمر جداً حتى امتنع وهو اسم سمي به الفعل وهو بعد كما قالوا صه بمعنى اسكت ومنه لا تفعل وليس له اشتقاق وفيه ضمير مرتفع عائد إلى قوله تعالى: ﴿تُخْرَجُونَ﴾ والتقدير: هيهات أي هو الإخراج. والمعنى بعد إخراجكم الوعد الذي توعدون. قال أبو عمرو: إذا وقفت فقل: هيهاه بالهاء، وقال الفراء: كان الكسائي يختار الوقف عليها بالهاء، وأنا أختار التاء لأنها ليست ها التأنيث[1]، وروي عن سيبويه أنه قال: هي بمنزلة علتاه يعني في التأنيث فإذا كان كذلك كان الوقف بالهاء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي قالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا التي نحن فيها نموت ونحيا أي يموت قوم ويحيا قوم آخرون وما نحن بمبعوثين بعد الموت. وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي قالوا ما هو إلا رجل اختلق على اللَّه كذباً بأنه رسول إلينا وأنا نبعث ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿38﴾﴾ أي بمصدقين له فيما يقول. قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿39﴾﴾ أي قال هود رب أعني عليهم بتكذيبهم إياي ﴿قَالَ﴾ اللَّه تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ على تكذيبهم أي عما قليل من الزمان والوقت يعني عند الموت وعند نزول العذاب بهم ليصبحن نادمين على الكفر والتكذيب فأخذتهم الصيحة بالحق أي صاح بهم جبريل صيحة واحدة ماتوا عن آخرهم. وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي باستحقاقهم العذاب بكفرهم. وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي صيرناهم كغثاء السيل وهو ما يكون على وجه السيل من القصب والحطب والحشيش والأشجار اليابسة المتفتة البالية، إذا جرى السيل رأيت ذلك مخالطاً زبد السيل. والمعنى صيرناهم هلكى فيبسوا كما يبس الغثاء من نبت الأرض. وقوله تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي بعداً من رحمة اللَّه للقوم الكافرين. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿42﴾﴾ أي خلقنا من

---

(1) معاني القرآن: 2/ 236.

بعد هلاك قوم هود أهل أعصار آخرين فسكنوا ديارهم إلى أن هلكوا، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿43﴾﴾ أي لا تموت أمة قبل أجلها ولا يتأخر موعدهم عنه وقوله تعالى: ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ من ههنا صلة. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي بعضها في أثر بعض مترادفين كلما جاء قوماً رسولهم كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً في الهلاك والتعذيب وجعلناهم أحاديث لمن بعدهم من الناس يتحدثون بأمرهم وشأنهم ويتمثل بهم في الشر. قرأ ابن كثير وأبو عمرو ـ تتراً بالتنوين ـ وقرأ الباقون بغير تنوين[1] مثل: سكرى وشكوى فمن نوَّن كان الألف فيه كالألف في رأيت زيداً وعمراً فإذا وقفت كانت ألفاً يعني يوقف عليه بالألف ومن لم ينون كتبها بالياء[2]. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿45﴾﴾ ظاهر المعنى. وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿46﴾﴾ أي تكبروا عن الإيمان بالله وعبادته وكانوا قوماً قاهرين للناس بالبغي والتطاول عليهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾[3] وقال مقاتل: يعني قوله: ﴿قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي متكبرين عن توحيد الله. قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ أي ليس لهما فضل علينا وقومهما لنا عابدون يعني بني إسرائيل لنا مطيعون ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿48﴾﴾ بتكذيبهما. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿49﴾﴾ يعني التوراة لكي يهتدوا به من الضلالة.

قال الله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿50﴾ يَـٰٓأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَـٰتِ وَاعْمَلُوا صَـٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿51﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿52﴾ فَتَقَطَّعُوٓا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿53﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿54﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿55﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿56﴾﴾.

---

(1) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 446.
(2) ينظر ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 90، وابن جني في المحتسب: 2/ 90.
(3) سورة القصص (28)، الآية: 4.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ أي جعلنا ولادة عيسى من غير أب دلالة على التوحيد والبعث ولم يقل آيتين لأن معنى الآية فيهما واحد، وقيل معناه: كل واحدة منهما آية كما قال: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾[1] أي آتت كل واحدة أكلها. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ﴾[2] ولم يقل أرجاس، وقيل معناه جعلنا شأنهما واحداً لأن عيسى ولد من غير أب وأمه ولدته من غير مسيس ذكر. قوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي جعلناهما يأويان إلى بقعة مرتفعة ذات استواء واستقرار وماء جار ظاهر والربوة: المكان المرتفع من الأرض ـ واختلفوا في هذه البقعة ـ قال قتادة: يعني بيت المقدس، وهو أرفع موضع من الأرض وأقرب موضع إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. وقال أبو هريرة: هي الرملة بأرض فلسطين، وروى الحسن وابن المسيب أنها دمشق[3]. وقوله تعالى: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي مستوية يستقر عليها ساكنوها وهي مع ذلك ساحة واسعة. والمعين: الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون، يقال عانت الركية إذا سالت بالماء. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ قال الحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي ومقاتل: الخطاب في أول هذه الآية لمحمد صلى اللَّه عليه وسلم وحده إلا أنه ذكره بلفظ الجماعة لما في الخطاب من تضمين أن الرسل جميعاً أمروا بهذا الخطاب، وقيل لهم كلوا من الطيبات أي من الحلال، أمرهم اللَّه أن لا يأكلوا إلا حلالاً طيباً. قال الحسن: أما واللَّه ما عنى به أصغركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكنه قال: انتهوا إلى الحلال منه. وقوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي اعملوا ما أمركم اللَّه به وأطيعوه في أمره ونهيه. وقوله تعالى: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ظاهر المعنى.

وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**إن اللَّه طيب لا يقبل إلا**

(1) سورة الكهف (18)، الآية: 33.
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 90.
(3) تنظر هذه الأقوال في تفسير الثعلبي: خ، وفي معالم التنزيل للبغوي: 4/ 149، والكشاف للزمخشري: 2/ 33.

طيباً، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾»[1] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب يا رب مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له[2]. ويروى أن عيسى كان يأكل من غزل أمه، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول: «**جعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذل والصغار على من خالفني**»[3]. فبين أن رزقه من الغنيمة وأطيب الطيبات الغنيمة. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي دينكم ودين من قبلكم دين واحد وقيل جماعتكم وجماعته من قبلكم جماعة واحدة كلكم عباد الله ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ أي فاتقوا عذابي وافعلوا ما أمرتكم به واتركوا ما نهيتكم عنه. قرأ الكوفيون: وإن هذه أمتكم ـ بكسر الهمزة على الابتداء ـ وقرأ الباقون: بفتحها مع التشديد، وخفف النون ابن عامر مع فتح الهمزة[4]، فمن فتح الهمزة وشدّد النون فمعناه: وبأن هذه، وقيل: واعلموا أن هذه أمتكم أمة واحدة أي ملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام، ومن خفف مع الفتح جعل أن صلة وتقديره: وهذه أمتكم، وقيل تكون مخففة من الثقيلة كقوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5]. قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ معناه: أنتم أهل ملة واحدة فلا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا فتقطعوا أمرهم بينهم ﴿زُبُرًا﴾ أي فرقاً فرقاً وقيل معناه: كتباً مختلفة ديوانها فكفروا بما سواها كاليهود آمنوا

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 172.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي من حديث أبي هريرة: 7/ 100، باب: كل نوع من المعروف صدقة.
والبيهقي في الشعب: 2/ 55، رقم: 1159، وأحمد في مسنده: 2/ 328.
(3) رواه أحمد في المسند: 3/ 50، والبيهقي في الشعب: 2/ 75، رقم: 1199، باب التوكل والتسليم، والهيثمي في المجمع: 5/ 267.
(4) تراجع هذه القراءات في كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص 446، وابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 91 ـ 92، وأبي جعفر النحاس في إعراب القرآن: 3/ 115. والفراء في معاني القرآن: 2/ 237.
(5) سورة يونس: 15، الآية: 15.

بالتوراة وكفروا بالإنجيل والقرآن والنصارى آمنوا بالإنجيل وكفروا بالفرقان. وقرىء - زبَراً - بفتح الباء ومعناه: قطعاً[1] وجماعات، ومنه زبر الحديد قطعه وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي كل طائفة بما عندهم من الاعتقاد معجبون، فاتركهم في ضلالتهم وجهالتهم إلى أن يأتيهم ما وعدوا به من العذاب، ويقال: إلى أن يموتوا فيظهر لهم الحق من الباطل عند المعاينة في القيامة وقيل كل حزب من المشركين واليهود والنصارى بما عندهم من الدين راضون يرون أنهم على الحق ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (54)﴾ أي في ضلالتهم وجهالتهم وغفلتهم حتى يروا العذاب بالسيف أو بالموت يعني كفار مكة. قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (55)﴾ أي أيظنون أن إمدادنا إياهم بالمال والبنين مسارعة منا لهم في الخيرات لكرامتهم ومنزلتهم عندنا بل لا يشعرون أن ذلك استعلاج لهم وإملاء إلى حين.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (57) وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ (60) أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (62) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ (63) حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ (64) لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ (67)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (57)﴾ أي حذرون من عذابه. والإشفاق: الخوف يقال أنا مشفق من هذا الأمر أي خائف منه. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58)﴾ أي يصدقون بالقرآن أنه من عند الله ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59)﴾ معه غيره. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي والذين يتصدقون بالأموال ويعملون ما عملوا من

---

(1) الزجاج في معاني القرآن: 4/ 16.

الصالحات وقلوبهم فزعة خائفة أن لا يقبل اللّه منهم ذلك. قال مجاهد: المؤمن ينفق ماله وقلبه وجل. وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ الآية. فقال: «**يا ابنة الصدِّيق: الذين يصومون ويخافون أن لا يقبل منهم، ويصلون ويفرقون أن لا يقبل منهم، ويتصدقون ويفرقون أن لا يقبل منهم**»[1]. وقال الحسن: والذين يؤتون ما آتوا أي يعملون ما عملوا من البر وهم يرون أن ذلك لا ينجيهم من عذاب اللّه[2]. قال الزجاج: وقلوبهم وجلة، لأنهم إلى ربهم راجعون أي لأنهم يوقنون برجوعهم إلى اللّه[3] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي أهل هذه الصفة هم الذين يسارعون في الأعمال الصالحة. ﴿وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ أي إليها سابقون يكون لها بمعنى إليها كقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾[4] أي إليها، وقيل معناه: وهم لها سابقون في الجنة أي من أجل مسارعتهم في الخيرات سابقون في الجنة. قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ﴾ أي إلا طاقتها من العمل فمن لم يستطع أن يصلي قائماً فليصل قاعداً، ومن لم يستطع أن يصلي قاعداً فليصل مضطجعاً.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي وعند ملائكتنا المقربين كتاب يشهد لكم وعليكم بالحق يريد به صحائف الأعمال، وقيل: يعني اللوح المحفوظ فيه كل شيء مكتوب سبق في علم اللّه. ﴿يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ﴾ أي يبين الصدق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون من ثواب أعمالهم، ولا يزاد على سيئاتهم. قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي بل قلوب أهل مكة في غفلة وجهالة من هذا الذي تقدّم ذكره من أعمال البر، وقيل من القرآن. قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ﴾ خبيثة لا يرضاها اللّه من المعاصي والخطايا ﴿مِّن دُونِ﴾ أعمال المؤمنين ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾. ويجوز أن يكون قوله: ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ إشارة إلى الكتاب الذي ينطق بالحق، أي بل قلوبهم في غفلة من ذلك الكتاب، وأعمالهم التي عملوها

---

(1) رواه أحمد في المسند: 6/ 205، والبيهقي في الشعب: 1/ 477، رقم: 762، باب في الخوف من اللّه تعالى.

(2) رواه البيهقي في الشعب: 1/ 478، رقم: 763.

(3) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 17.

(4) سورة الزلزلة (99)، الآية: 5.

محصاة فيه، ولهم أعمال من دون ما هم عليه لا بد أن يعملوها ولهم فيما سبق في علم اللَّه أنهم يعملون لغمرة الغفلة التي تغطي القلوب، وتغلب عليها. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿64﴾﴾ أي حتى إذا أخذنا أغنياءهم ورؤساءهم بالقتل يوم بدر، وبما يرون من العذاب وقت المعاينة. وقال الضحاك: الجوع حين دعا عليهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال: «**اللَّهم اشدد وطأتك على مضر، اللَّهم سنين كسني يوسف**»[1]، فابتلاهم اللَّه بالقحط حتى أكلوا العظام والجيف والكلاب والأولاد والعلهز[2]. قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿64﴾﴾ أي يصيحون ويصرخون بالتوبة، وقيل يجزعون ويستغيثون وأصل الجؤار: رفع الصوت بالتضرع. قوله تعالى: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ وعيد لهم كالاستهزاء. مثل قوله: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ أي لا تمنعون من عذابنا. قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي تقرأ عليكم في الدنيا يعني القرآن ﴿فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ أي تولون مدبرين، وتعرضون عن الإيمان به. وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ﴾ أي متعظمين ببيت اللَّه ـ الكعبة وقيل بحرم اللَّه لأنه لم يظهر عليكم أحد. فالكناية تعود على الحرم، وهو كناية عن غير مذكور. والمعنى: تستكبرون في البيت الحرام لأمنهم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم. قوله تعالى: ﴿سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ أي سُمّاراً يهجرون القرآن والنبي صلى اللَّه عليه وسلم. والهجر: هجر الحق بالإعراض عنه، وقد يقال هجر المريض: إذا هذى في كلامه. والسمر: الحديث بالليل، كانوا يتحدثون حول الكعبة في أوائل الليالي بالطعن في النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وفي الإسلام، والمسلمين، وإنما وحّد سامراً لأنه في موضع المصدر. قال الحسن ومقاتل: المعنى تهجرون القرآن، وترفضونه فلا تلتفون إليه كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، ويجوز أن يكون معناه: من الهجر وهو الإعلام القبيح. يقال: هجر هجراً إذا قال غير الحق، وهو قول السدي والكلبي وقتادة ومجاهد. وكانوا إذا دخلوا البيت سبوا النبي

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 9/ 92، رقم: 4560، كتاب التفسير.
(2) العلهز: كانوا يأخذون الوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه.
(3) سورة الأنبياء (21)،الآية: 13.

صلى اللَّه عليه وسلم، والقرآن، ويقال أيضاً في هذا المعنى: أهجر إهجاراً: إذا أفحش في منطقه، ومنه قراءة نافع: ﴿تَهْجُرُونَ﴾ بضم التاء[1]، أي تفحشون في الكلام، وتقولون الخنا، وذلك أنهم كانوا يسبون النبي صلى اللَّه عليه وسلم. والهجر: هو الفحش من الكلام، يقال في المثل: من كثر هُجره وجب هَجره.

قال اللَّه تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ (70) وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (72) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ (74)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ أي أفلم يروا القرآن في حسن لفظه ونظمه وكثرة فوائده ومعانيه مع سلامته من التناقض والاختلاف فيعلموا أنه من عند اللَّه. ويقال معناه: أفلم يدبروا القرآن فيعرفوا ما فيه من العبر والدلالات على صدق النبي صلى اللَّه عليه وسلم. وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ معناه: أم جاءهم أمر بديع لم يأت آباءهم، أي ألم يعلموا أن الرسل قد أرسلوا إلى ما قبلهم. فبيَّن اللَّه تعالى أنهم أرسل إليهم كما أرسل إلى من قبلهم، فالمعنى أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ وأنكروه وأعرضوا عنه، ويحتمل أن يكون معناه: بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، فأنكروه تكون أم بمعنى بل. قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ﴾ بالصدق والأمانة قبل إظهار الدعوة. قال ابن عباس: كانوا يعرفون محمداً صلى اللَّه عليه وسلم صغيراً وكبيراً، صادق اللسان، معروفاً بالعفاف، والأمانة، وفياً بالعهد وفي هذا توبيخ

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 92، التيسير في القراءات السبع: ص 159.

لهم بالإعراض عنه بعدما عرفوا صدقه، وأمانته. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي قالوا إن محمداً مجنون ليبعدوا الوجوه ويصرفوها عنه. وقد كذبوا في ذلك فإن المجنون يهذي، ويقول ما لا يعقل. بل جاءهم النبي صلى اللّه عليه وسلم بالحق أي بالقرآن الذي لا تخفى صحته وصدقه على أحد، وأكثرهم للحق كارهون. قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾. قال مقاتل والسدي: الحق الذي هو اللّه[1]، والمعنى: لو جعل مع نفسه كما يحبون شريكاً لفسدت السموات والأرض ومن فيهن.

قال الفراء والزجاج: ويجوز أن يكون المراد بالحق القرآن[2] أي لو أنزل بما يحبون من جعل شريك، وإثبات إلٰهية لفسدت السمٰوات والأرض ومن فيهن. كقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[3] وقيل معناه: ولو وضع الحق على أهوائهم لهلك أهل السمٰوات والأرض لأن الحق يدعو إلى المحاسن، والهوى يدعو إلى القبائح، ولو جعل الهوى متبوعاً لبنيت الأمور على الجهالات، والظلم، والضلالات فخلط الأمور أقبح اختلاط، ولم يوثق بالوعد والوعيد فأدى ذلك إلى الفساد لأن الهوى: هو ميل النفس إلى المشتهى من غير داعي الهوى. قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ أي أعطيناهم القرآن الذي فيه عزّهم وشرفهم وأمروا بالعمل بما فيه فهم عن القرآن معرضون. فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾[5] والمعنى: تولّوا عما جاءهم به من شرف الدنيا والآخرة ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ معناه: أم تسألهم على تبليغ الرسالة جعلاً فيتثاقلون لأجل ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ أي ما أعدّ اللّه لك من الأجر والثواب في الآخرة خير من الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي أفضل المعطين. وأصل الخرج والخراج: الضريبة والغلة كخراج العبد والأرض. وقال

(1) ينظر البغوي في معالم التنزيل: 4/ 155.
(2) معاني القرآن: 2/ 239، معاني القرآن وإعرابه: 4/ 19.
(3) سورة الأنبياء (21)، الآية: 22.
(4) سورة الزخرف (43)، الآية: 44.
(5) سورة الأنبياء (41)، الآية: 10.

النضر بن شميل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الفرق بين الخرج والخراج فقال الخراج: ما لزمك، ووجب عليك آداؤه، والخرج: ما تبرعت به من غير وجوب[1]. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ أي إلى طريق قائم يرضاه اللّه وهو الإسلام. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ معناه: وإن الذين لا يصدقون بالقيامة عن دين الحق لناكبون، أي مائلون عادلون ومنه النَّكْبَاء. وقيل معناه: إنهم في الآخرة عن صراط جهنم يسقطون يمنة ويسرة.

قال اللّه تعالى:

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ أي لو رحمناهم وكشفنا ما بهم من الشدة التي أصابت أهل مكة من الجوع والقحط الذي أخذهم سبع سنين للجوا في طغيانهم، أي لتمادوا في ضلالتهم يتحيّرون ويتردّدون. وقيل معناه: لو رحمناهم في الآخرة ورددناهم إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر كما كانوا. قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[2]. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ يعني الجوع الذي أصابهم بدعوة النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**اللّهم سنين كسني يوسف**». فجاعوا حتى أكلوا الوبر، والعظام، والجيف، والكلاب، والوبر بالدم. ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ أي فما خضعوا لربهم، وما تضرعوا، ولا انقادوا لأمر اللّه، وما ذعنوا إليه في الدعاء، ولو كشف عنهم العذاب لم يشكروا. والاستكانة: طلب السكون، والتضرع: طلب كشف البلاء من القادر عليه. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم

---

(1) الثعلبي في تفسيره: ح بتصرف. ـ والقرطبي في تفسيره: 12/ 142 بتصرف.
(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 28.

بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قيل: إنه القتل يوم بدر، وقيل: إنه عذاب الآخرة ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي آيسون متحيرون. والإبلاس: الإياس مع التحير، وقيل: لما أصابهم من الجوع ما أصابهم، جاء أبو سفيان إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال: أنشدك اللّه والرحم ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: «بلى» قال: فإنك قد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع. فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[1]. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي خلق لكم السمع تسمعون به، والأبصار تبصرون بها، والقلوب تعقلون بها، فشكركم فيما صنع إليكم قليل، والأفئدة: هي القلوب. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلقكم في الأرض ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي تجمعون إلى موضع الحساب.

قال اللّه تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿80﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿81﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿82﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿83﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿84﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿85﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿86﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿87﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿88﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿89﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي يحييكم في أرحام أمهاتكم، ويميتكم عند انقضاء آجالكم ﴿وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي له ملك اختلافها ومرورها يوماً بعد ليلة، وليلة بعد يوم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أدلة اللّه تعالى فتستدلون بها على وحدانيته. قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿81﴾﴾ أي ألم يعقلوا أدلتنا، ولم يستدلوا بها علينا، بل كذبوا بالبعث كما كذب آباؤهم قبلهم،

---

(1) الواحدي في أسباب النزول: ص 260، والقرطبي في تفسيره: 12/ 143.

والمعنى: كذبت قريش بالبعث مثل ما كذب آباؤهم الأولون ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ٨٢﴾ بعد الموت. قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ﴾ أي خوفنا بهذا الذي تخوفنا به من قبل أن تخوفنا به ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا الذي تخوفنا به يا محمد إلا أحاديث الأولين، قل لهم يا محمد ﴿لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ﴾ من الخلق والعجائب؟ أجيبوا إن كنتم تعلمون خالقها، ثم أجاب اللَّه عنهم لما علم أنهم لا يجيبون فقال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ قل لهم يا محمد ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾ فتستدلون على أن من له ملك السمٰوات والأرض، وما فيهما قادر على البعث والنشور، فإن من ملك الأرض ومن فيها، ملك إنشاءها بعد هلاكها قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧﴾ عقابه على إنكار البعث، ومن قرأ سيقولون للَّه فمعناه: كأنه قال: لمن السمٰوات؟ فيقال للَّه[1]. قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي من الذي له خزائن كل شيء، وهو يغيث ويمنع من السوء، ولا يمنع منه من أراد به سوءاً أجيبوا إن كنتم تعلمون؟ سيقولون للَّه ملكوت كل شيء وهو الذي يجير ولا يجار عليه، قل لهم يا محمد: ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ أي كيف تصرفون عن الحق إلى ما ليس له أهل ولا حقيقة وقد ألقى إليكم حقائق الأدلة؟ والمعنى بقوله ﴿فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾ أي كيف يخيل لكم الحق باطلاً، والصحيح فاسداً؟

قال اللَّه تعالى:

﴿بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ٩٠ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾.

---

(1) ينظر محيسن: المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر: 2/ 64.
وابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 2/ 93.
الفراء في معاني القراء: 2/ 240.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي جئناهم بالحق، وبيّناه لهم. يعني أتيناهم بالتوحيد، والقرآن ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يضيفون إلى اللَّه من الولد والشريك. قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ هذا رد على اليهود في قولهم: عزير ابن اللَّه، وعلى النصارى في قولهم: المسيح ابن اللَّه، وعلى من قال من المشركين: الملائكة بنات اللَّه ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ رد على عبدة الأوثان. وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾ معناه: لو كان معه آلهة لانفرد كل إلّه بخلقه لأنه لا يرضى أن يضاف خلقه وإنعامه إلى غيره ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي لطلب بعضهم قهر بعض فلم ينتظم أمرهما كما لا ينتظم أمر بلد فيه ملكان قاهران. قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي تنزيهاً للَّه ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من اتخاذ الولد والشريك ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ من خفض جعله نعتاً للَّه ومن رفعه كان خبر مبتدأ محذوف. تقديره: هو عالم. فقراءة الخفض هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، وابن عامر، وقراءة الباقين بالرفع[1]. ومعنى الآية: عالم ما غاب عن العباد، وما علمه العباد ﴿فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ معناه: قل يا محمد يا رب إن تريني ما يوعدون من العذاب والنقمة يعني القتل يوم بدر، وقيل معناه: قل يا محمد يا رب إن تريني ما يوعدون من العذاب فلا تجعلني منهم. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ أي نحن قادرون على تعذيبهم لكن الإمهال لحكمة تقتضي ذلك. قوله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يعني بالإحسان الإعراض والصفح، وبالسيئة أذى المشركين إياه. وهذا قبل الأمر بالقتال. والمعنى: اذكر لهم المقالة والحجة على طريق التلطف في الاستدعاء إلى الحق، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي بما يكذبون، وما يقولونه من الشرك فيجازيهم عليه.

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 447، مكي في الكشف: 2/ 131. الفراء، معاني القرآن: 2/ 241، النحاس، إعراب القرآن: 3/ 120.

(2) سورة طه (20)، الآية: 44.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (98)
حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا
إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا
أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102)
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ
النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (106)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97)﴾ أي أعتصم بك وأمتنع بك من همزات الشياطين، وهمزاتهم دفعهم الناس إلى المعاصي. ويقال: الهمزة: هي الوسوسة الشاغلة عن اللَّه تعالى ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (98)﴾ عند القراءة، وعند الموت، وعند الغضب. وعن الحسن أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قام إلى الصلاة فهلل وكبَّر ثلاثاً وقال: «**أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم من همزه ولمزه ونفثه ونفخه**». فسئل عن همزه، فقال: «**هو أخذ الشيطان للإنسان حتى يصرع أو يجن**»، وسئل عن نفثه فقال: «**هو الشعر**»، وسئل عن نفخه فقال: «**إنه هو الكبر**»[1]. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99)﴾ أي أخبر اللَّه أن هؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث يسألون الرجعة إلى الدنيا عند معاينة الموت. والمعنى يعني: إذا عاين أحدهم الموت وأعوانه ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ إلى الدنيا، وإنما قال: ارجعون بلفظ الجماعة كأن اللَّه تعالى يخبر عن نفسه بما يخبر به عن الجماعة. في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾[2] وأمثاله، وكذلك العرب تخاطب الرجل الواحد بلفظ الجماعة كما يقول الرجل لآخر: أنتم تفعلون كذا، ونحن نفعل كذا. ومنه

---

(1) رواه أبو داود في سننه: 1/ 77، وابن ماجه في سننه: 1/ 265، دار إحياء الكتب العربية.
(2) سورة ق (50)، الآية: 43.

قوله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾[1]. قوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا﴾. قال ابن عباس معناه: أشهد أن لا إله إلاّ اللّه[2]، وأعمل بطاعة اللّه فيما تركت، أي فيما مضى من عمري. قال اللّه تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي لا يرجع إلى الدنيا، ولا يجوز أن يكون لعل في هذه الآية للشك لأنه لا معنى لذلك مع حرصه على الرجعة والنجاة من الموت والعذاب. وإنما المعنى: لكي أعمل صالحاً ـ وكلا ـ كلمة ردع وزجر وتنبيه أي لا يكون له ذلك. قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي إن مسألة الرجوع إلى الدنيا كلمة هو قائلها عند موته، ولا فائدة له في ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي من أمامهم حاجز وحجاب بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا، وهم فيه إلى يوم يبعثون، فالقبر حاجز وكل فصل بين شيئين برزخ.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ قال ابن عباس: يعني النفخة الأولى[3]، وقيل هي النفخة الثانية، وقوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾. قال الحسن: واللّه إن أنسابهم قائمة بينهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿34﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿35﴾﴾[4] ولكنهم لا ينتفعون بأنسابهم ولا يتعاطفون عليها فكأنهم لا أنساب لهم، وقيل معناه: لا تفاخر بينهم كما يتفاخرون في الدنيا، ولا يتساءلون عما يتساءل العرب في الدنيا من أي قبيل أنت؟ وقيل لا يسأل بعضهم بعضاً عن خبره وحاله كما كانوا في الدنيا لشغل كل واحد منهما بنفسه، ولا يسأل بعضهم بعضاً أن يحمل شيئاً من ذنوبه[5]. قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ يعني بالطاعات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ وقيل ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بكلمة التوحيد ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**لو وضعت السمٰوات السبع وما فيهن، والأرضون السبع وما فيهن، وما فوقهن، وتحتهن في كفة، وكلمة لا إله إلاّ اللّه في كفة لرجحت**

---

(1) سورة القصص (28)، الآية: 9.
(2) القرطبي في تفسيره: 12/ 150.
(3) البغوي في معالم التنزيل: 4/ 160.
(4) سورة عبس (80)، الآية: 34 ـ 35.
(5) تراجع هذه الأقوال في تفسير الثعلبي: خ.

بجميع ذلك»[1]. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ يعني بكلمة الشرك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ ظاهر المعنى. وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تنفخ وتضرب وجوههم النار، وقيل اللفح: هو الإحراق، يقال لفحته النار إذا أحرقته، وتأثير اللفح أعظم من تأثير النفخ، والنفخ مذكور في قوله تعالى: ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾[2]. قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ الكلوح: تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان. قال الحسن: تغلظ شفاههم، وترتفع شفته العليا وتنزل شفته السفلى، فتظهر الأسنان، فهو أقبح ما يكون. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**تشويه النار حتى تتقلص شفته العليا، فتبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته**»[3]. وقال ابن مسعود: ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط بالنار كيف بدت أسنانه، وقلصت شفتاه[4]. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿105﴾﴾ أي تجحدون. ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ بكثرة معاصينا ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ في الدنيا فلم نهتد. قرأ الكوفيون غير عاصم ـ شقاوتنا ـ بالألف وفتح الشين، وهما بمعنى واحد[5]، والشقوة: هي المضرة اللاحقة في العاقبة، والسعادة: هي المنفعة التي تكون في العاقبة، والشقوة بفتح الشين بمنزلة الفعلة الواحدة، وكسر الشين في هذا دال على الكثرة واللزوم.

قال اللَّه تعالى:

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿107﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿108﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿109﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿110﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿111﴾﴾.

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.
(2) سورة الأنبياء (21)، الآية: 46.
(3) ذكره أبو نعيم الأصفهاني: في الحلية 8/ 182، الحاكم في المستدرك: 2/ 414، السيوطي في الدر المنثور: 5/ 31.
(4) القرطبي في تفسيره: 12/ 152.
(5) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 448.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ أي من النار إلى الدنيا، فأعدنا إلى التكذيب، والمعاصي فإنا ظالمون. ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿108﴾﴾ اخسؤوا كلمة إهانة ومذلّة، وهي في الأصل لطرد الكلاب. تقول العرب: خسأت الكلب إذا طردته فخسئ أي تباعد. قال الزجاج معناه: تباعدوا تباعد سخط وابعدوا بعد الكلب[1] ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ في رفع العذاب عنكم، ولا تسألوني الخروج من النار، فإني لا أدفع عنكم العذاب، ولا أهونه عليكم. قال عبد اللَّه بن عمرو: إن أهل جهنم يدعون مالكاً أربعين عاماً، فلا يجيبهم، ثم يقول: إنكم ماكثون، ثم ينادون ربهم ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَـٰلِمُونَ ﴿107﴾﴾ فلا يجيبهم مقدار عمر الدنيا، ثم يرد عليهم ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فيئس القوم عند ذلك، ويختم على أفواههم فلا يتكلمون بعد ذلك أبداً، ويكون لهم زفير كزفير الحمير، وشهيق كشهيق البغال، وعوي كعواء الكلاب[2]. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي يقال لهم: إنه كان طائفة من عبادي يقولون: ربنا آمنا وهم الأنبياء والمؤمنون وهذا تعليل لاستحقاقهم العذاب بما عاملوا الأنبياء والمؤمنين باتخاذهم سخرياً. وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي تسخرون منهم، وتستهزئون بهم. قرأ نافع وحمزة والكسائي: بضم السين[3] ههنا وفي ـ ص[4] ـ وقرأ الباقون بكسرها، وهما لغتان، ولم يختلفوا في الزخرف[5] أنه بالضم لأنه بمعنى التسخير. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى﴾ أي حتى نسيتم ذكري لاشتغالكم بالسخرية منهم، وبالضحك، فنسب الإفساد إلى عباده المؤمنين، وإن لم يفعلوا لما أنهم كانوا السبب فيه. قوله تعالى: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ﴾ على آذائكم واستهزائكم

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 24.
(2) رواه الترمذي في سننه.
(3) التيسير في القراءات السبع: ص 160.
(4) سورة ص (38)، الآية: 63.
(5) سورة الزخرف (43)، الآية: 32.

﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ في الجنة. قرأ حمزة والكسائي: إنهم بالكسر على الاستئناف، وقرأ الباقون بالفتح[1] على معنى جزيتهم بالفوز.

قال اللَّه تعالى:

﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي كم لبثتم في القبور، وقيل المكث في الدنيا، يقول اللَّه تعالى ذلك للكفار يوم البعث فيرون أنهم لم يلبثوا إلا يوماً أو بعض يوم لعظم ما هم فيه من العذاب نسوا ذلك، وقيل: تلحقهم دهشة وحيرة فينسون ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ يعني الملائكة الذين كانوا يحفظون عليهم آجالهم. وقرأ ابن كثير ﴿قُل كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ على فعل الأمر[2]. قوله تعالى: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قال اللَّه لهم ما لبثتم إلا قليلاً في جنب لبثكم في العذاب. قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ أي أظننتم أنا خلقناكم للعبث تأكلون وتشربون وتفعلون ما تريدون، ثم تمرقون فلا تحشرون للحساب، ولا ترجعون إلى موضع لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نفعاً. وقال ابن عباس معناه: أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً كما خلقنا البهائم لا ثواب لها ولا عقاب عليها كما قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[3] أي أن يهمل كما تهمل البهائم. قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي تعالى عما يصفه الجهال به من الشرك والولد، وفعل العبث. وقوله تعالى:

---

(1) التيسير: ص 160.

(2) في التيسير: ص 160 ذكر الداني، ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 449.

(3) سورة القيامة (7)، الآية: 36.

﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي هو الملك الذي يحق له الملك لأنه ملك غيره، وكل ملك غيره فملكه مستعار له لأنه لا يملك إلا بتمليك اللّه إياه فكأنه لا يعتد بملكه في ملك اللّه. قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ سمي العرش كريماً لكثرة خيره بمن حوله. يقال فلان كريم أي كثير الخير. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ أي من يدع مع اللّه إلَهاً آخر لم ينزل بعبادته كتاب ولا بعث بها رسول ولا حجة له عليه فإنما حسابه عند ربه فهو يجازيه بما يستحق كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي لا يسعد من جحد وكذب ولا يأمن ولا ينجو من عذاب اللّه الكافرون. قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿118﴾﴾ يحتمل أن يكون أمراً للنبي صلى اللّه عليه وسلم بالاستغفار لأمته، ويحتمل أن يكون أمراً بالاستغفار بنفسه ليعلم غيره أنه أحوج إلى الاستغفار منه كما روي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**إني لأستغفر اللّه كل يوم سبعين مرة**»[2]، ويروى مائة مرة[3]، وعن ابن مسعود أنه مر بشاب مبتلى فقرأ في أذنه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ حتى ختم السورة فبرئ فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**ماذا قرأت في أذنه؟**» فأخبره فقال: «**والذي بعثني بالحق نبياً لو أن رجلاً مؤمناً قرأها على جبل لزال**»[4].

---

(1) سورة الغاشية (88)، الآية: 26.

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه تحقيق عبد الباقي: 2/ 1254، رقم: 1815 ـ 1816، دار الكتب العربية، عيسى الحلبي، مصر.

(3) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 23 ـ 24، باب استحباب الاستغفار والإكثار منه.

(4) ذكره البغوي بإسناده في معالم التنزيل: 4/ 164، وكذا القرطبي في تفسيره: 2/ 157. ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: 5/ 115.

سُورَةُ النُّورِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال اللَّه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ① ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ② ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ③﴾.

قال أبو بكر: سورة النور مدنية، وهي خمسة آلاف وستمائة وثمانون حرفاً، وألف وثلاثمائة وست عشرة كلمة، وأربع وستون آية.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾ أي هذه سورة أنزلنا جبريل بها، وقرأ طلحة بن مصرف ـ سورة ـ بالنصب[1] على معنى أنزلنا سورة أنزلناها، كما يقال: زيداً ضربته، ويجوز أن يكون نصباً على الإغراء، وفرضناها أي أوجبنا فيها أحكاماً، وفرضنا العمل فيها، ومن قرأ بتشديد الراء فهو على التكثير والمبالغة أي فصلنا أحكامها وفرضنا فيها فروضاً، قرأ الحسن ومجاهد وابن كثير وأبو عمرو: فرضناها بالتشديد[2] أي فصلناها وبيناها وأوحينا فيها أحكاماً وفرائض مختلفة عليكم، وعلى من بعدكم إلى يوم القيامة، وحجة من قرأ بالتخفيف. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ﴾[3] أي أحكام القرآن، والتشديد في فرضناها لكثرة ما فيها من الفرائض.

---

(1) ينظر الثعلبي في تفسيره: خ، والقرطبي في تفسيره: 2/ 158.
(2) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 452.
(3) سورة القصص (28)، الآية: 85.

قال مجاهد: يعني الأمر بالحلال والنهي عن الحرام[1]. قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي دلالات واضحات على وحدانيتنا وأحكامنا لكي تتعظموا فتعملوا بما فيها. قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾. قال سيبويه: ومعناه فيما فرض عليكم الزانية والزاني لأنه لولا ذلك لنصب بالأمر الذي في قوله ﴿فَٱجْلِدُوا۟﴾. والجلد في اللغة: ضرب الجلد يقال: جلده إذا ضرب جلده، كما يقال: رأسه، وبطنه إذا ضرب رأسه وبطنه. ومعنى الآية: الزانية والزاني: إذا كان حرين، بالغين، عاقلين، بكرين غير محصنين، فاضربوا كل واحد منهما مائة ضربة، فأما إذا كانا مملوكين فحد كل واحد منهما خمسون جلدة في الزنا لقوله تعالى في الإماء: ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[2]. يعني إذا عقلن فعليهن نصف حد الحرائر، وإذا كان الزاني محصناً فحده الرجم لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رجم ماعز بن مالك الأسلمي بزناه وكان قد أحصن[3].

وكان عمر رضي اللّه عنه يقول: إني لأخشى أن تطاول الأزمان أن يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب اللّه تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها اللّه، وقد قرأنا: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة، ورجم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، ورجمنا بعده، ولولا أن الناس يقولون: زاد عمر في كتاب اللّه، لكتبت ذلك على حاشية الكتاب[4]، وأجمعت الأمة على رجم المحصن إذا زنا إلا الخوارج. وأما الإحصان في هذا فهو: أن يكون حراً بالغاً عاقلاً مسلماً قد تزوّج قبل ذلك نكاحاً صحيحاً، ودخل بزوجته في وقت كانا جميعاً فيه على صفة الإحصان. وهذا قول أبي حنيفة ومحمد فإنهما يعتبران هذه الشروط السبعة

---

(1) القرطبي في تفسيره: 15/ 87.

(2) سورة النساء (4)، الآية: 25.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 14: 97، رقم: 6824، كتاب الحدود، وأبو داود في سننه عون المعبود: 12/ 99، رقم: 2396، وابن ماجه في سننه: 2/ 854، رقم: 2554 تحقيق عبد الباقي.

(4) رواه أبو داود في سننه: 4/ 143، رقم: 4418، كتاب الحدود، طبعة دار الحديث ـ القاهرة سنة 1988م.
رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 853، رقم: 2553، باب الرجم.

في إحصان الزنا، وأما أبو يوسف فلا يجعل الإسلام من شرائط الإحصان ولا يشترط كونهما على صفة الإحصان وقت الدخول في النكاح الصحيح، فيجعل الرجل البالغ العاقل المسلم محصناً بالدخول بزوجته الأمة والصبية والكتابية، ويجعل الزوجين الرقيقين محصنين بالدخول في النكاح الذي بينهما إذا أعتقا بعد ذلك، وإن لم يوجد الدخول في ذلك النكاح بعد العتق إلى زنى واحد منهما فهما غير محصنين عنده، وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه أنشدك اللَّه إلا قضيت لي بكتاب اللَّه، فقال الخصم: نعم يا رسول اللَّه، اقض بيننا بكتاب اللَّه، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**قل**»، قال: إن ابني كان عسيفاً[1] على هذا، فزنا بامرأته، وإني أخبرت: أن على ابني الرجم، فافتديته بمائة من الغنم، ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني مائة جلدة، وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب اللَّه: الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة، وتغريب عام، واغد يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها**»، قال: فغدا عليها، فاعترفت، فأمر بها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فرجمت[2]. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي لا تأخذكم بهما رحمة تمنع من إقامة الحد، ويحتمل بمقدار عدده وصفته، فإنه ليس من صفات المؤمنين، تضييع حدود اللَّه، وقوله تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: في حكم اللَّه، كقوله: ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾[3] أي في حكمه. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فلا تعطلوا الحدود. قرأ ابن كثير: رأفة ـ بفتح الهمزة[4] ـ، وإنما ذكر الضرب بلفظ الجلد لئلا يبرح ولا يبلغ به اللحم.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ فقال أكثرهم معناه:

---

(1) عسيفاً: أي أجيراً.

(2) رواه البخاري في صحيحه فتح الباري: 14/ 100، باب الاعتراف بالزنا، وابن ماجه في سننه: 2/ 852، رقم: 2549، باب حد الزنا.

(3) سورة يوسف (12)، الآية: 76.

(4) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 452.

لا تأخذكم الرأفة بهما، فتعطلوا الحدود ولا تقيموها شفقة عليهما، وهو قول عطاء، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والنخعي، والشعبي[1]. وقال الزهري، وسعيد بن المسيب، والحسن معناه: اجتهدوا في الجلد، ولا تخففوا كما يخفف حد الشرب بل يوجع الزاني ضرباً، ولا يخفف رأفة له كأنه قال: لا تأخذكم بهما رأفة فتخففوا الضرب بل أوجعوهما ضرباً[2]. قوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليكن إقامة الحد عليهما بحضرة جماعة من المؤمنين ليستفيض الخبر بهما، ويبلغ الشاهد الغائب، فيرتدع الناس عن مثله، ويرتدع المضروب، ويستحي، فلا يعود إلى مثل ذلك، واختلفوا في مبلغ عدد الطائفة، فقال الزهري: أقله ثلاثة، وقال ابن زيد: أربعة بعدد شهود الزنى، وقال قتادة: نفر من المسلمين[3]. وفي الخبر: «**إن إقامة حد في أرض خير لأهلها من مطر أربعين يوماً**»[4]. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، أنه قال: «**يا معشر الناس اتقوا الزنى فإن فيه ست خصال ثلاثاً في الدنيا، وثلاثاً في الآخرة، فاللاتي في الدنيا: يذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما اللاتي في الآخرة فيوجب السخط، وسوء الحساب، والخلود في النار**»[5]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**أعمال أمتي تعرض عليّ في كل جمعة مرتين، فاشتد غضب اللّه على الزناة**»[6]. وعن وهب بن منبه قال: مكتوب في التوراة الزاني لا يموت حتى يفتقر، والقواد لا يموت حتى يعمى[7]. فإن قيل لم بدأ اللّه بذكر الزانية قبل الزاني، فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى﴾ وبدأ بذكر السارق قبل ذكر السارقة فقال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ﴾؟ قيل: لأن الرجل هو الذي يسرق غالباً والمرأة هي التي [تكون] السبب في الزنى غالباً، فأخرج الخطاب في الموضعين على الأغلب. قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا

---

(1) الطبري في تفسيره: 10/ 90.
(2) الطبري في المرجع نفسه.
(3) تراجع هذه الأقوال في تفسير الطبري.
(4) أخرجه ابن ماجه في سننه: 2/ 848، رقم: 2538.
(5) أخرجه البيهقي في الشعب: 4/ 379، رقم: 5475، باب في تحريم الفروج.
(6) ذكره الثعلبي في تفسيره من حديث أنس بن مالك، وكذا القرطبي في تفسيره: 12/ 167.
(7) الثعلبي في المرجع نفسه.

زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في قوم من المهاجرين دخلوا المدينة، ولم يكن لهم مسكن، ولا مال يأكلون منه، ولا أهل يأوون إليهم، وفي المدينة نساء بغايا مسافحات يكرين أنفسهن، ويضربن الرايات على أبوابهن يكتسبن بذلك، وكان أولئك المهاجرون الفقراء يطلبون معايشهم بالنهار، ويأوون إلى المسجد بالليل، فقالوا: لو تزوجنا منهن، فعشنا معهن إلى يوم يغنينا الله منهن وقصدوا أن يتزوجوهن وينزلوا منازلهن، ويأكلوا من كسبهن، فشاوروا النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، فأنزل الله هذه الآية[1]، نُهوا أن يتزوجوهن على أن يخلوهن والزناة.

والمعنى: لا يرغب في نكاح الزانية إلا زان مثلها، ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾[2]، أي ميل الخبيث إلى الخبيثة وميل الطيب إلى الطيبة، وقد يقع الطيب مع الخبيث لكن الأعم والأغلب ما ذكرناه. قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي حرم على المؤمنين تزويج تلك الباغيات المعلنات بالزنا. وفيه بيان أن من تزوّج بامرأة منهن فهو زان: فالتحريم كان خاصة على أولئك دون الناس، ومذهب سعيد بن المسيب: أن التحريم كان عاماً عليهم وعلى غيرهم، ثم فسخ التحريم، بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[3] أي فإن تزوج الرجل امرأة وعاين منها الفجور، لم يكن ذلك تحريماً بينهما، ولا خلافاً، ولكنه يؤمر بطلاقها تنزهاً عنها، ويخاف عليه الإثم في إمساكها لأن الله تعالى شرط على المؤمنين نكاح المحصنات من المؤمنات. وروي أن رجلاً قال: يا رسول الله إن امرأتي لا ترد يد لامس. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: طلقها، فقال: إني أحبها، وأخاف إن طلقتها أن أصيبها حراماً. فقال له: «**أمسكها إذن**»[4]. إلا أن هذا الحديث فيه خلاف الكتاب لأن الله تعالى إنما أذن في نكاح المحصنات ثم أنزل في القاذف لامرأته اللعان، وسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم: التفريق بينهما، ولا يجتمعان أبداً، فكيف يأمره

---

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص 261.
(2) سورة النور (24)، الآية: 26.
(3) سورة النور (24)، الآية: 32.
(4) أخرجه أبو داود في سننه: 2/ 226، رقم: 2049.

بالوقوف على عاهرة لا تمتنع ممن أرادها. والحديث الذي ذكر لم يصح عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، ثم إن صح فتأويله أنها امرأة ضعيفة الرأي في تضييع مال زوجها، فهي لا تمنعه من طالب، ولا تحفظه من سارق، وهذا التأويل أشبه بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم، وأحرى بحديثه، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى الزناة. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن هذه الآية نزلت في مرثد الغنوي، كان قد آمن بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم، وكان يحمل ضَعَفَة المسلمين من مكة إلى المدينة، وكانت له صديقة في الجاهلية يقال لها: عناق، فلقيته بمكة، فدعته إلى نفسها، فأبى وقال: إن الإسلام قد حال دون ذلك، فقالت له: فانكحني، فقال: حتى أشاور النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فسعت به إلى المشركين فهرب إلى المدينة، وأخبر النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وشاوره في تزوجها، فأنزل اللَّه هذه الآية[1]، وبين أن نكاح المشركة زنى لأنها لا تحل له وفرق بين الزنى والشرك على طريق المبالغة في الزجر عن الزنى حتى كان القوم يألفون الزنى إلفاً شديداً، وكان يجب بظاهر هذه الآية أن يكون للزاني أن يتزوج المشركة، وللزانية أن تتزوج المشرك، ولا خلاف أن ذلك غير جائز، وأن نكاح المشركين منسوخ بقوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[3]، وذهب بعض المفسرين: إلى أن معنى الآية الزاني لا يطأ إلا زانية أي لا يزني حين يزني إلا زانية مثله، وكذلك الزانية لا يزني بها إلا زان مثلها حتى إذا طاوع الآخر فهما سواء في استحقاق الحد وعقاب الآخرة فكأن المراد بالنكاح الوطء.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ④ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑤ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ

(1) أخرجه أبو داود في سننه: 2/ 227، رقم: 2051، كتاب النكاح.
(2) سورة البقرة (2)، الآية: 121.
(3) سورة البقرة (2)، الآية: 121.

بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿6﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿7﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿8﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿9﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿10﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أي يرمونهن بالزنا، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء على قذفهم إياهن، ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾، والمحصنات الحرائر المسلمات العاقلات البالغات العفيفات عن فعل الزنى، وفي ذكره عدد الأربعة من الشهود دليل على أن المراد القذف بصريح الزنى، لأن هذا العدد لا يشترط إلا في الزنى، ولا يقبل في ذلك شهادة النساء، وفي الآية دليل أن من قذف جماعة من المحصنات لم يضرب إلا حداً واحداً، وإذا كان القاذف عبداً فحده النصف كما بيّنا في حد الزنا. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ يعني المحدودين في القذف لا تقبل شهادتهم أبداً ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طاعة اللّه برميهم إياهنّ زوراً وكذباً. قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي ندموا على قذفهم وعزموا على ترك المعاودة، وأصلحوا أعمالهم فيما بينهم وبين ربهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن تاب منهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بمن مات على التوبة. قال ابن عباس: هذا الاستثناء لا يرجع إلى الشهادة، وإنما يرجع إلى الفسق. وقال: إن توبته فيما بينه وبين اللّه مقبولة، وأما شهادته فلا تقبل أبداً(1)، وهو قول شريح والحسن وإبراهيم، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وأصحابه، وذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء راجع إلى الفسق، وإلى رد الشهادة. ويكون معنى قوله تعالى: ﴿أَبَدًا﴾ أي ما دام على القذف ولم يتب عنه، وأجمعوا جميعاً أن هذا الاستثناء لا يرجع إلى الجلد، وذلك يقتضي أن يكون مقصوراً على ما يليه وهو الفسق، وأجمعوا [على] أن المقذوفة إذا ماتت ولم تطلب بحد القذف، ولم يحد القاذف، ثم تاب فإنه تجوز شهادته على أصلنا: أن الحاكم إذا أقام الحد على القاذف فقد حكم بكذبه، وأبطل حينئذ

---

(1) الطبري في تفسيره: 10/ 103.

شهادته، ولو جعل بطلان الشهادة: حكماً معلقاً بسمة الفسق، ولم يجعل حكماً على حياله مرتباً على الجلد لبطلت فائدة قوله: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ من كتاب اللّه لأن كل فاسق لا تقبل شهادته إلا بعد توبته من الفسق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ وذلك أن اللّه سبحانه لما أنزل الآية التي قبل هذه الآية في قذف المحصنات، وشرط فيها الإتيان بأربعة شهداء وإلا جلد ثمانين جلدة قرأها النبي صلى اللّه عليه وسلم يوم الجمعة على المنبر. فقال عاصم بن عدي الأنصاري: يا رسول اللّه جعلني اللّه فداك أرأيت إن رأى رجل منا مع امرأته رجلاً على بطنها، فإذا أراد أن يخرج من بيته فيجيء بأربعة شهداء قضى الرجل حاجته وخرج، وإن هو عجل، فقتل قتلتموه، وإن تكلم بذلك جلدتموه، وإن سكت سكت على غيظ شديد[1]؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**كفى بالسيف ـ شا ـ**» أراد أن يقول شاهداً، فأشار إليه جبريل بالسكوت، فأمسك لئلا يتسارع أحد من الرجال إلى قتل أزواجهم. وقال ابن عباس: لما نزل ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ وقرأها النبي صلى اللّه عليه وسلم على المنبر يوم الجمعة فقال عاصم بن عدي مقالته التي ذكرناها، وقال يا رسول اللّه كيف لنا بالشهداء، ونحن إذا التمسناهم قضى الرجل حاجته وخرج. وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له: عويمر[2]، وكانت له امرأة يقال لها: خولة بنت قيس فأتى عاصم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الجمعة الأخرى، فقال يا رسول اللّه ما أسرع ما ابتليت بالسؤال الذي سألت في الجمعة الماضية في أهل بيتي، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**وما ذاك؟**» قال: يا رسول اللّه أخبرني عويمر أنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة، وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بني عم عاصم، فدعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بهم جميعاً فقال

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 10/ 120، كتاب اللعان، وأخرجه أبو داود في سننه: 2/ 280، رقم: 2245.

(2) عويمر بن الحارث بن زيد بن حارثة بن الجد بن العجلاني، شهد أحداً مع النبي صلى اللّه عليه وسلم، وقد لاعن زوجته خولة بنت قيس بشريك بن سحماء بن عبدة العجلاني، وكان ذلك في شعبان سنة تسع من الهجرة مرجع الرسول صلى اللّه عليه وسلم من غزوة تبوك.

لعويمر: «**اتقِ اللَّه في زوجتك وخليلتك، وابنة عمك فلا تقذفها بالبهتان**»، فقال: يا رسول اللَّه: أقسم باللَّه إني رأيت شريكاً على بطنها، فقال صلى اللَّه عليه وسلم للمرأة: «**اتقي اللَّه واخبريني بما صنعت**»، فقالت: يا رسول اللَّه إن عويمراً رجل غيور، وإنه رآني وشريكاً نتحدث فحملته الغيرة على ما قال. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: لما أنزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ قال سعد بن عبادة: واللَّه لو أتيت لكاع وقد تفخذها رجل لم يكن لي أن أقتله ولا أهيجه، ولا أحركه حتى آتي بأربعة شهداء، ولم آتِ بهم حتى يفرغ من حاجته ويذهب، فإن قلت بما رأيت ضربتم ظهري ثمانين جلدة، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**يا معشر الأنصار ألا تستمعون ما يقول سيدكم؟**» قالوا: لا تلمه يا رسول اللَّه، فإنه رجل غيور، ما تزوج امرأة قط إلا بكراً، ولا طلق امرأة، فاجترأ أحد منّا أن يتزوجها. قال سعد بن عبادة: يا رسول اللَّه بأبي وأمي أنت، واللَّه إني لأعرف أنها من اللَّه، وأنها لحق، ولكن عجبت من ذلك. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن اللَّه يأبى إلا ذلك**»، فقال سعد: صدق اللَّه ورسوله[1].

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهو جالس مع أصحابه فقال: يا رسول اللَّه إني جئت أهلي عشاء فوجدت رجلاً مع امرأتي يزني بها، رأيت بعيني، وسمعت بأذني، فكره رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ما أتى به، وثقل عليه حتى عرف ذلك في وجهه، فقال هلال: يا رسول اللَّه إني لأرى الكراهة في وجهك لما أتيتك به واللَّه يعلم أني صادق، وما قلته إلا حقاً، وإني لأرجو أن يجعل اللَّه لي فرجاً، فهمَّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن يضربه الحد فاجتمعت الأنصار، وقالوا: ابتلينا بما قال سعد بن عبادة الآن يجلد هلال فبينما هم كذلك، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يريد أن يأمر بضربه إذ نزل عليه الوحي، فأمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحي قد نزل، فلما فرغ تلا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ إلى آخر

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 10/ 130، كتاب اللعان.

الآيات، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: **أبشر يا هلال فإن اللَّه قد جعل لك فرجاً**»، فقال: قد كنت أرجو ذلك من اللَّه، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أرسلوا إليها**» فجاءت فلما اجتمعا عند رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قالت: كذب عليّ يا رسول اللَّه، فقال هلال: واللَّه يا رسول اللَّه ما قلت إلا حقاً، وإني لصادق، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**اللَّه يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب؟**» فقال هلال: واللَّه يا رسول اللَّه ما كذبت، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**لاعنوا بينهما**»، فقيل لهلال: اشهد باللَّه أربع مرات إنك لمن الصادقين، فقال هلال: أشهد باللَّه إني لمن الصادقين، فيما رميتها به من الزنى، قال ذلك أربع مرات فقيل له عند الخامسة: اتق اللَّه يا هلال، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وإن عذاب اللَّه أشد من عذاب الناس، وإن هذه الخامسة هي الموجبة التي توجب عليك العذاب، فقال هلال: ما يعذبني اللَّه عليها كما لم يجلدني عليها رسول اللَّه، فشهد الخامسة: أن لعنة اللَّه عليه إن كان من الكاذبين، فيما رميتها به من الزنى، ثم قيل للمرأة: اشهدي أنت، فقالت أربع مرات أشهد باللَّه إنه لمن الكاذبين، فيما رماني به من الزنى، فقال لها النبي صلى اللَّه عليه وسلم عند الخامسة: «**اتق اللَّه، فإن الخامسة هي الموجبة، وإن عذاب اللَّه أشد من عذاب الناس**»، فتلكأت ساعة، وهمت بالاعتراف، ثم قالت: واللَّه لا أفضح قومي، فشهدت الخامسة: أن غضب اللَّه عليها إن كان من الصادقين، فيما رماها به من الزنى، ففرق رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بينهما، وقضى أن الولد لها، ولا يدعى لأب، ثم قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها، وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه، فجاءت به غلاماً أحمر كأنه جمل أورق**»[1] على الشبه المكروه، فكان بعد ذلك أميراً بمصر ولا يدرى من أبوه[2].

وعلى القول الأول أن القصة بين شريك بن سحماء وعويمر، قالوا: أمر

---

(1) الأورق من الإبل: الذي في لونه بياض إلى سواد.

(2) أخرجه أبو داود في سننه: 2/ 284، رقم: 2256، دار الحديث ـ القاهرة.
الطبري في تفسيره: 10/ 108.
الواحدي في أسباب النزول: ص 262.

رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عويمر بالملاعنة فقام في الأولى فقال: أشهد باللَّه أن خولة بنت قيس زانية، وإني لمن الصادقين فيما رميتها به، وقال في الثانية: أشهد باللَّه أني رأيت شريكاً على بطنها وإني لمن الصادقين، وقال في الثالثة: أشهد باللَّه أنها حبلى من غيري، وإني لمن الصادقين، وكان عويمر قد اعتزلها أربعة أشهر لم يقربها، فظهر بها الحمل فعلم أنه من وطء غيره، ثم قال في الخامسة: إن لعنة اللَّه على عويمر يعني نفسه إن كان من الكاذبين فيما قال، فأمره النبي صلى اللَّه عليه وسلم بالقعود، وقال لزوجته قومي، فقامت، فقالت: أشهد باللَّه ما أنا بزانية، وإن عويمراً لمن الكاذبين، ثم قالت في الثانية: أشهد باللَّه إنه ما رأى شريكاً على بطني، وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الثالثة: أشهد باللَّه إني حبلى منه، وإنه لمن الكاذبين، ثم قالت في الرابعة: أشهد باللَّه ما رأى عليّ فاحشة قط، وإنه من الكاذبين، ثم قالت في الخامسة: إن غضب اللَّه على خولة يعني نفسها إن كان من الصادقين، ففرق رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بينهما، وقال: لولا هذه الأيمان لكان لي في أمرها رأي، ولكان لي ولها شأن، ثم قال: إن جاءت بالولد صهيباً أسمج يضرب إلى السواد فهو لشريك بن سحماء، وإن جاءت به أورق أجعد جمالياً خدلَّج الساقين فهو لغير الذي رميت به[1]، قال ابن عباس: فجاءت به أشبه خلق اللَّه بشريك بن سحماء[2]، وعن الضحاك عن ابن عباس قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ الآية. قال عاصم بن عدي: يا رسول اللَّه، لو وجدت على بطن امرأتي رجلاً فقلت لها إنك زانية أتجلدني ثمانين جلدة؟ إلا أن آتي بأربعة شهداء، وإن مضيت لأربعة شهداء قضى الرجل حاجته، ومضى. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**هكذا أنزل يا عاصم**»، قال: فخرج سامعاً مطيعاً، فلم يصل إلى منزله حتى استقبله هلال بن أمية يسترجعه، فقال: ما وراءك، قال: شر، وجدت شريك بن سحماء على بطن امرأتي خولة يزني بها، فرجع معه إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وأخبره بذلك فبعث إليها، فجاءت، فقال لها النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما تقولين؟**» قالت: يا رسول اللَّه إن شريك بن

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ.
(2) المرجع نفسه.

سحماء كان يأتينا فينزل قريباً، فربما تركه زوجي عندي، وخرج، ولم ينكر عليه من ليل ولا نهار، فلا أدري إن الآن أدركته الغيرة[1]، أم بخل علي بالطعام، فأنزل اللّه تعالى آية اللعان: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾.

فأقامه النبي صلى اللّه عليه وسلم بعد العصر، وقال: «**يا هلال أنت الشاهد أنك رأيتها تزني**»، فقال: أشهد باللّه لقد رأيتها تزني، وشريك بن سحماء على بطنها يزني بها، وإني لمن الصادقين أشهد باللّه ما قربتها منذ أربعة أشهر، وإن حملها هذا الذي في بطنها من شريك بن سحماء وإني لمن الصادقين، أشهد باللّه ما برئت منه، ولا بريء منها، وإني لمن الصادقين إلى أن قال في الخامسة: أن لعنة اللّه عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به من ذلك فقال القوم آمين. فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**يا خولة ويحك إن كنت ألممت بذنب فأقري به فإن الرجم بالحجارة في الدنيا أيسر عليك من غضب اللّه في الآخرة، وإن غضبه عذابه**». فقالت يا رسول اللّه كذب، فأقامها مقامه، فقالت: أشهد باللّه ما أنا بزانية، وإنه لمن الكاذبين ما رآه على بطني، أشهد باللّه لقد برئت من الزنى، وبريء شريك بن سحماء مني، وإنه لمن الكاذبين، أشهد باللّه لقد قربني منذ أربعة أشهر، وأن ما في بطني لهلال، وإنه لمن الكاذبين، وقالت في الخامسة: أن غضب اللّه عليها إن كان من الصادقين، ثم فرق بينهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقال: «**المتلاعنان لا يجتمعان أبداً**»[2]. قوله تعالى: ﴿وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ﴾ أي يدفع عنها الحد أن يشهد أربع شهادات باللّه إنه لمن
الكاذبين، وقرأ حفص: والخامسة[3] بالنصب كأنه قال: ويشهد الخامسة. 15/أ
وقرىء: فشهادة أحدهم أربع شهادات بالرفع في: ﴿أَرۡبَعُ﴾ على أنه خبر المبتدأ، ويقول بالنصب[4] على معنى فشهادة أحدهم أن يشهد أربع شهادات. قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾ محذوف الجواب تفسيره: ولولا

---

(1) البغوي في معالم الإيمان: 4/ 173.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 10/ 123، كتاب اللعان.
أخرجه أبو داود في سننه: 2/ 282، رقم: 2250، كتاب الطلاق.
(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 453، معاني القرآن للفراء: 2/ 247، وذكره الداني في التيسير: ص 161.
(4) ابن مجاهد في المرجع السابق: ص 452، وإعراب القرآن للنحاس: 3/ 129.

فضل اللَّه عليكم ورحمته لفضحكم بما ترتكبون من الفواحش، ولعاجلكم بالعقوبة من غير إمهال، وليبين الصادق من الكاذب، فيقام الحد على الكاذب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ⑩﴾ أي تواب على من رجع عن معاصي اللَّه ـ حكيم ـ فيما فرض من الحدود.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑪ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ⑫ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ⑬ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ⑭ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ⑮ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ⑯ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑰ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑱﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وذلك أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم كان إذا أراد أن يخرج إلى سفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزاة غزاها وهي: غزوة بني المصطلق[1]، فخرج فيها سهمي فخرجت مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وذلك بعدما

(1) وهم بنو جذيمة بن كعب من خزاعة، وتسمى غزوة المريسيع، وهو ماء لخزاعة بينه وبين المدينة ثمانية برد إلى الساحل، كانت هذه الغزوة قبل غزوة الخندق سنة أربع من الهجرة، والخندق سنة خمس من الهجرة، سببها: تتسم هذه الغزوة بطابع الردع، والمبادرة بالدفاع عن النفس، فعندما وصلت الأخبار إلى الرسول صلى اللَّه عليه وسلم بأن الحارث بن أبي ضرار قد جمع الجموع لغزو المدينة بادر النبي صلى اللَّه عليه وسلم بالخروج إليهم والتقى بهم على ماء المريسيع، فهزموا بالرعب، وفروا، وسبى المسلمون النساء، والذراري، والحيوانات، السيرة النبوية: 3/ 289.

أنزل الحجاب، وكنت أحمل في هودج، وأنزل فيه حتى إذا قفل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من غزوته، ورجع ودنونا من المدينة، فلما كان ذات ليلة قمت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت على الرحل، فلمست صدري، فإذا عقدي قد انقطع وكان من جزع ظفار، فرجعت لألتمس عقدي، وحبسني ابتغاؤه، فأقبل الرَّهْطُ الذي كانوا يرحلوني فحملوا هودجي على بعيري الذي كنت أركبه عليه، وهم يحسبون أني فيه، وكن النساء إذ ذاك خفافاً لم يغشهن اللحم إنما يأكلن العُلْقَةَ[1] من الطعام، ولم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم، وليس بها داع ولا مجيب فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم يفتقدونني فيرجعون إليّ فبينا أنا جالسة في مجلسي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطَّل[2] السُّلَميُّ قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتى إلي فعرفني حين رآني، وقد رآني قبل أن يضرب الحجاب فما استيقظت إلا باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، فواللَّه ما كلمني بكلمة غير استرجاعه، فأناخ راحلته، فوطئت على يدها وركبتها، وانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا وقت الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وخاض عبد اللَّه بن أبي، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة[3]، وحمنة بنت جحش الأسدية[4] في ذلك، وكان الذي تولى كبره منهم عبد اللَّه بن أبي بن سلول[5].

---

(1) العُلقة ـ بضم العين المهملة وسكون اللام: وهو الشيء القليل من الطعام الذي يسكن الرمق. وأصله شجر يبقى وقت الشتاء تأكله الإبل حتى يدخل الربيع.

(2) أبو عمرو صفوان بن المعطل بن رحضة السلمي صحابي شهد الخندق والمشاهد كلها، حضر فتح دمشق، واستشهد بأرمينية. الأعلام: 3/ 206.

(3) أبو عباد مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، وأمه أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب، وكانت من المبايعات. شهد مسطح بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم. توفي سنة 34 = (أربع وثلاثين) هجرية. الطبقات الكبرى: 3/ 39. أسد الغابة: 4/ 354.

(4) حمنة بنت جحش بن رئاب بن يعمر، وأمها أميمة بنت عبد المطلب، وكانت حمنة عند مصعب بن عمير فاستشهد عنها يوم أُحد. الطبقات الكبرى: 8/ 191.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 8/ 198، رقم: 4141، باب حديث الإفك.

فقدمنا المدينة فأصابني مرض حين قدمتها شهراً والناس يخوضون في قول الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يزورني في وجعي لا أرى منه اللطف الذي كنت أرى منه إذا مرضت من قبل ذلك، إنما كان يدخل ثم يقول: كيف تيكم؟ فذلك يحزنني، ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو مُتَبَرَّزنا، ولا نخرج إلا من ليل إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكُنُف، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز فانطلقت أنا وأم مسطح وهي عاتكة بنت أبي رُهْم بن عبد المطلب بن عبد مناف، وأمها صخر بنت عامر خالة أبي بكر وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب، فأقبلنا حتى فرغنا من شأننا، فبينا نحن في الطريق عثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: أي هنتاه أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، ثم قال: كيف تِيكُمْ؟ قلت: أتأذن لي أن آتي أبويّ؟ وإنما قلت ذلك حينئذ لأتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فجئت أبويّ فقلت لأمي: يا أماه ماذا يقول الناس؟ فقالت: أي بنية هوّني عليك فواللَّه لقل ما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها، قلت: سبحان اللَّه، وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: نعم، قالت مكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقى لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أسامة بن زيد، وعلي بن أبي طالب، حين استلبث الوحي، واستشارهما في فراقي. فأما أسامة فأشار عليه بالذي يعلم من براءتها، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود. فقال يا رسول اللَّه، هم أهلك وما نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه، فقال: لم يضيق اللَّه عليك، والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك، فدعا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بريرة جارية عائشة، فقال: «**أي بريرة: هل رأيت شيئاً يريبك في أمر عائشة؟**» قالت: والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمضته عليها أكثر من أنها حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله، قالت فقام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فاستعذر

من عبد اللَّه بن أبي بن سلول وهو على المنبر، فقال: «**يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغ أذاه في أهلي، فواللَّه ما علمت في أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً**»[1].

فقال سعد بن معاذ الأنصاري: يا رسول اللَّه أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة الخزرجي، وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الغيرة فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر اللَّه واللَّه لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أُسيد بن حُضَير، وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت أنت لعمر اللَّه واللَّه لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين. فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا. ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قائم على المنبر يُخَفِّضهم حتى سكتوا، قالت عائشة فمكثت يومي لا يرقى لي دمع وأبوايّ يظنان أن البكاء فالق كبدي فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم علينا فسلم ثم جلس. قالت ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء قالت فتشهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حين جلس، ثم قال: «**أما بعد يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك اللَّه وإن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري اللَّه وتوبي إليه فإن العبد إن اعترف بالذنب ثم تاب تاب اللَّه عليه**».
قالت: فلما قضى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فقال: واللَّه ما أدري ما أقول لرسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فقلت وإني جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: واللَّه لقد عرفت أنكم قد سمعتم هذا حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به ولأن قلت لكم إني بريئة واللَّه يعلم أني بريئة لا تصدقونني في ذلك، ولئن أعترف لكم بذنب واللَّه يعلم أني بريئة

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 8/ 198 ـ 199 ـ 4141، كتاب المغازي، باب حديث الإفك.

لتُصَدِّقنّي واللَّه ما أجد لي ولكم مَثَلاً إلا ما قال أبو يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[1]. قالت :ثم تحولت واضطجعت على فراشي، وأنا واللَّه أعلم حينئذ أني بريئة، وأن اللَّه منزل ببراءتي ولكن واللَّه ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحياً يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم اللَّه فيّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في منامه رؤيا يبرئني اللَّه بها. قالت: فواللَّه ما قام رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من مجلسه، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى تغشاه الوحي، وأخذه ما كان يأخذه من البُرَحاء عند نزول الوحي حتى إنه ينحدر منه مثل الجُمَان من العرق في اليوم الشاتي، فلما سُرِّي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إذا هو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «**أبشري يا عائشة إن اللَّه قد برّأك**»[2].

فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: واللَّه ما أقوم إليه، ولا أحمد إلا اللَّه سبحانه الذي أنزل براءتي. فأنزل اللَّه عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وهي عشر آيات، فلما أنزل اللَّه براءتي قال أبو بكر رضي اللَّه عنه، وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: واللَّه لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال أبو بكر: بلى واللَّه إني أحب أن يغفر اللَّه لي، وأعاد إلى مسطح النفقة، وقال: لا أنزعها منه أبداً، ثم إن الخبر بلغ إلى صفوان فقال سبحان اللَّه واللَّه ما كشفت قط كنف أنثى، فقتل شهيداً في سبيل اللَّه، وزاد في آخره[3]، قالت وقعد صفوان بن المعطل لحسان بن ثابت وضربه بالسيف وقال حين ضربه:

تلقَّ ذُبابَ السَّيفِ منِّي فإنني ∴ غلامٌ إذا هوجيتُ لستُ بشاعرِ

---

(1) سورة يوسف (12)، الآية: 18.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 8/ 200، رقم: 4141، باب حديث الإفك.

(3) ذكر الثعلبي في تفسيره البيتين ونسبهما إلى صفوان، وكذا فعل القرطبي في تفسيره: 12/ 199. وقال ابن حجر في فتح الباري: 9/ 410، كتاب التفسير، سورة النور: وزاد أبو أويس في روايته وكان صفوان بن المعطل قعد لحسان فضربه ضربة بالسيف وهو يقول:
«تلق ذباب السيف مني فإنني ∴ غلام إذا هوجيت لست بشاعر»

ولـكـنـنـي أحـمِـي حـمَـاي وأنـتـقـم ∴ من الباهتِ الرّامي البَرَاءِ الطَّواهِرِ

فصاح حسان واستغاث بالناس على صفوان، وجاء حسان إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يستغيث به على صفوان، وجاء في ضربته إياه، فسأله النبي صلى اللَّه عليه وسلم أن يهب له ضربة صفوان إياه، فوهبها للنبي صلى اللَّه عليه وسلم، فعوضه حائطاً من نخل عظيم، وجارية رومية، ثم باع حسان ذلك الحائط من معاوية في ولايته بمال عظيم: وقال حسان بن ثابت في براءة عائشة:

حـصـانٌ رزان مـا تُـزنُّ بـريـبـةٍ ∴ وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[1]

حليلةُ خير الناسِ ديناً ومنصباً ∴ نبيِّ الهدى والمكرمات الفواضل

عقيلةُ حيٍّ من لؤيِّ بن غالب ∴ كرامِ المساعي مجدها غير زائل

مهذَّبةٌ قد طيَّب اللَّه خيمها ∴ وطهّرها من كل شينٍ وباطل

فإن كان ما قد جاء عنِّي قلته ∴ فلا رفعت سوطي إليّ أناملي

فكيف وودِّي ما حييت ونُصرتي ∴ لآل رسول اللَّه زين المحافل

له رتب عالٍ على الناس فضلها ∴ تقاصَر عنها سَوْرَةُ المتطاول

ثم أمر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بالذين رموا عائشة فجلدوا جميعاً ثمانين[2]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وهم أربعة حسان، ومسطح، وعبد اللَّه بن أبي بن سلول، وحمنة بنت جحش، وقيل العصبة من الواحد إلى الأربعين، والإفك في اللغة: هو الكذب.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ﴾ خطاب للنبي صلى اللَّه عليه وسلم، ولأبي بكر، وعائشة، فيما لحقهم من الحزن والغم الشديد والمعنى: لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لأنكم تؤجرون على ما قيل لكم من الأذى وبما

---

(1) هذا النص قاله حسان في عائشة أم المؤمنين يعتذر مما بدر منه في قضية الإفك، ديوانه: ص 188، الأغاني: 4/ 167.

(2) أخرجه أبو داود في سننه: 4/ 160، رقم: 4474، باب في حد القذف.
وأخرجه ابن ماجه في سننه: 2/ 857، رقم: 2567، باب في حد القذف.

يكتب لكم من الثواب في الآخرة على الصبر، وبما بيَّن اللَّه من طهارة عائشة وبراءتها بآيات تتلى في المحاريب إلى يوم القيامة. قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي لكل امرىء من الخائضين في هذا الأمر جزاء ما اكتسب من الإثم. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي والذي تحمل معظمه فبدأ بالخوض فيه، وهو عبد اللَّه بن أبي بن سلول، هو الذي بالغ في إشاعة هذا الحديث، وكان أهل النفاق يجتمعون عنده، ويشيعون ذلك بأمره ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يصغر في مقابلته كل عذاب يكون في الدنيا. قرأ حميد الأعرج ويعقوب ـ كُبره ـ بضم الكاف[1]. قال أبو عمرو بن العلاء: هو خطأ لأن الكبر بضم الكاف في الولاء والسن ومنه الحديث: «**الولاء للكُبر**». وروى ابن أبي مليكة عن عائشة قالت في حديث الإفك: ثم ركبت وأخذ صفوان بالزمام فمررنا بملإ من المنافقين. فقال عبد اللَّه بن أبي بن سلول: من هذه؟ قالوا: عائشة، قال: واللَّه ما نجت منه ولا نجا منها. وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت، ثم جاء يقودها، وشرع في ذلك أيضاً حسان، ومسطح، وحمنة، ثم فشا ذلك في الناس. وقوله تعالى: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يريد في الدنيا، الجلد ثمانين جلدة، وفي الآخرة يصيّره اللَّه إلى النار. قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟﴾ أي هلا إذ سمعتموه أيها العصبة الكاذبة، أي هلا إذ سمعتم قذف عائشة بصفوان ظن المؤمنون والمؤمنات من العصبة الكاذبة يعني حمنة بنت جحش، وحسان، ومسطحاً ـ بأنفسهم خيراً ـ قال الحسن: بأهل دينهم لأن المؤمنين كنفس واحدة ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾[2] ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[3] والمعنى: هلا إذ سمعتم قذف عائشة ظن المؤمنون الذين هم كنفس واحدة فيما جرى عليها من الأمور ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ⑫﴾ أي كذب ظاهر مبين، وروي أن المراد بهذه الآية: أبو أيوب الأنصاري، وامرأته

---

(1) ينظر ابن جني في المحتسب: 2/ 104، والفراء في معاني القرآن: 2/ 247.
(2) سورة النور (24)، الآية 61.
(3) سورة النساء (4)، الآية: 29.

أم أيوب. قالت له: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب البين. أرأيت يا أم أيوب كنت تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله ما كنت أفعله، قال: فعائشة خير منك سبحان الله هذا بهتان عظيم[1]. فأنزل الله هذه الآية والمعنى هلا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً كما فعل أبو أيوب وامرأته وقالوا فيها خيراً.

قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ أي هلا جاء العصبة الكاذبة على قذف عائشة بأربعة شهداء يشهدون بأنهم عاينوا منها ذلك ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أخبر الله تعالى أنهم كاذبون في قذفها يعني أنهم كاذبون في الظاهر والباطن، وكفى بهذا براءة لعائشة رضي الله عنها، فمن جوز صدق أولئك في أمر عائشة صار كافراً بالله لا محالة لكونه ردَّ شهادة الله لها بالبراءة. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ معناه: لولا سنة الله وإنعامه عليكم في الدنيا والآخرة بتأخير العذاب عنكم، وبقبول التوبة لمن تاب لمسّكم فيما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم هائل في الدنيا والآخرة لا انقطاع له. قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال الكلبي: وذلك أن الرجل منهم كان يلقى الرجل فيقول بلغني كذا وكذا ويتلقونه تلقاء. وقال الزجاج: يلقيه بعضكم إلى بعض[2] وتتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ولا بيان ولا حجة ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أي تظنون أن ذلك القذف سهل لا إثم فيه ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ في الوزر والعقوبة. قرأ أبيّ: (إذ تتلقونه) بتاءين. وقراءة عائشة (إذ تلقونه) بكسر اللام[3]، وتخفيف القاف ـ من الكذب ـ والولق: الكذب. يقال: ولق فلان إذا استمر على الكذب وولق فلان السير إذا استمر به. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 128، رقم: 19567.
والواحدي في أسباب النزول: ص 268.
(2) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 38.
(3) معاني القرآن للفراء: 2/ 248، وتفسير القرطبي: 12/ 204.
وإعراب القرآن للنحاس: 3/ 130.
وأخرج البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 9/ 425، رقم: 4752، قراءة عائشة عن ابن أبي مليكة، كتاب التفسير.

سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ معناه: هلا قلتم حين سمعتموه ذلك لا يحل لنا أن نتكلم بهذا. وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا﴾ أي تنزيهاً للَّه تعالى عن أن تكون امرأة نبيه زانية. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ أي كذب عظيم يقال: بهته يبهته بهتاناً ـ إذا أخبره بالكذب عليه ـ وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لأن قذف المحصنات لا يكون من صفات المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿لِمِثۡلِهِۦٓ﴾ أي إلى مثله. وقوله تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ﴾ أي الأمر والنهي واللَّه أعلم بمقالة الكاذبين في أمر عائشة، حكيم فيما شرع من الأحكام.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيه بيان أن العزم على الفسق فسق، وأن على الإنسان أن يحب للناس ما يحب لنفسه، وأن يكون في قلبه سلامة للمؤمنين كما يكون مأموراً بكف اللسان والجوارح. ومعنى الآية أن الذين يحبون أن يفشو ويظهر الزنى في الذين آمنوا بأن ينسبوه إليهم ويقذفوهم به لهم عذاب أليم في الدنيا ـ يعني الجلد ـ والآخرة ـ يعني عذاب النار ـ يريد بذلك المنافقين(1). واللَّه يعلم ما خفتم فيه من الإفك، وما فيه من سخط اللَّه وأنتم لا تعلمون ذلك. فحذر رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم جميع قاذفي عائشة. قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ

(1) ينظر البغوي في معالم التنزيل: 4/ 184.

﴿عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ محذوف الجواب، تقديره: ولولا فضل اللّه ورحمته لعجل لكم العذاب، وعاقبكم فيما قلتم في أمر عائشة ومحبتكم إشاعة الفاحشة، وأن اللّه رؤوف رحيم، رؤوف بكم، رحيم فلم يعاقبكم في ذلك. قال ابن عباس: يريد مسطحاً، وحسان، وحمنة[1]. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ أي لا تسلكوا طرق الشيطان، ولا تعملوا بتزيينه ووسوسته لكم ما مرّ في قذف عائشة ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ أي يأمر بعصيان اللّه، وكل ما يكره اللّه ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، وقيل الفحشاء: القبيح من القول والعمل. والمنكر: الفساد الذي ينكر العقل صحته ويزجر عنه. قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي يعني ما صلح منكم من أحد أبداً، وقيل معناه: ما طهُر منكم أحد من ذنب[2] ولا صلح أمره بعد الذي قال في عائشة ما قال، ولا قبل توبة أحد منكم أبداً[3] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ﴾ أي يطهر من يشاء من الإثم بالرحمة والمغفرة فيوفقه للتوبة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لمقالتكم عليم بما في نفوسكم من الندامة والتوبة، وقيل معناه: سميع لمقالة الخائضين في أمر عائشة وصفوان عليم ببراءتهما.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ أي لا يحلف ذوو الهناء والسعة منكم أن يعطوا ذوي القربى والمساكين والمهاجرين من مكة إلى المدينة. نزل ذلك في أبي بكر[4] رضي اللّه عنه حين بلغته مقالة مسطح وأصحابه في خوضهم في أمر عائشة ـ حلف باللّه لا ينفق عليه ـ، قيل: إنه دعاه، وقال له: أغذوك يا مسطح بمالي وتؤذيني في ولدي، واللّه لا أنفق عليك أبداً. وكان مسطح ابن خالة أبي بكر رضي اللّه عنه، وكان مسطح من المهاجرين البدريين، فلما نزلت هذه الآية تلاها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على أبي بكر رضي اللّه عنه، فقال: بلى أحب أن يغفر اللّه لي، أطيع

---

(1) البغوي في المرجع نفسه.
(2) نسبه البغوي إلى ابن قتيبة.
(3) نسبه البغوي إلى ابن عباس في رواية عطاء.
(4) البغوي في تفسيره: 4/ 185.

ربي وأرغم أنفي، وأردّ النفقة عليه[1]. وقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ معناه: أن لا يؤتوا فحذف لا. قال ابن عباس: قال اللَّه تعالى لأبي بكر رضي اللَّه عنه: قد جعلت فيك يا أبا بكر الفضل، والمعرفة باللَّه، وصلة الرحم، وجعلت عندك السعة، فتعطف على مسطح فله قرابة، وله هجرة، وله مسكنة. قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ قال مقاتل: قال النبي صلى اللَّه عليه وسلم لأبي بكر: «**أما تحب أن يغفر اللَّه لك؟**» قال: بلى، قال: «**فاعف، واصفح**»، قال: قد عفوت، وصفحت لا أمنعه معروفي أبداً بعد اليوم، وقد جعلت له مثلَيْ ما كان قبل اليوم.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿23﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿24﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿25﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿26﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ معناه: إن الذين يقذفون العفائف الغافلات عما قذفت به لغفلة عائشة عما قيل فيها ـ المؤمنات باللَّه ورسوله ـ لعنوا في الدنيا، أي عذبوا في الدنيا بالحد، وفي الآخرة بعذاب النار، وسميت عائشة غافلة لأنها قذفت بأمر لم يخطر ببالها، وأصاب كل واحد من قاذفيها داهية في الدنيا: أما ابن أبي فقد مات كافراً، ونهى النبي صلى اللَّه عليه وسلم عن الصلاة عليه، وأما حسان فقد دخل على عائشة رضي اللَّه عنها بعدما ذهب بصره في آخر عمره، وأنشدها في بيتها:

حصان رزان ما تزنُّ بريبةٍ ∴ وتصبح غرثى من لحوم الغوافلِ

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 136.

فقالت له: إنك لست كذلك، فلما خرج من عندها قيل لعائشة إن اللّه وعدهم بعذاب في الدنيا والآخرة. فقالت: أوليس هذا عذاباً؟ تعني ذهاب بصره[1]. واختلف المفسرون في هذه الآية: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقال مقاتل: هذه الآية خاصة في عبد اللّه بن أبي المنافق[2]، ورميه عائشة، وقال ابن جبير: هذا الحكم خاصة فيمن قذف عائشة فمن قذفها فهو من أهل هذه الآية[3]، وقال الضحاك والكلبي: هذا في عائشة وفي جميع أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم خاصة[4] دون سائر المؤمنات. قال ابن عباس هذه الآية في شأن أمهات المؤمنين خاصة ليس فيها توبة، وأما من قذف امرأة مؤمنة من غيرهن فقد جعل اللّه له توبة، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ قال فجعل اللّه لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة[5]. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**من أشاع على رجل مسلم بكلمة فاحشة وهو منها بريء يريد أن يسبه بها في الدنيا كان حقاً على اللّه أن يدنيه بها في النار، وأيما رجل جاء في شفاعة في حد من حدود اللّه تعالى فعليه لعنة اللّه إلى يوم القيامة**». قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿24﴾﴾ قال الكلبي: تشهد عليهم يوم القيامة ألسنتهم بما تكلموا به من الفرية في قذف عائشة، وأيديهم وأرجلهم. قال ابن عباس: تنطق بما عملت في الدنيا، وهذا عام في القاذفين وغيرهم. قرأ حمزة والكسائي يوم يشهد بالياء[6] لتقديم الفعل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ أي يوفيهم جزاءهم الواجب على قدر أعمالهم ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ويعلمون يومئذ أن اللّه هو الحق المبين يقضي بحق ويأخذ بحق ويعطي بحق. قال ابن عباس: وذلك أن

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 12/ 200.
(2) ينظر البغوي في معالم التنزيل: 4/ 186.
(3) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 138، والقرطبي في تفسيره: 12/ 209.
(4) ذكره الطبري في المرجع نفسه، وكذا القرطبي في المرجع نفسه.
(5) الطبري في تفسيره: 10/ 139، والقرطبي في المرجع نفسه.
(6) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 454.

عبد اللَّه بن أبي بن سلول كان يشك في الدنيا فيعلم يوم القيامة أن اللَّه هو الحق المبين[1]. قرأ مجاهد: يومئذ يوفيهم اللَّه دينهم الحقُ، برفع القاف على أنه نعت للَّه وتصديقه قراءة أبي[2]: (يوفيهم اللَّه الحق دينهم) وقوله تعالى: ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ أي يبين لهم حقيقة ما كان بعدهم في الدنيا. قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ معناه: الكلمات الخبيثات للخبيثين من الرجال أي لا يتكلم بالكلمات الخبيثات إلا الخبيث من الرجال والنساء، ولا يتكلم بالطيبات من الكلام إلا الطيب من الرجل والنساء. وقيل معناه: إن الخبيث من القول لا يليق إلا بالخبيث من الناس وكل كلام إنما يحسن في أهله فيضاف سيئ القول إلى من يليق به ذلك، وكذلك الطيب من القول. وعائشة لا يليق بها الخبيثات لأنها طيبة فتضاف إليها طيبات الكلام من الثناء الحسن وما يليق بها. وقال بعضهم: معنى الآية: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء للمشاكلة التي بينهما، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وفي هذا تنزيه عائشة رضي اللَّه عنها لأن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان من أطيب الطيبين فلا تكون له امرأة إلا طيبة. قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ يعني أن الطيبين والطيبات مبرؤون مما يقول الخبيثون، والمبرأ: هو المنقى عن صفة الخبيث والمراد: عائشة، وصفوان فذكرهما بلفظ الجماعة كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾[3] المراد أخوان. وقوله تعالى: ﴿مُبَرَّءُونَ﴾ أي منزهون. وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم، وثواب حسن في الجنة بما لحقهم من الأذية. وعن عائشة رضي اللَّه عنها، قالت: لقد أعطيت تسعاً لم تعطهن امرأة: نزل جبريل بصورتي في راحته حين أمر النبي صلى اللَّه عليه وسلم أن يتزوجني، ولقد تزوجني بكراً وما تزوج بكراً غيري، ولقد قبض

---

(1) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 4/ 187.

(2) ذكر ابن جني في المحتسب: 2/ 107 قراءة مجاهد، وأبي؛ وإعراب القرآن للنحاس: 3/ 132.

(3) سورة النساء (4)، الآية: 11.

ورأسه في حجري، ولقد قبر في بيتي، ولقد حفت الملائكة ببيتي، ولقد كان الوحي إذ أنزل تفرقن عنه، وكان ينزل عليه وأنا معه في لحافه، وإني لابنة خليفته وصديقه، ولقد نزل عذري من السماء، ولقد خلقت طيبة لعبد طيب، ولقد وعدت مغفرة ورزقاً كريماً[1].

قال اللّه تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿27﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿28﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿29﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ في الآية أمر بالتحفظ عن الهجوم عن ما لا يؤمن من العورات، وإلى هذا أشار النبي صلى اللّه عليه وسلم حيث قال للرجل الذي قال له: أستأذن على أمي؟ قال: «**إن لم تستأذن حتى إذا رأيت منها ما تكره**» أي ربما تدخل عليها وهي متكشفة فترى ما تكره[2]. ومعنى قوله: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ أي حتى تستأذنوا وقيل الاستئناس هو الاستعلام ليعلم من في الدار، وذلك كان بقرع الباب أو التنحنح، وخفق النعل. وكان أبي بن كعب، وابن عباس، والأعمش: يقرؤونها حتى تستأذنوا وتسلموا على أهلها[3]، وقيل إن في الآية تقديماً وتأخيراً تقديره: حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا، وهو أن يقول السلام عليكم أأدخل؟ وروي أن أعرابياً جاء إلى باب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فقال: أألج، فقال صلى اللّه عليه وسلم لخادمة له يقال لها

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 12/ 212 عن علي بن زيد بن جُدعان عن جدته عن عائشة رضي اللّه عنها.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 148، رقم: 19624، عن عطاء بن يسار.

(3) ينظر ابن جني في المحتسب: 2/ 107، وتفسير ابن عطية: 11/ 290، وتفسير القرطبي: 12/ 213.

روضة: «**قومي إلى هذا: فعلميه فإنه لا يحسن أن يستأذن. قولي له: يقول السلام عليكم أأدخل**»[1]، وعن زينب امرأة ابن مسعود أنها قالت :كان عبد اللّٰه إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم علينا، ويرى أمراً يكرهه[2]. وعن أبي أيوب قال: قلنا يا رسول اللّٰه ما الاستئناس؟ يريد قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ قال: «**يتكلم الرجل: بالتكبيرة والتسبيحة والتحميدة، ويتنحنح يؤذن أهل البيت**»[3]. ويروى أن أبا موسى الأشعري رضي اللّٰه عنه أتى إلى منزل عمر رضي اللّٰه عنه، فقال: السلام عليكم هذا عبد اللّٰه بن قيس هل أدخل؟ فلم يؤذن له، ثم قال: السلام عليكم هذا أبو موسى فلم يؤذن له، ثم قال في الثالثة: السلام عليكم ورحمة اللّٰه هذا الأشعري، فلم يؤذن له، فذهب فوجه عمر بعده من يرده فسأله عن صنعه، فقال: سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع، فقال عمر رضي اللّٰه عنه: لتأتيني بالبينة وإلا عاقبتك، فانطلق أبو موسى وأتاه بأبي بن كعب، وأبي سعيد الخدري فشهدا بذلك، وقال له إني سمعت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم يقول ذلك فلا تكونن عذاباً على أصحاب[4] رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم، فقال عمر: وما فعلت أنا سمعت بشيء فأحببت أن أتثبت.

وروي أن رجلاً قال للنبي صلى اللّٰه عليه وسلم: أستأذن على أمي؟ قال: «**نعم**». قال: إنها ليس لها خادم غيري فأستأذن عليها كلما دخلت؟ قال: «**أتحب أن تراها وهي عريانة**». قال: لا، قال: «**فاستأذن عليها**». وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «**من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم حل لهم أن يفقؤوا عينه**»[5]. وعن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه: 4/ 346، رقم: 5177، كتاب الأدب، والطبري في تفسيره: 10/ 146، رقم: 19616.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره: 10/ 149، رقم: 19626.

(3) أخرجه ابن ماجه في سننه 2/ 1221، رقم: 3707، كتاب الأدب.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 12/ 290، رقم: 6245، كتاب الاستئذان.
أخرجه أبو داود في سننه: 4/ 347، رقم: 5181، كتاب الأدب.
أخرجه أبو داود في سننه: 2/ 1221، رقم: 3706، كتاب الأدب.

(5) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 14/ 236، رقم 6902، كتاب الديات.

رأى رجلاً اطلع في حجرته، وبيد النبي صلى اللّه عليه وسلم مدرا يحك به رأسه، فقال: «**لو علمت أنك تريد أن تنظر إليّ مرة لطعنت بها عينك، إنما جعل الاستئذان من أجل النظر**»[1]. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي ذلك الاستئذان خير لكم من الدخول بغير إذن لكي تذكروا به. وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾ معناه فإن لم تجدوا في البيوت أحداً من سكانها فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم، وكذلك لو وجدوا البيوت خالية لم يجز لأحد دخولها أيضاً إلا بإذن صاحبها. قوله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي إذا أمرتم بالانصراف فانصرفوا ولا تقوموا على باب البيت، فلعل صاحب البيت لا يرضى أن يقع بصر المستأذن على أحد من حرمه وكذلك لو لم يقل لكم صاحب الدار ارجعوا، ولكن وجد منه ما يدل على ذلك وجب الرجوع أيضاً لقوله صلى اللّه عليه وسلم: «**الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلا فارجع. وروي الاستئذان ثلاث مرات، مرة يستنصتون، ومرة يستصلحون، ومرة يؤذنون أو يردون**»[2]. قوله تعالى: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي الرجوع أطهر لكم وأنفع لدينكم من الجلوس على أبواب الناس واللّه بما تعملون عليم أي بما تعملون من الدخول بإذن وغير إذن عالم. فلما نزلت آية الاستئذان قالوا نمر بالبيوت التي بين مكة والمدينة والشام على ظهر الطريق ليس فيها ساكن[3]، فأنزل اللّه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ بغير استئذان، وقيل أراد بذلك المواضع التي لا تختص سكانها أحد مثل الخانات والرباطات التي تتخذ للمسافرين يستظلون فيها من الحر والبرد، ويدخل في هذا أخذ ما جرت به العادة بأخذه مثل النوى، والخرق الملقاة في الطرق، ويجوز أن يكون المراد بالبيوت في هذه الآية: حوانيت التجار التي في الأسواق. قوله تعالى: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ أي منافع من اتقاء الحر والبرد والاستمتاع بها. وقال مجاهد: كانوا يضعون في طريق المدينة أقتاباً وأمتعة في بيوت ليس فيها أحد وكانت الطرق إذ ذاك آمنة فأحل لهم أن يدخلوها بغير إذن[4]. وقال عطاء معناه:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 14/ 236، رقم 6901، كتاب الديات.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب: 6/ 442، رقم: 8820، فصل في الاستئذان ثلاث مرات.

(3) الواحدي في أنساب النزول: ص 269.

(4) الثعلبي في تفسيره: خ، الطبري في تفسيره: 10/ 152.

بالمتاع هو قضاء الحاجة من الخلاء والبول[1]. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

قال اللَّه تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿30﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿31﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي قل لهم يغضوا أبصارهم عن النظر إلى ما لا يحل لهم واختلفوا في قوله تعالى ـ من ـ فقال بعضهم هي صلة أي يغضوا أبصارهم، وقال بعضهم: هي ثابتة في الحكم لأن المؤمنين غير مأمورين بغض النظر أصلاً، وإنما أمروا بالغض عن ما لا يحل. قوله تعالى: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ يعني عن الحرام. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: **«اضمنوا لي ستّاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا الأمانة إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم**[2]. **وقال صلى اللَّه عليه وسلم: النظر إلى محاسن المرأة سهم مسموم من سهام إبليس، ومن ردّ بصره ابتغاء ثواب اللَّه عزّ وجلّ أبدله اللَّه بذلك ما يسره»**[3]. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أي أطهر وأصلح عند اللَّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ

---

(1) الثعلبي في المرجع نفسه، الطبري في المرجع نفسه.
(2) أخرجه البيهقي في الشعب: 4/ 320، رقم: 5256.
(3) أخرجه الحاكم في المستدرك: 4/ 314.

خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ في الفروج والأبصار. وقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ﴾ أي قل لهن يكففن أبصارهن عن ما لا يحل لهن ﴿وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عن الحرام وقيل يحفظن فروجهن أي يسترن حتى لا يرى فروجهن أحد. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ أي لا يبدين مواضع زينتهن إلا ما ظهر من موضع الزينة. والزينة زينتان: ظاهرة، وباطنة. فالباطنة: المخانق، والمعاضد، والقلادة والخلخال والسوار والقرط والمعاصم؛ وأما الزينة الظاهرة: الكحل والخاتم والخضاب فليس على المرأة بحكم هذه الآية ستر وجهها وكفيها في الصلاة، وفي غير الصلاة، ويجوز للأجانب من الرجال النظر إلى وجهها وكفيها لغير شهوة، وأما النظر مع الشهوة فلا يجوز إلا في أربعة مواضع: إذا أراد أن يتزوج امرأة أو يشتري جارية، أو يتحمل الشهادة لها أو عليها، والقاضي يقضي لها أو عليها. وعن ابن مسعود إن الزينة الظاهرة: هي الجلباب والملاية يعني الثياب[1] لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ﴾[2]. وعن عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إنه لا يحل لامرأة تؤمن باللَّه واليوم الآخر إذا عركت[3] أن تظهر إلا وجهها ويديها إلى هاهنا، وتبقي على نصف الذراع**»[4].

قوله تعالى: ﴿وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ﴾ الخمر جمع الخمار: وهي ما تغطي به المرأة رأسها، والمعنى: وليقلبن متايعهن على جيوبهن وصدورهن ليسترن بذلك شعورهن ومروطهن وأعناقهن ونحورهن. كما قال ابن عباس: تغطي المرأة شعرها، وصدرها، وأترابها، وسوافلها لأن المرأة إذا أسدلت خمارها انكشف ما قدامها وما خلفها فوقع الاطلاع عليها، والجيوب جمع جيب: وهو جيب القميص. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أراد به موضع الزينة الباطنة التي لا يجوز كشفها في الصلاة. والمعنى: لا يظهرن موضع الزينة التي

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 156.
(2) سورة الأعراف (7)، الآية: 31.
(3) عركت المرأة: حاضت.
(4) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 1587، رقم 19656.
أخرجه أبو داود في سننه: 4/ 60، رقم: 4104، كتاب اللباس.

تكون تحت خمرهن إلا لأزواجهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء أزواجهن أو إخوانهن في النسب والرضاع أو بني إخوانهن وكل ذي رحم محرم منهن، أو نسائهن يعني نساء أهل دينهن وهن المسلمات، ولا يحل لمسلمة أن تتكشف بين يدي يهودية أو نصرانية، أو مجوسية، أو مشركة، وقيل المراد بذلك العفائف من النساء اللواتي يكنّ أشكالاً لهن، ولا ينبغي للمرأة الصالحة أن تنظر إليها المرأة الفاجرة لأنها تصفها عند الرجال، ولا تضع جلبابها ولا خمارها عندها، ولا يحل لامرأة مؤمنة أن تتكشف أيضاً عند مشركة أو كتابية إلا أن تكون أمة لها، فذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾. روي أن عمر رضي اللَّه عنه كتب إلى أبي عبيدة. أما بعد، فقد بلغني أن نساء يدخلن الحمامات معهن نساء أهل الكتاب فامنع من ذلك، فلما أتى الكتاب إلى أبي عبيدة قام في ذلك المكان مبتهلاً، وقال: اللَّهم أيما امرأة تدخل الحمام من غير علة ولا سقم تريد البياض لوجهها فيسودّ وجهها يوم تبيض الوجوه[1]. قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ذهب بعضهم إلى أن المراد به العبد فإنه لا بأس أن تظهر المرأة عند عبدها ما تظهر عند محارمها. وكان سعيد بن المسيب يقول: لا يغرنكم قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فإنها نزلت في الإماء دون العبيد. وعن مجاهد: مثل ذلك كأنهما ذهبا إلى أن المراد بقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ الحرائر، والمراد بقوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ الإماء والولائد الصغار من الذكر من المماليك. قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ يعني الذين يتبعون النساء من الأجراء العمال الذين لا حاجة لهم في النكاح، وإنما يخدمون القوم لينالوا من طعامهم[2]، والإربة: فعلة من الأرب وهو الحاجة كالمشية من المشي. قال الحسن: هم قوم طبعوا على غير شهوة لا يَشتهون ولا يُشتهون، وقال سعيد بن جبير: هم المعتوهون[3]، وقال

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 10/116، رقم: 19673.
والثعلبي في تفسيره: خ.
(2) الطبري في المرجع نفسه.
(3) الثعلبي في المرجع نفسه.

عكرمة: هم المجنونون، وقال الحكم بن إبان: هم المخانيث الذين لا أرب لهم في النساء، ولا تقوم لهم شهوة[1].

وعن عائشة رضي اللّه عنها أن مخنثاً كان يدخل عليهن وكانوا يعدونه من غير أولي الإربة فسمعه النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو يقول في صفة امرأة إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع، وإذا أدبرت بثمان. فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**أوهذا الخبيث يعرف هذا الكلام لا أراه يدخل عليكن**»[2]، وقال مجاهد وعكرمة والشعبي هم الذين لا أرب لهم في النساء. وقال قتادة: هو الذي يتبعك لأجل أن يصيب من طعامك ولا همة له في النساء[3]. وقال مقاتل: هو الشيخ الهرم الذي لا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن[4]. وأما الخصيان فهم على وجهين: إن كان خصياً قد جف ماؤه فهو من غير أولي الإربة وإن كان لم يجف فهو من أولي الإربة كما روي عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت: إن الخصاء مثلة، وإنه لا يحل ما حرّم اللّه. قوله تعالى: ﴿غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ قرأ أكثر القراء بخفض غير على الصفة للتابعين، وقرأ ابن عامر، وعاصم: غيرَ بنصبه على الاستثناء[5] وتكون غير بمعنى إلا، وقيل على الحال قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني الصغير الذي لا رغبة له في النساء ولم يبلغ مبلغاً يطيق إتيانهن. وقد يذكر الطفل بمعنى الجماعة والمراد به هاهنا الواحد أو الجماعة من الأطفال، وأما الصبي الذي قد ظهرت له رغبة في النساء فحكمه حكم البالغ لقوله صلى اللّه عليه وسلم في الصبيان: «**مروهم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً، وفرقوا بينهم في**

---

(1) الطبري في المرجع نفسه.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 164، رقم: 19688.
وأخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 14/ 162، باب منع المخنث من الدخول على النساء والأجانب.
وأبو داود في سننه: 4/ 61، رقم: 4107، كتاب اللباس.

(3) ذكر الطبري في تفسيره: 10/ 162 ـ 163، هذه الأقوال.

(4) ذكر ذلك البغوي في تفسيره: 4/ 194.

(5) ينظر ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 454، وينظر الفراء في معاني القرآن: 2/ 250.

المضاجع»[1]. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قال الحسن: كانت المرأة تمر على المجلس وعليها الخلخال فتضرب إحدى رجليها الأخرى ليعلم القوم أن عليها الخلخال[2]. فنهين عن ذلك لأن ذلك مما يحرك الشهوة لأن سماع صوت الزينة بمنزلة إبداء الزينة، وفي هذا دليل أن صوت المرأة عورة لأن صوت خلخالها أقل من صوتها، وأما ما سوى مواضع الزينة فلا يحل النظر إليه إلا للزوج خاصة. قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي وتوبوا إلى اللّه جميعاً عما كنتم في الجاهلية تعملون في الخصال المذمومة، واعملوا بطاعة اللّه فيما أمركم به ونهاكم عنه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ قرأ ابن عامر بضم الهاء[3] ومثله: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾[4] و﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿31﴾﴾[5] وينبغي ألاّ يؤخذ بقراءته.

قال اللّه تعالى:

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿32﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿33﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿34﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ أي زوجوهم، والأيم اسم المرأة لا زوج

---

(1) أخرجه أبو داود في سننه: 1/ 131، رقم 495، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، والبيهقي في الشعب: 6/ 398، رقم: 8650.
(2) ينظر الطبري في تفسيره: 10/ 166.
(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: ص 455، والنحاس في إعراب القرآن: 13/ 34، وابن عطية في تفسيره: 12/ 299.
(4) سورة الزخرف (43)، الآية: 49.
(5) سورة الرحمن (55)، الآية: 31.

لها، والرجل الذي لا امرأة له، يقال: رجل أيم وامرأة أيم كما يقال: رجل بكر وامرأة بكر. وقال الشاعر:

فإن تنكحي أنكح وإن تتأيّمي ∴ مدى الدهر ما لم تنكحي أتأيّم[1]

ويقال: الأيم في النساء كالأعزب في الرجال، وجمع الأيامى أيم. قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾ أي زوجوا عبيدكم وإماءكم وهذا أمر ترغيب واستحباب، وفائدة ذكر الصالحين أن المقصود من النكاح العفاف والصالح هو الذي يتعفف، وقيل الصلاح هاهنا الإيمان ثم رجع إلى الأحرار. فقال ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾. فيه حث على النكاح لئلا يمتنعوا منه بسبب الفقر، فإن اللَّه هو الغني. والمعنى: إن يكونوا فقراء لا سعة لهم في التزويج يغنيهم اللَّه من فضله أي يوسع عليهم عند التزويج. واختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ﴾ الآية. فقال بعضهم هذا الأمر على الحتم والإيجاب أوجب اللَّه النكاح على من استطاعه، وتأوله الباقون على أنه أمر استحباب وندب وهو المشهور الذي عليه الجمهور، وقيل: يجب على المرأة والرجل أن يتزوجا إذا تاقت أنفسهما إليه لأن اللَّه تعالى أمر به ورضيه وندب إليه. وبلغنا أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال: «**تناكحوا تكاثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة**[2] **حتى السقط**». وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من أحب فطرتي فليستنن بسنتّي، ومن سنتّي النكاح**»[3] لأنه ينتفع بدعاء ولده بعده، ومن لم تَتُق نفسه إليه فأحب إلينا أن يتخلى لعبادة اللَّه. وعن أبي نجيح الأسلمي، قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من كان له ما يتزوج به ولم يتزوج فليس منا**»[4]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «من أدرك له ولد وعنده ما يزوجه فأحدث إثماً فالإثم بينهما»[5].

---

(1) البيت في اللسان (أيم) ولم ينسبه، ورواية الشطر الثاني: يدا الدهر ما لم تنكحي أتأيم.
(2) أخرجه ابن ماجه في سننه: 1/ 592، رقم: 1846، باب ما جاء في فضل النكاح.
(3) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 4/ 381، رقم: 5478، فصل في الترغيب في النكاح.
(4) أخرجه البيهقي في الشعب: 4/ 382، رقم: 5481، فصل في الترغيب في النكاح.
(5) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ.

وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إذا تزوج أحدكم مج الشيطان ويله عصم ابن آدم مني ثلثا دينه. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: مسكين مسكين رجل ليست له زوجة، مسكينة مسكينة امرأة ليس لها زوج**»[1]. قالوا :يا رسول اللَّه وإن كانت غنية من المال؟ قال: «**وإن كانت غنية من المال**». وقال: «**شراركم عزابكم**»[2]. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أربعة يلعنهم اللَّه من فوق عرشه: رجل يحصر نفسه عن النساء فلا يتزوج وهو يقدر على ذلك، ولا يتسرى خشية أن يولد له، ورجل تشبَّه بالنساء، وامرأة تشبَّهت بالرجال، ورجل يهزأ بالمساكين يقول لهم: تعالوا حتى أعطيكم فإذا أتوه قال لهم ليس معي شيء، ويقول للأعمى احذر الحجر قبلك واجلد الدابة وليس قبله شيء**»[3]. وروي أن رجلاً يقال له عكاف بن وادعة الهلالي جاء إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال له: «**يا عكاف ألك زوجة**»؟ قال: لا، قال: «**ولا جارية**»؟ قال: لا، قال: «**وأنت صحيح موسر؟**» قال: نعم والحمد للَّه، قال: «**تزوّج فإنك من إخوان الشيطان اصنع ما يصنع المؤمنون فإن من سنتنا النكاح شراركم عزابكم. وما للشيطان، سلاح أبلغ من النساء ويحك عكاف إنهن صاحبات يوسف، وصواحبات داود، وصواحبات كرسف**». قالوا: يا رسول اللَّه ومن كرسف؟ قال: «**رجل كان يعبد اللَّه على ساحل من سواحل البحر ثلاثين عاماً يصوم النهار ويقوم الليل لا يفتر فقدر عليه أن كفر والعياذ باللَّه من سبب امرأة عشقها، وترك ما كان عليه من عبادة ربه وتداركه اللَّه بعد ذلك مما سلف منه، ويحك يا عكاف تزوّج فإنك من المذبذبين**». قال: زوجني من شئت يا رسول اللَّه، فزوّجه على امرأة يقال لها كريمة بنت كلثوم الحميري[4]. وعن عياض بن غنم الأشعري قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**يا عياض لا تتزوجنّ عجوزاً، ولا عاقراً فاني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»[5]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب: 4/ 382، قم: 5483، فصل في الترغيب في النكاح.
(2) أخرجه البيهقي في الشعب: 4/ 381، رقم: 5480.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ.
(4) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 4/ 381، رقم 5480.
(5) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ.

«**تزوجوا الأبكار فإنهن أعذب أفواهاً، وأنتق أرحاماً، وأثبت مودة وأرضى باليسير**[1]**، وإذا أراد أحدكم أن يتزوج فليسأل عن شعرها كما يسأل عن وجهها فإن الشعر أحد الجمالين**»[2]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: تزوجوا الزرق فإن فيهن ثمناً ـ أي سعادة ـ. وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**أعظم نساء أمتي بركة أصبحهنّ وجهاً، وأقلهن مهراً**»[3]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**أعلنوا بالنكاح، واضربوا عليه بالدفوف، وليولم أحدكم عليه ولو بشاة**»[4].

وعن معاذ بن جبل قال: حضرت ملاك رجل من الأنصار مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فخطب النبي صلى اللّه عليه وسلم وأملك الأنصاري ثم قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**على الألفة والخير والطير الميمون**». فجاؤوا بسلال فيها فاكهة وسكن فلم ينتهبوه فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**ألا تنتهبون؟**» قالوا: يا رسول اللّه إنك نهيتنا عن النهبة يوم كذا وكذا فقال: «**إنما نهيتكم عن نهبة العساكر، ولم أنهكم عن نهبة الولائم**»، ثم قال: «**ألا فانتهبوا**». وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**تمسّكوا بالأملاك فإنه أفضل في اليمن وأعظم في البركة**»[5]. وعن عائشة رضي اللّه عنها قالت :كان عندي جارية من الأنصار في حجري فزوجتها فدخل النبي صلى اللّه عليه وسلم فلم يسمع غناء فقال: «**يا عائشة ألا تغنون عليها؟ فإن هذا الحي من الأنصار يحبون الغناء**»[6]. قوله تعالى: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ قال صلى اللّه عليه وسلم: «**التمسوا الرزق بالنكاح**». وشكا رجل إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الفقر فقال: عليك بالباءة. وقال عمر رضي اللّه عنه ابتغوا الغناء في النكاح فإن اللّه تعالى يقول: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي واسع بخلقه عليم بهم. قوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه: 1/ 598، رقم: 1861، باب تزويج الأبكار.
(2) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ.
(3) أخرجه البيهقي في الشعب: 5/ 254، رقم: 6566، باب الاقتصاد في النفقة.
(4) ذكره الثعلبي في المرجع نفسه.
(5) ذكره الثعلبي في المرجع نفسه.
(6) الثعلبي في المرجع نفسه.

﴿ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ أي ليطلب الذين لا يجدون نكاحاً العفة عن الزنى والحرام. والمعنى من لم يجد سعة للنكاح من مهر ولا نفقة، ولا يجد شيئاً يشتري به أمة فليستعفف عن الزنى حتى يجد ما يكفيه لذلك، وفي ذلك بيان أنه لا عذر لأحد في السفاح. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ معناه: الذين يطلبون الكتابة من عبيدكم وإمائكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم رشداً وإصلاحاً وصدقاً ووفاء وأمانة وقدرة على الكسب، وهذا أمر استخدام في العبد الذي يقدر على الاكتساب ويرغب في الكتابة. فأما الذي لا يقدر على الكسب أو لا يرغب في الكتابة فلا يكون في كتابته إلا قطع حق المولى عنه من غير نفع يرجع إليه. ومعنى الكتابة أن يكاتب مملوكه على مال يسلمه إليه نجوماً فيعتق بأدائه، وإن كانت الكتابة حالة جاز عند أبي حنيفة وأصحابه. وقال الشافعي: لا يجوز إلا منجماً وأقله نجمان فصاعداً. قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ اختلفوا في معنى ذلك. فروي عن علي رضي اللَّه عنه، أنه قال: يحط عن المكاتب ربع مال الكتابة[1]، وعن ابن عباس: يحط عنه شيء وعن عبد اللَّه بن زيد الأنصاري، أنه قال: هذا خطاب للأمة أن يسلموا إلى المكاتبين ما فرض اللَّه لهم[2] في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ وهذا أقرب إلى ظاهر الآية، لأن الإتيان في اللَّه هو الإعطاء دون الحط.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد اللَّه بن أبي بن سلول كانت له جوار حسان مسيكة، وأميمة، ومعاذة كان يكرههن على الزنى ليكتسبن له بالفجور وكذلك كان أهل الجاهلية يفعلون. فأتت الجواري إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يشكون إليه ذلك فأنزل اللَّه هذه الآية. قال مقاتل: نزلت في ست جوار لعبد اللَّه بن أبي بن سلول، وهن: مُعاذة، ومُسَيْكة، وأُمَيْمة، وعمرة، وقتِيلة، وأروى؛ فجاءته إحداهن ذات يوم بدينار، وجاءت أخرى ببردة، فقال لهما ارجعا فازنيا

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 172.
(2) الطبري في المرجع نفسه.

وكان يؤجرهن على الزنى فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة: إن هذا الأمر الذي نحن فيه قد آن لنا أن ندعه فقال لهما عبد اللّه بن أبي بن سلول أمضيا فازنيا، فقالتا: واللّه ما نفعل ذلك قد جاء اللّه بالإسلام، وحرّم الزنى، ثم مضتا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وشكتا عليه فأنزل اللّه هذه الآية[1]، ومعناها: ولا تكرهوا إماءكم على البغاء أي على الزنى لتبتغوا عرض الحياة الدنيا من كسبهن وبيع أولادهن. قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ يعني إذا أردن تحصناً خرج الكلام على وجه الحال لا على الشرط ونظيره. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾[2] ويجوز أن يكون معناه أن الكلام قد تمّ عند قوله: ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ ثم ابتدأ بالشرط فقال: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ وجوابه محذوف تقديره: إن أردن تحصناً فقد أصبن، ومثله قوله صلى اللّه عليه وسلم لعائشة: «**أدني مني**»، قالت: أنا حائض. فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**وإن**»[3]، ولم يزد عليه وأراد بذلك ـ كنت حائضاً فلا بأس ـ وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي إن أردن تعففاً وتزوجاً، قوله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ﴾ أي من يجبرهن على الزنى، ولم تقدر المكرهة على الدفع عن نفسها بوجه من الوجوه لم تأثم، وإن صبرت عن الامتناع حتى قتلت كان أعظم لأجرها، وإن قتلت دفعاً عن نفسها كان لها ذلك. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي غفور لمن تاب منهن ومات على التوبة، وغفور لمن تاب عن إكراههن على الزنى ـ رحيم بهم ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ أي أنزلنا إليكم القرآن آيات ظاهرات واضحات لتعملوا بها، وقيل يعني بذلك ما ذكر في هذه السورة من الحلال والحرم. قوله تعالى: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي وأنزلنا مثلاً أي خبراً من خبر الذين مضوا من قبلكم لتعتبروا وموعظة للمتقين عن الشرك والفواحش.

---

(1) ذكره الواحدي في أسباب النزول: ص 270، وكذا الطبري في تفسيره: 10/ 176.

(2) سورة الإسراء (17)، الآية: 31.

(3) أخرجه أبو داود في سننه: 1/ 68، رقم: 270، باب في الرجل يصيب من الحائض ما دون الجماع.

قال اللّه تعالى:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿35﴾ ﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي اللّه هادي أهل السموات وأهل الأرض بالآيات المبينات لا هادي فيها غيره فبنوره الخلق يهتدون، وبهداه من الضلالة ينجون فلا يهتدي ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا بهداه. قال الضحاك معناه: اللّه منور السموات والأرض. وقال الحسن وأبو العالية: اللّه مزين السموات والأرض يعني مزين السموات بالشمس والقمر والنجوم، ومزين الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين[1]. قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾ قال ابن عباس: مثل نوره الذي أعطاه المؤمنين. وقال السدي: مثل نوره الذي في قلب المؤمن، وكان أبيّ يقرأ مثل نور المؤمن، وقيل كان يقرأ مثل نور من آمن به[2]. وقوله تعالى: ﴿ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾ المشكاة في لغة الحبشة: كوة غير نافذة. والمصباح: هو السراج في القنديل من الزجاجة الصافية. وقيل المشكاة: عمود القنديل الذي فيه الفتيلة. وقال مجاهد: هي القنديل[3]. قال الزجاج: النور في الزجاج وضوء النار أبين منه في كل شيء وضوؤه يزيد في الزجاج[4]، ويتضاعف حتى يظهر منه ما يقابله مثله، قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ﴾ أي سراج وأصله من الضوء ـ ومن ذلك الصبح ـ ورجل صبيح الوجه إذا كان وضيئاً. وفرق قوم بين المصباح والسراج فقال: المصباح دون السراج والسراج أعظم من المصباح، لأن اللّه تعالى سمى الشمس

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 12/ 257، بلفظه.
(2) ذكر الثعلبي في تفسيره، قراءة أبي بن كعب: خ.
(3) ذكره القرطبي في المرجع السابق.
(4) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 43.

سراجاً، وقال في غيرها ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾[1] ثم وصف اللّه الزجاجة فقال: كأنها، أي الزجاجة، كأنها كوكب دري شبه القنديل الذي يكون فيه السراج بالكوكب الدريّ وهو النجم المضيء ودراري النجوم كبارها. وقوله تعالى: ﴿دُرِّيٌّ﴾ نسبة إلى أنه كالدر في صفائه وحمرته ـ فكأن الكوكب درة بيضاء ـ قرأ أبو عمرو والكسائي ـ دريّ ـ بكسر الدال مهموز ممدود[2] وهو فعيل من الدرء بمعنى الدفع يقال: درأ يدرأ إذا دفع فكأنه من تلألئه يدفع أبصار الناظر إليه. ويقال: كأنه رجم به الشياطين فدرأهم أي دفعهم بسرعة الانقضاض وذلك أضوأ ما يكون.

وقرأ حمزة وأبو بكر مضمومة الدال مهموز ممدود[3]. قال أكثر النحاة هو لحن لأنه ليس في كلام العرب فعيل بضم الفاء وكسر العين، وأنكره الفراء والزجاج وأبو العباس، وقالوا هذا غلط لأنه ليس في كلام العرب شيء على هذا الوزن[4]. وقرأ الباقون بضم الدال وتشديد الياء من غير همز[5] فنسبوه إلى الدر في صفائه وضيائه، قوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فيه أربع قراءات. قرأ نافع وابن عامر بياء مضمومة، يعنون المصباح، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بياء مضمومة، يعنون الزجاجة، وقرأ أبو عمرو بالتاء وفتحها وفتح القاف مشددة، بمعنى الماضي، وقرأ ابن محيصن بتاء مفتوحة وتشديد القاف مثل قراءة أبي عمرو إلا أنه رفع الدال، بمعنى الفعل المستقبل، بمعنى تتوقد الزجاجة[6]. قوله تعالى: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي من زيت شجرة مباركة ـ فحذف المضاف ـ وأراد بالشجرة المباركة شجرة الزيتون والرمان. قوله تعالى: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي ليست تشرق عليها الشمس فقط من دون

---

(1) سورة الملك (67)، الآية: 5.

(2) ذكر هذه القراءة ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 456.

(3) قال ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 456؛ وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر... إلخ.

(4) الفراء في معاني القرآن: 2/ 252، والزجاج في معاني القرآن وإعرابه: 4/ 44، والنحاس في إعراب القرآن: 3/ 136.

(5) ابن مجاهد في المرجع السابق.

(6) ابن مجاهد في المرجع نفسه، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات: 2/ 138.

أن تغرب عليها ولا غربية ـ تغرب عليها فقط ـ من دون أن تشرق عليها بل هي شرقية غربية، تأخذ حظها من الأمرين جميعاً، لا يظلها جبل ولا شجر ولا كهف، نحو أن تكون على تل من الأرض تقع عليها الشمس في جميع النهار وإذا كانت على هذه الصفة كانت أبصر لها وأجود لزيتها، وأتم لنباتها، وأنضج لثمرها. وقال الحسن: أراد بهذا شجرة في الجنة لأن أشجار الدنيا لا تخلو إما أن تكون شرقية أو غربية: وسميت شجرة الزيتون مباركة لأنها كثيرة البركة والمنافع، لأن الزيت يسرج به وهو إدام ودهان ويوقد بحطبها ويدبغ بها، ويغسل برمادها الإبريسم. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة**»[1]. قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ وإن لم توقد بها فكيف إذا استصبح به. قال المفسرون: هذا مثل للمؤمنين فالمشكاة والمصباح هما الإيمان والقرآن، والزجاجة صدر المؤمن. ومعنى قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاء العلم ازداد هدى على هدى. وقيل المشكاة نفسه والزجاجة صدره والمصباح هو الإيمان والقرآن في قلبه يوقد من شجرة مباركة، وهي الإخلاص، قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يريد به نور السراج، ونور الزجاج، ونور الدهن، ونور الكوكب. فكما أن الزيت والسراج والكوكب نور على نور في مشكاة لا تتفرق بشعاع السراج فيها. فكذلك الإيمان في قلب المؤمن نور على نور فإن المعرفة في قلبه نور وصدره نور وسمعه نور وبصره نور وكلامه نور وعمله نور، إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا قال صدق، وإذا حكم عدل فهو يتقلب في الأنوار ومصيره يوم القيامة إلى النور كما قال تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾[2]، وقيل هذا مثل ضربه اللّه لنبيه صلى اللّه عليه وسلم. فالمشكاة صدره والزجاجة قلبه والمصباح فيه النبوة ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وهي شجرة النبوة يكاد نور محمد صلى اللّه عليه وسلم يضيء أي يبين للناس ولو لم يتكلم

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب: 5/ 100، رقم: 5939، باب في المطاعم والمشارب.
(2) سورة الحديد (57)، الآية: 12.

به كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار. وقال ابن عمر في هذه الآية: المشكاة جوف محمد صلى اللَّه عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح النور الذي جعله اللَّه فيه. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ أي لا يهودية ولا نصرانية ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ يعني بالشجرة إبراهيم الخليل عليه السلام ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ يعني النور الذي جعل في إبراهيم، والنور الذي جعل في محمد صلى اللَّه عليه وسلم. وقال محمد بن كعب: المشكاة إبراهيم والزجاجة إسماعيل، والمصباح محمد صلى اللَّه عليه وسلم. سماه اللَّه مصباحاً كما سماه اللَّه سراجاً. فقال عزّ وجلّ: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (46)﴾ وقوله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ يعني إبراهيم عليه السلام سماه مباركاً لأن أكثر الأنبياء كانوا من صلبه. ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ يعني أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ وإنما قال كذلك لأن النصارى يصلون قبل المشرق، واليهود يصلون قبل المغرب. قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يعني تكاد محاسن محمد صلى اللَّه عليه وسلم تظهر للناس قبل أن يوحى إليه. قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ أي نور نبي من نسل نبي. وقال الضحاك: يعني بالمشكاة عبد المطلب شبهه بها، ويعني بالزجاجة: عبد اللَّه، وبالمصباح النبي صلى اللَّه عليه وسلم، كان في صلبهما فورث النبوة من الشجرة المباركة وهي إبراهيم توقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية بل هي مكية في وسط الدنيا[1] وصف بعض الفصحاء هذه الشجرة، فقال هي شجرة الزيتون وشجرة الهدى والإيمان أصلها نبوة وفرعها مروءة، وأغصانها تنزيل، وورقها تأويل، وخدمها ميكائيل وجبرائيل. وقيل إنما شبه اللَّه قلب المؤمن بالزجاجة لأن ما في الزجاجة يُرى من خارجها فكذلك ما في القلوب يبين على الظاهر في الأعمال والأقوال فكما أن الزجاجة تنكسر بأدنى شيء فكذلك القلب يفسد بأدنى آفة تحله[2]. وقوله تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي يوفق اللَّه الإسلام، ويدل بأدلته من يشاء ليعرفوا بذلك أمر دينهم.

---

(1) يراجع قول الضحاك في تفسير القرطبي: 12/ 263.

(2) يراجع هذه الأقوال في تفسير الثعلبي: خ.

قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ أي يضرب اللَّه الأشباه للناس في القرآن تقريباً للشيء الذي أراده إلى الإفهام، وتسهيلاً لسبيل الإدراك على الأنام كما شبه المعرفة في قلب المؤمن بالمصباح في الزجاجة. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي عليم بكل شيء من مصالح العباد.

قال اللَّه تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿36﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿37﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿38﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ يعني بذلك المصباح في بيوت، وقيل معناه: توقد في بيوت وهي المساجد، أذن اللَّه في رفعها يعني في رفع بنائها. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ﴾[1] ويستدل بهذه الآية أنه لا يؤذن في رفع شيء من الأبنية فوق الحاجة غير المساجد التي يصلي فيها المؤمنون، ويستضيء بنور قناديلها العابدون. قال الحسن: يعني قوله: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ أي تعظم وتصان عن الأنجاس، واللغو من الأقوال، والأفعال، وعن التكلم بالخفاء، ويذكر فيها اسمه. وفي الحديث عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وبيعكم وشراءكم وسل سيوفكم، وإقامة حدودكم، وجمروها في الجمع، واجعلوا على أبوابها المطاهر**»[2]. قال ابن عباس: المساجد بيوت اللَّه عزّ وجلّ في الأرض وهي تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض قوله تعالى: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أي ويذكر

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 127.

(2) أخرجه ابن ماجه في سننه: 1/247، رقم: 750، باب ما يكره في المساجد، جنبوا من التجنيب أي بعدوا هذه الأشياء عن المساجد، وجمروها: أي بخروها، والمطاهر: محال يتوضأ فيها المحتاج، ويقضي حاجته.

في المساجد اسم اللّه تعالى وتوحيده. قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝٣٦﴾ أي يصلي للّه تعالى في تلك البيوت الصلاة المفروضة بالقدر أي صلاة الغداة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ يعني العشيات. والأصيل ما بين العصر إلى الليل، وسميت الصلاة تسبيحاً لاختصاصها بالتسبيح. وقرأ ابن عامر: يسبَّح بفتح الباء على ما لم يسم فاعله[1]، ثم فسر من يصلي فقال: ﴿رِجَالٌ﴾ كأنه قال من يسبح؟ فقيل ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي لا تشغلهم تجارة ولا بيع عن طاعة اللّه، وعن إقامة الصلاة في تلك البيوت، وعن إعطاء الزكاة. قال الفراء: التجارة لأهل الجلب والبيع ما باعه الرجل على يديه[2]، وخص قوم التجارة هاهنا بالشراء لذكر البيع بعدها. والمعنى: لا يمنعهم ذلك عن حضور المساجد لإقامة الصلوات وإتمامها، وإذا حضر وقت الزكاة لم يحبسوها عن وقتها. قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧﴾ أي يفعلون ذلك خوفاً من يوم ترجف فيه القلوب، وتدور به حذو العيون حالاً بعد حال من الفزع والخوف. رجاء أن يجزيهم اللّه أحسن ما عملوا في دار الدنيا، ويزيدهم من فضله بغير استحقاق ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير حصر ولا نهاية.

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٣٩ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ معناه أن أعمال الكفار قد أحبطوها بكفرهم كسراب

---

(1) ذكر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات هذه القراءة: ص 456.
(2) معاني القرآن: 2/ 253.

بأرض مستوية ملساء يظنه العطشان ماء يرجو به النجاة حتى إذا جاء ذلك السراب ليشرب فيحيا لم يجده ماء بل رأى أرضاً بيضاء لا ماء فيها فيئس وتحيّر، كذلك الكافر في عمله يئس الآخرة عن عمله الذي كان يعمله ينقطع عنه طمعه عند شدة حاجته إليه، ثم يجد ضد ذلك من العقاب كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي عند عمله، يعني قدم على اللَّه فوفاه حسابه أي جازاه بعمله. والسراب: هو الشعاع الذي يتراءى للعين وقت الهاجرة في الفلوات يرى من بعيد كأنه ماء وليس بماء، والقيعة: جمع قاع نحو جار وجيرة، وهو ما انبسط من الأرض وفيه يكون السراب، وقيل معناه أن الكافر يحسب أن عمله يغنى عنه أو ينفعه، فإذا أتاه الموت، واحتاج إلى عمله لم يجده شيئاً أي لا منفعة فيه، ووجد اللَّه بالمرصاد عند ذلك، ﴿فَوَفَّىٰهُ﴾ جزاء عمله، ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾، أي حسابه سريع كلمح البصر، أو أقل لأنه تعالى لا يتكلم بآلة حتى يشغله سمع عن سمع. وسئل علي رضي اللَّه عنه: كيف يحاسبهم في حالة واحدة؟ فقال: كما رزقهم في حالة واحدة. قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ هذا تخير في المثل والمعنى: إن مثل أعمال الكفار أيضاً في الدنيا ومثل قلوبهم في خيالهم في الدنيا كمثل ظلمات في بحر لجي أي عميق كثير الماء يعلوه موج ومن فوق ذلك الموج موج، ومن فوق الموج الأعلى سحاب وهذا حد الكلام. ثم ابتدأ فقال ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ أراد ظلمة البحر وظلمة الموج الأدنى وظلمة الموج الأعلى وظلمة السحاب وظلمة الليل. قال المفسرون: أراد بالظلمات أعمال الكفار، وبالبحر الملح قلب الكافر والموج يغشى عليه من الجهل والشك والحيرة. وبالسحاب الرين والختم والطبع على قلبه. قال أبي بن كعب في هذه الآية: الكافر يتقلب في خمس من الظلم، فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة ومخرجه ظلمة، وقلبه ظلمة، ومصيره يوم القيامة إلى ظلمة[1]. كما قال تعالى: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾[2]، قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي إذا أخرج يده من هذه الظلمات لم يرها ولم يقارب أن يراها من

قراءة بل ظلمات حفص

(1) ذكر الطبري في تفسيره: 10/201، رقم: 19822، قول أبي بن كعب.
(2) سورة الحديد (57)، الآية: 13.

شدة الظلمات، فكذلك الكافر لا يبصر الحق والهدى وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿40﴾﴾ أي من لم يهده الله فما له من إيمان ومن لم يجعل الله له نوراً فما له في الدنيا من نور. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله خلقني من نوره، وخلق أبا بكر من نوري، وخلق عمر وعائشة من نور أبي بكر وخلق المؤمنين من أمتي من نور عمر، وخلق المؤمنات من أمتي من نور عائشة، فمن لم يحبني ويحب أبا بكر وعمر وعائشة فما له من نور**»[1]، فنزل عليه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿41﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿42﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿43﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿44﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ معناه: ألم تعلم أن الله يسبحه أي ينزهه من في السمٰوات والأرض من العقلاء وغيرهم وكنى عن الجميع بكلمة: من، تغليباً للعقلاء على غيرهم، ويقال أراد بالآية العقلاء، وهذا عموم أراد به الخصوص في أهل الأرض وهم المؤمنون. وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ أي يسبح له الطير باسطات أجنحتها في الهواء والصف في اللغة هو البسط ويسمى القديد صفيفاً لأنه يبسط، وخص الطير بالذكر من جملة الحيوان لأنها تكون بين السماء والأرض وهي خارجة عن جملة من في السموات. قوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي كل من هؤلاء قد علم صلاته وتسبيحه. قال المفسرون: الصلاة لبني آدم والتسبيح عام لما سواهم من الخلق، وفيه وجوه من التأويل، أحدها: كل مصل ومسبح قد

---

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره: خ، هذا الأثر عن أنس، وكذا القرطبي في تفسيره: 12/287.

علم صلاة نفسه وتسبيح نفسه، والثاني: قد علم كل منهم تسبيح اللّه وصلاته ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من الطاعة وغيرها. وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له تقديرهما وتدبيرهما وتصريف أحوالهما ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ أي ينشئه ويسوقه سوقاً رفيقاً قطعاً ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ أي يجمع بين قطع السحاب المتفرقة والسحاب جمع واحده سحابة. والتأليف: ضم بعضه إلى بعض حتى يجعل قطعة واحدة. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ أي متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي فترى المطر يخرج من وسطه وأثنائه، والخِلال جمع الخلَل مثل الجبال والجَبل. قال الليث: الودق: المطر كله شديده وهينه[1]، وخلال السحاب مخارج القطر منه. قرأ ابن عباس والضحاك: من ﴿خَلَلِهِ﴾[2] قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ أي من جبال في السماء وتلك الجبال من برد. قال ابن عباس: أخبر اللّه أن في السماء جبالاً من برد، ومفعول الإنزال محذوف تقديره: وينزل من السماء برداً من جبال برد فيها فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه. ومن الأولى لابتداء الغاية لأن ابتداء الإنزال من السماء، والثانية للتبعيض لأن ما ينزله اللّه بعض تلك الجبال التي في السماء، والثالثة لتبيين الجنس، لأن جنس تلك الجبال البرد. كما تقول: خاتم من حديد، وكان عمر رضي اللّه عنه يقول: جبال السماء أكثر من جبال الأرض. قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي فيصيب بالبرد من يشاء فيهلكه ويهلك زرعه. قوله عزّ وجلّ: ﴿وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ فلا يضره في زرعه وثمرته. قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ أي يكاد ضوء برق السحاب يذهب بالأبصار من شدة ضوئه وبريقه ولمعانه، لأن من نظر إلى البرق خيف عليه ذهاب البصر. قرأ أبو جعفر: يُذهِب بالأبصار، بضم الياء وكسر الهاء[3]. قوله تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي يقلبهما في الذهاب والمجيء والزيادة والنقصان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ

---

(1) يراجع حاشية الجمل على الجلالين: 3/ 231.
(2) ذكر النحاس في إعراب القرآن: 3/ 142، هذه القراءة، وكذا الطبري في تفسيره: 10؛ 205.
(3) ذكر النحاس هذه القراءة في المرجع نفسه، وكذا الثعلبي في تفسيره: خ.

﴿لَعِبْرَةً لِأُوْلِي الْأَبْصَارِ﴾ أي إن في ذلك التقليب وفيما ذكر لعبرة لذوي العقول من الناس. يقال فلان صاحب بصير أي صاحب عقل.

قال اللّه تعالى:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (46) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (47) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (48) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ من النطفة من ماء الذكر والأنثى، والخلق من الماء أعجب لأنه ليس شيء إلا وهو أشد طوعاً من الماء لأن الماء لا يمكن إمساكه بيده ولا أن يبنى عليه، ولا أن يتخذ منه شيء. والمعنى واللّه خلق كل حيوان يشاهد في الدنيا ولا يدخل الجن والملائكة في هذا لأننا لا نشاهدهم. وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحيات والهوام والحيتان، وإنما قال فمنهم تغليباً للعقلاء ولو كان لما لا يعقل لقال فمنها ما يمشي على بطنه. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كالبهائم والسباع. والدابة اسم كل حيوان من مميز وغيره. قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ظاهر المعنى. قرأ الكوفيون غير عاصم: واللّه خالق، على الاسم[1]. قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ يعني القرآن هو المبين للهدى والأحكام ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يرشد من يشاء إلى دين الإسلام الذي هو دين اللّه، وطريق

---

(1) يراجع ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 457، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2/ 140، وكذا النحاس في إعراب القرآن: 3/ 143.

رضاه وجنته. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ يعني المنافقين يقولون: صدقنا بتوحيد اللَّه وبالرسول محمد صلى اللَّه عليه وسلم وأطعناهما فيما حكما ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي ثم تعرض طائفة من بعد ذلك، أي من بعد قولهم آمنا ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين أعرضوا عن حكم اللَّه ورسوله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ معناه: وإذا دعوا إلى كتاب اللَّه ورسوله ليحكم بينهم الرسول فيما اختصموا فيه ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن ما يُدعون إليه. نزلت هذه الآية. في بشر المنافق وخصمه اليهودي حين اختصما في أرض فجعل اليهودي يجره إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ليحكم بينهما، وجعل المنافق يجره إلى كعب بن الأشرف يقول: إن محمداً يحيف[1] علينا فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿48﴾﴾ عن الكتاب والسنة. قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿49﴾﴾ معناه: وإن يكن لهم القضاء على غيرهم يأتون إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم مسرعين مطيعين منقادين لحكمه، والإذعان الإقرار بالحق مع الانقياد له. قال الزجاج: الإذعان: الإسراع مع الطاعة[2].

قال اللَّه تعالى:

﴿أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿50﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿51﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿52﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿53﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿54﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ

---

(1) يحيف علينا أي يظلمنا، الواحدي في أسباب النزول: ص 272، وقد مضت هذه القصة عند تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ في سورة النساء الآية: 60.

(2) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 50، بلفظه تقريباً.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ (55)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ لفظه لفظ استفهام ومعناه التوبيخ وذلك أشد ما يكون في الذم كما جاء في المبالغة في المدح:

ألستم خير من ركب المطايا ∴ وأندى العالمين بُطُون راح[1]

يعني أنتم كذلك. وقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ﴾ أي شكوا في القرآن ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ الحيف هو: الميل في الحكم والظلم ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأنفسهم بإعراضهم عن الحق. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ﴾ نصب ـ قول ـ على خبر كان، واسمها: أن يقولوا سمعنا وأطعنا. وذلك أن علياً رضي اللَّه عنه باع من عثمان رضي اللَّه عنه أرضاً بالمدينة لا ينالها الماء فجاء قوم عثمان فندموا عثمان على ما صنع، وقالوا لا تذهب في خصومتك مع علي إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فإنه يحكم له، فلم يقبل منهم عثمان وتحاكما إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فقضى لعلي رضي اللَّه عنه. فأبى قوم عثمان أن يرضوا بقضائه، فقال عثمان رضي اللَّه عنه: سمعنا وأطعنا، أي سمعنا قولك يا رسول اللَّه، وأطعنا أمرك، ورضينا بحكمك وقضائك، وإن كان ذلك فيما يكرهونه ويضرّ بهم. وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ يعني الراضين بقضاء اللَّه ورسوله. فلما نزلت هذه الآية أقبل عثمان إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وقال: يا رسول اللَّه، واللَّه لئن شئت لأخرجن من أرضي كلها التي أملكها وأدفعها إليه، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ (52) وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ معناه: ومن يطع اللَّه ورسوله فيما أساءه وسره، ويخشى اللَّه فيما

---

(1) هذا البيت من قصيدة لجرير يمدح بها الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان، ومطلعها:
أتصحو بل فؤادك غير صاح ∴ عشية همّ صحبك بالرواح

مضى من ذنوبه، ويتقي اللَّه فيما بعد فلم يعص اللَّه فأولئك هم الفائزون برضاء اللَّه وخشيته. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي حلفوا باللَّه وبالغوا في القسم لئن أمرتهم ليخرجن من مالهم كله لفعلوا. قل لهم لا تقسموا، أي لا تحلفوا وتمّ الكلام هاهنا. ثم قال ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾، أي هذا القول منكم يعني القسم طاعة حسنة.

وقال بعضهم: هذه الآية نزلت[1] في المنافقين كانوا يحلفون باللَّه لئن أمرهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم بالخروج إلى الجهاد ليخرجنّ ولم يكن في نيتهم الخروج فقيل لهم: لا تقسموا طاعة معروفة أمثل من قسمكم بما لا تصدقون. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (53)﴾ يعني عليم بما تعملون من طاعتكم بالقول، ومخالفتكم بالفعل. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ ظاهر المعنى. وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ أي فإن أعرضوا عن طاعة اللَّه وطاعة رسوله فإنما على الرسول ما حمل من التبليغ في أداء الرسالة، وعليكم ما حملتم من الطاعة. ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ أي تطلبوا الحق. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي ليس عليه إلا أن يبلغ ويبين لكم. قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ نزلت هذه الآية في أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، أقاموا بمكة قبل الهجرة لا يمكنهم إظهار الإسلام، ولا أذن لهم في القتال، وكذلك بعدما هاجروا إلى المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا مع السلاح ولا يصبحون إلا فيه. فجاء رجل إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه أهكذا حالتنا أبداً؟ فأنزل اللَّه هذه الآية[2]: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي ليبوئنهم أرض المشركين من العرب والعجم كما استخلف بني

---

(1) يراجع القرطبي في تفسيره: 12/ 296.
(2) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 212، وأسباب النزول للواحدي: ص 272. والسيوطي في تفسيره: 5/ 100.

إسرائيل بأرض مصر والشام بعد إهلاك الجبابرة بأن أورثهم أرضهم وديارهم وجعلهم سكاناً وملوكاً. وقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ أي ليوسع لهم البلاد حتى يملكوها، ويظهر دينهم على جميع الأديان ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾، قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب على الحال أي لأفعلن ذلك في حال عبادتهم. قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

قال اللّه تعالى:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿56﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿57﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿58﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿56﴾﴾ ظاهر المراد. قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لا تحسبن كفار مكة يا محمد فائتين من عذاب اللّه أو يفوتوننا هرباً. فقدرة اللّه تعالى محيطة بهم ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ أي ليستأذنكم في الدخول عليكم عبيدكم وإماؤكم والذين لم يبلغوا الحلم أي من أحراركم من الرجال والنساء، والمعنى ليستأذنكم عبيدكم وإماؤكم ومن لم يبلغوا الحلم من صغار أولادكم من الأحرار في الدخول عليكم في ثلاثة أوقات من الليل والنهار يكون الغالب فيها كشف العورات. ثم بين الأوقات الثلاثة فقال: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي وقت القيام من المضاجع، والتهيؤ للصلاة بالطهارة ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ وهو وقت القيلولة ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ أراد به العشاء

الآخرة. وهذه الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لأن الإنسان يضع ثيابه فيها في العادة. فمن قرأ ثلاث بالرفع[1] فمعناه: هذه الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم، ومن قرأ ثلاث بالنصب جعله بدلاً من قوله ثلاث مرات. قال السدي: كان أناس من الصحابة يعجبهم أن يواقعوا نساءهم في هذه الساعة ليغتاطوا ثم يخرجوا إلى الصلاة فأمرهم اللَّه أن يأمروا الغلمان والمملوكين أن يستأذنوا في هذه الثلاث الساعات. قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي لا جناح عليكم ولا عليهم في ألاّ تستأذنوا في غير هذه الأوقات. قوله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ أي طوافون عليكم يدخلون ويخرجون، ويذهبون ويجيئون ويترددون في أحوالهم وأشغالهم بغير إذن، يريد أنهم خدمكم فلا بأس أن يدخلوا في غير هذه الأوقات بغير إذن. قال مقاتل معناه: يطوف بعضكم وهم المماليك على بعض وهم الموالي. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي هكذا يبين اللَّه لكم الدلالات والأحكام في أحوال الاستئذان واللَّه عليم بمصالح العباد حكيم فيما حكم من استئذان الخدم وغيرهم في هذه الأوقات الثلاثة دون سائر الأوقات. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ معناه إذا بلغ الأطفال وأحراركم وعبيدكم فليستأذنوا في جميع الأوقات، وفي عموم الأحوال كما استأذن المذكورون من قبلهم على ما بينه اللَّه في كتابه يعني بقوله: كما استأذن الذين من قبلهم الأحرار الكبار الذين أمروا بالاستئذان في كل حال في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[2] فليس للعبد البالغ أن يدخل منزل مولاته ولا للولد البالغ أن يدخل على أمه وعلى ذات محارمه في كل وقت إلا بإذن.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ

---

(1) قال ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 459، قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم (ثلاث عورات) رفعاً، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر: (ثلاث عورات) نصباً. يراجع النحاس في إعراب القرآن: 3/ 146، والفراء في معاني القرآن: 2/ 260.

(2) سورة النور (24)، الآية: 27.

يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَـٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿59﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿60﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَـٰلَـٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَـٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿61﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ﴾ معناه: والقواعد من النساء اللاتي قعدت عن الحيض من الكبر، وهن العجائز اللاتي لا يردن النكاح لكبرهن فليس عليهن منا حرج في أن يضعن ثيابهن يعني الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار لا كل الثياب. قوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَـٰتٍۭ بِزِينَةٍۖ﴾ التبرج هو أن تظهر المرأة محاسنها من وجهها وجسدها، والمعنى من غير أن يردن بوضع الجلباب أن نرى زينتهن. قال مقاتل: ليس لها أن تضع الجلباب يريد بذلك أن تظهر قلائدها وقرطها، وما عليها من الزينة. قوله تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّۗ﴾ من غير أن يضعن ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لمقالة العباد ﴿عَلِيمٌ ﴿60﴾﴾ بأعمالهم. يقال: امرأة قاعد إذا قعدت عن الحيض فإذا قيل قاعدة بالهاء أراد جالسة، والجمع فيهما جميعاً قواعد. قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وذلك أن المسلمين كانوا إذا غزوا خلفوا في منازلهم زمناهم وكانوا يدفعون إليهم المفاتيح، ويقولون لهم قد أبحنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون لا ندخلها وهم غيّب امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ﴾[1]

---

(1) سورة النساء (4)، الآية: 29.

فنزلت هذه الآية رخصة لهم[1]، ومعناها نفي الحرج على الزمنى في أكلهم من بيوت أقاربهم، أو بيت من يدفع لهم المفتاح إذا خرج للغزو وخلفه، يحفظ ماله لأنهم كانوا يتحرجون أن يأكلوا مما يحفظونه فأعلمهم اللّه تعالى أنه لا جناح عليهم في ذلك، وذهب الحسن إلى أن معنى الآية ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج في ترك الخروج إلى الجهاد. قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي ولا حرج عليكم أن تأكلوا من بيوتكم أراد بهذا بيوت أبنائهم ونسلهم، وإنما أضاف بيوت الأبناء إليهم لأنهم من أنفسهم كما قال صلى اللّه عليه وسلم: «**أنت ومالك لأبيك**»[2].

ولهذا قابله ببيوت الآباء فقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ ولم يقل أو بيوت أبنائكم فعلم أن المراد بقوله: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي بيوت أبنائكم وأزواجكم وبنت المرأة كبنت الزوج. قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ وخرج الكلام على وفق العادة لأن الغالب من حال هؤلاء أن تطيب أنفسهم بذلك، فجاز الأكل من غير إذن لدلالة الحال، فأما إذا علم أن صاحب البيت لا تطيب نفسه بذلك لم يحل له أن يتناول شيئاً من ذلك. قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني بيوت عبيدكم وإمائكم وذلك أن السيد يملك بيت عبده، والمفاتيح معناها الخزائن. كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[3] أي خزائن الغيب ،وقيل معناه للمفاتيح التي يفتح بها الخزائن يعني بذلك الوكلاء والأمناء والعبيد الذين يملكون أمر الخزائن وتكون مفاتيحها بأيديهم، وليس عليهم في الأكل جناح إذا كان أكلاً يسيراً، مثل أن يأكل من تمر حائط يكون قيماً عليه، أو يشرب من لبن ماشية يكون قيماً عليها. وقال السدي: الرجل يولي طعامه غيره يقوم عليه فلا بأس أن يأكل منه[4]. قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ يعني صديقاً يسره أن يأكل من طعامه

---

(1) ذكر الطبري في تفسيره: 10/ 224.
(2) أخرجه ابن ماجه في سننه، 2/ 769، رقم: 2291، باب ما للرجل من مال ولده.
(3) سورة الأنعام (6)، الآية: 59.
(4) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 4/ 222.

وإنما أطلقه على عادة الصحابة رضي اللَّه عنهم كما روي في سبب النزول هذا أن مالك بن زيد والحارث بن عمرو كانا صديقين فخرج الحارث غازياً، وخلف مالكاً في أهله وماله وغرائبه، فلما رجع من الغزو ورأى مالكاً مجهوداً قال: ما أصابك؟ قال: لم يكن عندي شيء، ولم يحل لي أن آكل من مالك. فنزل قوله تعالى[1]: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًاۚ﴾ سبب نزول هذه الآية أن بني كنانة وهم حي من العرب كان الواحد منهم يجوع أياماً، ولا يأكل حتى يجد ضيفاً فيأكل معه، وإذا لم يجد أحداً لم يأكل شيئاً وربما كانت معه الإبل محفلة فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه، فأعلم اللَّه تعالى أن الرجل منهم إذا أكل وحده فلا إثم عليه[2]. ومعنى أشتاتاً متفرقين.

ويستدل من هذه الآية أن للجماعة في السنن أن يخلطوا طعامهم فيأكلوا جميعاً أو يأكل واحد منهم من زاده، ولا حرج عليهم في ذلك. والغرض من هذه الآيات أن اللَّه تعالى لما أنزل قوله تعالى: ﴿لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾[3] تحرج المسلمون من مؤاكلة المرضى، والزمنى، والعميان، والعرجى. وقالوا قد نهانا اللَّه عن أكل المال بالباطل والأعمى لا يبصر موضع الطيب من الطعام، والأعرج لا يستطيع المزاحمة، والمريض لا يستوفي حقه من الطعام، فأنزل اللَّه هذه الآيات[4]. والمعنى: ليس عليكم في مؤاكلة الأعمى، والأعرج، والمريض حرج. وقال الضحاك: كان العرجان، والعميان لا ينزهون عن مؤاكلة الأصحاء لأن الناس يتقذرونهم، ويكرهون مؤاكلتهم. وكان أهل المدينة لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا أعرج، ولا مريض تقذراً فأنزل اللَّه هذه الآيات[5]. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي يسلم بعضكم على بعض. وإنما قال على أنفسكم لأن المؤمنين كنفس واحدة وقيل هذا في دخول الرجل بيت نفسه والسلام على

---

(1) ذكره البغوي في المرجع نفسه، والقرطبي في تفسيره: 2/ 315.
(2) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 228، وكذا الواحدي في أسباب النزول: ص 274.
(3) سورة النساء (4)، الآية: 29.
(4) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 223.
(5) الواحدي، في أسباب النزول: ص 273.

أهله، ومن في بيته. قال قتادة: إذا دخلت بيتك فسلم على أهلك فهم أحق من سلمت عليه، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. ومن السنة إذا دخل الرجل بيت نفسه أن يسلم على أهله فإنه يزداد بذلك بركة في بيته وأهله. قال صلى الله عليه وسلم: «**إذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أهليكم، وإذا طعمتم طعاماً فاذكروا اسم الله عليه، فإن الشيطان إذا سلم أحدكم لم يدخل بيته، وإذا ذكر اسم الله على طعامه قال لجنده من الشيطان: لا مبيت لكم، ولا عشاء. وإن لم يسلم حين يدخل بيته، ولم يذكر اسم الله على طعامه قال الشيطان لجنده: أدركتم العشاء والمبيت**»(1). قوله تعالى: ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي افعلوا ذلك تحية أمركم الله بها لكم فيها البركة، والمغفرة، والثواب ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي هكذا يبين الله لكم الدلالات والأحكام ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لكي تعقلوا.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (62) لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (63) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (64)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ في الآية ثناء على المؤمنين، وإذا كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في أمر جامع، أي في أمر طاعة يجتمعون عليه نحو الجمعة وصلاة العيدين، والجهاد وأشباه ذلك لم يذهبوا حتى يستأذنوه. قال المفسرون:

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه: 2/ 1279، رقم: 3887، باب ما يدعو به إذا دخل بيته.

كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا صعد المنبر يوم الجمعة وأراد الرجل أن يخرج لحاجة، أو عذر لم يخرج حتى يقوم بحيال النبي صلى اللّه عليه وسلم حيث يراه فيعرف أنه إذا قام ليستأذن فيأذن لمن يشاء منهم[1]. قال مجاهد: وأذن للإمام يوم الجمعة أن يشير بيده. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ نزلت في عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، حين استأذن النبي صلى اللّه عليه وسلم في الرجوع من غزوة تبوك إلى المدينة لعلة كانت به[2]. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ قيل إن هذا منسوخ بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أي استغفر لهؤلاء المستأذنين إذا استأذنوك لعذرهم إن اللّه غفور للناس رحيم بهم[4]. قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي ادعوه بالخضوع والتعظيم وقولوا: يا رسول اللّه ويا نبي اللّه في لين وتواضع وخفض صوت، ولا تقولوا يا محمد ويا أبا القاسم، كما يدعو بعضكم بعضاً باسمه. قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ أراد به المنافقين. كان النبي صلى اللّه عليه وسلم إذا خطب الناس يوم الجمعة عابهم في خطبته فسماهم رجساً فإذا سمعوا ذلك نظروا يميناً وشمالاً فإن أبصرهم أحد لم يقوموا وإن لم يبصرهم أحد قاموا فخرجوا من المسجد يتسللون. والتسلل الخروج في خفية، واللواذ أن يستتر بعضهم ببعض ثم يمضي. يقال لاوذت بفلان ملاوذة ولواذاً.

قال ابن عباس: هو أن يلوذ بغيره فيهرب من المسجد من غير استئذان. قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ليحذر الذين يعرضون عن أمر اللّه، ويخالفون في أمره أن تصيبهم فتنة أي بلية، أو يصيبهم عذاب أليم في الآخرة. قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له كل ذلك ملكاً وقدرة. ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره معالم التنزيل: 4/ 223.
(2) ذكره القرطبي في تفسيره: 12/ 320.
(3) سورة التوبة (9)، الآية: 43.
(4) ذكره القرطبي في المرجع السابق نفسه.

قد يعلم ما يبديه كل متعلم وما يخفيه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ معناه: يعلم ما أنتم عليه من الإيمان والنفاق ويعلم يوم يرجعون إليه يعني يعلم يوم يبعثون متى هو؟ ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ فيه ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ أي يخبرهم ويجزيهم بما عملوا في دار الدنيا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من أعمال العباد وغير ذلك. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة النور أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقي**»[1].

---

(1) ذكره الزمخشري في تفسيره الكشاف من غير إسناد: 3/ 80.
وذكره الثعلبي في تفسيره، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: خ، عند بداية تفسيره السورة.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال اللّه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿1﴾
ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ
كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿2﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿3﴾﴾.

قال أبو بكر: سورة الفرقان مكية، وهي ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثة وثلاثون حرفاً، وألف وثلاثمائة واثنتان وتسعون كلمة، وسبع وسبعون آية، قال صلى اللّه عليه وسلم: «**من قرأ سورة الفرقان دخل الجنة بغير حساب**»(1).

بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أي عظمت وكبرت بركات اللّه والبركة هي الخير الكثير وقيل معناه: تبارك أي تعالى. ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ الذي أنزل جبريل بالقرآن على عبده محمد صلى اللّه عليه وسلم، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي معلماً بموضع المخافة. والفرقان هو البيان الذي يفرق به بين الحق والباطل، ويزجر عن القبائح ويدعو إلى المحاسن - ويعني بالعالمين - الجن والأنس -. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي للّه خزائن السمٰوات والأرض والقدرة على أهلها ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ كما قالت اليهود والنصارى والمشركون ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ فيعاونه على ملكه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي قدر طوله، وعرضه، ولونه، ورزقه، وأجله. قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: 3/ 103.
ذكره الثعلبي من رواية أبي بن كعب.

وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ معناه: واتخذ كفار مكة من دون اللّه آلهة يعبدونها وهي الأصنام لا يقدرون أن يخلقوا شيئاً وهم يبحثون ما من شيء يكون فيها من ذهب أو فضة أو صفر، أو خشب إلا واللّه خالقها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا تملك الأصنام لأنفسها دفع ضر ولا جر نفع لأنها جماد لا قدرة لها ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي لا تملك أن تميت أحداً ولا أن تحيي أحداً، ولا تملك بعثاً للأموات، فكيف يعبد هؤلاء من لا يقدر على أن يفعل شيئاً من هذا، ويتركون عبادة ربهم الذي يملك ذلك كله؟ يقال: أنشر اللّه الأموات فنشروا أي أحياهم فحيّوا.

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿4﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿5﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿6﴾ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿7﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿8﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿9﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ أي قال الذين كفروا: ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه وأعانه على اختلاقه قوم آخرون من أهل الكتاب يعنون ـ جبراً ـ مولى لقريش ـ ويساراً ـ أبا فكيهة مولى لبني الحضرمي ـ وعداساً ـ مولى لحويطب بن عبد العزى، كان هؤلاء يقرؤون التوراة قبل أن يسلموا فلما أسلموا رأوا التوراة تشبه القرآن وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يمر بهم ويتعاهدهم[1]. فمن ذلك قال الكفار ﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ قوله تعالى:

---

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 13/ 3، 4.

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ أي قال الكافرون هذه المقالة شرعاً وكذباً، زعموا أن القرآن ليس من اللّه والمعنى قد جاءوا بظلم وزور فيما قالوا، فلما سقطت الباء أفضى إليه الفعل فنصبه. والزور: وضع الباطل في موضع الحق. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي قال الحارث بن شميل، وأصحابه: هذا القرآن أحاديث الأولين، في دهرهم كما كنت أحدثكم عن الأعاجم، اكتتبها محمد أي انتسخها من عداس، وجبر، ويسار فهي تقرأ عليه بكرة وأصيلاً، أي أمر أن يكتبوا له فهي تقرأ عليه غدوة وعشية ليحفظها. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لهم يا محمد أنزل القرآن الذي يعلم السر في السمٰوات والأرض لا يخفى عليه شيء فيهما ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ لمن تاب وآمن ﴿رَّحِيمًا﴾ بمن مات على التوبة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ أي قال المشركون على وجه الذم والتعيير للنبي صلى اللّه عليه وسلم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في الطرق كما نمشي لطلب المعيشة؟ والمعنى: إنه ليس بملَكٍ ولا ملِكٍ لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون والملوك لا يتسوقون. وقالوا ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ معه شريكاً في النبوة ﴿إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ ينتفع به ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ يعني بستاناً يأكل من ثمره ومعنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ أي ينزل إليه مال ينفعه، ولا يحتاج إلى طلب المعاش. وقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ قرأ حمزة، والكسائي، وخلف بالنون[1]، أي نأكل نحن من جنته ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ أي قال المشركون للمؤمنين: ما تتبعون إلا رجلاً مخدوعاً مغلوباً على عقله قد سحره وأزيل عنه الأسوأ. قوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ﴾ معناه: انظر يا محمد كيف ضربوا لك الأمثال يعني مثلوه بالمسحور وبالمحتاج. وقيل معناه: انظر كيف وضعوا لك الأشباه إنك ساحر، وكاهن، وكذاب، وشاعر، ومجنون، فضلوا عن الصواب والهدى وأخطأوا في النسبة ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ أي فلا يجدون طريقاً إلى إلزام الحجة

---

(1) ذكره ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 462.

ولا مخرجاً لأنفسهم بإثبات العذر في ترك الإيمان به، وذلك أنهم جعلوا معذرتهم في ذلك أشياء ليست بعذر، أما أكل الطعام فإنه كان في الرسل قبله، فلم يكن ذلك عذراً في ترك الإيمان بهم، ولو أنزل ملكاً فكان يحتاج إلى أن ينزل من السماء ويتردد في الأرض ليبلغ الرسالة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾[1] ولو جعل الملك شريكاً للنبي صلى الله عليه وسلم معاوناً له في الإنذار أدى ذلك إلى استصغار كل واحد منهما، فإنه لا يكون كل واحد منهما قائماً بنفسه في أداء الرسالة، وأما الكنز فإنه قد وجد مع كثير من الفراعنة، ولم يوجب ذلك اتباعهم، وعدم مع كثير من الأنبياء الذين أقر برسالتهم، وكذلك الجنان، ولأن الأنبياء صلوات الله عليهم إنما يبعثون لتزهيد الناس في الكنوز والجنان وترغيبهم في الآخرة، فكيف يجوز أن يمنعوا الناس عنه ويشتغلوا به هم؟

قال الله تعالى:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿10﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿11﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿12﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿13﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿14﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن ملكاً نزل من السماء، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يخيرك بين أن يعطيك خزائن كل شيء، ومفاتيح كل شيء لم يعطها أحد قبلك، ولا يعطاها أحد بعدك من غير أن ينقصوك شيئاً مما ادخر لك في الآخرة، وبين أن يجمعها لك في الآخرة، فقال صلى الله عليه وسلم: «**بل يجمعها لي في الآخرة**»[2]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**خيرني**

---

(1) سورة الأنعام (6)، الآية: 9.

(2) ذكره الطبري في تفسيره: 10/ 246، رقم: 19933.

جبريل بين أن أكون نبياً ملكاً، وبين أن أكون نبياً عبداً فاخترت أن أكون نبياً عبداً أشبع يوماً، وأجوع يوماً، أحمد اللّه إذا شبعت، وأتضرع إليه إذا جعت»[1]، وكان صلى اللّه عليه وسلم يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف النعل، ويرقع الثوب، ويركب الحمار العاري، ويردف خلفه، وكان قد أمات ذكر الدنيا عن نفسه، ويقول: «**يا عجباً كل العجب المتصدق بدار الخلود وهو يعمل بدار الغرور**»، ومعنى الآية تبارك وتعالى إن شاء يجعل لك خيراً من ما قالوه في الدنيا من جنات وكنوز، وإن شاء يجعل لك قصوراً في الدنيا أي لو شاء جعل لك أفضل من الكنز والبستان الذي ذكروا، ويجعل لك جنات تجري من تحتها الأزهار يعني في الدنيا لأنه قد شاء أن يعطيه في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ فمن قرأ بالجزم كان المعنى: إن شاء جعل لك جنات، ويجعل لك قصوراً في الدنيا لأنه قد شاء وإنما لم يجعل للحكمة التي أوجبت لك. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم: ويجعلُ بالرفع على الاستئناف[2]، وبمعنى وسيجعل لك قصوراً في الآخرة في الجنة والقصور هي البيوت المشيدة، سمي القصر قصراً لأنه قصر ومنع من الوصول إليه.

وعن ابن عباس قال: لما عير المشركون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالفاقة فقالوا: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لطلب المعاش، وشق ذلك على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وتعب من ذلك فنزل جبريل عليه السلام معزياً له، فقال له: يا رسول اللّه ربك يقرئك السلام، ويقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ لطلب المعاش في الدنيا، فبينما جبريل والنبي صلى اللّه عليه وسلم يتحدثان إذ أقبل رضوان خازن الجنان فسلم على النبي صلى اللّه عليه وسلم ومعه سمط من نور يتلألأ، فقال: يا رسول اللّه ربك يقرئك السلام، ويقول لك هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع أنه لا ينقص لك حظك في الآخرة جناح بعوضة.

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب: 2/ 172، رقم: 1467، فصل في زهد النبي صلى اللّه عليه وسلم وصبره.
(2) ذكره ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 462.

فنظر النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى جبريل مستشيراً ثم قال: «**يا رضوان لا حاجة لي فيها. العفو أحب إليّ، وأن يكون عبداً صابراً شكوراً وحامداً من السماء**» فرفع جبريل رأسه في السمٰوات قد فتحت أبوابها إلى العرش فأوحى اللّه تعالى إلى جنات عدن أن تدلي أغصانها فإذا غرفة من زبرجدة خضراء لها سبعون ألف باب من ياقوتة حمراء فقال جبريل: يا محمد ارفع بصرك فرفع فرأى منازل الأنبياء وغرفهم، وإذا له منازل قد فضل بها من دونهم وإذا منادٍ ينادي: أرضيت يا محمد؟ فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**قد رضيت**». قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ معناه: لا يستطيعون سبيلاً في إلزام الحجة، وإثبات المقْدرة ولكنهم كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بقيام الساعة ناراً سعيراً مستعرة ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ مسيرة خمسمائة عام ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا﴾ للنار غلياً وتغيظاً كتغيظ بني آدم وصوتاً كالزفير من شدة التهابها واضطرابها، وإنما قال إذا رأتهم وهم يرونها على معنى أنها كأنها تراهم رؤية الغضبان الذي يزفر غيظاً. قيل إنها لتزفر زفرة فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه[1]. قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس: يضيق عليهم كما يضيق الزج في الرمح[2]. قال صلى اللّه عليه وسلم: والذي «**نفسي بيده إنهم يستكرهون كما يستكره الوتد في الحائط**»[3]. والمعنى إذا طرحوا في مكان ضيق من النار مقرنين، أي مغلّلين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال، وقيل معناه مقرنين بأقرانهم من الجن والأنس يقولون: واثبوراه واهلاكاه، وفي الخبر أنهم إذا التقوا على باب جهنم يتضايق عليهم كتضايق الزج في الرمح فيزدحمون في تلك الأبواب الضيقة يرفعهم اللهب، وتخفضهم مقامع ملائكة العذاب فعند ذلك يدعون بالويل والثبور يقال لهم ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ فإن سبب الثبور دائم لا ينقطع.

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره: 4/ 228.

(2) البغوي في المرجع نفسه.

(3) ذكره السيوطي في الدر المنثور: 5/ 117.

قال اللّه تعالى:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا
لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ⑯ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ⑮
وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ
⑰ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ⑱ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا
تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ⑲﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي قل أذلك العذاب والسعير خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون؟ وهذا على طريق التعجب والتبعيد لا على طريق الاستفهام لأنه ليس في السعير خير. قوله تعالى: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ أي كانت الجنة للمتقين جزاء ومرجعاً في الآخرة ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ أي لهم في جنة الخلد ما يشاؤون ﴿كَانَ﴾ ذلك الخلود ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ⑯﴾، وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم في الدنيا حين قالوا: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك. فقال اللّه تعالى كان إعطاء اللّه المؤمنين جنة الخلد وعداً واجباً، وذلك أن المسؤول واجب وإن لم يسأل كالدين، ونظيره قول العرب: لأعطينك ألفاً وعداً مسؤولاً، يعني أنه واجب لك فاسأله. وقيل معنى الوعد المسؤول: أن الملائكة تسأل لهم ذلك يقولون: ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتم. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني كفار مكة وسائر المشركين ممن كان يعبد غير اللّه يعني الذين يعبدون الملائكة وعزيراً وعيسى والأصنام. فيقول اللّه للكفار لماذا عبدتم غيري؟ فيقولون لأنهم أمرونا بعبادتهم فيقول اللّه تعالى للملائكة ولعيسى وعزير على وجه التبكيت والتقريع للكفار: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء حتى عبدوكم، وأنتم أمرتموهم بعبادتكم ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾

وأخطأوا الطريق بهوى أنفسهم؟ ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي قالوا تنزيهاً لك عن أن نعبد غيرك، وما ينبغي لنا ولعابدينا أن نتخذ من دونك من أولياء فكيف جاز لنا أن نأمرهم يعبدوننا دونك ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ أي ولكن طولت أعمارهم ووسعت لهم في الرزق، وأمهلتهم في الكفر حتى اغتروا بذلك، وتركوا التوحيد والطاعة، ونسوا القرآن ﴿وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هلكى فاسدي القلوب، والبوار هو الهلاك، والبائر: الفاسد والأرض البائر: هي التي عطلت عن الزراعة، وقيل معناه: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي هالكين فاسدين قد غلب عليهم الشقاء والخذلان، ومنه بوار السلعة والأيم إذا كسدت أو فسدت. قرأ أبو جعفر وابن كثير، ويعقوب: ويوم يحشرهم بالياء[2]. وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ قرأ الحسن وأبو جعفر - نُتخذ - بضم النون وفتح الخاء[3]. قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ أي يقال للكفار حينئذ فقد كذبوكم بما تقولون أي كذبوكم بقولكم إنها آلهة شركاء للّه. ومن قرأ بما يقولون بالياء[4]، فالمعنى كذبوكم بقولهم: سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء. قال عكرمة، والضحاك، والكلبي: يأذن اللّه للأصنام في الكلام ويخاطبها فيقول: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء، أم أمرتموهم بعبادتكم، أم هم ضلوا السبيل[5]؟ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم، أي أطلت أعمارهم، ووسعت عليهم في الرزق حتى نسوا الذكر، أي تركوا القرآن فلم يعملوا بما فيه. وقيل: نسوا الإيمان والتوحيد وكانوا قوماً بوراً، فيقول اللّه للمشركين: فقد كذبوكم بما

---

(1) سورة المائدة (6)، الآية: 116.
(2) ينظر النشر في القراءات العشر: 2/ 332، وابن مجاهد في كتاب السبعة: ص 462.
(3) المرجع نفسه، والفراء في معاني القرآن: 2/ 264.
(4) ينظر ابن مجاهد في المرجع نفسه، وكذا الفراء.
(5) البغوي في تفسيره: 4/ 229.

مع غير قراءة حفص

تقولون. وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ أي لا يقدرون على صرف العذاب عن أنفسهم، ولا على نصر أنفسهم ودفع العذاب والبلاء الذي هم فيه، ولا أن ينتصروا من معبودهم. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ أراد بالظلم الشرك أي ومن يشرك بالله منكم نذقه في الآخرة عذاباً شديداً.

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿20﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿21﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿22﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿23﴾ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿24﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي يأكلون كما تأكل أنت، ويمشون في الأسواق، وهذا احتجاج عليهم في قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ أي بلية ابتلى الشريف بالوضيع، والعربي بالمولى، فإذا أراد الشريف أن يسلم ورأى الوضيع قد أسلم قبله أنف وقال أُسْلِم بعده فيكون له عليَّ السابقة والفضل، فيقيم على كفره، ويمتنع عن الإسلام فذلك افتتان بعضهم ببعض ـ وهذا قول الكلبي[1] ـ وقيل الفتنة هاهنا أي العداوة التي كانت بينهم في الدين وما كان المؤمنون يلقون من أذى الكفار ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ أيها المؤمنون على أذاهم حتى تصلوا إلى ثواب الصابرين فإن بعضكم لبعض فتنة يقول الفقير: لو شاء الله أغناني مثل فلان، ويقول السقيم: لو شاء الله أصحني مثل هذا، ويقول الأعمى: لو شاء الله

---

(1) الثعلبي في الكشف والبيان: خ.

أبصرني مثل فلان ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بالأغنياء والفقراء وغيرهم، أعني من أوجبت الحكمة غناه، وأفقر من أوجبت الحكمة فقره. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي قال الذين لا يخافون البعث بعد الموت هلا أنزل علينا الملائكة رسلاً، أو نرى ربنا فيخبرنا أنك رسول. قال اللَّه تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي لقد تعظموا في أنفسهم حيث سألوا من الآيات ما لم يسأله أحد قط ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿21﴾﴾ حين قالوا: أو نرى ربنا. والعتو: مجاوزة الحد في الظلم، وقيل العتو: أشد الكفر. والمعنى: جاوزوا الحد مجاوزة شديدة. قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أعلم اللَّه تعالى أن الوقت الذي يرون فيه الملائكة هو يوم القيامة، وأن اللَّه حرمهم البشرى في ذلك اليوم.

فقال: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يعني يوم القيامة لا بشرى يومئذ للمجرمين أي لا بشارة لهم بالجنة والثواب ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي تقول الملائكة حراماً محرماً أن يدخل اللَّه الجنة إلا من قال: لا إلَه إلا اللَّه، وقيل تقول الملائكة للمجرمين: حجراً محجوراً أي حراماً محرماً عليكم البشرى بخير. وقيل: حرام عليكم الجنة، وقيل تقول لهم الملائكة: حرام عليكم سماع البشرى حراماً محرماً، وكانت العرب: إذا أراد الرجل منهم أن يحرم شيئاً يطلب منه قال: حجراً محجوراً ليعلم السائل بذلك أنه لا يريد أن يفعل - والحجر في اللغة: هو المنع - ومنه الحجر على الصبي. ويجوز أن يكون حجراً محجوراً من قول الكفار للملائكة أي قالوا للملائكة بعداً بيننا وبينكم. وقال مجاهد: عوذاً معاذاً[1]، يستعيذون من الملائكة. قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿23﴾﴾ أي عمدنا إلى أعمالهم التي عملوها في الدنيا التي كانوا يعتقدونها طاعة، فجعلناه في الآخرة بمنزلة الهباء، والهباء المنثور: ما يقع في الكوة من شعاع الشمس فيقبض القابض عليه فلا يحصل على شيء، وقيل هو: التراب الذي يسطع من حوافر الدواب يرى ولكن لا يقدر عليه. وقال

(1) الطبري في تفسيره: 11/ 5.

النضر بن شميل: الهباء المنثور: الذي تطيره الرياح كأنه دخان[1]. والمعنى فجعلناه باطلاً لا ثواب له لأنهم لم يعملوه للَّه، وإنما عملوه للشيطان. قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿24﴾﴾ أي أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً من هؤلاء المشركين المتكبرين المفتخرين بأموالهم وأحسن موضعاً عند القيلولة من منازل الكفار. قال ابن مسعود: لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار[2].

قال اللَّه تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿25﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿26﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿27﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿28﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿29﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿30﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿31﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ قرأ أبو عمرو، والكوفيون بالتخفيف على الحذف، والتخفيف هنا وفي سورة ـ ق[3] ـ وقرأ الآخرون بالتشديد فيهما[4] على معنى فتشقق السماء عن الغمام والباء وعن ـ يتعاقبان يقال: رميت بالقوس، وعن القوس ومعنى الآية: ويوم تصدع السماء لنزول الملائكة في الغمام بأمر اللَّه كما تقدم ذكره. في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾[5] وهو غمام أبيض رقيق مثل الضُبابة. وقوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ أي نزل أهل كل سماء على حدة منها إلى الأرض لإكرام

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 232.
(2) الطبري في المرجع نفسه.
(3) سورة ق (50)، الآية: 44.
(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 334.
(5) سورة البقرة (2)، الآية: 210.

المؤمنين، وإهانة الكفار، وأهوال ذلك اليوم، ويقال: إن الغمام سحاب أبيض فوق السمٰوات السبع كما روي في الخبر: إن دعوة المظلوم ترفع فوق الغمام. فعلى هذا يكون المعنى: ويوم تشقق السمٰوات السبع ويظهر الغمام. قرأ ابن كثير: وتنزل الملائكة، بنونين ونصب الملائكة[1]. قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي الملك الذي هو الملك حقاً ملك الرحمٰن يوم القيامة ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي عسر ذلك اليوم لشدّته وشقته ويهون على المؤمنين. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ نزلت في عقبة بن أبي مُعيط[2]، كان أراد أن يؤمن، فقال له أبي بن خلف[3] ـ وكان صديقاً له ـ صبأت[4] يا عقبة لئن آمنت لم أكلمك أبداً فامتنع عن الإيمان حتى قتل يوم بدر كافراً، وقتل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أبي بن خلف يوم أحد، وقيل: إن عقبة بن أبي مُعيط كان لا يقدم من سفر إلا صنع طعاماً فدعا عليه أشراف قومه، وكان يكثر مجالسة النبي صلى اللَّه عليه وسلم. فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاماً ودعا إليه الناس، ودعا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فلما قرّب الطعام قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما نأكل من طعامك يا عقبة حتى تشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه وأني رسول اللَّه**»، فقال عقبة: أشهد أن لا إلٰه إلا اللَّه وأنك رسول اللَّه، فأكل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وكان أبي بن خلف يومئذ غائباً.

فلما أخبر بإسلام عقبة وكان صديقه قال له: أصبوت يا عقبة؟ فقال: لا واللَّه ما صبوت وإن أخاك على ما تعلم ولكني صنعت طعاماً فأبى أن يأكل من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له وليس في نفسي ذلك، فقال أبي بن خلف: يا عقبة ما أنا بالذي أرضى منك

---

(1) كتاب السبعة لابن مجاهد: ص 464.

(2) هو عقبة بن أبان بن ذكوان بن أمية بن عبد شمس من مقدمي قريش في الجاهلية، كنيته أبو الوليد. كان شديد الأذى للمسلمين عند ظهور الدعوة، فأسروه يوم بدر وقتلوه ثم صلبوه، وهو أول مصلوب في الإسلام، الزركلي في الأعلام: 4/ 240.

(3) أبي بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح، وكان شديد الأذى للرسول صلى اللَّه عليه وسلم والمسلمين عند ظهور الدعوة قتله النبي صلى اللَّه عليه وسلم يوم أحد في المبارزة، ابن هشام، السيرة النبوية: 1/ 361.

(4) صبأ الرجل: خرج عن دينه.

أبداً حتى تأتيه، فتبصق في وجهه ففعل عقبة ذلك، فقال لما بصق عقبة في وجه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: عاد بصاقه في وجهه وتشعب شعبتين فأحرق خديه، وكان أثر ذلك فيه حتى جاءه الموت. وعن عطاء عن ابن عباس قال: كان أبي بن خلف يجالس النبي صلى اللَّه عليه وسلم ويسمع كلامه من غير أن يؤمن به، فلما أراد عقبة بن أبي مُعَيط أن يؤمن بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم زجره أبي بن خلف، وكان خليلاً له فقال له: وجهي من وجهك حرام إن بايعت محمداً صلى اللَّه عليه وسلم، فلم يؤمن، واتبع رضا أبي بن خلف، فأنزل اللَّه هذه الآية[1] ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ يعني عقبة بن أبي مُعيط، يعض على يديه تندماً وتحسراً وأسفاً على ما فرط في جنب اللَّه. قال عطاء: يأكل يديه حتى يذهبا إلى المرفقين ثم ينبتان فلا يزال هكذا كلما نبتت يده أكلها ندامة على ما فعل[2]، وذلك في يوم القيامة، ثم يقول على وجه التحسر ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي ليتني اتبعت الرسول، وسلكت طريقته، فإنها طريق الهدى، و﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿28﴾﴾، يعني أبي بن خلف. ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ أي لقد صرفني عن القرآن بعد إذ دعاني محمد صلى اللَّه عليه وسلم إليه ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ ابتداء كلام أي كان الشيطان للإنسان كثير الخذلان يتبرأ منه في الآخرة. قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ﴾ قراءة أبي عمرو بفتح الياء[3] من يا ليتني اتخذت. وقتل عقبة يوم بدر صبراً كافراً وحكم هذه الآية في كل متحابين اجتمعا على معصية اللَّه، وقد روي عن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**جليس السوء كمثل الكير إن لم يحرق ثيابك علق بك ريحه ودخانه[4] وأنشد بعضهم**»[5] في ذلك:

---

(1) الواحدي، في أسباب النزول: ص 276، السيرة النبوية: 1/ 361، الطبري في تفسيره: 11/ 12.

(2) البغوي في تفسيره: 4/ 234.

(3) كتاب السبعة لابن مجاهد: ص 464.

(4) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 16/ 178، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء.

(5) قال الثعلبي في تفسيره: وأنشد بعض الحكماء.

تجنّبْ قرين السوء واصرم حباله .·. وإن لم تجد عنه محيصاً فداره
واحبب حبيب الصدق واحذر مراءه .·. تنل منه صفو الود ما لم تماره

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿30﴾﴾ أي ويقول الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم: يا رب إن قومي، يعني قريشاً، اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، هجروا تلاوته، والعمل به، وقالوا فيه غير الحق، وزعموا أنه سحر وشعر وقالوا هذا أساطير الأولين، وتركوا الإيمان به. قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**من تعلم القرآن وعلمه وعلق مصحفاً ولم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقاً به يقول يا رب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجوراً. اقض بيني وبينه**»(1). قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ﴾ أي كما جعلنا لك يا محمد أعداء من مشركي قومك فكذلك جعلنا لكي نبي عدواً من المجرمين أي من كفار قومه فلا يكبرن عليك ولا يشق عليك فإن الأنبياء قبلك قد كذبوا ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا﴾ لك وللخلق، ﴿وَنَصِيرٗا ﴿31﴾﴾ لك على أعدائك، وانتصب قوله: هادياً على الحال أو على التمييز.

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿32﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿33﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿34﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿35﴾ فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرۡنَٰهُمۡ تَدۡمِيرٗا ﴿36﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿37﴾ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿38﴾ وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا ﴿39﴾ وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۚ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ﴿40﴾﴾.

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره عن أنس بن مالك.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً﴾ وذلك أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لما تحداهم بالقرآن وأمرهم أن يأتوا بسورة مثله فعجزوا عن ذلك، ولزمتهم الحجة، فجعلوا يطلبون الشبهة، فقالوا: لو كان نبياً لأنزل عليه القرآن جملة واحدة، كما أنزلت التوراة، والإنجيل، والزبور. والمعنى أن الكفار قالوا هلاّ أنزل عليه القرآن جملة واحدة في وقت واحد، كما أنزلت التوراة على موسى، والإنجيل على عيسى، والزبور على داود فبين اللّه أن ذلك ليس بشبهة فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي كذلك أنزلناه إليك متفرقاً لنقوي به قلبك فتزداد به بصيرة، ويسهل عليك ضبطه وحفظه فإن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان لا يقرأ ولا يكتب بخلاف موسى وعيسى، ويقال كان اللّه تعالى يعلم أن القوم يسألونه عن أشياء، ويؤذونه. فأنزل اللّه الجواب عقيب السؤال ليكون أحسن موقعاً، وأدعى إلى الانتباه، وأبلغ في إلزام الحجة. وقوله تعالى: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ أي فرقناه تفريقاً يقال: لؤلؤ مرتل، إذا كان متفرقاً غير منظوم، وأسنان مرتلة: إذا كانت مفلجة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[1] أي فرق الحروف بعضها من بعض. وقال ابن عباس معناه: وبيّناه تبييناً. وقال السدي: فصّلناه تفصيلاً[2]. قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿33﴾﴾ أي لا يأتونك بشبهة للاحتجاج بها في إبطال أمرك ﴿إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالذي هو الحق، والذي هو أحسن تفسيراً من مثلهم والمعنى لا يأتونك يعني المشركين بمثل ضربوه لك في إبطال أمرك، ومخاصمتك إلا جئناك بالذي هو الحق لترد به خصومتهم، وتبطل به كيدهم ﴿وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ مما أتوا به من المثل، والتفسير: كشف المعنى المغطى. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ قال مقاتل: كفار مكة وذلك أنهم قالوا: إن محمداً وأصحابه شر خلق اللّه. فقال اللّه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا﴾ أي منزلاً ومصيراً، ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿34﴾﴾ أي طريقاً من

---

(1) سورة المزمل (73)، الآية: 4.

(2) ذكر البغوي في تفسيره قولي ابن عباس، والسدي.

المؤمنين. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي يسحبون على وجوههم في النار.

وعن أنس أن رجلاً قال: يا رسول اللَّه كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «**إن الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**»[1]. وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف: صنف على الدواب، وصنف على أقدامهم وصنف على وجوههم**»[2]. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرٗا ﴿35﴾﴾ أي أعطينا موسى التوراة، وجعلنا معه أخاه هارون معيناً يعينه على تبليغ الوحي. والوزير في اللغة: هو الذي يرجع إلى رأيه، والوزير ما يلتجأ إليه. قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱذۡهَبَآ إِلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يعني: فرعون وقومه، فادعوهم إلى الإيمان ففعلا ذلك، فلم يجيبوا أمرهم فدمرناهم تدميراً، أي أهلكناهم إهلاكاً بما كان فيه عبرة لمن اعتبر. قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ واذكر قوم نوح حين كذبوا نوحاً ومن معه من الرسل، فأغرقناهم بالطوفان، وجعلنا إهلاكهم للناس عظة وعبرة ودلالة على قدرتنا ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي للكافرين ﴿عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ في الآخرة سوى عذابهم في الدنيا. قوله تعالى: ﴿وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَأَصۡحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا ﴿38﴾﴾ أي وأهلكنا عاداً وثموداً وأصحاب الرس. قال قتادة: الرس بئر باليمامة. وقال السدي: بأنطاكية، ونبيهم ـ حنظلة ـ وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم قتلوا نبيهم، ورسوه في تلك البئر، والرس والدس واحد وقال مقاتل والسدي: هم أصحاب الرس، والرس بئر قتلوا فيها: حبيب النجار، فنسبوا إليها وهم الذين ذكرهم اللَّه في سورة ـ يس ـ وقيل هم أصحاب الأخدود الذين حفروه. وقال عكرمة: هم قوم رسوا نبيهم أي دسوه في البئر[3]. وروي أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه، فقال: يا

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 9/ 437، رقم: 4760، كتاب التفسير.
(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان: 1/ 318، رقم: 359، الطبري في تفسيره: 11/ 18، رقم: 20012.
(3) ذكر هذه الأقوال في أصحاب الرس، البغوي في تفسيره: 4/ 238.

أمير المؤمنين أخبرني عن أصحاب الرس أين كانت منازلهم، وبماذا هلكوا، ومن نبيهم، فإني أجد في كتاب اللَّه ذكرهم ولا أجد خبرهم؟ فقال علي رضي اللَّه عنه: لقد سألتني عن حديث ما سألني عنه أحد قبلك، ولا يحدثك به أحد بعدي، وكان من قصتهم أنهم قوماً كانوا يعبدون شجرة صنوبر، وكان غرسها يافث بن نوح على شفير عين جارية، وإنما سموا أصحاب الرس لأنهم رسوا نبيهم في الأرض[1] وذلك قبل سليمان بن داود، وكانوا اثنتي عشرة قرية على شاطىء نهر يقال له: الرس من بلاد المشرق، وكان ملكهم يسمى: بركور بن عاموراء بن ناوس بن سارب بن نمرود بن كنعان وكان أعظم مدائنهم استعبدنا دونها العين والصنوبر هي شجرة عظيمة، وكانوا قد حرموا ماء العين وهي عين غزيرة الماء فلا يشربون بها ولا يسقون أغنامهم، ومن فعل ذلك منهم قتلوه، ويقولون هي حياة آلهتنا فلا ينبغي لأحد أن ينقص من حياتها[2].

وقد جعلوا في كل شهر عيداً يجتمع إليه أهل كل قرية، ويضربون على الشجرة ثياباً من حرير فيها من أنواع الصور ثم يأتون بشاء وبقر فيذبحونها قرباناً للشجرة ثم يوقدون النار ويشوون اللحم، فإذا سطع الدخان والغبار خرّوا سجداً للشجرة يبكون ويتضرعون إليها أن ترضى عنهم، وكان الشيطان يجيء فيحرك أغصانها، ويصيح في ساقها: إني قد رضيت عنكم عبادي فطيبوا نفساً وقرّوا عيناً، فعند ذلك يرفعون رؤوسهم من السجود ويضربون الدفوف، ويشربون الخمور، فلما طال كفرهم بعث اللَّه إليهم رسولاً فلبث فيهم زماناً طويلاً يدعوهم إلى عبادة اللَّه تعالى، فلما رأى تماديهم في الغي والضلال قال: يا رب إن عبادك أبوا إلا تكذبي، وعبدوا شجرة لا تنفع ولا تضر فأيبس شجرتهم يا رب، فأصبحوا وقد يبست شجرتهم فهالهم ذلك وقالوا: إن هذا الرجل الذي زعم أنه رسول رب السماء والأرض سحر آلهتكم، وأيبس شجرتكم. وقالت طائفة منهم: بل غضبت آلهتكم حين رأت هذا الرجل يعيبها، ويدعوكم إلى عبادة غيرها فحميت وغضبت لكي تغضبوا بغضبها، وتنتصروا لها، فاجتمع

---

(1) الطبري في تفسيره: 11/ 19.
(2) الثعلبي في تفسيره: خ.

رأيهم على قتله، فطرحوه في بئر ضيقة المدخل عميقة القعر وجعلوا على رأسها صخرة عظيمة، وقالوا إنما غرضنا أن ترضى عنا آلهتنا إذا رأت أنا قد قتلنا من كان يعيبها، ودفناه تحت كسرها فتعود لها نضرتها ونورها وخضرتها كما كانت، فبقوا عامة يومهم يسمعون أنين نبيهم عليه السلام وهو يقول: يا رب قد ترى ضيق مكاني وشدة كربتي، فارحم ضعفي، وقلة حيلتي، وعجل قبض روحي، ولا تؤخر إجابة دعوتي فمات من ساعته، فقال اللّٰه تعالى: يا جبريل إن عبادي هؤلاء غرهم حلمي، وأمنوا مكري، وعبدوا غيري، وقتلوا رسولي وأنا المنتقم ممن عصاني، وإني حلفت لأجعلنهم عبرة ونكالاً فأرسل اللّٰه عليهم ريحاً حمراء عاصفاً تتوقد فذعروا منها وانضم بعضهم إلى بعض حتى صاروا تحت شجرة فاشتدّ عليهم حرها، وبعث اللّٰه سحابة سوداء فألقت عليهم كالقبة تلتهب فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص في النار ـ نعوذ باللّٰه من غضبه[1] ـ قوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي وأهلكنا قروناً كثيرة بين عاد إلى أصحاب الرس من لم نسمه لك. قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي وكلاً بينا لهم ما يحتاجون إليه ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي أهلكناهم بالعذاب إهلاكاً. والتتبير: هو الهلاك، وكل شيء كسرته فقد تبرته. يقال للمكسر من الذهب والفضة والزجاج ـ تبر ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾ معناه: ولقد أتى مشركو مكة على قريات قوم لوط التي أمطرت عليهم الحجارة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾ حين مروا في ديارهم فيخافوا ويعتبروا ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿40﴾﴾ أي كانوا لا يخافون البعث والنشور. أخبر اللّٰه أن الذي جرأهم على التكذيب أنهم لا يصدقون بالبعث.

قال اللّٰه تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿41﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿42﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿43﴾ أَمْ

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.

تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿44﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوۡ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنٗا ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ عَلَيۡهِ دَلِيلٗا ﴿45﴾ ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ﴿46﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ أي وإذا رآك كفار مكة، أبو جهل وأصحابه، ما يتخذونك إلا هزؤاً أي هزؤاً به يستهزئون بك، ويقولون على وجه الاستهزاء ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ إلينا ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾ أي لقد كاد يصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا﴾ على عبادتها. قال اللّه تعالى: ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ يوم القيامة ﴿مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي أخطأ طريقاً عن الهدى والدين والحجة هم أم المؤمنون؟ قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي أرأيت من عبد الأصنام بهوى نفسه، عجب اللّه نبيه صلى اللّه عليه وسلم من نهاية جهلهم حين عبدوا ما دعاهم إليه الهوى، فقال أرأيت من اتخذ إلّهه هواه؟ قال ابن عباس: أرأيت من ترك عبادة إلّهه وخالقه، ثم هوى حجراً يعبده ما حاله عندي؟ قال مقاتل: وذلك أن الحارث بن قيس السهمي[1]، هوي حجراً فعبده. وقال سعيد بن جبير: كان أهل الجاهلية يعبدون الحجر فإذا رأوا شيئاً أحسن منه أخذوه وتركوا الأول. وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾ أي كفيلاً حافظاً يحفظه من اتباع هواه وعبادة ما يهوى أي لست كذلك، إنما بعثت داعياً لا حافظاً. قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ﴾ أي أتظن يا محمد أن أكثرهم يسمعون سماع تدبر وتفكر أو يعقلون ما يعاينون من الحجج؟ ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ﴾ يسمعون صوتاً ولا يعقلون حقيقة. قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾[2]. قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ بل هم أضل من الأنعام لأن الأنعام إذا زجرت انزجرت وهم لا ينزجرون ولأن الأنعام تفهم بعض ما تسمع لأنها تنادى على صفة فتقف، وتنادى على صفة فتسير. قوله

---

(1) ابن هشام السيرة النبوية: 2/ 409.
(2) سورة البقرة (2)، الآية: 171.

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ معناه: ألم تر إلى صنع ربك كيف بسط الظل من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوعها من المشرق إلى المغرب؟ وقيل من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أي دائماً لا يزول إلى أن تطلع الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ أي دليلاً على الظل، بمعنى أنه لولا الشمس لما عرف الظل، فإن الظل يتبع الشمس في طوله وقصره، فإن ارتفعت الشمس في أعلى ارتفاعها قصر الظل، وذلك وقت صلاة الضحى إلى أن تبلغ الشمس في الارتفاع مبلغاً تزول عنده الشمس ولا ينقص الظل بعد ذلك يأخذ في الزيادة فيكون الوقت وقت صلاة الظهر إلى أن يصير ظل كل شيء مثله أو مثليه على اختلاف المذاهب فيكون الوقت وقت صلاة العصر فما دامت الشمس تنحط يصير الظل طويلاً بحسب ذلك الانحطاط والظل تابع للشمس التي هي دليله، ويقال معنى الآية: جعلنا الشمس مع الظل دليلاً على توحيد اللّه تعالى، وكمال قدرته. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿46﴾﴾ أي إذا طلعت الشمس قبض اللّه الظل قبضاً خفيفاً أي سلطنا الشمس عليه حتى نسخته شيئاً فشيئاً وتنقصه نقصاً خفياً لا يستدرك بالمشاهدة.

قال اللّه تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿47﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ
أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿48﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً
مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿49﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ
أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿50﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿51﴾ فَلَا تُطِعِ
ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿52﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿53﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا
فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿54﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا
يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿55﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي يستر كل شيء بظلمته

كاللباس الذي يستر البدن ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي راحة لأبدانكم. يقال سبت إذا تمدد فاستراح ومن ذلك يوم السبت لأن اليهود كانوا يستريحون فيه بقطع أعمال الدنيا، والسبات قطع العمل ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي تنتشرون فيه لمعائشكم وحوائجكم. والنشور هاهنا بمعنى التفرق والانبساط في التصرف. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي أرسل الرياح ينشر بها الغيم ويبسطه في السماء قدام المطر، وإنما قيل في الرحمة رياح لأنها تجمع الجنوب والشمال والصبا، وقيل في العذاب ريح لأنها واحدة وهي الدبور وهي عقيم لا تلقح. قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ يعني المطر وهو طاهر مطهر من الأنجاس والأحداث ﴿لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي لنحيي بالمطر بلدة ليس فيها أشجار ولا ثمار ولا مرعى ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي نسقي بذلك الماء كثيراً من خلقنا من الأنعام، والأناسي جمع أنسي مثل كرسي وكراسي. ويقال هو إنسان وأصله أناسين كما يقال: بستان وبساتين، وسرحان وسراحين. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي صرفنا المطر فقسمناه بينهم على ما توجبه الحكمة ليتذكروا نعم الله فيشكروها ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي جحوداً به كلما نزل المطر يقولون مطرنا بنوء كذا. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما عام بأمطر من عام ولكن الله يقسمه على من يشاء من عباده(1)، وقال صلى الله عليه وسلم: «**ما سنة بأمطر من أخرى، ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حول الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار**»(2).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿51﴾﴾ أي ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ينذرهم، ولكن بعثناك يا محمد إلى القرى كلها رسولاً لعظم كرامتك علينا، وليكون كل الثواب والكرامة لك خاصة ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فيما يطلبون منك من أن تعبد آلهتهم ومداهنتهم ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا ﴿52﴾﴾ شديداً. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ

---

(1) الطبري في تفسيره: 11/ 29.

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره: خ.

فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي وهو الذي أرسل البحرين في مجاريهما. يقال: مرجت الدابة أي أرسلتها في المرعى لترعى، وأراد بقوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ النيل والأنهار العظام والفرات ما يكون في غاية العذوبة، وأراد بالملح الأجاج التي يكون ماؤها في غاية المرارة، ويقال في غاية الحرارة من قولهم أججت النار إذا أوقدتها وتأججت النار إذا توقدت، ويقال: ماء ملح ولا يقال مالح إلا لما يلقى فيه الملح. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حاجزاً يمنع كل واحد منهما من تغيير الآخر وهو ما بين العذب والملح من الأراضي، ويقال أصل المرج الخلط ومن ذلك المرج لأنه يكون فيه أخلاط من النبات. ومنه قوله تعالى: ﴿فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾[1] أي مختلط. فالملح والعذب في مرأى العين مختلطان، وفي قدرة اللَّه تعالى: منفصلان لا يغير أحدهما طعم الآخر، وجعل بينهما برزخاً أي حاجزاً من قدرة اللَّه تعالى وحجراً أي مانعاً يمنع من اختلاطهما، وفساد أحدهما بالآخر. ومعنى قوله: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي حراماً محرماً أن يفسد الملح العذب. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ أي خلق من النطفة إنساناً وخلقاً كثيراً فجعل من هؤلاء البشر أنساباً وأصهاراً ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ على ما أراد. قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوه ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوا عبادة اللَّه الذي خلقهم ورزقهم ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ أي وكان الكافر عوناً للشيطان على ربه بالمعاصي لأنه يتابع الشيطان ويعاونه على معصية اللَّه، لأن عبادتهم للأصنام معلومة للشيطان. والظهير: هو المعين. قال المفسرون: أراد بالكافر أبا جهل[2].

قال اللَّه تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ

---

(1) سورة ق (50)، الآية: 5.

(2) تفسير الطبري: 11/ 35.

عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿59﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿60﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴿61﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿62﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ أي مبشراً بالجنة ونذيراً من النار ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ أي على القرآن وتبليغ الوحي. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ﴾ أي لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بإنفاق ماله فعل ذلك، والمعنى: لا أسألكم لنفسي أجراً، ولكن لا أمنع من إنفاق المال في طلب مرضات اللَّه وجنته. قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ أي فوض أمرك إليه، ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ أي احمده منزهاً له عما لا يجوز في صفاته وذلك نحو أن يقول: الحمد للَّه رب العالمين، والحمد للَّه حمداً يوافي نعمه ويكافىء مريده، ويجوز أن يكون معناه: وصل بأمره هو المحمود في توفيقه إياك كما يقال: أفعل هذا بحمد اللَّه ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ فهو أولى أن يراقب من غيره. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿59﴾﴾ أي فاسأل لسؤالك إياه خبيراً والخبير هاهنا هو اللَّه عزّ وجلّ. ويقال معناه: فاسأل الخبير بذلك يعني ما ذكر من خلق السمٰوات والأرض والاستواء على العرش، وقيل في معناه: فاسأل عالماً بما تسأله عنه ولا تسأل غيره وإذا سألت حاجتك فاسأل عالماً بما يصلحك فإنك إذا سألته أخبرك بالحق في صفاته وفي كل ما سألت عنه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ أي إذا قيل لكفار مكة اسجدوا للرحمٰن ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: ما نعرف الرحمٰن إلا رحمٰن اليمامة يعنون: مسيلمة، وقوله تعالى: ﴿أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا﴾ استفهام إنكاري أي لا نسجد للرحمن الذي تأمرنا بالسجود له ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ أي زادهم ذكر الرحمن تباعداً من الإيمان كما قال تعالى في قصة نوح: ﴿فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿6﴾﴾[1]. قوله

(1) سورة نوح (71)، الآية: 6.

تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ البروج منازل الكواكب السبعة: الشمس، والقمر، والمشتري، والمريخ، وزحل، وعطارد، والزهرة: وهي اثنا عشر برجاً وهي: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدلو، والحوت. فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيت المشتري، والجدي والدلو بيتا زحل، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾ يعني: الشمس ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ وقرأ حمزة: سُرُجاً[1] يعني: الشمس والكواكب معها. والمعنى: وجعل في السماء شمساً تضيء بالنهار، وتقطع كل شهر برجاً من البروج الاثني عشر وجعل فيها قمراً منيراً يضيء بالليل، ويقطع كل برج في يومين وثلث، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ أي يخلف كل واحد منهما صاحبه، يذهب أحدهما ويجيء الآخر فهو عظة لمن اتعظ، وأراد أن يشكر إنعام اللّه. قال أبو عبيدة: خلفة كل شيء بعد شيء الليل خلفة النهار، والنهار خلفة الليل، لأن أحدهما يخلف الآخر، ويأتي بعده[2]. وقال مجاهد: وجعل النهار خلفة من الليل لمن نام بالليل، وجعل النهار خلفة لمن اشتغل بالنهار فمن فاته العمل بالليل قضاه بالنهار، ومن فاته بالنهار قضاه بالليل[3].

قال اللّه تعالى:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا (63) وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا (64) وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (67)﴾.

---

(1) قال ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: ص 466، قرأ حمزة والكسائي: «سُرُجاً» بضم السين، وإسقاط الألف.

(2) مجاز القرآن: 2/ 79.

(3) البغوي في تفسيره: 4/ 246.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي عباده الذين رضيهم وأثنى عليهم، هم الذين يمشون على الأرض بالسكينة والوقار والهوينا متواضعين من مخالفة اللّٰه حلماً وعقلاً، علماء لا يجهلون، وإن جهل عليهم، وإن كلمهم الكفار والفساق بالسفه والفحش قالوا سداداً من القول، وقيل يقولون في جواب السفيه: سلام عليكم. وقال قتادة معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي كانوا لا يجهّلون أهل الجهل. وقال مقاتل: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي قولاً يسلمون فيه من الإثم[1]. قال الحسن: هذه صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس، وليلهم خير ليل كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿64﴾﴾ أي يصلون بالليل طلباً للثواب[2]. وعن ابن عباس قال: من صلى بعد العشاء ركعتين أو أكثر فقد بات للّٰه ساجداً وقائماً[3]. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿65﴾﴾ لازماً دائماً، والغرام: اللزوم، يقال لصاحب الدين غريم لأنه يلازم المديون، ويقال للمديون الغريم لأن اللزوم يثبت عليه، والمغرم بالنساء الملازم لهن. قال الزجاج: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ الغرام أشد العذاب[4] ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿66﴾﴾ أي إن جهنم بئس موضع قرار وإقامة هي. قال الحسن: كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم[5]. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ الإسراف: هو الإنفاق في معاصي اللّٰه، والقتر: منع حق اللّٰه تعالى، والقوام: هو الوسط بين الإسراف والتقتير. قرأ أهل المدينة والشام: يُقتِروا بضم الياء وكسر التاء، وقرأ الكوفيون: يَقْتُروا بفتح الياء وضم التاء، وقرأ الباقون: يقتروا بفتح الياء وكسر التاء وكلها لغات صحيحة[6].

٣١

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 246. .
(2) البغوي في المرجع نفسه.
(3) البغوي نفسه.
(4) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 75.
(5) الطبري في تفسيره: 11/ 47.
(6) ابن مجاهد، كتاب السبعة: ص 466.

فالإسراف: النفقة في معصية اللّه وإن قلت، والإقتار: منع حق اللّه. وعن الحسن معناه: لم ينفقوا في معاصي اللّه تعالى ولم يمسكوا عن فرائض اللّه، وقيل معناه: لم يضيقوا في الإنفاق وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار. لا إسرافاً يدخل به في حد التبذير، ولا تضييقاً يصير به في حد المانع لما يجب، وهذا هو المحمود من النفقة. وعدّ عمر رضي اللّه عنه: من السرف أن لا يشتهي الرجل شيئاً إلا أكله، وقال: كفى بالمرء مسرفاً أن يأكل كل ما يشتهي[1]. وقال قتادة: الإسراف: النفقة في المعصية، والإقتار: الإمساك عن حق اللّه، والقوام من العيش[2] ما أقامك وأغناك.

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿68﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿69﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿70﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿71﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿72﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ قيل إن رجلاً جاء إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللّه، أي الذنب أكبر؟ قال: «**أن تجعل للّه نداً وهو خلقك**»، قال: ثم أي؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**»، قال: ثم أي؟ قال: «**أن تزني بحليلة جارك**». فأنزل اللّه عزّ وجلّ هذه الآية[3] تصديقاً لذلك. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ وفي الحديث: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث معان: زنى بعد إحصان، وكفر بعد إيمان، وقتل نفس**

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.
(2) البغوي في المرجع نفسه.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 9/ 438، رقم: 4761، كتاب التفسير، الواحدي في أسباب النزول: ص 278.

بغير حق»[1]. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ أي يلق عقوبة فعله. ويقال: الأثام: واد في جهنم من دم وقيح. وعن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «**لو أن صخرة عشراً قذفوا بها في نار جهنم ما بلغت قعرها سبعين خريفاً ثم تنتهي إلى غيّ وأثام**»، قيل: وما غيّ وأثام يا رسول اللّٰه؟ قال: «**بئران يسيل فيهما صديد أهل النار**[2] **وهما اللذان قال اللّٰه تعالى:** ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾»[3]. وروي أن أثام واد في جهنم فيه حيات وعقارب في فقارة إحداهنّ ستين قلة من السم كل عقرب منهن مثل البغلة المؤكفة. قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿69﴾﴾ تفسير الغيّ والأثام[4]. بقوله: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية، ومن رفع يضاعف ويخلد. وهو ابن عامر فهو على الاستئناف والقطع عما قبله[5]. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية بمكة، وكان المشركون قالوا: ما يغني عنا الإسلام وقد عدلنا باللّٰه، وقتلنا النفس التي حرَّم اللّٰه، وآتينا الفواحش. فنزلت هذه الآية[6] ومعناها: إلا من تاب من الكفر والمعصية وآمن باللّٰه، وعمل عملاً صالحاً بعد الإيمان والتوبة، فأولئك يمحو اللّٰه سيئاتهم بالتوبة، ويثبت لهم مكانها حسنات وهذا هو معنى التبديل لا تصير السيئة بعينها حسنة.

وعن ابن عباس رضي اللّٰه عنه أنه قال: قرأنا على عهد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم سنتين ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿68﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾ الآية. ثم نزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية،

---

(1) سبق تخريجه.
(2) الطبري في تفسيره: 11/ 57، رقم: 20133.
(3) سورة مريم (19)، الآية: 59.
(4) البغوي في تفسيره: 4/ 249.
(5) الثعلبي في تفسيره: خ، والبغوي نفسه.
(6) الثعلبي في المرجع نفسه.

فما رأيت رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم فرح بشيء مثل فرحه بها[1]، وبقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[2]. قال قتادة ومعناها: إلا من تاب من ذنبه وآمن بربه، وعمل عملاً صالحاً فيما بينه وبين ربه. وقال أيضاً في معنى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ التبديل في الدنيا طاعة اللّٰه بعد عصيانه، وذكر اللّٰه بعد نسيانه. وقال الحسن: أبدلهم اللّٰه بالعمل السيئ العمل الصالح، وبالشرك إخلاصاً وإسلاماً، وبالفجور إحصاناً، وبقتل المؤمنين قتل المشركين[3]. قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ۝٧١﴾ أي من تاب من الشرك، وعمل صالحاً ولم يكن من القبيل الذين قتلوا وزنوا فإنه يتوب إلى اللّٰه أي يعود إليه بعد الموت ـ متاباً حسناً يفضل على غيره ممن قتل وزنى ـ فالتوبة الأولى رجوع عن الشرك، والثانية رجوع إلى اللّٰه للجزاء والمكافأة. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال أكثر المفسرين: الزور هاهنا بمعنى الشرك. وقال الزجاج: الزور في اللغة: الكذب ولا كذب فوق الشرك باللّٰه[4]. وقال قتادة: ولا يشهدون الزور ،لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم. وقال محمد بن الحنفية لا يشهدون الزور: يعني اللهو والغناء واللعب وأعياد اليهود، والنصارى، والمجوس. وقال علي بن أبي طلحة: شهادة الزور. وقال عمر رضي اللّٰه عنه: يجلد شاهد الزور أربعين جلدة، ويسخم وجهه ويطوف به في الأسواق[5]. وعن محمد بن المنكدر أنه قال: بلغني أن اللّٰه تعالى يقول يوم القيامة: أين الذين كانوا ينزهون أنفسهم عن سماع اللهو، ومزامير الشيطان أدخلهم رياض المسك[6]؟ ثم يقول للملائكة: اسمعوا عبادي تحميدي، وثنائي، وتمجيدي، وأعلموهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ أي إذا مروا بالقول والفعل الذي لا

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 250.
(2) سورة الفتح (48)، الآية: 1.
(3) البغوي نفسه.
(4) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 77.
(5) الثعلبي في تفسيره: خ.
(6) البغوي نفسه.

فائدة فيه مروا مكرمين صائنين أنفسهم عن الخوض في ذلك، آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر بما قدروا عليه من قوة إذا عجزوا عن القول ومن إظهار كراهية، وتعبيس وجه إذا عجزوا عن القول.

قال اللّه تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73)﴾ معناه: والذين إذا وعظوا بآيات ربهم أي بالقرآن لم يعاملوا فيها معاملة الأصم الذي لا يسمع والأعمى الذي لا يبصر ولكنهم سمعوا وأبصروا، وانتفعوا بها، وخروا ساجدين باكين سامعين مبصرين فيما أمروا به، ونهوا عنه، والخرور: هو السقوط. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ الذرية: يكون واحداً وجمعاً، فكونها للواحد قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[1] وكونها للجمع قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَافًا﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ أي يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ أبراراً أتقياء. وقال مقاتل معناه: اجعلهم صالحين فتقر أعيننا بذلك. وقال الحسن: ما من شيء أقرّ لعين المسلم من أن يرى ولده وولد ولده مطيعين للّه[3]. وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي يقتدى بنا في الخير، والمعنى صالحين نأتم بمن قبلنا من المتقين حتى يأتم بنا من بعدنا. قال الفراء: إنما قال إماماً ولم يقل أئمة كما قال ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

(1) سورة آل عمران (3)، الآية: 38.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 9.
(3) البغوي في تفسيره: 4/ 250.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾[4] للاثنين، يعني أنه من الواحد الذي يراد به الجمع[1]. وفي الحديث: «**من رزق إيماناً، وحسن خلق فذلك إمام المتقين**»[2]. قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي أهل هذه الخصال هم الذين يجزون الغرفة في الجنة بصبرهم على الطاعة وعن المعصية، وعن مكاره الزمان، ومحن الدنيا. والغرفة: هي البناء العالي المرتفع. قال مقاتل: يعني غرفة الجنة، وقال عطاء: هي غرف من الزبرجد والدرر والياقوت. قوله تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ أي وتتلقاهم الملائكة في تلك الغرف بالتحية والسلام من الله تعالى. قرأ أهل الكوفة: ويلقون بفتح الياء والتخفيف. وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ أي حسنت تلك الغرفة في المستقر والمقام. قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾ أي قل لهم ما يصنع بكم ربي وهو لا يحتاج إليكم لولا دعاؤه إياكم إلى الإسلام وإلى طاعته لتنتفعوا أنتم بذلك، وقيل معناه: أي وزن وقدر لكم عند ربي لولا دعاؤكم وعبادتكم إياه؟ وقيل معناه: ما يفعل بعذابكم يا أهل مكة لولا عبادتكم غير الله ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ جزاء تكذيبكم ﴿لِزَامًا﴾ أي أسراً وأخذاً بالأيدي. وقيل أراد به يوم بدر واللزام بنصب اللام مصدر أيضاً والخطاب بقوله ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ يا أهل مكة أي إن الله دعاكم بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى توحيده وعبادته فقد كذبتم الرسول ولم تجيبوا دعوته فسوف يكون تكذيبكم لزاماً يلزمكم فلا تعطون التوبة، فتقتلوا يوم بدر، واتصل بهم عذاب الآخرة لازماً لهم.

---

(1) سورة الشعراء (26)، الآية: 16.

(2) الفراء، معاني القرآن: 2/ 274.

(3) الثعلبي في تفسيره: ح.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿طسٓمٓ ﴿1﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿2﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿3﴾ إِن نَّشَأْ
نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿4﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا
كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿5﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿6﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ
كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿7﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿8﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿9﴾ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿10﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿11﴾﴾.

قال أبو بكر: سورة الشعراء مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿224﴾﴾ إلى آخر السورة، فإنه نزل بالمدينة وهي خمسة آلاف وخمسمائة واثنان وأربعون حرفاً، وألف ومائتان وتسع وسبعون كلمة، ومائتان وسبع وعشرون آية.

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم ﴿طسٓمٓ ﴿1﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿2﴾﴾ أول السورة قسم، وهو من أسماء اللّه تعالى. قال القرظي: أقسم اللّه بطَوْله وسنائه[1] ومُلْكِه[2]. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿3﴾﴾ أي لعلك مهلك نفسك، وقاتل نفسك بأن لا يكونوا مؤمنين. وكان صلى اللّه عليه وسلم حريصاً على إيمانهم، ونجاتهم من عذاب اللّه، وذلك أنه لما كذبت قريش النبي صلى اللّه عليه وسلم شق ذلك عليه، وكان يحرص على إيمانهم، فأنزل اللّه هذه الآية: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ قاتل نفسك لتركهم الإيمان. قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿4﴾﴾ إعلام من اللّه تعالى أنه لو أراد أن ينزل آية تضطرهم إلى الطاعة لقدر على ذلك، ولكنه لم

---

(1) في النسخة: س، وشأنه.
(2) البغوي في تفسيره: 4/ 255، والقرطبي في تفسيره: 13/ 89.

يفعل لأنه أراد منهم إيماناً يستحقون عليه المدح والثواب فإذا جاء الإلجاء ذهب المدح والثواب. قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ﴾ أي رؤساؤهم وكبراؤهم ﴿لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ أذلاء منقادين لا يلوون أعناقهم إلى معصية. قال قتادة المعنى: لو شاء اللّه لأنزل عليهم آية يذلون بها[1] ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ والأعناق: الجماعات يقال جاء في عنق من الناس أي جماعة، ولو كان المراد الأعناق التي هي الجارحة لقال: خاضعات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿5﴾﴾ أي ما يأتي جبريل عليه السلام إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم بشيء بعد شيء من القرآن إلا كانوا معرضين عن ذلك. قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ أي بالقرآن، فسيأتيهم خبر ذلك في القيامة. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿7﴾﴾ معناه: أولم ير أهل مكة إلى الأرض كم أخرجنا فيها من كل صنف حسن في النظر من النبات بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها، والزوج: هو الصنف، والضرب الحسن، والمعنى: من كل زوج نافع لا يقدر على إنباته إلا رب العالمين، من أسود، وأحمر، وأصفر، وأخضر، وحلو، وحامض، مما يأكل الناس والأنعام. والكريم في اللغة: هو المحمود فيما يحتاج إليه. يقال نخلة كريمة إذا طاب حملها، وكثر، وناقة كريمة: إذا كانت غزيرة اللبن. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿8﴾﴾ أي إن في اختلاف لون النبات: الدلالة على وحدانية اللّه، وكمال قدرته ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في علم اللّه أي قد سبق في علم اللّه أن أكثرهم لا يؤمنون ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿9﴾﴾ أي المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿10﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿11﴾﴾ أي أتل على قومك، واذكر لقومك إذ نادى ربك موسى حين رأى الشجرة والنار، قال له يا موسى: ائت القوم الظالمين، يعني الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وظلموا بني إسرائيل بأن ساموهم سوء العذاب، ثم أخبر عنهم فقال: قوم فرعون ألا يتقون عقابي في مقامهم على الكفر، وترك الإيمان[2].

---

(1) الطبري في تفسيره: 11/ 75.

(2) القرطبي في تفسيره: 13/ 91.

قال اللّه تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

قال أبو بكر:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾ أي قال موسى: إني أخاف أن يكذبوا بالرسالة، ويقولوا لست من عند اللّه ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ بتكذيبهم إياي ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى﴾ للعقدة التي فيه ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾ جبريل ليكون معي معيناً يؤزرني على إظهار الدعوة، وتبليغ الرسالة ﴿وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ﴾ أي دعوى ذنب يعني الوكزة التي وكزها للقبطي فمات منها ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بسببه. قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي كلا لا يقتلونك لأني لا أسلطهم عليك، فاذهب أنت وأخوك بآياتي يعني بما أعطاهما من المعجزة ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ وإنما قال: معكم لأنه أجراهما مجرى الجماعة، والمعنى: يسمع ما يقولانه وما يجيبونكما به، وقيل معنى قوله: ﴿كَلَّا﴾ أي قال اللّه لموسى ارتدع عن هذا الظن، وهذا الخوف ﴿فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي بدلالتنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ أي شاهدون نحفظكم وننصركم. قوله تعالى: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ إليك لتؤمن باللّه، وتطلق بني إسرائيل[1] من الاستعباد، وترسلهم معنا إلى الأرض المقدسة، والرسول يذكر ويراد به الجمع. كما تقول العرب: ضيف، وولي، وعدوّ ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾[2] وقيل إنما قال رسول ولم يقل رسولاً لأنه أراد المصدر أي رسالة، وتقديره: إنا رسالة رب العالمين كقول الشاعر:

---

(1) النسخة: س، عن.
(2) سورة الكهف (18)، الآية: 50.

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم ∴ بسرّ ولا أرسلتهم برسول[1]

أي برسالة، وقيل معناه: كل واحد منا رسول رب العالمين. قوله تعالى: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي بأن أرسل معنا بني إسرائيل إلى فلسطين، ولا تستعبدهم، وكان فرعون استعبدهم أربعمائة سنة وكانوا في ذلك الوقت ستمائة ألف وثلاثين ألفاً، فانطلق موسى وهارون بالرسالة إلى مصر فلما بلغا دار فرعون لم يؤذن لهما في الدخول إليه إلا بعد مدة.

فدخل البواب وقال لهما لفرعون: هنا إنسان يدعي أنه رسول رب العالمين، فقال فرعون: ائذن له لعلنا نضحك منه فدخلا عليه، وأديا رسالة اللَّه تعالى، فعرف فرعون موسى لأنه نشأ في تربيته فقال له: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ أي صبياً صغيراً ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ وهي ثلاثون سنة ـ وفعلت فعلتك التي فعلت ـ يعني قتل القبطي ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي من الجاحدين لنعمتي، وحق تربيتي. ربيناك فينا وليداً فهذا الذي كافأتنا به أن قتلت منا نفساً وكفرت بنعمتنا. وروي أن موسى عليه السلام لما انطلق إلى مصر لتبليغ الرسالة وكان هارون يومئذ بمصر التقى كل واحد منهما بصاحبه، فانطلقا كلاهما إلى فرعون وأديا جميعاً الرسالة وعرف فرعون موسى قال له فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ أي صغيراً؟ ومكثت عندنا سنين من عمرك. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ أي قتلت القبطي ـ ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ ـ أي الجاحدين لنعمتي وتربيتي. قال موسى ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي فعلت تلك الفعلة، وأنا من الجاهلين لم يأتني من اللَّه شيء ولا يجوز أن يكون المراد بهذا الضال عن الهدى لأن ذلك لا يجوز على الأنبياء، وقيل معناه: وأنا من المخطئين نظيره ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[2]، وقيل: من الناسين نظيره قوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[3] قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أي

(1) ذكره في اللسان: رسل، بروايتين مختلفتين في صفحة واحدة الأولى بلفظ «بسرٍّ» بدل بسوءٍ، والثانية «بليلى ولا أرسلتهم برسيل» ونسب البيت في الرواية الأولى إلى كثير، ونقل في الثانية من إنشاد ثعلب دون نسبة، قال: والرسول بمعنى الرسالة، يؤنث ويذكر.
ينظر تفسير الطبري: 11/ 82، والقرطبي في تفسيره: 13/ 93، والطبرسي في مجمع البيان: 7/ 291.

(2) سورة يوسف (12)، الآية: 95.

(3) سورة البقرة (2)، الآية: 282.

هربت منكم إلى مدين لما خفتكم على نفسي أن تقتلوني بالذي قتلته ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ أي نبوة وقيل فهماً وعلماً ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إليك وإلى قومك لأبلغكم التوحيد والشرائع. قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿22﴾﴾ قال المفسرون: هذا إنكار من موسى أن يكون ما ذكر فرعون نعمة على موسى واللفظ لفظ الخبر، وفيه تبكيت للمخاطب على معنى: إنك لو كنت لم تقتل بني إسرائيل لكانت أمي مستغنية عن قذفي في اليم، فكأنك تمنن علي بما كان بلاؤك مسبباً له، وقيل معناه: إن فرعون لما قال لموسى: ألم نربك فينا وليداً؟ قال له موسى: تلك نعمة تعدها عليّ لأنك عبدت بني إسرائيل أي استعبدتهم، ولو لم تعبدهم لكفلني أهلي، فلم يلقوني في اليم، يقال استعبدت فلاناً، وأعبدته، وتعبدته، وعبدته أي اتخذته عبداً، وقيل معنى الآية: أتمن عليّ بذلك؟ وأنت استعبدت بني إسرائيل، فأبطلت نعمتك عليّ بإساءتك واستعبادك إياهم، وبأن أخذت أموالهم، وأنفقت على موسى منها، وكانت أمي هي التي تربيني فأي نعمة لك عليّ؟ وقوله تعالى: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ في موضعها وجهان أحدهما: النصب بنزع الخافض، والثاني الرفع على البدل من نعمتي.

قال اللّه تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿23﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿24﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿25﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿26﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿27﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿28﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿29﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿30﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿31﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿32﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿33﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿23﴾﴾ أي قال له فرعون، وما رب العالمين؟ أي أي شيء رب العالمين الذي تدعون إليه؟ فقال رب السمٰوات

والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين بأن المستحق للربوبية من يكون بهذه الصفة، وأن هذه الأشياء التي ذكرت ليست من فعلكم، فلما قال موسى ذلك تحير فرعون، ولم يرد جواباً ينقض به هذا القول، فقال لمن حوله: ألا تستمعون مقالة موسى؟ فقال موسى: ربكم، ورب آبائكم الأولين، بين أن المستحق للربوبية من هو رب أهل كل عصر وزمان، أي الذي خلق آباءكم الأولين، وخلقكم من آبائكم، فلم يقدر فرعون على جوابه. فقال فرعون لجلسائه ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ أي ما هذا بكلام صحيح إذ يزعم أن له إلّهاً غيري، فلم يشتغل موسى بالجواب عن ما نسبه إليه من الجنون ولكن اشتغل بتأكيد الحجة، والزيادة في الإبانة فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ توحيد اللّه، فإن كنتم ذوي عقول لم يخف عليكم ما أقول، فلم يجبه فرعون بشيء ينقض حجته بل تهدده وقال له: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ أي لأجعلنك مع من حبسته في السجن، ظن بجهله أنه يخالفه، ويترك عبادة اللّه، ويتخذ فرعون إلّهاً، وكان سجن فرعون أشد من القتل لأنه كان إذا حبس الرجل طرحه في مكان وحده لا يسمع فيه شيئاً، ولا يبصر فيه شيئاً وكان يهوي به في الأرض، فقال موسى لفرعون حين توعده بالسجن: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (30)﴾ يعني أتسجنني ولو جئتك بأمر ظاهر تعرف فيه صدقي وكذبك؟ قال فرعون على وجه التجربة: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (31)﴾ بأنك رسول إليّ ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ من يده ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي حية صفراء ذكر عظيم، أعظم ما يكون من الحيات قال فرعون: فهل غير هذه؟ ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ بياضاً نورياً لها شعاع كشعاع الشمس. فإن قيل كيف سمى العصا ثعباناً في هذه الآية، وسماها جاناً في آية أخرى، حيث قال: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[1]؟ قلنا إنما سماها ثعباناً لعظم جثتها، وسماها جاناً لسرعة مشيته وحركته، وذلك ما يدل على عظم الآية، فلم يكن عند فرعون دفع لما شاهد إلا أن قال هذا سحر مموه، فأوهم أصحابه أنه لا صحة له وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (34)﴾.

---

(1) سورة القصص (28)، الآية: 31.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ قال ابن عباس: وكان الملأ الذي حوله خمسمائة من أشراف قومه عليهم الأسورة[1]، فقال لهم: إن هذا لساحر حاذق بالسحر يريد أن يلقي الفرقة والعداوة بينكم فيخرجكم من بلادكم بسحره ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي ماذا تشيرون علي في أمره؟ ولو تفكر هؤلاء الجهال في قوله ذلك لعلموا أنه ليس بإله لافتقاره إلى رأيهم، ولكنهم لفرط جهلهم نوّه عليهم. قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي قال له الملأ: أخّر أمره، وأمر أخيه لا تناظرهما إلى أن تبعث إلى المدائن الشرط يحشرون السحرة لتصنع السحرة مثل ما صنع موسى، ولا تثبت له عليك حجة ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي لميعاد يوم زينتهم وهو يوم عيدهم، وقيل للناس اجتمعوا لتنظروا إلى السحرة لعلنا نتبع السحرة أي نتبع دينهم ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لموسى، ويقال أراد بالسحرة موسى وهارون ـ إن كانوا هم الغالبين ـ على سحرهم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي جعلاً ﴿إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ لموسى؟ قال: نعم وإنكم، ما أعطيتكم من الأموال

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 260.

لمن المقربين في المرتبة والمنزلة، والدخول علي ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي اطرحوا من أيديكم ما تريدون طرحه من الحبال والعصي، وهذا أمر تهديد لا أمر تحقيق ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ أي بمنعته ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ لموسى فامتلأ الوادي حيات، فهابه ذلك، فقيل لموسى: ألق عصاك، فألقاها فصارت حية عظيمة تلقف ما صنعوا من السحر، ثم أخذها موسى فعادت عصا كما كانت، ولم يوجد لما تلقفته أثر، فسجد السحرة عند ذلك للَّه تعالى لما علموا أن ذلك ليس بسحر وإنما هو من عند اللَّه، ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (48)﴾، قال لهم فرعون: إياي تعنون، قالوا: رب موسى وهارون، ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي صدقتم به قبل أن آمركم بذلك ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (49)﴾، وكان فرعون أول من قطع وصلب. قال ابن عباس: إنهم من سرعة سجودهم كأنهم ألقوا(1).

قال اللَّه تعالى:

﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (50) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (51) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (52) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (53) إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (55) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (60) فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ (62) فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ (64) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ (66) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (68)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (50)﴾ أي قالت السحرة لا

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.

يضرنا ما يصنع بنا في الدنيا في جنب ثواب اللّه في الآخرة إنا إذا رجعنا إلى ربنا مؤمنين لنأخذن حقنا من الظالم ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ﴾ أي تجاوز لنا شركنا وسحرنا ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بأن كنا أول المؤمنين بموسى من أهل هذا الجمع اليوم، فكانوا سحرة في أول النهار وشهداء في آخره. قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾ أي بني إسرائيل ليلاً، وأخبرهم أن فرعون وقومه سيتبعونهم، وينجيهم من ضررهم، فأسرى بهم موسى ليلاً إلى البحر، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿53﴾﴾ يحشرون الناس، ويجمعون له الجيش، ثم قال فرعون لقومه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿54﴾﴾ يعني موسى وأصحابه، والشرذمة الفئة القليلة، والشرذمة في كلام العرب: القليل من كل شيء من الناس والأموال. روي أن هؤلاء الذين استقلهم فرعون كانوا يومئذ ستمائة ألف وسبعون[(1)] ألفاً، وكان هامان على مقدمة فرعون، ومعه ألفا ألف، وفرعون في أكثر من خمسة آلاف. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿55﴾﴾ أي لفاعلون ما يغيظنا لإظهارهم خلاف ديننا وأخذهم حلينا، وقتلهم أبكارنا، وذلك أن اللّه تعالى أوحى إلى موسى أن أجمع أولاد بني إسرائيل كل أهل أربعة أبيات في بيت، ثم اذبحوا أولاد الضأن، واضربوا بدمائها على أبوابكم فإني سآمر الملائكة لا يدخلون بيتاً على بابه دم، وسآمرهم بقتل أبكار آل فرعون ثم اسر بعبادي ففعل ذلك، فلما أصبحوا قال فرعون هلا عمل موسى وقومه ـ قتلوا أبكارنا وأخذوا أموالنا، فأخذ في طلبهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿56﴾﴾ قرأ الكوفيون، وابن عامر: حاذرون ـ بالألف ـ أي شاكون في السلاح ذوو أداة وقوة وكراع، وبنو إسرائيل لا سلاح لهم، وقرأ الباقون: حذرون ـ أي متيقظون ـ خائفون[(2)] شرهم. قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿57﴾﴾ يعني فرعون وقومه من بساتين وعيون جارية ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أي وخزائن مدخرة من الذهب والفضة ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي مجالس

---

(1) ينظر القرطبي في تفسيره: 13/ 100 ـ 101.
ينظر الطبري في تفسيره: 11/ 94 ـ 95.

(2) مكي بن أبي طالب، في الكشف عن وجوه القراءات السبع: 2/ 151.

رفيعة من مجالس الملوك والرؤساء، كذلك فعلنا بهم، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم بني إسرائيل، وذلك أن اللّه تعالى ردّ بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه، وأعطاهم جميع ما كان لفرعون من الأموال والعقار والمساكن. وقوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿60﴾﴾ يعني قوم فرعون أدركوا موسى وقومه وأصحابه حين أشرقت الشمس. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿61﴾﴾ أي فلما توافق الفريقان، وتقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه، وعاين بعضهم بعضاً، قال أصحاب موسى: سيدركنا قوم فرعون، ولا طاقة لنا بهم. قال لهم موسى كلا، أي لن يدركونا، وقيل معنى كلا: ارتدعوا، وانزجروا عن هذه المقالة ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ ناصري وحافظي ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى طريق النجاة منهم. قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ فصار فيه اثنتا عشرة طريقاً لكل سبط طريق، ووقف الماء لا يجري وكان بين كل طريقين قطعة من الماء كالطود العظيم ـ أي كالجبل العظيم ـ وهذا البحر هو بحر القلزم يسلك الناس فيه من اليمن ومكة إلى مصر. قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿64﴾﴾ يعني قوم فرعون قربناهم إلى الهلاك، وقذفناهم في البحر، وأدنينا بعضهم من بعض، وجمعناهم فيه بما يسرنا لبني إسرائيل من سلوك البحر، فكان ذلك سبب قربهم من البحر حين اقتحموا، وتسمى المزدلفة لاجتماع الناس فيها، فلما تكامل آخر جنود فرعون في البحر انطبق عليهم فغرقوا جميعاً ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿65﴾﴾ من الغرق ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿66﴾﴾ أي فرعون وقومه. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي إن في الانفلاق الذي صار سبب نجاة بني إسرائيل، وفي الانطباق الذي كان سبب غرق آل فرعون لآية على توحيد اللّه، وصدق نبوة موسى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي لم يكن قوم فرعون مع وضوح الأدلة لهم على وحدانية اللّه مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿9﴾﴾ أي القاهر المنتقم من الكفار ـ الرحيم ـ بعباده، ولم يكن آمن من أهل مصر غير آسية بنت مزاحم، وحزقيل المؤمن، ومريم بنت ذا موسى التي دلت على عظام يوسف، فلذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وقيل معنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿9﴾﴾ أي العزيز في انتقامه من أعدائه حين أغرقهم، الرحيم بالمؤمنين حين أنجاهم.

قال الله تعالى:

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿69﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿70﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿71﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿72﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿73﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿74﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿75﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿76﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿77﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿78﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿79﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿80﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿81﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿82﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿69﴾﴾ أي اقرأ يا محمد على قومك خبر إبراهيم ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿70﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿71﴾﴾ فنقيم عليها عابدين مقيمين على عبادتها. قال بعض العلماء إنما قال: فنظل لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿72﴾﴾ أي يسمعون دعاءكم إذ دعوتموهم ﴿أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ﴾ إن عبدتموهم أو يضرونكم إن لم تعبدوهم. وقال ابن عباس معناه: أو يرزقونكم أو يكشفون عنكم الضر[1]. ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿74﴾﴾ فنحن نقتدي بهم ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿75﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿76﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿77﴾﴾ أي قال لهم إبراهيم: أفرأيتم هذا الذي تعبدونه أنتم وآباؤكم المتقدمون فإنهم عدو لي، أي فإني أعاديهم، وأتبرأ منهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ روي أنهم كانوا يعبدون الله مع الأصنام فتبرأ إبراهيم من جميع ما يعبدونه إلا من عبادة الله، وإنما قال عدو لي على التوحيد في موضع الجمع على معنى أن كل واحد منهم عدو لي، ويقال إن قوله تعالى: ﴿عَدُوّٞ﴾ في موضع المصدر كأنه قال فإنهم ذوو عداوة، فوقعت الصفة موقع المصدر كما يقع المصدر موقع الصفة في رجل عدل ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ استثناء منقطع. ومعناه: ولكن رب العالمين الذي خلقني ليس بعدو لي هو يهدين أي يرشدني

---

(1) البغوي في تفسيره: 4/ 265.

إلى الحق وذلك أنهم كانوا يزعمون أن أصنامهم هي التي تهديهم، فقال إبراهيم رداً عليهم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ إلى الدين والرشد لا ما يعبدون. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ أي يعافيني أي هو رازقي، فمن عنده طعامي فهو الذي يشبعني إذا جعت، ويرويني إذا عطشت، وإذا مرضت فهو يشفيني، أي يعافيني من المرض، وذلك أنهم كانوا يقولون: المرض من الزمان والأغذية، والشفاء من الأطباء والأدوية فأخبرهم إبراهيم: أن الذي أمرض هو يشفي وهو اللَّه عزّ وجلّ، ولم يقل إبراهيم: إذا أمرضني لأنه يقال: مرضت وإن كان المرض بخلق اللَّه وقضائه، ولا يقال أمرضني اللَّه. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾ أي هو الذي يميتني في الدنيا ثم يحييني في الآخرة للبعث ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ معناه: والذي أعلم وأرجو أن يغفر لي يوم الحساب، وذكر بلفظ الطمع لأن ذلك أقرب إلى حسن الأدب، وقال بعض المفسرين يعني: الكذبات الثلاث قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله لسارة هي أختي، وزاد الحسن والكلبي قوله أيضاً للكوكب: هذا ربي. قال الزجاج: إن الأنبياء بشر يجوز أن تقع منهم الخطيئة إلا أنهم لا تكون منهم الكبيرة لأنهم معصومون[1]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ أي يوم الجزاء والحساب.

قال اللَّه تعالى:

﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى﴾ لم يرد به نبوة بعد نبوة، وإنما

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 94.

أراد زدني علماً إلى علم وفقهاً إلى فقه. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي بالنبيين من قبلي في الدرجة والمنزلة والثواب. والصلاح: هو الاستقامة على ما أمر اللَّه به. قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ (84)﴾ أراد به الثناء الحسن أي اجعل لي ثناء حسناً في الدين يكون من بعدي إلى يوم القيامة، وقد استجاب اللَّه دعاءه حين أحبه أهل الأديان كلهم، وقيل اجعل لي في ذريتي من يقوم بالحق ويدعو إليه، وهو محمد صلى اللَّه عليه وسلم، ومن اتبعه، فإنهم هم الذين أظهروا شرائعه وفضائله. قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ (85)﴾ أي أدخلني الجنة، واجعلني من الذين يرثون الفردوس ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ (86)﴾ أي من المشركين، وإنما دعا إبراهيم لأبيه لموعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو للَّه تبرأ منه، وكان هذا الدعاء قبل أن يتبرأ منه، والضال: هو الذاهب عن طريق الحق. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87)﴾ أي لا تفضحني ولا تهتك ستري يوم القيامة يوم يبعث الخلق، وقيل معناه: ولا تعذبني يوم تبعث الخلائق، وإنما قال مع علمه أنه لا يخزيه إما على طريق التعبد، وإما حثاً لغيره على الاقتداء به في مثل هذا الدعاء، ثم فسر ذلك اليوم فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88)﴾ أي يوم لا ينفع ذا المال ماله الذي كان في الدنيا ولا ينفعه بنوه، ولا يواسونه بشيء من طاعاتهم، ولا يحملون عنه شيئاً من معاصيه. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾ يعني من الشرك والنفاق فإنه ينفعه سلامة قلبه، وقيل: القلب السليم هو الصحيح، وهو قلب المؤمن، وقلب الكافر والمنافق مريض، وقال أهل المعاني في تفسير هذه الآية أقوالاً غير هذه. فقال بعضهم معنى ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78)﴾: أي الذي خلقني في الدنيا على فطرته فهو يهديني في الآخرة إلى جنته. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79)﴾ أي يطعمني أي طعام شاء، ويسقيني أي شراب شاء. قال محمد بن كثير[1]: صحبت سفيان الثوري بمكة وكان يستقيت من السبت إلى السبت كفاً من الرمل.

وعن الحجاج بن عبد الكريم قال: خرجت من بلخ في طلب إبراهيم بن

---

(1) محمد بن كثير العبدي، الطبقات الكبرى: 7/ 222، رقم: 3388.

أدهم فوجدته بحمص، فسلمت عليه ولبثت معه يومي ذلك، فقال: لعل نفسك تنازعك إلى شيء من طعام؟ فقلت: نعم، فأخذ رماداً وتراباً وخلطهما، وأعطانيه ثم أقبل عليّ فأنشأ يقول: اخلط التراب بالرماد وكله، وازجر النفس عن مقامَ السؤال[1]. وقال أبو بكر الوراق معناه: يطعمني بلا طعام، ويسقيني بلا شراب، يشبعني ربي ويرويني من غير علاقة. كما قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني**»[2]. وقال علي بن قادم[3] كان عبد اللَّه بن أبي نعيم لا يأكل في الشهر إلا مرة فبلغ ذلك الحجاج، فدعاه، فأدخله بيتاً، وأغلق عليه بابه خمسة عشر يوماً ثم فتحه، ولم يشك أنه قد مات، فوجده قائماً يصلي، فقال له: يا فاسق أتصلي بغير وضوء؟ فقال: يا حجاج إنما يحتاج إلى الوضوء من يأكل ويشرب، فأنا على الطهارة التي أدخلتني عليها هذا البيت[4]. وقال ذو النون المصري معنى قوله تعالى: ﴿يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝79﴾ أي يطعمني طعام المعرفة ويسقيني شراب المحبة ثم أنشأ يقول:

شراب المحبة خير الشراب ∴ وكل شراب سواه سراب

وقال أبو يزيد البسطامي: إن للَّه شراباً يقال له: شراب المحبة ادخره لأفاضل عباده، فإذا وصلوا اتصلوا فهم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وقال الجنيد: يحشر الناس يوم القيامة عراة إلا من لبس لباس التقوى، وجياعاً إلا من أكل طعام المعرفة، وعطاشاً إلا من شرب شراب المحبة. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝80﴾ قال جعفر الصادق: أي إذا مرضت بالذنوب فهو يشفين بالتوبة[5]. وقال بسطام بن عبد اللَّه: إذا أمرضتني مقاساة الخلق شفاني بذكره والأنس به. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ۝81﴾ قال أهل

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.
(2) أخرجه البخاري فتح الباري: 4/ 722، رقم: 1965، كتاب الصوم.
(3) أبو الحسن علي بن قادم الكوفي توفي سنة ثلاث عشرة ومائتين هجرية، الطبقات الكبرى: 6/ 371.
(4) الثعلبي نفسه وكذا قول ذي النون، والبسطامي، والجنيد.
(5) القرطبي في تفسيره: 3/ 110.

الإشارة: يميتني بالعدل ويحييني بالفضل، يميتني بالمعصية ويحييني بالطاعة، يميتني بالفراق ويحييني بالتلاق، يميتني بالجهل ويحييني بالعقل، يميتني بالخذلان ويحييني بالتوفيق. قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾ أي قربت وأدنيت لهم حتى نظروا إليها. وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي أظهرت وكشفت للضالين عن الهدى، وقيل للضالين في ذلك اليوم على وجه التوبيخ ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أين آلهتكم التي تعبدونها من دون اللّه هل يدفعون العذاب عنكم؟ وهل ينتصرون لأنفسهم؟ أي يدفعون عن أنفسهم، ثم يؤمر بهم فيلقون في النار فذلك قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قال اللّه تعالى:

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ وقال الزجاج: طرح بعضهم على بعض[1]. وقال ابن قتيبة: ألقوا رؤوسهم[2]. وقال مقاتل: قذفوا فيها هم والغاوون. قال السدي يعني الآلهة والمشركين، وقال عطاء: هم وما يعبدون من دون اللّه وجنود إبليس أجمعون يعني ذرية إبليس كلهم. وقيل معنى كبكبوا: جمعوا وهم كفار مكة وكفار الجن والأنس وآلهتهم وذرية إبليس حتى صاروا كبة واحدة وطرحوا في النار. قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أي قالت الكفار: وهم فيها يختصمون أي في النار مع آلهتهم ورؤسائهم ـ ﴿تَٱللَّهِ﴾ ما ﴿كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ حيث سويناكم برب العالمين فأعظمناكم وعبدناكم، وعدلناكم به. يقرون على أنفسهم بالخطإ ﴿وَمَآ

---

(1) معاني القرآن وإعرابه: 4/ 94.

(2) البغوي في تفسيره: 4/ 268.

أَضَلَّنَآ﴾ على الهدى ﴿إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ يعني الشياطين، وقيل أولونا الذين اقتدينا بهم ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يشفع لنا من الملائكة والنبيين والمؤمنين يشفعون لأهل التوحيد ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي ولا ذي قرابة يهمه أمرنا فالحميم القريب الذي توده ويودك. قال ابن عباس: إن المؤمن يشفع يوم القيامة للمؤمن المذنب - والصديق الصاحب الذي يصدق في المودة - وفي الحديث أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «**إن الرجل يقول في الجنة: ما فعل صديقي فلان، وصديقه في النار؟ فيقول اللّه عزّ وجلّ: أخرجوا له صديقه إلى الجنة، فيقول من بقي ما لنا من شافعين، ولا صديق حميم؟**» ثم قالوا ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي رجعة إلى الدنيا فنكون من المؤمنين المصدقين بالتوحيد لتحل لنا الشفاعة كما حلت لأهل التوحيد. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي فيما أخبر من قصة إبراهيم واختصام أهل النار، وتبري بعضهم من بعض لعبرة للعقلاء من بعدهم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ أي الغالب على تعجيل الانتقام بالإمهال إلى أن يؤمنوا، والمنعم عليهم بعد التوبة.

قال اللّه تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾، قال الزجاج: دخلت التاء هاهنا، وقوم مذكّرون لأن المراد بالقوم الجماعة أي كذبت جماعة قوم نوح[1] ومن قبله من الرسل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ عذاب اللّه بتوحيده

(1) معاني القرآن وإعرابه 4: 95.

وطاعته، وكان أخوهم من النسب لا من جهة الدين ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿107﴾﴾ على الرسالة فيما بيني وبين ربكم ـ وقيل معناه: كنت أميناً فيكم قبل اليوم، فكيف تتهمونني اليوم؟ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه، وقيل: وأطيعوني فيما آمركم به من الإيمان والتوحيد ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ﴾ على الدعاء إلى التوحيد ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ أي ما أجري وثوابي ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقيل: ما أسألكم على تبليغ الوحي والرسالة مالاً فيصدكم عن القبول مني، وتعتقدون فيّ الطمع ـ وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لأني رسول رب العالمين أمين ـ والثاني: اتقوا اللّه وأطيعوني لأني ما أسألكم عليه من أجر ـ فقالوا له: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي أنقر بك ونصدقك، وقد اتبعك سفلتنا، وهم الأرذلون الأقلون؟ وكان قد آمن بنوح ضعفاء قومه وبنوه، وكان أكثر من اتبعه يخصون بصناعات خسيسة مثل: الحاكة، والأساكفة ـ فلذلك قال أشراف قومه ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ ويقرأ وأتباعك الأرذلون، وهي قراءة[1] يعقوب أي أشياعك، وأهل دينك ـ قال الزجاج: والصناعات لا تضر في باب الديانات[2] ـ وقال عطاء يعنون بالأرذلين: المساكين الذين ليس لهم مال ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿112﴾﴾ أي قال نوح: ما أعلم بأعمالهم وصنائعهم، ولم أكلف ذلك وإنما كلفت أن أدعوهم ولا أسأل عما كانوا يعملون، ولا أطلب على صنائعهم، وإنما العيب في المعاصي لا في خساسة الصناعة ـ وقوله تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿113﴾﴾ أي ما حسابهم فيما يعملون إلا على ربي ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿113﴾﴾، أي لو تعلمون ـ ذلك ما عبتوهم بصناعتهم، وقيل: إنهم نسبوا قومه الذين آمنوا به إلى النفاق، وإضمار الكفر ـ فقال: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿113﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿114﴾﴾ أي لا أطردهم من عندي مع إظهارهم الإيمان بسبب فقرهم وطعنكم عليهم ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿115﴾﴾ أي ما أنا إلا معلم بموضع المخافة ليحذروها فمن قبل قربته، ومن ردّ باعدته، ولم أكلف علم ما في الضمائر.

---

(1) النشر في القراءات العشر، 2: 335.

(2) معاني القرآن وإعرابه نفسه.

قال الله تعالى:

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿116﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿117﴾
فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿118﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ
ٱلْمَشْحُونِ ﴿119﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿120﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿121﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿122﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿123﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا
تَتَّقُونَ ﴿124﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿125﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿126﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿127﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿128﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ﴾ أي لئن لم تنته عما تقول، لتكونن من المقتولين بالحجارة ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿117﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي فاقض بيننا قضاء يكون نجاتنا وإهلاك عدونا ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ في السفينة المملوءة من الناس والبهائم والسباع والطير ـ فذلك قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي الذي قد ملىء مما ذكرنا من جميع الحيوان ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿120﴾﴾ أي بعد نجاة نوح ومن معه ﴿أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي في إغراق الكافرين ونجاة المؤمنين في السفينة لعلامة تدل على وحدانية اللَّه، وكمال قدرته، وما كان أكثر قوم نوح مؤمنين مع قيام الحجة ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿9﴾﴾ أي القادر على أخذ الأعداء المنتقم منهم، الرحيم بالأولياء المنعم عليهم ـ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿123﴾﴾ التأنيث بمعنى القبيلة أريد بعاد القبيلة والمعنى: كذبت عاد هوداً، وجماعة المرسلين، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ في النسب ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿124﴾﴾ عبادة غير اللَّه ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿107﴾﴾ أرسلني اللَّه إليكم، وائتمنني على الرسالة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿126﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ـ قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿128﴾﴾ الريع هو المكان المرتفع ـ قال ابن عباس معناه: أتبنون بكل شرف[1]، وقال مقاتل

---

(1) الشرف: المكان المشرف العالي.

والكلبي والضحاك: أتبنون بكل طريق آية[1] أي بنياناً وعلماً متميزاً عن سائر الأبنية تعبثون بمن يمر في الطريق ـ والمعنى أتبنون بكل طريق ـ والمعنى بكل طريق بالمواضع المرتفعة بنياناً لتشرفوا على المارة فتسخروا منهم، وتعبثوا بهم، وقيل معنى قوله: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ أي تبنون ما تستغنون عنه، ولا تسكنونه عبثاً منكم، سمى بناءهم عبثاً لأنهم كانوا يسرفون ـ في البناء فيبنون فوق الحاجة، ويقصدون بذلك التفاخر والتكاثر ومن ذلك سمي كل لعب لا لذة فيه عبثاً، والذي يكون فيه لذة لعباً، وقال الوالبي عن ابن عباس: أتبنون بكل ريع أي بكل شرف ـ وقال قتادة والضحاك: بكل طريق، وعن ابن أبي نجيح[2]: الريع الشية الصغيرة، وقيل: المنظرة[3] قال عكرمة: بكل واد.

قال اللّه تعالى:

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمۡ تَخۡلُدُونَ ﴿129﴾ وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ﴿130﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿131﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿132﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿133﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿134﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿135﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿136﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿137﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿138﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿139﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿140﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿141﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿142﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿143﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿144﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿145﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ قال ابن عباس: هي الأبنية ـ وقال مجاهد: المصانع قصور مشيدة، وقيل هي الحصون. وقال عبد الرزاق المصانع عندنا بلغة اليمن: القصور واحدها مصنعة ـ وقال الكلبي: هي القصور والحصون، وقيل هي المباني التي تصنعها الناس من البساتين وغيرها، وقيل هي مجامع

---

(1) الطبري في تفسيره: 11: 116.

(2) أبو يسار عبد اللّه بن أبي نجيح الثقفي كان ثقة كثير الحديث توفي بمكة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية. الطبقات الكبرى، 6: 31 ـ رقم 1588.

(3) الطبري نفسه.

الماء وهي الحياض[1] وواحد المصانع مصنعة وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي كأنكم تخلدون أي تستوثقون في بناء المصانع كأنكم تخلدون فيها فلا تموتون، ولعل تأتي في الكلام بمعنى كأن من قولك: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ ـ أي كأنك قاتل نفسك إن لم يؤمنوا وقيل معناه: تتخذون ذلك، وجاء إن تخلدوا وأنتم لا تخلدون ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي إذا بطشتم بمن دونكم بطشتم متكبرين ومتجبرين ضرباً بالسوط وبالسيف تقيلون على الغضب ـ والمعنى: إذا عاقبتم قتلتم والبطش هو الأخذ بالشدة والجبار: هو العالي بالقدرة ـ يقال نخلة جبارة إذا كانت مرتفعة لا تنالها الأيدي وهي صفة مدح للّه تعالى لأن هذا المعنى حقيقة فيه، صفة ذمّ لغيره ـ لأنه كذب فيه ـ قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي اتقوا عذاب اللّه بإصراركم على ما أنتم عليه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ من النعمة والخير ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ فيه بيان بعض النعم ـ قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي إني أعلم أنه سينزل بكم عذاب عظيم إن لم تؤمنوا، يريد به العذاب الذي أهلكوا به ـ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي سواء علينا أوعظتنا أم لم تعظنا فلا نترك هذه العبادة ـ وقوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي ما هذا العذاب الذي تقول يا هود إلا كذب الأولين ـ وهذا قول ابن مسعود ومجاهد. والخلق والاختلاق: هو الكذب ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[2] قرىء خُلُق الأولين ـ بضم الخاء واللام[3] أي عادة الأولين ـ والمعنى ما هذا الذي نحن فيه إلا عادة الأولين من قبلنا يعيشون ما عاشوا ثم يموتون ولا بعث ولا حساب ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ على ما نفعل ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بالعذاب في الدنيا ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بالريح ـ قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ أي كذبوا هوداً بعد وضوح الحجة فأهلكناهم بريح صرصر عاتية وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي إن في إهلاكنا إياهم مع شدة قوتهم لآية بأضعف الأشياء وهي الريح دلالة على وحدانيتنا وصدور

---

(1) هذه الأقوال في تفسير الطبري، 11: 117.

(2) سورة العنكبوت 29، الآية: 17.

(3) النشر في القراءات العشر، 2: 335.

نبوة هود ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله فإنه لم يؤمن منهم إلا قليل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿9﴾﴾ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿141﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿146﴾﴾ ظاهر المعنى.

قال الله تعالى:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿146﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿147﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿148﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿149﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿150﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿151﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿152﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿153﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿154﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿155﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿146﴾﴾ أي قال لهم صالح أتتركون في الدنيا آمنين من الموت والعذاب ـ تأكلون وتشربون وتتمتعون ولا تكلفون؟ وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي أتظنون أنكم تتركون في بساتين ومياه طاهرة وحروث ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿148﴾﴾ أي ثمرها نضيج مدرك ناعم والنضج هو الرخص اللين اللطيف اليانع ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ﴾ أي تنقبون من الجبال بيوتاً ﴿فَرِهِينَ ﴿149﴾﴾ ـ أي أشرين بطرين ـ وقرأ ابن عامر والكوفيون ـ فارهين[1] ـ بالألف أي حاذقين بنحتها مأخوذ من قولهم: فره الرجل فراهة فهو فاره، ويقال: الفره والفاره بمعنى واحد، وقيل إن الهاء من قوله: فرهين ـ بدل من الحاء والفرح في كلام العرب: الأشر والبطر ـ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾[2] قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿151﴾﴾ أي أمر رؤسائكم وكبرائكم الذين يفرطون في الشرك والمعاصي ـ وقال مقاتل: هم التسعة الذين عقروا الناقة[3]، وهم الذين يفسدون في الأرض بالمعاصي ولا

---

(1) النشر في القراءات العشر، 2: 336.
(2) سورة القصص 28، الآية: 76.
(3) البغوي في تفسيره، 4: 272.

يصلحون أي ولا يطيعون اللَّه فيما أمرهم ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿153﴾﴾ أي قال له قومه: إنما أنت ممن سحر مرة بعد مرة فلا نؤمن بك، ويقال المسحر: هو المعلل بالطعام والشراب والسحر مجرى الطعام، يقال: انتفخ سحره أي رئته والمعنى: لست بملك إنما أنت بشر مثلنا لا تفضلنا في شيء لست بملك ولا رسول ﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿154﴾﴾ إنك رسول إلينا ـ قال ابن عباس: سألوه أن يخرج لهم ناقة عشراء من صخرة ملساء فتضع ونحن ننظر، وترد هذا الماء فتشرب، فخرج بهم إلى تلك الصخرة التي ذكروها، ثم دعا اللَّه تعالى فتمخضت تلك الصخرة كما تتمخض المرأة الحامل عند الولادة، فخرجت منها ناقة على الصفة التي سألوها لا نظير لها في النوق، وكان يسد جنباها ما بين الجبلين من عظمها فقال لهم صالح ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿155﴾﴾، أي اجعلوا الشرب بينها وبينكم مناوبة لها نوبة يوم لا تحضرون معها، ولكم نوبة يوم لا تحضر هي معكم[1] ـ قال قتادة: فكانت يوم شُربها تشرب ماءهم كله أول النهار، ولا تبقي لهم منه شيئاً، وتسقيهم اللبن حتى تملأ جميع آنيتهم، وإذا كان يوم شربهم كان الماء لهم ولمواشيهم لا تزاحمهم الناقة فيه. والشرب في اللغة هو النصيب[2]، والشرب بضم الشين المصدر والشرب بفتح الشين جماعة الشراب.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿156﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿157﴾
فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿158﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿159﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿160﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿161﴾ إِنِّي
لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿162﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿163﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ
رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿164﴾ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿165﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ
بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿166﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿167﴾ قَالَ إِنِّي
لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿168﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿169﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿170﴾ إِلَّا

---

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 130.
(2) الطبري فس تفسيره، 11: 127.

عَجُوزًا فِي ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي لا تعقروها ولا تؤذوها، وذروها تأكل في أرض اللّه، فإنكم إن تمسوها بسوء ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾ ـ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، واقتسموا لحمها، فبلغ ألفاً وثمانمائة منزل، ثم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ على قتلها، ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في اليوم الثالث وهو يوم السبت، صاح بهم جبريل فماتوا أجمعين ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً﴾ أي إن في إخراج الناقة من الصخرة، وفي إهلاكهم بعقرها لعلامة وعبرة لمن بعدهم، ولم يكن أكثرهم مؤمنين، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ـ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾ إلى قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ ظاهر المعنى ـ قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ معناه: أتنكحون الذكور حراماً في أدبارهم، وتتركون ما أحل لكم ربكم من فروج نسائكم؟ ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي متجاوزون الحد في الظلم والحرام. قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ أي لئن لم تسكت يا لوط من الإنكار علينا، وتقبيح أفعالنا لنخرجنك من أرضنا ـ ﴿قَالَ﴾ لوط ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي لمن المبغضين ـ والقالي: هو الباغض للشيء التارك له، الكاره له غاية الكراهة ـ قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أي خلصني وأهلي من عقوبة أعمالهم الخبيثة حتى لا نراهم، ولا نرى أعمالهم ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي خلصناهم من العذاب الذي وقع بهم ـ وقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي نجيناه وبناته ـ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ يعني امرأته «والهة» فإنها كانت ﴿فِي ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ أي من الباقين في موضع العذاب فهلكت معهم، وكانت تدل المشركين على أضيافه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أي أهلكناهم بالخسف والحصب ـ وهو أن اللّه تعالى خسف بقراهم كما روي أن جبريل رفعهم ببلادهم حتى بلغ بهم إلى السماء، ثم قلبهم وجعل عاليها سافلها ـ قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي أمطرنا على شذاذهم

ومسافريهم حجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾، أي مطر الذين أنذروا فلم[1] يؤمنوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾ إن في إهلاكنا إياهم لدلالة وعبرة لمن بعدهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾.

قال اللّه تعالى:

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ اختلفوا في الأيكة ـ قال بعضهم: هو اسم مدين، وقال بعضهم: الأيكة اسم لمدينة أخرى غير مدين، وكان شعيب مبعوثاً إلى كل واحدة من المدينتين غير أنه كان أخا مدين، ولم يكن أخا الأيكة ـ فلذلك لم يقل في هذه الآية ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ وقيل الأيكة الغيضة ذات الشجر الملتف، وجمعه أيك، وقيل الأيك شجر الدوم وهو المقل، وكان أكثر شجرهم الدوم، ويقرأ: ليكة ـ بغير ألف وفتح الهاء[2]. قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي أتموا الكيل إذا كلتم ولا تكونوا من الذين يبخسون حقوق الناس في الكيل والوزن ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ قد تقدم تفسيره. قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟

(1) الطبري في تفسيره، 11: 130.
القرطبي في تفسيره، 13: 133.
(2) النشر في القراءات العشر، 2: 336.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿184﴾﴾ أي اتقوا اللّه الذي خلقكم، وخلق الجبلة الأولين أي وخلق الخلق الذين من قبلكم ـ والجبلة ـ بكسر الجيم والباء وبضمهما الخلق الكثير ـ وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿153﴾﴾ أي من المجنونين مثلنا ممن له سحر ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿186﴾﴾ فيما تقول. قوله تعالى: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي جانباً من السماء ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ في أنك مبعوث إلينا، وإن هذا العذاب نازل بنا، وهذا إذا قرأت ـ كِسْفاً بإسكان السين، وأما إذا فتحتها فهو جمع الكسفة وهي القطعة. قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿188﴾﴾ أي هو أعلم بعملكم وبما تستحقون من العذاب، وبوقت الاستحقاق فينزل بكم العذاب على ما توجب الحكمة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي كذبوا شعيباً بعد ظهور الحجة ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ أنشأ اللّه عليهم سحابة حتى أظلتهم في يوم حر شديد فاجتمعوا تحتها مستجيرين بها لما نالهم من الحر، فأطبقت عليهم، وأمطرت عليهم ناراً فأهلكتهم ـ قال المفسرون: وذلك أن اللّه تعالى كان قد حبس عنهم الريح سبعة أيام وسلط عليهم الحر حتى أخذ بأنفاسهم، ولم ينفعهم ظل ولا ماء، وكانوا يدخلون الأسراب ليبردوا فيها، فإذا دخلوها وجدوها أشد حراً من الظاهر، فدخلوا أجواف البيوت، فدخل عليهم الحر، وأخذ بأنفاسهم فخرجوا هاربين إلى البرية فبعث اللّه عليهم سحابة أظلتهم من الشمس فوجدوا لها برداً ونسيماً فنادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا كلهم تحتها فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا فكان من أعظم يوم في الدنيا فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ والظلة هي السحابة التي أظلتهم ـ قال قتادة: بعث اللّه شعيباً إلى أمتين أصحاب الأيكة، وأهل مدين، فأما أصحاب الأيكة، فأهلكوا بالظلة، وأما أهل مدين فأهلكوا بالصيحة صاح بهم جبريل فهلكوا[1] جميعاً.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿192﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿193﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿194﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿195﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿196﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 134.

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿197﴾ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ﴿198﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿199﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿200﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿201﴾ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿202﴾ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ﴿203﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿204﴾ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ﴿205﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿206﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿207﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿192﴾﴾ أي وإن القرآن لإنزال رب العالمين ـ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿193﴾﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو، وحفص ـ نزل ـ بالتخفيف ورفع الحاء يعنون نزل جبريل بالقرآن، وقرأ الباقون بالتشديد والنصب أي نزَّل اللَّه بالقرآن جبريل وهو أمين[1] ـ قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أي نزل به فأودعه قلبك كي لا تنساه ـ قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي من المعلمين بموضع المخافة ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴿195﴾﴾ أي لينذر العرب بلغتهم فيكون ذلك أقرب إلى فهمهم، وأقطع لعذرهم ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿196﴾﴾ يعني إن ذكر القرآن مذكور في كتب الأولين، ولم يرو غير القرآن لأنه تعالى خص محمّداً صلى اللَّه عليه وسلم بإنزال القرآن عليه، فلو كان مذكوراً بعنيه في الكتب لبطل التخصيص، ولكنه تعالى ذكر في الكتب المتقدمة سيبعث نبياً في آخر الزمان صفته كذا ـ وسينزل عليه كتاباً صفته كذا كما قال اللَّه تعالى: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[2] وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿18﴾﴾[3] أي مذكور في الصحف الأولى أن الناس في الغالب يؤثرون الدنيا على الآخرة، وأن الآخرة خير وأبقى. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿197﴾﴾ روي أن سبب نزولها أن أهل مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يستخبرونهم عن صفة محمد صلى اللَّه عليه وسلم، وعن ما يدعي من الرسالة، وصدقوهم في لغته وصفته، فأخبرهم أهل

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة، ص 473.
(2) سورة الأعراف 7، الآية: 157.
(3) سورة الأعلى 87، الآية: 18.

الكتاب أن ذكره عندنا وأنه نبي مبعوث فاتبعوه[1] - والمعنى: أولم يكن لأهل مكة علامة لنبوة محمد صلى اللَّه عليه وسلم أن يعلمه علماء بني اسرائيل مثل: عبد الله بن سلام وأصحابه. قال الزجاج في قراءة من قرأ - آية - بالنصب، فقوله أن يعلمه اسم كان، وآية خبره[2] ومعناه: أولم يكن لهم علم علماء بني إسرائيل أن محمداً نبي حق علامة ودلالة على نبوته. قال عطية: كان علماء بني إسرائيل الذين آمنوا خمسة: عبد اللَّه بن سلام، وابن يامين، وثعلبة، وأسد، وأسيد[3] - وقرأ ابن عامر: أولم تكن لهم - بالتاء آية رفعاً[4] - قال الفراء: جعل آية هي الاسم، وأن يعلمه خبر كان[5] - قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾﴾ أي نزلنا القرآن على رجل أعجمي لا يفصح، فقرأه عليهم بغير لغة العرب ما آمنوا به، وقالوا ما نفقه هذا فذلك. قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا بيان معاندتهم والأعجم والأعجمي بمعنى واحد، وهو الذي في لسانه عجمة، ومنه العجماء، وهي الدابة فأما الأعجمي فهو منسوب إلى العجم أفصح أو لم يفصح، وعن ابن مطيع[6] أنه سئل عن هذه الآية وهو راكب ناقته، فأشار إلى ناقته فقال: هذه من الأعجمين كأنه ذهب إلى أن معنى الآية: لو أنزلنا هذا القرآن على البهائم فأنطقناها به فقرأت عليهم ما آمنوا به[7]، ثم ذكر سبب تركهم الإيمان فقال ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾ قال ابن عباس معناه: سلكنا الشرك والتكذيب في قلوب المجرمين إذ قرأه عليهم محمد صلى اللَّه عليه وسلم. قال مقاتل: يعني مشركي مكة أخبر اللَّه تعالى أنه أدخل الشرك في قلوبهم فلم يؤمنوا إلا عند نزول العذاب حتى لم ينفعهم وهو قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ يعني عند الموت ﴿فَيَأْتِيَهُم

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 276.
(2) معاني القرآن وإعرابه، 4: 101.
(3) البغوي نفسه.
(4) كتاب السبعة نفسه.
(5) معاني القرآن، 2: 283.
(6) عبد اللَّه بن مطيع بن الأسود بن حارثة، ولد على عهد رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وكانت له أموال، وبئر فيما بين السقيا والأبواء، تعرف ببئر ابن مطيع يردها الناس توفي بمكة بعد مقتل ابن الزبير بيسير - الطبقات الكبرى: 5: 109 - وفي النسخة: س - ابن مسعود بدلاً من ابن مطيع.
(7) الطبري في تفسيره، 11: 139.

﴿بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ به في الدنيا تنبؤوا الرجعة والنظرة.. وهو قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ فنؤمن ونصدق فلما أوعدهم النبي صلى الله عليه وسلم بالعذاب قالوا فمتى العذاب؟ تكذيباً له. فقال الله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ معناه: أفرأيت يا محمد إن أمهلنا كفار مكة سنين يريد منه خلق الله الدنيا إلى أن تنقضي، وقيل مدة أعمارهم، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون من العذاب ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ به في تلك السنين. والمعنى: وإن طال تمتعهم بنعم الدنيا فإذا أتاهم العذاب لم يغن طول التمتع عنهم شيئاً، ويكونون كأنهم لم يكونوا في نعيم قط وهذه موعظة ما أبلغها. يحكى أن عمر بن عبد العزيز: كان إذا قعد للقضاء كل يوم ابتدأ بهذه الآية[1] فوعظ بها نفسه ثم ذكر هذه الأبيات[2]:

تُسَرُّ بما يَفْنَى وتَفْرحُ بالمُنَى ∴ كما سُرَّ باللَّذّاتِ في النَّومِ حَالِمُ
حياتُك[3] يا مغرور سهوٌ وغفلةٌ ∴ ولَيْلُكَ نومٌ والرَّدَى لَكَ لازِمُ

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

---

(1) قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾.

(2) ذكره القرطبي في تفسيره، 13: 141 عن الزهري.
وكذا ابن عاشور في تفسيره، 19: 197.

(3) في نسخة ك: نهارك.
والأبيات عند القرطبي، وابن عاشور أربعة هكذا:
1 ـ نهارُك يا مغرور سَهوٌ وغفلةٌ ∴ ولَيلُك نومٌ والرَّدى لك لازمُ
2 ـ فلا أنتَ في الأيقاظ يقظانُ حازمٌ ∴ ولا أنت في النُّوام ناجٍ فسالمُ
3 ـ تُسَرُّ بما يفنى وتفرحُ بالمنى ∴ كما سُرَّ باللذات في النَّوم حالمُ
4 ـ وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّهُ ∴ كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿208﴾﴾ أي ما أهلكنا من قرية بالعذاب في الدنيا إلا لها رسلٌ ينذرونهم بالعذاب أنه نازل بهم ـ والمعنى: إلا لها منذرون قبل الهلاك ونظيره: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ﴾ أي موعظة وتذكيراً ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فنعذب من غير ذنب، ونعاقب من غير تذكير وإنذار، ولجواز أن يكون ذكرى في موضع نصب أي إلا لها مذكرون ذكرى، ويجوز أن يكون في موضع رفع على معنى ذلك ذكرى أي ذلك موعظة لهم. قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿210﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿211﴾﴾ قال مقاتل: قالت قريش إنما يجيء بالقرآن الشياطين فتلقيه على لسان محمد فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿210﴾﴾ أي بالقرآن ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾ أن ينزلوا به ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿211﴾﴾ أي لا يقدرون على ذلك أي ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿212﴾﴾ أي إنهم عن سماع القرآن لمحجوبون لأنهم يرجمون بالنجوم ـ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلم، والمراد به غيره والمعنى: كل من دعا مع اللّه إلٰهاً آخر كان من المعذبين ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿214﴾﴾ أي رهطك الأدنين وهم بنو هاشم وبنو المطلب خاصة، فلما نزلت هذه الآية نادى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**يا آل غالب، يا آل لؤي بن كعب، يا آل مرة، يا آل قصي، يا آل كلاب، يا آل عبد مناف**»، قالوا: نعم. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، وإني لا أملك لكم من اللّه شيئاً إلا أن تقولوا: لا إلٰه إلا اللّه**»، ثم قال: «**يا معشر قريش: اشتروا أنفسكم من اللّه تعالى فإني لا أغني عنكم من اللّه شيئاً يا صفية عمة محمد لا أغني عنك من اللّه شيئاً، يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من اللّه شيئاً**». وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿214﴾﴾ صعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الصفا، وقال: «**يا صباحاه!**» فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك؟ قال: «**أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم، أما**

---

(1) سورة الإسراء 17، الآية: 15.

كنتم تصدقونني؟» قالوا: بلى. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**» ـ قال أبو لهب: تباً لك ألهذا دعوتنا؟ فأنزل اللَّه تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[1] إلى آخرها. ومعنى الآية: عرِّف قرابتك يا محمد أنك لا تغني عنهم من اللَّه شيئاً إن عصوه. والفائدة في تخصيص الأقربين بالإنذار أنهم كانوا أقرب إليه كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[2]، وكما أن الأولى بالإنسان في البر والصلة أن يبدأ بالأقرب فالأقرب. قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ أي أكرم من اتبعك من المؤمنين، وألن لهم القول، وأظهر لهم المحبة والكرامة.

قال اللَّه تعالى:

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ أي إن عصاك الأقربون من عشيرتك فقل إني بريء مما تعملون من الكفر وعبادة غير اللَّه، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾، أي فوض أمرك إليه، وثق به فإنه العزيز في نقمته الرحيم بهم حين لم يعجل عليهم العقوبة. قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي توكل على اللَّه العزيز الغالب القادر على أن يكفيك كيد أعدائك الرحيم بالمؤمنين خاصة فكيف لا تفوض إليه أمورك وهو الذي يراك حين تقوم إلى الصلاة، ويرى قيامك، وركوعك، وسجودك، وتضرعك في المصلين مع

---

(1) سورة المسد 111، الطبري في تفسيره، 11: 144 ـ 147.
(2) سورة التوبة 9، الآية: 123

الجماعة ـ والمعنى أنه يراك إذا صليت وحدك، ويراك إذا صليت في الجماعة راكعاً وساجداً وقائماً ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي السميع لقولك العليم بما في قلبك. قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة: هل أخبركم على من تنزل الشياطين؟ وهو راجع إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ ثم أخبر فقال: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي كل كذّاب فاجر. قال قتادة: هم الكهنة ـ مثل مسيلمة وغيره[1]. وقوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ ومعناه: إن الشياطين يسترقون السمع من كلام الملائكة، ثم يضيفون الكذب إلى ذلك فيلقونه إلى الكهنة. وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ يعني لأنهم يخلطون به كذباً كثيراً. وهذا كان قبل الوحي إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم وبعد ذلك: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[2]. قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ قال ابن عباس: يريد شعراء المشركين، وذكر مقاتل أسماءهم فقال منهم: عبد اللّه بن الزبعرى السهمي، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهبيرة بن وهب المخزومي، ومسافع بن عبد مناف الجمعي، وأبو عزة عمرو بن عبد اللّه ـ كلهم من قريش، وأمية بن أبي الصلت الثقفي، تكلموا بالكذب والباطل[3]. وقالوا نحن نقول مثل ما يقول محمد، واجتمع إليهم غواة من قومهم يستمعون أشعارهم، ويروون عنهم حتى يهجوا النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه فذلك قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ يعني الذين يروون هجاء المسلمين وسب الصحابة.

وقال قتادة ومجاهد: الغاوون هم الشياطين[4] كما قال تعالى حاكياً: ﴿فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾[5] وقيل الغاوون: كفار الجن والإنس. وفي الحديث: «**لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً وصديداً حتى يصير جارياً أحب إلي**

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 281.
(2) سورة الجن 72، الآية: 9.
(3) البغوي نفسه.
(4) الطبري في تفسيره، 11: 155.
(5) سورة الصافات 37، الآية: 32.

من أن يمتلىء شعراً»[1]، وأراد به الشعر المذموم. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿225﴾﴾ أي في كل فن من الكذب يتكلمون وفي كل لغو يخوضون، يمدحون بباطل ويشتمون بباطل. فالوادي مثل فنون الكلام وهيمانهم فيه قولهم على الجهل ما يقولون من لغو وباطل وغلو في مدح أو ذم. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿226﴾﴾ أي يقولون فعلنا وفعلنا وهم على كذبة، ويصفون أنفسهم بما ليس فيها. قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثناء لشعراء المسلمين، حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، الذين مدحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وردوا هجاء من هجاه روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول لحسان بن ثابت: «**اهجهم ومعك روح القدس**»[2] وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ يعني أنهم كانوا يذكرون الله كثيراً في أشعارهم ويناضلون عن النبي صلى الله عليه وسلم بألسنتهم وأيديهم من بعد ما هجاهم الكفار، والانتصار بالشعر جائز في الشريعة بما يجوز ذكره فيها كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[3] ويروى أن كعب بن مالك قال: يا رسول الله ما تقول في الشعر؟ فقال: «**إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده كأنما تنضحوهم بالنبل**»، وقال صلى الله عليه وسلم: «**إن من الشعر لحكمة**»[4] ـ وقالت عائشة رضي الله عنها: «الشعر كلام منه حسن ومنه قبيح، فخذوا الحسن ودعوا القبيح». وعن الشعبي قال: كان أبو بكر رضي الله عنه يقول الشعر، وكان عمر يقول الشعر، وكان علي أشعر الثلاثة. قوله تعالى: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوا الشعر همهم ﴿وَانتَصَرُوا مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ أي انتصروا من المشركين لأنهم بدأوا

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري، 12: 184 ـ رقم 6154 كتاب الأدب.
أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 15: 14 كتاب الشعر.
أخرجه البيهقي في الشعب، 4: 276 رقم 5087 ـ حفظ اللسان عن الشعر الكاذب.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري، 12: 182 ـ رقم 6153 كتاب الأدب وأحمد في المسند، 4: 286.

(3) سورة النساء 4، الآية: 148.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري 12: 171 رقم 6145 كتاب الأدب.

بالهجاء ثم أوعد شعراء المشركين فقال: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ أي سيعلم الذين أشركوا، وهجوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ـ أي منقلب ينقلبون؟ قال ابن عباس إلى جهنم يخلدون فيها ـ والمعنى: سيعلمون إلى أين مصيرهم ـ وهو نار جهنم فعلى هذا يكون قوله: أي منقلب منصوباً بدلاً من المصدر، ولا يجوز أن يكون منصوباً بقوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ﴾ لأن ـ أي ـ لا يعمل فيه ما قبله لأنه من حروف الاستفهام، وموضع حروف الاستفهام صدر الكلام، فكان انتصاب قوله: ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ﴾ على معنى المصدر، وبقوله: ﴿يَنقَلِبُونَ﴾ وعن أبي بن كعب عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة الشعراء، كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح، وكذب به، وهود، وشعيب، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب وموسى، وعيسى، وبعدد من صدق بمحمد**[1] **صلى اللّه عليه وسلم**».

(1) الزمخشري في الكشاف، 3: 134.

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال اللَّه تعالى: ﴿طسٓ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ۝٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ إِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٧﴾.

قال أبو بكر: سورة النمل ـ وهي أربعة آلاف وسبعمائة وتسعة وتسعون حرفاً، وألف ومائة وتسع وأربعون كلمة وثلاث وتسعون آية.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ـ ﴿طسٓ﴾: قال ابن عباس: طس اسم من أسماء اللَّه تعالى أقسم به أن هذا القرآن ـ تلك الآيات التي وعدتم بها[1] ـ وقال قتادة: هو اسم من أسماء القرآن، وقيل: هو اسم من أسماء السورة. وقوله تعالى: ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾ معناه: آيات الكتاب المبين بالحلال والحرام. وقوله تعالى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب على الحال، أي جعلنا هذه الآيات هادية مبشرة للمؤمنين. ويجوز أن يكون ـ هدى ـ في موضع رفع أي هو هدى. والمعنى: هدى أي بيان من الضلالة لمن عمل به، وبشرى بما فيه من الثواب للمصدقين به أنه من عند اللَّه، ثم نعتهم ـ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الآية ظاهرة المعنى. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ۝٤﴾ أي زينا لهم ضلالتهم

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 160.

حتى رأوها حسنة ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي يترددون فيها متحيرين ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي أشده ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار. قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿6﴾﴾ أي إنك لتعطى القرآن وحياً من عند اللّه أنزله بعلمه وحكمته. قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ﴾ أي واذكر إذ قال موسى لامرأته: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي أبصرتها وكانت امرأته يومئذ ابنة شعيب عليه السلام، فقال لها حين ضل الطريق: إني أبصرت ناراً فامكثوا هاهنا حتى آتيكم من عند النار بخبر الماء والطريق، فإن لم أجد أحداً يخبرني عن الطريق أتيتكم بشعلة نار، وهو قوله: ﴿أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ والشهاب: خشبة فيها نار ساطع ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي لكي تصطلون من البرد، وكان ذلك في شدة الشتاء. يقال: صلي بالنار وأصلى بها إذا استدفأ والمعنى أو آتيكم بالشعلة المقتبسة من النار لكي تدفأوا من البرد. والشهاب: هو النور المستطيل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[1] والقبس والجذوة: كل عود أشعل في طرفه نار قرأ أهل الكوفة: بشهابٍ قبسٍ، منون على البدل أو النعت للشهاب[2].

قال اللّه تعالى:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿8﴾ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿9﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿10﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿11﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ معناه: فلما جاء موسى إلى النار التي رآها نودي نداء الوحي أن بورك من في طلب النار؟ وهو موسى ومن حولها من الملائكة. وهذه تحية من اللّه تعالى لموسى بالبركة كما حيا إبراهيم بالبركة على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه فقالوا: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ

---

(1) سورة الصافات 37، الآية: 10.

(2) نسب ابن مجاهد هذه القراءة إلى عاصم، وحمزة، والكسائي، كتاب السبعة، ص 478.

﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾[1] وقيل إن المراد بالنار: هو النور، وذلك أن موسى رأى نوراً عظيماً لذلك ذكره بلفظ النار، ومن في النار هم الملائكة لأن النور الذي رآه موسى كان فيه ملائكة لهم زجل بالتسبيح، والتقديس، ومن حولها هو موسى لأنه كان بالقرب منها ولم يكن فيها، وأهل اللغة يقولون: بورك فلان، وبورك فيه، وبورك له وعليه بمعنى واحد والمراد بالبركة هاهنا ما قال موسى من كرامة اللَّه له بالنبوة، قوله تعالى: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كلمة تنزيه عما يظن المشبهة أن اللَّه تعالى كان في تلك النار تعالى اللَّه عما يقولون علواً كبيراً قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي أن الداعي الذي يدعوك أنا اللَّه العزيز في ملكي، الحكيم في أمري وقضائي. فإن قيل بماذا عرف موسى أن ذلك النداء من اللَّه حتى جعل يدعو الناس إلى نبوة نفسه؟ قلنا إنما عرف نبوّة نفسه بالمعجزة وذلك أنه رأى شجرة أخضر ما يكون من الشجر في أنظر ما يكون، لها شعاع يرتفع إلى السماء في الهواء، والنار تلتهب في أوراقها وأغصانها، فلا النار تحرق الأوراق ولا رطوبة الشجر والأغصان تطفىء النار فلما رأى ذلك بخلاف العادة علم أنه لا يكون ذلك إلا من صنع اللَّه تعالى[2].

قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ﴾ أي وقيل له: ألق عصاك من يدك فألقاها فاهتزت، ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ أي تضطرب كأنها جان، والجان الحية البيضاء الخفيفة السريعة السير الشديدة الاضطراب يقال لها: الصئلة - وإنما شبهها بالجان في خفة حركتها، وسرعة استتارها عن الأعين وشبهها في موضع آخر بالثعبان لعظمها. قوله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ أي أعرض موسى هارباً من الخوف من الحية ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ أي لم يرجع ولم يلتفت إلى شيء وراءه يقال: عقب فلان إذا رجع فقال اللَّه له: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ أي لا تخف من ضررها ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠﴾ أي لا يخاف عندي، وفي حكمي من أرسلته إلا من ظلم من المرسلين بارتكاب الصغيرة ثم تاب من بعد ذلك فإني غفور رحيم به. فكان السبب في هذا الاستثناء أن موسى كان مستشعراً بخيفة لما كان منه من قتل القبطي، فآمنه اللَّه بهذا الكلام، والصغائر والكبائر من الذنوب تسمى ظلماً

---

(1) سورة هود 11، الآية: 73.
(2) القرطبي في تفسيره، 13: 158.

ولذلك قال موسى إني ظلمت نفسي ـ ويقال: إن قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استثناء منقطع، ومعناه لكن من ظلم فإنه يخافني إلا أن يتوب ويعمل صالحاً فإني أغفر له وأرحمه ـ والمعنى إلا من ظلم نفسه بالمعصية ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ أي توبة، وندماً بعد سوء ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ⑪﴾ كأنه قال لا يخاف لدي الأنبياء والتائبون. وقال بعضهم: إلا هاهنا بمعنى ولا، كأنه قال: لا يخاف لدي المرسلون ولا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء.

قال الله تعالى:

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ⑫ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ⑬ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ⑭ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ⑮ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ⑯ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ⑰﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ فيه بيان أن الله تعالى أعطاه آية أخرى في ذلك المكان، ومعنى تخرج بيضاء من غير سوء أي بيضاء لها شعاع من غير برص. والجيب جيب القميص وقوله تعالى: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ﴾ أظهرها بين الآيتين والآيات التسع: قلب العصا حية، وجعل يده بيضاء وما أصاب آل فرعون من الجدب في بواديهم، ونقص الثمرات في مزارعهم، وإرسال الطوفان، والجراد، والقمّل والضفادع، والدم. فهذه الآيات التسع. قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة الله تعالى. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً﴾ أي فلما جاءت فرعون وقومه الآيات التسع مبصرة أي مبينة واضحة ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ كذبوا بالآيات التسع كلها، ونسبوا موسى إلى السحر. قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي جحدوا بألسنتهم، وأنكروا تلك الآيات، وعلموا بقلوبهم أن تلك الآيات ليست من جنس أفعال السحر، وأنها من الله تعالى. أي علموا يقيناً

أنها من عند اللَّه لكن جحدوا بها تجبّراً وتكبراً وذلك قوله تعالى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أي شركاً وتكبراً عن أن يؤمنوا ﴿فَانْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿14﴾﴾ في الأرض بالمعاصي كيف أهلكهم اللَّه بالغرق في اليم. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ أي أعطيناهما معرفة الدين وأحكام الشريعة، وقيل: علما بالقضاء بكلام الطير والدواب وتسبيح الجبال، فقابلا تلك النعمة بالشكر ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بالنبوة والكتاب، وإلانة الحديد، وتسخير الشياطين، والجن، والإنس ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ أي ورث نبوته، وعلمه، وملكه. وذلك أنه كان لداود تسعة عشر ابناً ذكراً، وورث سليمان ملكه، ومجلسه، ومقامه، ونبوته من بينهم[1]. وعن أبي هريرة قال: نزل كتاب من السماء إلى داود عليه السلام مختوماً فيه عشر مسائل أن سل ابنك سليمان عنهن، فإن أخرجهن فهو الخليفة من بعدك، قال فدعا داود سبعين قساً، وسبعين حبراً، وأجلس سليمان بينهم، وقال له يا بني: إنه نزل كتاب من السماء فيه عشر مسائل، أردت أن أسألك عنهن، فإن أنت أخرجتهن فأنت الخليفة من بعدي.

فقال سليمان ليسأل نبي اللَّه عليه السلام عما بدا له، وما توفيقي إلا باللَّه. قال: أخبرني يا بني ما أبعد الأشياء؟ وما أقرب الأشياء؟ وما آنس الأشياء؟ وما أوحش الأشياء؟ وما القائمان؟ وما المختلفان؟ والمتباغضان؟ وما الأمر الذي إذا ارتكبه الرجل حمد آخره؟ وما الأمر الذي إذا ركبه رجل ذم آخره؟ فقال سليمان: أما أقرب الأشياء فالآخرة، وأما أبعد الأشياء فما فاتك من الدنيا، وأما آنس الأشياء فجسد فيه روح، وأما أوحش الأشياء فجسد لا روح فيه، وأما القائمان: فالسماء والأرض، وأما المختلفان: فالليل والنهار، وأما المتباغضان: فالموت والحياة، وأما الأمر الذي إذا ركبه الرجل حمد آخره: فالحلم على الغضب، وأما الذي إذا ركبه ذم آخره فالحدّة على الغضب. قال: ففك الختم، فإذا هي هذه المسائل سواء على ما نزل من السماء. فقال القسيسون والأحبار: لن نرضى حتى نسأله عن مسألة فإن هو أخرجها فهو

---

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 164.

الخليفة من بعدك، فقال سليمان: سلوني، وما توفيقي إلا بالله. قالوا: ما الشيء الذي إذا صلح صلح كل شيء منه؟ وإذا فسد فسد كل شيء منه؟ قال: هو القلب إذا صلح صلح كل شيء منه، وإذا فسد فسد كل شيء منه ـ قالوا: صدقت، أنت الخليفة من بعده، ودفع إليه داود قضيب الملك، ومات من الغد. وعن محمد بن جعفر عن أبيه قال: أعطي سليمان ملك مشارق الأرض ومغاربها، فملك سبعمائة سنة، وستة أشهر ملك أهل الدنيا كلهم من الجن والإنس والشياطين، والدواب، والطير، والسباع، وأعطي علم كل شيء، ومنطق كل شيء[1]. قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ منطق الطير صوت منه. وقال الفراء: منطق الطير: كلامه جعله كمنطق الرجل إذا فهم[2]. قال مقاتل: كان سليمان جالساً إذ مرّ طائر فقال لجلسائه: هل تدرون ما قال هذا الطائر؟ قالوا: لا. قال: إنه قال لي: السلام عليك أيها الملك المسلط على بني إسرائيل[3]. ومرّ سليمان ذات يوم على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه، ويميل ذنبه، ويصيح، فقال لأصحابه: هل تدرون ما يقول هذا البلبل؟ قالوا: الله أعلم، قال: إنه يقول: أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء. وعن الكلبي قال: صاح ورشان عند سليمان فقال: أتدرون ما يقول؟ قالوا: لا. قال: إنه يقول: لدوا للموت وابنوا للخراب. وصاحت فاختة عند سليمان، فقال: إنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا. وصاح هدهد، فقال: إنه يقول: كما تدين تدان. وصاح طاوس عنده، فقال: إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين من لا يَرحم لا يُرحم، وصاح صرد عنده، فقال: إنه يقول: استغفروا الله يا مذنبين. وصاح خطاف عنده، فقال: إنه يقول: قدموا خيراً تجدوه. وهدرت حمامة، فقال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى عدد ما في سماواته وأرضه. وصاح قمْري، فقال: إنه يقول: سبحان ربي القدوس. وصاح بازي، فقال: إنه يقول: سبحان ربي وبحمده. والضفدع تقول: كل شيء هالك إلا وجهه.

---

(1) الطبرسي في مجمع البيان، 7: 332.
(2) معاني القرآن، 2: 288.
(3) القرطبي في تفسيره، 13: 165، بلفظه تقريباً.

والقطاة تقول: من سكت سلم. والحِدأة تقول: سبحان المذكور بكل لسان[1]. وعن مكحول قال: صاح درَّاج عند سليمان عليه السلام، فقال: هل تدرون ما يقول: قالوا: لا. قال: إنه يقول: الرحمن على العرش استوى[2]. وعن الحسن قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إن الديك يقول في صياحه: اذكروا اللَّه يا غافلين**»[3]. وعن الحسن بن علي رضي اللَّه عنه قال: إذا صاح النسر، قال: يا ابن آدم: عش ما شئت آخره الموت. وإذا صاح العقاب قال: في البعد من الناس أنس. وإذا صاح القنبر قال: إلّهي العن مبغضي آل محمد[4]. وروي أن قوماً من أهل العراق من أهل الكتاب وفدوا على ابن عباس رضي اللَّه عنه فقالوا له: أنت ابن عم الذي يزعم أنه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: نعم، قالوا: إنا قوم قد قرأنا الكتب، وعرفنا ما فيها، ونحن نسألك عن سبعة أشياء، فإن أنت أخبرتنا بها، آمنا، وصدقنا. قال: سلوني تفقهاً، ولا تسألوني تعنتاً، قالوا: أخبرنا ما يقول القنبر في صفيره؟ والزرزور، والدراج؟ وما يقول الديك في صياحه؟ والضفدع في نقيقه؟ والحمار في نهيقه؟ والفرس في صهيله؟ فقال: أما القنبر فإنه يقول: اللهم العن مبغضي محمد وآل محمد. وأما الزرزور فإنه يقول: اللهم إني أسألك قوت يوم بيوم يا رزاق. وأما الدراج فيقول: الرحمن على العرش استوى. وأما الديك فإنه يقول: اذكروا اللَّه يا غافلين. وأما الضفدع فإنه يقول: سبحانه المعبود في لجج البحار. وأما الحمار فإنه يقول: اللهم العن العشار. وأما الفرس فإنه يقول: سبوح قدوس رب الملائكة والروح. فقالوا: يا ابن عباس نشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً رسول اللَّه، وحسن إسلامهم[5]. قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني من أمر الدنيا والآخرة. وقال مقاتل: يعني: الملك والنبوة،

---

(1) القرطبي نفسه.
(2) القرطبي في تفسيره، 13: 166، بلفظه تقريباً.
(3) القرطبي نفسه.
(4) القرطبي نفسه.
(5) البغوي في تفسيره، 4: 290.

وتسخير الرياح والجن والشياطين. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الزيادة الظاهرة على ما أعطي غيرنا ـ قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ أي جمع له من كل جهة جموعه من الجن والإنس والطير. والحشر جمع الخلق من موضع إلى موضع، ومنه المحشر لعرصات يوم القيامة. قال ابن عباس: كان معسكر سليمان مائة فرسخ خمسة وعشرون فرسخاً للإنس، وخمسة وعشرون فرسخاً للجن، وخمسة وعشرون فرسخاً للسباع، وخمسة وعشرون فرسخاً للطير[1]. ووجه تسخير الطير له أن اللّه تعالى: زاد في عقولها حتى كانت تفهم ما يقال لها، ويراد منها، وتقبل الأدب، وتخاف وتحذر، وكان لسليمان عليه السلام ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلاثمائة صريحة، وسبعمائة سرية، فيأمر الريح العاصف، فترفعه، ويأمر الرخاء فتسير به، فأوحى اللّه إليه، وهو يسير بين السماء والأرض: إني قد زدت في ملكك أنه لا يتكلم أحد من الخلائق إلا جاءتك به الريح، وأخبرتك به. قوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ قال قتادة: كان على كل صنف من جنوده وزعة يرد أولاهم على أخراهم فيجتمعون ويتلاحقون وهو من الوزع الذي هو الكف. يقال: وزعته أزعه وزعاً والشيب وازع أي مانع ـ قال الليث: والوازع في الحرب الموكل بالصفوف يزع من تقدم منهم. ومعنى الآية: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي كان يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا وكانوا يجمعون ويفرقون، ويقومون في مسيرهم على مراتبهم. والإيزاع هو المنع من الذهاب، والوازع هو القيّم بأمر الجيش ـ ومن ذلك قول الحسن: لا بد للناس من وزعة أي من سلطان يكفهم ويقال لا بد للسلطان من وزعة أي من يمنع الناس عنه. وأصل الوزع الكف والمنع، ومنه الحديث: «**إن اللّه ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن**»[2].

---

(1) القرطبي نفسه.

(2) ذكره أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن، 3: 1450، عن أشهب عن مالك بن أنس قال: قال عثمان، وكذا القرطبي في تفسيره، 13: 168 عن ابن القاسم عن مالك قال: قال عثمان بن عفان.

قال اللّه تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ (19) وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ (20)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ أي ساروا جميعاً حتى إذا وصلوا إلى واد كثير النمل ـ قال كعب: هو واد بالطائف وقال قتادة ومقاتل: هو بالشام[1] ـ ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ لأصحابها على وجه التحذير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ أي منازلكم ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ أي لا يكسرنكم سليمان وجنوده ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أي وهم لا يعلمون بحطمكم ووطئكم فطارت الريح بكلام النملة فأدخلته في أذن سليمان عليه السلام ـ فلما سمعها ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ وكان أكثر ضحك الأنبياء التبسم ـ ونصب ضاحكاً على الحال ـ وسبب ضحكه من قولها التعجب ـ وذلك أن الإنسان: إذا رأى ما لا عهد له به عجب وضحك قال مقاتل: ثم حمد ربه حين علمه منطق الطير، وسمع كلام النملة ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي ألهمني أن أشكر نعمتك يقال فلان: موزع بكذا أي مولع به، وقيل معناه: وفقني شكر نعمتك ﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ ووفقني أن أعمل صالحاً ترضاه ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في الآخرة فإن قيل: بماذا عرفت النملة كلام سليمان، وعلى أي سبيل كانت معرفتها به؟ قلنا: إنها كانت مأمورة بطاعته، فلا بد من أن تعرف من أمرت بطاعته ولا يمتنع أن تعرف الدواب والبهائم هذا الصوت كما تعرف كثيراً من منافعها ومضارها، والنملة فيها من الفهم فوق هذا، فإنا نشاهد صنعها في ادخار رزقها، وحفظه وتعهده حتى أنها تكسر ما تجمعه من الحبوب نصفين لئلا

(1) ذكر البغوي في تفسيره، 4: 292 هذه الأقوال.

ينبت إلا الكزبرة فإنها تكسرها بأربع قطع لأنها إذا كسرتها نصفين نبتت. فالذي هداها إلى هذه الأمور هو الذي ألهمها معرفة سليمان عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ﴾ أي طلبها وبحث عنها، والطير اسم جامع للجنس وكانت الطير تصحب سليمان عليه في سفره تظله بأجنحتها ـ قوله تعالى: ﴿فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ أي قال ما للهدهد لا أراه؟ أعيناي لحظته فلم تره بين الطيور؟ ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ واختلفوا في سبب تفقده عن حال الهدهد[1] ـ قال ابن عباس: كان الهدهد يرى الماء من تحت الأرض كما يراه من الزجاج، وكان سليمان إذا احتاج إلى الماء في مسيره أمر الهدهد حتى ينظر إلى أقرب موضع من الماء فيخبره به، فيأمر الشياطين بحفر ذلك الموضع لإظهار الماء، فاحتاج في ذلك اليوم إلى الماء، فلذلك تعرف عن حال الهدهد ـ قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف يرى الهدهد الماء، وإن صبياننا يأخذونه بالفخ فلا يرى الخيط والشبكة؟ قال ابن عباس: ما ألقى هذه الكلمة على لسانك إلا الشيطان، أما تعلم أنه إذا جاء القدر ذهب البصر؟ وعن سعيد بن جبير أن ابن عباس سئل عن تفقد سليمان الهدهد؟ فقال: لأنه كان يعرف مسافة الماء، وإن الصبي يضع له الفخ، فيغطي عليه بشيء من السراب فيجيء فيقع فيه، فقال: ويحك أما علمت أن القدر يحول دون البصر؟ وروي أنه قال: إذا نزل القضاء والقدر ذهب اللب، وعمي البصر ـ وقال وهب: كان سبب تفقده له لإجلاله نبوته كما يتعرف الموالي عن رعيته، ويقال: كانت الطير تظله من الشمس فكانت تقف في الهواء مصطفة موصولة الأجنحة، ومتقاربة، فلما أخلّ الهدهد بمكانه بان ذلك لوقوع الشمس عليه، فلذلك تعرف عن حاله.

قال اللَّه تعالى:

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿21﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿22﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿23﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿24﴾ أَلَّا

---

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ أقوال العلماء في سبب تفقد الهدهد.

يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ
لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (26) قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
(27) اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قال المفسرون تعذيبه إياه: أن ينتف ريشه، ثم يلقيه في الشمس فلا يمتنع من نملة، ولا شيء من هوام الأرض، ويقال: هو قص جناحه، ويجوز أن يعاقب من لا يجري عليه القلم على وجه التأديب كما يؤدب الأب ولده الصغير، وقيل تعذيبه أن ينتف ريشه، ويدعه ممعطاً في بيت النمل فيلدغه، وقيل معناه: لأشدنّ رجليه وألقيه في الشمس، وقيل: لأطلينه بالقطران وأجعله في الشمس، وقيل: لأفرقنّ بينه وبين إلفه، وقيل: لأمنعنه من خدمتي[1] ـ وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥ﴾ أي لأقطّن حلقه ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي بحجة ظاهرة توجب عذره في غيبته. وقصته أن سليمان عليه السلام: لما فرغ من بناء بيت المقدس عزم على الخروج إلى أرض الحرم فتجهز للمسير، واصطحب من الجن والإنس والشياطين والطيور والوحوش ما بلغ معسكره مائة فرسخ وأمر الريح فحملتهم، فلما وافى الحرم، أقام به ما شاء اللَّه أن يقيم، وكان ينحر كل يوم مدة إقامته خمسة آلاف ناقة، ويذبح خمسة آلاف ثور، وعشرين ألف شاة، وأقام بمكة حتى قضى نسكه ثم سار إلى أرض اليمن، فوافى صنعاء وقت الزوال، فأحب النزول ليصلي، ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجدوه، وكان الهدهد دليله على الماء، فلما نزل سليمان قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع الهدهد إلى جهة السماء، فنظر يميناً وشمالاً، فرأى خضرة بساتين مأرب في أرض بلقيس، فمال إلى جهة الخضرة، فالتقى بهدهد من هداهد سبأ، فقال له: من أين أقبلت، وأين تريد؟ قال: أقبلت من الشام مع نبي اللَّه سليمان عليه السلام، فقال له: ومن سليمان؟ قال: ملك الإنس، والجن، والشياطين، والوحش، والطير. ثم قال له هدهد سليمان: وأنت من أين أقبلت؟ قال: من هذه البلاد، قال: ومن

---

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 180.

ملكها؟ قال: امرأة يقال لها: بلقيس ـ ملكت اليمن كلها، وتحتها اثني عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل ـ فهل أنت منطلق معي حتى تنظر إلى ملكها؟ قال أخاف أن يفقدني نبي اللّه سليمان في وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء. فقال له هدهد بلقيس: إن صاحبكم يسره أن تأتيه بخبر من هذه الملكة.

فانطلق معه، ونظر إلى بلقيس وملكها وما رجع إلا وقت العصر، قال: فلما نزل سليمان، ودخل عليه وقت الصلاة طلب الهدهد لأنه نزل على غير ماء، فسأل الإنس عن الماء، فقالوا: ما نعلم هنا ماء، فسأل الجن فلم يعلموا فتفقد الهدهد فلم يجده، فدعا بعريف أي بنقيب الطير النسر فسأله عن الهدهد، فقال: ما أدري أين ذهب، فغضب سليمان عند ذلك وقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿21﴾﴾ أي بحجة ظاهرة، ثم دعا بالعقاب لأنه بمنزلة النسر مرن. فقال له: علي بالهدهد الساعة، فرفع العقاب نفسه حتى التزق بالهواء، وارتفع حتى نظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدي أحدكم، ثم التفت يميناً وشمالاً فإذا هو بالهدهد مقبل من نحو اليمن، فانقض العقاب نحوه يريده فلما رأى الهدهد ذلك علم أن العقاب يقصده بسوء، فناشده اللّه تعالى، فقال له: بحق الذي قواك وأقدرك علي إلا رحمتني، ولا تتعرض لي بسوء، فولى العقاب عنه، وهو يقول: ثكلتك أمك إن نبي اللّه قد حلف ليعذبنك أو ليذبحنك، ثم طارا متوجهين نحو سليمان فلما وصلا إليه قال له العقاب قد جئتك به يا نبي اللّه، فلما قرّب إليه الهدهد رفع رأسه وأرخى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض تواضعاً لسليمان، فلما دنا منه، قال له: أين كنت، لأعذبنك عذاباً شديداً؟ فقال له الهدهد: يا نبي اللّه اذكر وقوفك بين يدي اللّه سبحانه وتعالى. فلما سمع ذلك سليمان ارتعدت فرائصه، وعفا عنه، ثم قال له: ما أبطأك علي؟ فقال: أحطت بما لم تحط به وذلك قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي لم يلبث إلا يسيراً حتى جاء الهدهد ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أي علمت شيئاً من جميع جهاته، وقيل معناه: اطلعت على ما لم تطلع عليه ـ وعلمت ما لم تعلم به، وجئتك بأمر لم يخبرك به الجن، ولم يعلم به الإنس، وبلغت ما لم تبلغه أنت ولا جنودك وهو قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن

سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿22﴾﴾ أي بخبر صدق لا شك فيه وقرئ ـ من سبإٍ ـ بالتنوين[1] ـ قال الزجاج: من لم يصرفه فلأنه اسم مدينة تعرف بمأرب من اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام، ومن صرفه فلأنه اسم البلد، ويكون مذكراً سمي به مذكر[2] ـ وفي الحديث أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سئل عن سبأ؟ فقال: «**كان رجلاً له عشرة من البنين تيامن منهم ستة، وتشاءم أربعة**»، وسنذكر أسماءهم وقصتهم، في سورة سبأ إن شاء اللّه تعالى، وقرأ عاصم، ويعقوب: فمكث ـ بفتح الكاف، وقرأه العامة بضم الكاف وهما لغتان[3] ـ قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ واسمها بلقيس بنت السرح وقيل: شراحيل بن ذي خدن، وكان قد ملك أرض اليمن كلها، وكان يقول لملوك الآفاق ليس أحد منكم كفؤاً لي، وأبى أن يتزوج منهم، فزوجوه امرأة من الجن يقال لها: ريحانة بنت السكن ـ فولدت بلقيس ولم يكن له ولد غيرها ـ وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**كان أحد أبوي بلقيس جنياً**»[4] ـ فلما مات أبوها، ولم يخلف ولداً غيرها طمعت في الملك فطلبت من قومها أن يبايعوها، فأطاعها قوم وعصاها آخرون، فاختاروا عليها رجلاً فملكوه عليهم، فافترقوا فرقتين كل فرقة منهم استولت بملكها على طرف من أرض اليمن، ثم إن هذا الملك الذي ملكوه أساء السيرة في أهل مملكته حتى كان يمد يده إلى حرم رعيته ويفجر بهن، فأراد أصحابه أن يخلعوه، فلم يقدروا، فلما رأت بلقيس ذلك أدركتها الحمية أي الغيرة فأرسلت إليه تعرض نفسها عليه، فأجابها إلى ذلك، وقال: واللّه ما منعني أن أبدأك بالخطبة إلا اليأس منك، فقالت: إني راغبة إليك لأنك كفؤ كريم، فاجمع رجال قومي فاخطبني إليهم، فجمعهم، فخطبها إليهم، فقالوا: لا نراها تفعل هذا، قال: إنها هي التي ابتدأتني فذكروا لها ذلك، فقالت: نعم لأجل الولد، ولم أزل ـ كنت كارهة لذلك فالآن قد رضيت بالولد، فزوجوها منه، فلما زفت إليه، خرجت في أناس كثير من خدمها

---

(1) النشر في القراءات العشر، 2: 337.

(2) معاني القرآن، 4: 114.

(3) الكشف عن وجوه القراءات السبع، 2: 155.

(4) ذكره الطبري في تفسيره عن أبي هريرة، 11: 206.

وحشمها، فلما جاءته سقته الخمر حتى سكر، ثم حزت رأسه، وانصرفت من الليل إلى منزلها، فلما أصبح الناس رأوا الملك قتيلاً، ورأسه منصوباً على باب دارها، فعلموا أن تلك المناكحة كانت مكراً وخديعة منها، فاجتمعوا إليها، وقالوا لها: أنت أحق بهذا الملك من غيرك، فقالت: لولا العار والشنار ما قتلته، ولكن عم فساده، فأخذتني الحمية حتى فعلت ما فعلت فملكوها فاستتبّ أمرها ـ قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ قال عطاء: من زينة الدنيا[1] من المال والجنود ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي سرير من ذهب طوله ثمانون ذراعاً وعرضه أربعون ذراعاً، وارتفاعه في السماء ثلاثون ذراعاً، مضروب بالذهب مكلل بالدر والياقوت الأحمر، والزمرد الأخضر ـ قال مجاهد: وكان تحتها اثنا عشر ألف قيل ـ والقيل بلغتهم الملك، تحت يدي كل قيل ألف مقاتل، وقيل: كان سريرها له أربع قوائم قائمة من ياقوت أخضر، وقائمة من ياقوت أحمر، وقائمة من زمرد، وقائمة من در، وصفائح السرير من ذهب، وعليه سبعة أبيات لكل بيت باب مغلق[2] ـ قوله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا﴾ قال الحسن: كان القوم مجوساً، وكانوا يسقطون على وجوههم مواجهين للشمس ـ وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي حسّن لهم قبيح أعمالهم ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي عن الطريق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحق ـ قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يجوز أن يكون ابتداء خطاب من اللّه، ويجوز أن يكون من قول الهدهد أو من قول سليمان ـ قرأ الكسائي، والأعرج، ويعقوب وحميد، وأبو جعفر ألا يسجدوا بالتخفيف على معنى: ألا يا هؤلاء اسجدوا ـ جعلوه أمراً من اللّه مستأنفاً، وحذفوا هؤلاء اكتفاء بدلالة يا عليها[3]، فعلى هذه القراءة اسجدوا موضع جزم على الأمر، والوقف عليه ألا يا، ثم ابتدىء، اسجدوا. وفي قراءة عبد اللّه: هلا يسجدوا للّه. وقرأ الباقون: ألاَّ يسجدوا بالتشديد على معنى: وزين لهم الشيطان أعمالهم ألاَّ يسجدوا ـ

(1) الطبري في تفسيره، 11: 181.
(2) البغوي في تفسيره، 4: 298.
(3) النشر في القراءات العشر، 2: 337.
الفراء معاني القرآن، 2: 290.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الخبء كل ما غاب عن الإدراك وهو بمعنى المخبوء مصدر وقع موقع المفعول كالخلق بمعنى المخلوق، والعلم بمعنى المعلوم، وخبء السموات: الأمطار، وخبء الأرض: النبات ـ فعلى هذا يكون في بمعنى من ـ قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي يعلم ما يخفون في قلوبهم وما يعلنون بألسنتهم، وفي قراءة الكسائي بالتاء لأن أول الآية خطاب على قراءة تخفيف ألا يسجدوا[1]. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾ أراد بالعرش في هذه الآية: سرير الملك الذي عظمه اللّه ورفعه فوق السموات السبع، وجعله أعظم من السموات والأرض، ومن أعظم كل خلق اللّه، وجعل الملائكة تحف به، وترفع أعمال العباد إليه، أي هو اللّه الذي يستحق العبادة لا غيره وهو رب العرش لا ملكة سبأ لأن عرشها وإن كان عظيماً لا يبلغ عرش اللّه في العظم. فلما فرغ الهدهد من كلامه قال سليمان للهدهد ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فيما أخبرتنا به من هذه القصة ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فنعذبك، ثم كتب سليمان كتاباً وختمه بخاتم ودفعه إلى الهدهد فذلك ـ قوله تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ أي إلى أهل سبأ ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي انصرف عنهم، وهذا على التقديم والتأخير، تقديره: فانظر ماذا يرجعون ثم تول عنهم لأن التولي عنهم بعد الجواب. ومعنى: ﴿فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أي ماذا يردون من الجواب وقيل معناه: ثم تول عنهم أي انصرف عنهم قليلاً إلى حيث لا يرونك فانظر ماذا يرجعون أي يقولون ويردون ويجيبون ـ وكان كتاب سليمان عليه السلام من عبد اللّه سليمان ابن داود إلى بلقيس ملكة سبأ. السلام على من اتبع الهدى أما بعد: ﴿أَلَّا تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ وقال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قص اللّه في كتابه[2] فلما كتب الكتاب طبعه بالمسك، وختمه بخاتمه، وقال للهدهد: اذهب به، فأخذ الكتاب بمنقاره، وذهب به، فلما أغلقت المرأة الأبواب دونها، ونامت على سريرها ووضعت المفاتيح تحت وسادتها فأتاها الهدهد من الكوة، وهي نائمة مستلقية على قفاها، فألقى الكتاب على وجهها،

(1) ابن مجاهد في كتاب السبعة، ص 480.
(2) الطبري في تفسيره، 11: 186.

ونبهها بمنقاره وصوته، فأخذت الكتاب وكانت كاتبة قارئة عربية من قوم تبع بن شراحيل الحميري، فقرأت الكتاب وتأخر الهدهد غير بعيد، فدعت بذوي الرأي من قومها وهم اثنا عشر ألف قائد مع كل قائد مائة ألف مقاتل. وقال قتادة: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً فجاؤوا إليها، فقالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾[1].

قال اللّه تعالى:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ أي حسن، وقيل شريف، وقيل مختوم ـ قال صلى اللّه عليه وسلم «**كرم الكتاب ختمه**»[2] ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ أي إن الكتاب من سليمان، وإن المكتوب فيه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ أي لا تتكبروا علي، ولا ترفعوا علي، ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ منقادين طائعين ـ وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ بدل من كتاب، وموضعه على هذا القول رفع، ويجوز أن يكون نصباً على معنى: بأن لا تعلوا عليّ، وقيل معنى قوله: ﴿وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي مؤمنين باللّه ورسوله من الإسلام الذي هو دين اللّه، وقيل مستسلمين لأمري فيما أدعوكم إليه، فإني لا أدعوكم إلا إلى الحق فأطيعوني قبل أن أكرهكم على ذلك ـ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ أي قالت لأهل مشورتها: بيّنوا إلي ما أعمل به في

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 300.
(2) ذكره البغوي في معالم التنزيل، 4: 300.

أمري ما هو الصواب، وأشيروا علي فإني ما كنت قاطعة أمراً من الأمور فيما مضى حتى تحضروني فتشاوروني، فأشيروا علي في هذا الكتاب ما أصنع فيه، فقالوا مجيبين لها: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ﴾ وعدة في القتال لم يغلبنا عدو قط ونحن ﴿وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ في الحرب ذكروا لها قوتهم وشجاعتهم وهذا تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم بذلك ثم قالوا: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ أي في القتال وتركه إن أمرتنا بالقتال قاتلناه، وإن أمرتنا بغير ذلك فعلناه وذلك معنى قوله: ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أي ماذا تشيرين علينا ـ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ أي قالت مجيبة لهم عن التعريض بالقتال: إن الملوك إذا دخلوا قرية عنوة من غلبة وقتال أفسدوها أي أخربوها وأهلكوها ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي وأهانوا أشرافها وكبراءها كي يستقيم لهم الأمر، وقيل معنى قوله: ﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ أي بالقتل والأسر والاستعباد وأخذ المال وانتهى الكلام. هاهنا قال اللَّه تعالى تصديقاً لها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ أي كما قالت هم يفعلون ـ ومعنى الآية: أنها حذرتهم سير سليمان إليهم، ودخوله بلادهم ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿35﴾﴾ وذلك أنها لما تدبرت في أمرها قوّت الملاطفة بالهدايا وكانت من أولاد الملوك تعرف عادتهم وحسن مواقع الهدايا عندهم، فإن ذلك هو الأولى وكانت بلقيس امرأة كيسة أريبة أديبة فقالت بهذا القول اختباراً لسليمان أملك هو أم نبي، فإن كان ملكاً قبل الهدية، وترك الوصول إلى بلدها، وإن كان نبياً لم يرض بالهدية ولا يرضيه إلا أن تتبعه، فهيأت الهدايا من المسك والعنبر والعود وغير ذلك، وأهدت له أيضاً خمسمائة عبد، وخمسمائة جارية، وأهدت له أيضاً صحاف الذهب، وخمسمائة لبنة من ذهب، وخمسمائة لبنة من فضة، وتاجاً مكللاً بالدر والياقوت[1].

قال اللَّه تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿36﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ

(1) البغوي في المرجع المذكور، 4: 302.

(37) قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (39) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ
رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ
(40) قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (41) فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (42)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي فلما جاء رسولها إلى سليمان بهديته قال له سليمان: أتمدنني بمال وأنا أكثر أهل الدنيا مالاً، ولست ممن يرغب في المال، ولا ممن يغتر به ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ﴾ من النبوة والعلم والملك ﴿خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ من المال؟ ﴿بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ أي إذا أهدى بعضكم إلى بعض فرحوا بذلك، وأما أنا فلا أفرح، لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا ـ وفي الخبر أن سليمان عليه السلام لما علم بالهدايا قبل وصولها إليه: أمر أن تضرب لبنات من الذهب أحسن وأجود مما كان مع رسولها وأمر أن تلقى تلك اللبنات بين قوائم الدواب حتى تروث، وتبول عليها، فلما رأى ذلك الرسول استخف الهدية التي كانت معه، وكانت بلقيس قد قالت لرسولها: إذا دخلت عليه، فإن نظر إليك نظر غضب فاعلم أنه ملك، فلا يهولنك منظره، فأنا أعزّ منه، وإن نظر إليك بوجه طلق فإنه نبي مرسل فتفهم قوله، وردَّ الجواب. فانطلق الرسول بالهدية، ومعه الهدهد مسرعين إلى سليمان فلما وصل الرسول إلى سليمان، وجده قاعداً في مجلسه على سريره، وعلى يمينه أربعة آلاف كرسي من ذهب وعن يساره مثل ذلك، وقد اصطفت الإنس صفوفاً وفراسخ، واصطفت الجن والشياطين والوحوش والسباع والهوام والطير كذلك صفوفاً وفراسخ عن يمينه ويساره[1]، فلما رأوا الشياطين نظروا إلى منظر فظيع، ففزعوا منهم، فقالت لهم الشياطين: جوزوا فلا بأس عليكم. فكانوا يمرون على كل كردوس من الجن

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 197.

والإنس والطير والوحش حتى وقفوا بين يدي سليمان فنظر إليهم نظراً حسناً بوجه طلق، وقال: ما وراءكم؟ فأخبره رئيسهم بما جاؤوا به من الهدية، وأعطاه كتاب الملكة فنظر فيه ثم قال لرسولها: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ أي بعساكر لا طاقة لهم بها ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُم﴾ من بلادهم ﴿أَذِلَّةً﴾ مغلولة أيديهم إلى أعناقهم ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي مهانون. فلما أخبرها الرسول بذلك قالت: قد عرفت ما هذا بملك، وما لنا به من طاقة، ولا ينبغي لنا مخالفته، فتجهزت للمسير إليه، ثم عمدت إلى سريرها، فوضعته في سبعة أبيات مغلقة الأبواب بيتاً فوق بيت جعلته في الطبقة السابعة، وجعلت الجيوش حوله، وخرجت متوجهة إلى سليمان، فجاء جبريل عليه السلام إلى سليمان، وأخبره بمجيئها إليه.

فقال سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ أي بسرير ملكها ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أي مؤمنين، وقيل: صاغرين مستسلمين منقادين، وإنما خص العرش بالطلب لأنه أعجبه بصفته، فأحب أن يراه وأحب أن يعاتبها به، ويختبر عقلها به إذا رأته تعرفه أم تنكره؟ وأحب أن يريها قدرة اللّه في معجزة يأتي بها في عرشها، وأحب أيضاً أن يأخذ عرشها قبل أن تسلم، فلا يحل أخذ ما لها بعد الإسلام فذلك قوله تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ يعرف بعمرو الجني والعفريت في كل شيء المبالغ الحاذق فيه، يقال رجل عفر وعفريت وعفرية بمعنى واحد والجمع عفاريت وعفارى، وقيل العفريت من الجن: المارد القوي الغليظ الشديد، وقيل اسم العفريت الداهية، قيل: إنها سارت إلى سليمان في اثني عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف كثيرة، فخرج سليمان ذات يوم، وإذا هو يرى رهجاً قريباً منه، فقال: ما هذا؟ قالوا: بلقيس، قال: قد نزلت منا بهذا المكان ـ قال ابن عباس: وهو مكان بين الحيرة والكوفة بقيد فرسخ، فأقبل حينئذ سليمان على جنوده[1]، وقال ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؟ واختلف أهل العلم في السبب الذي لأجله أمر سليمان بإحضار عرشها، فقال أكثرهم لأن سليمان علم أنها إذا أسلمت

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 305.

حرم عليه مالها، فأراد أن يأخذه قبل أن يحرم عليه أخذه بإسلامها، وقال قتادة: إنه أعجبه صفته لما وصفه له الهدهد، فأحب أن يراه[1]، وقال ابن زيد: أراد أن يختبر عقلها، فأمر بتنكير عرشها، وتغييره لينظر هل تعرفه إذا رأته أو تنكره[2]؟ وقيل: ليريها قدرة اللّه تعالى وعظم سلطانه ـ قوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ﴾ أي من مجلس قضائك، وكان سليمان يجلس للقضاء من الغداة إلى انتصاف النهار ـ وقال مقاتل: قال العفريت أنا أضع قدمي عند منتهى بصري، فليس شيء أسرع مني ﴿وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾ أي قوي على حمله، أمين على ما فيه من الذهب والجواهر، فقال سليمان: أريد أسرع من ذلك ـ ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو آصف بن برخيا كان يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دعا اللّه به أجاب وهذا قول أكثر المفسرين ـ وقال بعضهم: هو جبريل، وقيل: هو ملك من الملائكة ـ وقوله تعالى: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾ قال ابن جبير: قال لسليمان انظر إلى السماء، فما طرق حتى جاء به، فوضعه بين يديه ـ والمعنى: يعود إليك طرفك بعد مدة إلى السماء، وقيل معناه: بقدر ما تفتح عينيك، وهذا اللفظ عبارة عن المبالغة في السرعة قال محمد بن إسحاق: انخرق مكان عرشها حيث هو، ثم نبع بين يدي سليمان، ومثل هذا روي عن ابن عباس، وقال الكلبي: خرّ آصف بن برخيا ساجداً، ودعا بالاسم الأعظم فغار عرشها تحت الأرض، حتى نبع عند كرسي سليمان ـ وقال أهل المعاني: لا ننكر من قدرة اللّه تعالى أن يعدمه من حيث كان، ثم يوجده حيث كان سليمان بلا فضل لدعاء الذي عنده علم من الكتاب، ويكون ذلك كرامة للولي، ومعجزة للنبي صلى اللّه عليه وسلم.

واختلفوا في ذلك الدعاء الذي دعا به آصف ـ فقال مقاتل ومجاهد: يا ذا الجلال والإكرام[3] ـ وقال الكلبي: يا حي يا قيوم[4]، وقيل: قال سليمان: قد رأيتك تحرك شفتيك فما قلت؟ قال: قلت: إلّهي وإلّه كل شيء إلّهاً واحداً لا

---

(1) البغوي نفسه.
(2) نفسه.
(3) نفسه.
(4) نفسه.

إلَه إلا أنت ائت به، وقال بعضهم: يا إلَهنا وإلَه كل شيء يا ذا الجلال والإكرام لا إلَه إلا أنت ـ وقال الحسن: اسم اللَّه الأعظم ـ يا اللَّه يا رحمن ـ وذلك أنه لا يسمى أحد بهذين الاسمين على الإطلاق غير اللَّه عز وجل ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ أي فلما رأى سليمان العرش مستقراً عنده ثابتاً بين يديه ـ ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ أي هذا التمكين من حصول المراد من فضل اللَّه وعطائه ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ﴾ أي ليختبرني ويمتحنني على هذه النعمة أشكره فيما أعطاني من نعمة أم أترك شكرها ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من شكر نعمة ربه فإنما منفعة شكره راجعة إلى نفسه يعني أن ثواب شكره يعود إليه، ومن ترك شكر نعمته ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ﴾ عنه وعن شكره ﴿كَرِيمٌ﴾ يقبل الشكر ويزيد عليه في النعمة في الدنيا، ويثيب عليه في العقبى ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي قال سليمان: غيروا سريرها وزيدوا فيه، واقتصوا منه حتى ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ﴾ إلى معرفته ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ أي فلما جاءت بلقيس إلى سليمان قيل لها: أهكذا سريرك؟ فجعلت تعرف وتنكر، وعجبت من حضوره عند سليمان، فـ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وقال مقاتل: عرفته ولكنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها، ولو قيل لها: أهذا عرشك؟ قالت: نعم، فقيل لها: فإنه عرشك، فما أغنى عنك إغلاق الأبواب، وكانت قد خلفته وراء سبعة أبواب لما خرجت، والمفاتيح معها، فلم تعرف، ولم تنكر، فعلم سليمان كمال عقلها ـ وقال عكرمة كانت حكيمة[1] قالت: إن قلت هو خشيت أن أكذب، وإن قلت لا خشيت أن أكذب، فلم تقل: نعم، ولا قالت لا لأنه كان يشبه سريرها، وشكت في وصوله إلى سليمان بعد أن وضعته في أحصن المواضع وشكت أيضاً لما أحدثوا فيه من التغيير ـ قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا من قول سليمان عليه السلام. وقوله أي قالوا: وأعطينا العلم بها وبملكها وسريرها من قبل مجيئها وهو ما أخبر به الهدهد من شأنها وقصتها، وقالوا: وكنا مسلمين بحمد اللَّه عز وجل من قبل مشاهدة المعجزات وهذا قول مجاهد. وقال بعضهم: هذا من

---

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 207.

قول بلقيس لما رأت عرشها قالت: وأوتينا العلم بصحة نبوة سليمان عليه السلام، من قبل الآية في العرش، وكنا مسلمين طائعين منقادين لأمر سليمان عليه السلام، من قبل أن نجيء إليه.

قال اللّه تعالى:

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ (43) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (44) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (45) قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي منعها الإيمان باللّه العبادة التي كانت عليها من عبادة الشمس ـ والمعنى: وصدها عن الإيمان والتوحيد الذي كانت تعبد من دون اللّه وهو الشمس لأنها نشأت في قوم لم يكونوا يعرفون إلا عبادة الشمس لأنها كانت من المجوس ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ﴾ أي إنها كانت من قوم يعبدون الشمس فنشأت فيما بينهم، وقال بعضهم معنى قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي صدها سليمان أي منعها ذلك وحال بينه وبينها، فعلى هذا يكون موضع ما نصباً. قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ وذلك أن بلقيس لما لم تسلم بما رأت من الآيات أراد سليمان عليه السلام أن يريها آية أخرى لتسلم، فأمر الجن والإنس والشياطين أن يبنوا لها صرحاً أي قصراً من زجاج مملّس وأن يجروا تحته الماء، ويجعلوا فيه السمك، والأمرد الأملس، وشجرة مرداء أي ملساء لا ورق لها ففعلوا ذلك، ثم وضع له سرير في صدر الصرح، فجلس عليه وعكفت عليه الطير، والجن والإنس، وقيل إن سليمان عليه السلام إنما أمر ببناء الصرح لأن الجن كانوا قد أخبروه أن رجلها رجل حمار، وأنها شعراء الرجلين لأن أمها كانت من الجن، فخافوا أن يتزوجها فتفشي إليه أسرار الجن، فأرادوا أن يزهدوه فيها

بهذا الكلام، وقالوا له أيضاً: إن في عقلها شيء، فأراد سليمان أن يختبر عقلها، وأراد أن يختبر حقيقة قولهم: إن رجلها كحافر الحمار، ولينظر إلى ساقها هل فيه شعر كما قالوا؟ فقيل لها: ادخلي الصرح أي القصر، وقيل: صحن القصر ـ قال الزجاج: الصرح هو الصحن[1]، يقال: هذه ساحة الدار[2]، وصحنة الدار، والصرح في اللغة: هو المبسط المنكشف من غير سقف، ومنه: صرّح بالأمر إذا أفصح به ولم يكنّ عنه والتصريح بخلاف الضمير، فلما رأت بلقيس الصرح على تلك الصفة ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾، واللجة: معظم الماء الكثير ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَاۚ﴾ حتى لا تبتلّ ثيابها على ما هو العادة فيمن قصد دخول الماء ـ قال ابن عباس: لما كشفت رأى سليمان قدماً لطيفاً وساقاً حسناً خدلجاً إلا أنها كثيرة شعر الساقين، فلما رأى سليمان ذلك صرف بصره عنها، وناداها من بعيد ليس هذا بماء، وإنما هو صرح ممرد من قوارير أي مملس من زجاج، فلا تخافي واعبري عليه، فلما رأت السرير والصرح علمت أن ملك سليمان من اللّه عز وجل فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي أخلصت التوحيد والمعنى أن بلقيس: استدلت بما شاهدت على وحدانية اللّه تعالى، وصحة نبوة سليمان بما رأت من شدة قوته، وما كان من ترسل الطير له، وإحضار عرشها في أسرع المدة على بعد المسافة، وبناء الصرح من القوارير على وجه الماء. فلذلك قالت: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿44﴾﴾، فتزوجها سليمان عليه السلام، وقيل: لما أراد سليمان أن يتزوجها كره ذلك لما رأى من كثرة شعر ساقيها فسأل الإنس ما يذهب هذا؟ قالوا: الموسى ـ قال: إنها تقطع ساقها، فسأل الجن، فقالوا: لا ندري، ثم سأل الشياطين، فقال لهم: كيف لي أن أقلع هذا الشعر من غير مضرة للجسد؟ فدلوه على عمل النورة، وكانت النورة والحمامات يومئذ، فاتخذوا لها النورة والحمام، وتزوجها سليمان عليه السلام، فلما تزوجها أحبها حباً شديداً، وأقرها على ملكها، وأمر الجن بأن يبنوا لها بأرض اليمن ثلاثة حصون لم ير مثلهم حسناً وارتفاعاً شَلْحُون،

---

(1) معاني القرآن وإعرابه، 4: 122.

(2) في النسخة، س ـ صرحة.

وبَيْنُون، وعُمْدان، ثم كان سليمان يزورها في كل شهر مرة بعد أن ردها إلى ملكها، ويقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له أولاداً فيما ذكروا[1] ـ وروي أن رجلاً جاء إلى عبد اللّه بن عيينة وسأله: هل تزوج سليمان بلقيس؟ فقال: عهدي بها أن قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني أنه لا يعلم ذلك. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني بأن اعبدوا اللّه ووحدوه فآمن به فريق، وكفر به فريق فجعل الفريقان يختصمون ـ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿75﴾﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي فإذا هم مؤمن وكافر ومصدق ومكذب يختصمون في الدين كل فريق منهم يقول الحق معي. وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ فيه ضمير تقديره إن المؤمنين أوعدوا الكافرين على كفرهم وتكذيبهم، فاستعجل الكافرون العذاب فقال صالح عليه السلام للكافرين المكذبين: لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة؟ أي بالعذاب قبل الرحمة، ولا تستعجلون الثواب الموعود على الإيمان ـ وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي هلا تستغفرون اللّه عن كفركم وتكذيبكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فلا تعذبون في الدنيا ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ أي تشاءمنا بك وبمن على دينك، بما لحقنا من نقصان الزرع والثمار والمياه ـ والتطير: هو التشاؤم وأصله تطيرنا بك وبمن على دينك ـ وذلك أنهم قحط المطر منهم، وجاعوا، فقالوا: أصابنا هذا البلاء والضرّ من شؤمك وشؤم أصحابك، وإنما ذكر الطير للفظ التشاؤم على عادة العرب في نسبتهم الشؤم إلى ما يأتي من الطير في ناحية اليد الشوماء وهي اليسرى، ويسمون الطير الذي يأتي من ناحية اليد اليسرى البارح ـ وأما الطير الذي يأتي من ناحية اليد اليمنى فهو السارح. قوله تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي قال لهم صالح عليه السلام رداً عليهم: ﴿طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي الشؤم

---

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 210.
(2) سورة الأعراف 7، الآية: 75.

أتاكم من عند اللّه بكفركم، وهذا الذي أصابكم من الجدب والخصب عند اللّه مكتوب عليكم لازم لكم في أعناقكم، وليس ذلك إلي، ولا علمه عندي ـ وهذا كقوله: ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾[1] إن طائرهم عند اللّه قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ أي تختبرون في الدنيا باختلاف الأحوال من الخير والشر، وقيل معناه: بل أنتم قوم تعذبون بذنوبكم، وقيل تمتحنون بإرسالي إليكم لتثابوا على متابعتي، وتعاقبوا على مخالفتي. وقيل معنى تفتنون: أي تعاقبون كما في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾[2] أي عقوبتكم.

قال اللّه تعالى:

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (49) وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (53)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48)﴾ معناه: وكان في مدينة صالح عليه السلام وهي الحجر تسعة رهط من الفساق، من أبناء رؤسائهم، وهم غواة قوم صالح يفسدون في الأرض بالمعاصي ولا يصلحون ولا يطيعون اللّه، ولا يأمرون بالصلاح وأسماؤهم: قدار بن سالف، ومصدع، وأسلم، ودمحا، ونهيم، ودعما، ودعيم وقتال، وصداق ـ قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ﴾ أي قالوا فيما بينهم واختلفوا أي تحالفوا باللّه لندخلن على صالح وعلى أهله الذين آمنوا معه ليلاً فنقتلنهم بياتاً ـ قرأ يحيى وحمزة والأعمش والكسائي وخلف لتبيتنه بالتاء ولتقولن بالتاء وضم التاء واللام على الخطاب[3] ـ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ

(1) سورة الأعراف 7، الآية: 131.
(2) سورة الذاريات 51، الآية: 14.
(3) النشر في القراءات العشر، 2: 338.

لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾ أي ثم لنقولن لولي دمه إن اتهمنا بقتله ما شهدنا إهلاك صالح وأهله أي ما قتلناه ولا ندري من قتله وأهله ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما نقول ـ وقرأ عاصم برواية أبي بكر: مَهلك. بفتح الميم واللام والمهلك يجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإهلاك، ويجوز أن يكون الموضع، وروى حفص عن عاصم بفتح الميم وكسر اللام[1] وهو اسم المكان على معنى ما شهدنا موضع هلاكهم ـ قال الزجاج: تحالف هؤلاء التسعة أن يبيتوا صالحاً وأهله، ثم ينكروا عند أوليائه وكان هذا مكراً عزموا عليه كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي دبروا في أمر قتل صالح عليه السلام وأهله من حيث لم يشعر بهم صالح ولا أهله ـ ومكرنا مكراً أي دبرنا نحن في إهلاكهم مجازاة لهم على مكرهم بتعجيل عقوبتهم وهم لا[2] يشعرون بما أردنا فيهم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ أي فانظر يا محمد كيف كان عاقبة مكرهم أي كيف كان آخر مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ـ قرأ الحسن وأهل مكة والأعمش ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ بفتح الهمزة ولذلك وجهان: أحدهما أن يكون في محل الرفع تبعاً للعاقبة ـ كأنه قال العاقبة أنا دمرناهم، والثاني أن موضعها نصب على خبر كان تقديره فكان عاقبة مكرهم التقدير ـ وقرأ الباقون بالكسر على الابتداء[3] وهو تفسير ما كان قبله مثل قوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾[4] والتدمير هو إهلاك على وجه عظيم فظيع ـ واختلفوا في كيفية هلاكهم ـ قال ابن عباس: أرسل اللّه الملائكة تلك الليلة إلى دار صالح يحرسونه ـ فجاء التسعة إلى دار صالح شاهرين سيوفهم فرمتهم الملائكة بالحجارة من حيث كانوا يرون الحجارة ولا يرون الملائكة فقتلتهم[5] ـ وقال مجاهد: نزلوا في سفح جبل ينتظر بعضهم بعضاً ليأتوا دار صالح فجثم عليهم[6] الجبل فأهلكهم وأهلك اللّه قومهم أجمعين

---

(1) ابن مجاهد كتاب السبعة في القراءات، ص 483.

(2) معاني القرآن وإعرابه، 4: 124.

(3) الفراء معاني القرآن، 2: 296.

(4) سورة عبس 80، الآية: 24 ـ 25.

(5) البغوي في تفسيره، 4: 312.

(6) البغوي نسبه إلى مقاتل.

بصيحة جبريل عليه السلام ـ قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ أي خالية عن الأهل والخير والنعمة بسبب ظلمهم لم يبق فيها منهم ديّار ـ قراءة العامة: خاويةً، بالنصب على الحال ـ والمعنى فانظر إلى بيوتهم خاوية بما ظلموا أي بظلمهم وشركهم أهلكناهم حتى جعلنا بيوتهم خاوية أي منازلهم ساقطة على عروشها، وقيل: خاوية نصب على القطع تقديره فتلك بيوتهم الخاوية فلما قطع منها الألف واللام نصب، كقوله: ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾[1] وقرأ عيسى بن عمر: خاوية بالرفع على الخبر[2] ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي إن في إهلاكنا إياهم لدلالة ظاهرة وباصرة لمن علم توحيد اللَّه وقدرته ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي أنجينا الذين آمنوا بصالح من العذاب ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿53﴾﴾ الشرك والعقاب.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿54﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿55﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿56﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿57﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿58﴾ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿59﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿60﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي واذكروا لوطاً إذ قال لقومه: تأتون الفاحشة يعني اللواطة سماها فاحشة لعظم قبحها ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي وأنتم تعلمون أنها فاحشة وقيل معناه: وأنتم تبصرون بعضكم بعضاً وكانوا لا يستترون ـ وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي تجهلون العذاب الموعود

---

(1) سورة النحل 16، الآية: 52.

(2) الزمخشري في تفسيره، 3: 153.

على هذه الفاحشة وقيل تجهلون القيامة وعاقبة المعاصي قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿56﴾﴾ أي عن أدبار الرجال يقولون استهزاء بهم - وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿57﴾﴾ أي قدرنا عليها أن تكون من الغابرين أي من المختلفين فتهلك فيمن يهلك لأن جرمها مثل جرمهم لأنها كانت راضية بأفعالهم القبيحة فجرت مجراهم في العذاب - قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ﴾ أي على مسافريهم. مطراً أي حجارة ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فبئس المطر مطر قوم أنذرهم لوط عليه السلام فلم يؤمنوا - قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ أي قيل للوط عليه السلام قل الحمد للّٰه على هلاك كفار قومي وقيل: الخطاب للنبي صلى اللّٰه عليه وسلم أي قل يا محمد الحمد للّٰه على هلاك كفار الأمم الخالية، وقيل على جميع نعم اللّٰه سبحانه - وقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓۗ﴾ قال مقاتل يعني الأنبياء الذين اختارهم اللّٰه لرسالته[1]، وقال ابن عباس: هم أصحاب محمد صلى اللّٰه عليه وسلم[2] - وقال الكلبي: هم أمة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم الذين اصطفاهم اللّٰه لمعرفته وطاعته[3]، ومعنى سلام عليهم: أنهم سلموا مما عذب الكفار - قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿59﴾﴾ أي قل لأهل مكة: أعبادة اللّٰه أفضل أم عبادة من تشركون به من دونه من الأصنام، وكان رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إذا قرأ هذه الآية قال: «**اللّٰه تعالى خير وأبقى وأجل وأكرم مما تشركون**» - قرأ عاصم وأهل البصرة: أما يشركون[4]، بالياء، وقرأ الباقون بالتاء قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيه إضمار كأنه قال: آلهتكم أم الذي خلق السموات والأرض بما فيها من العجائب والبدائع - ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ أي بساتين ذات بهجة أي منظر حسن وأنوار - والحديقة هي البستان التي تحاط عليه بما فيه من

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 313.

(2) الطبري في تفسيره، 11: 4.

(3) البغوي نفسه.

(4) النسخة، س - (أما تشركون) بالتاء.

النخل والشجر، فإن لم يكن عليه حائط فليس بحديقة ـ قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ﴾ هذا ففي يعني ما قدرتم عليه ـ والمعنى: ما ينبغي لكم ذلك لأنكم لا تقدرون عليها، ثم قال استفهاماً منكراً عليهم ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي هل له معبود سواه أعانه على صنعه على خلق هذه الأشجار ـ وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ يعني كفار مكة قوم يعدلون الأصنام بخالقهم لجهلهم، وقيل يعدلون أي يشركون باللَّه غيره، وقيل يميلون عن الطريق، وعن النظر في الدلائل المؤدية إلى العلم بوحدانية اللَّه تعالى.

قال اللَّه تعالى:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (64)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أي مستقرة لا تميد بأهلها بل جعلها مسكناً يستقرون فيها ويتصرفون عليها فلا هي تضطرب بهم ولا هي مرنة غليظة مثل رؤوس الجبال ـ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾ أي جعل وسط الأرض أودية وعيوناً من عذب ومالح ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي جعل على الأرض جبالاً ثوابت أوتاداً لها ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًاۗ﴾ أي بين الملح والعذب مانعاً بلطيف قدرته فلا يختلط أحدهما بالآخر ولا يبغي أحدهما على صاحبه ـ وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ أي مع اللَّه إلَه فعل شيئاً من هذه الأشياء ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ توحيد ربهم وسلطانه وقدرته ـ وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ المضطر: هو المكروب المجهود المدفوع إلى ضيق من الأمور من غرق أو مرض أو بلاء أو حبس أو كرب إذا دعاه فينكشف ضره ويفرج عنه، فينقذه من الغرق أو يشفيه من المرض ويعافيه من البلاء ـ

وقال السدي: المضطر: الذي لا حول له ولا قوة[1] ـ وقال ذو النون: هو الذي قطع العلائق عن ما دون اللّه[2]، قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي يأتي بقوم بعد قوم، ويخلق قرناً بعد قرن، وكلما أهلك قرناً أنشأ الآخرين، فيكون كل قرن خلفاً لمن قبلهم ـ وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي إلّه سوى اللّه تعالى فعل ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي قليلاً ما يتعظون ـ قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ معناه: أمن يرشدكم إلى الطريق في ظلمات الليل في البر والبحر إذا سافرتم بما خلق لكم من القمر والنجوم والمسالك ـ وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ويجوز أن يكون المراد بالظلمات: الشدائد ـ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي قدام المطر، والنشر جمع نشور وهو الرياح التي تأتي بالسحاب ـ وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ أي جل وعز عن أن يكون له شريك ـ قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ معناه: أمن يبدأ الخلق في الأرحام من النطفة ثم يميته، ثم يعيده للبعث والنشور ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يرزقكم من السماء المطر ومن الأرض النبات والزرع ـ وقوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ أي حجتكم فيما تدعونه من إلّه سواه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن مع اللّه آلهة أخرى تصنع شيئاً من هذه الأشياء.

قال اللّه تعالى:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾.

---

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 223.

(2) القرطبي نفسه.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي قل لهم يا محمد لا يعلم من في السموات يعني الملائكة، والأرض يعني الناس لا يعلم أحد منهم شيئاً من الغيب من وقت نزول العذاب، وقيام الساعة، وغير ذلك مما غاب عن العباد ولا يعلم ذلك إلا اللّه عز وجل وحده ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي ولا يدرون متى يبعثون من القبور. والأصل في أيان أي وأن، ضمتا وجعلتا أداة واحدة. قالت عائشة: من زعم أنه يعلم ما في غد فقد أعظم الفرية على اللّه تعالى[1]. قال اللّه تعالى: ﴿لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ - قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ فيه قراءتان قرأ الحسن والأعمش وشيبة ونافع وعاصم وحمزة والكسائي وخلف: بل ادَّارك. بكسر اللام وتشديد الدال أي تدارك وتتابع علمهم في الآخرة ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾[2] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب ومجاهد: بل أدرك من الإدراك أي بلغ ولحق - كما يقال: أدركه علمي أي بلغه ولحقه[3] - قال ابن عباس: يريد ما جهلوه في الدنيا وسقط علمه عنهم علموه في الآخرة وقال السدي: اجتمع عليهم يوم القيامة فلم يشكوا ولم يختلفوا - وقال مقاتل: بل علموا في الآخرة حين ما عاينوها ما شكوا فيه وعموا عنه في الدنيا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ أي بل هم اليوم في الدنيا في شك من الساعة ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ جمع عم وهو أعمى القلب، وقيل: معنى بل هم منها عمون أي متحيرون بترك التأمل. يقال رجل عمه وعامه وعم إذا كان متحيراً، وقوم عمون أي متحيرون، ويجوز أن يكون معنى أدرك علمهم أي لحق علمهم ذلك بما نصب لهم من الأدلة ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا﴾ بترك التأمل - قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿67﴾﴾ معناه: وقال كفار مكة إذا

---

(1) ذكره الطبري بسنده عن عائشة، 19: 8 - رقم 20598.
(2) سورة الأعراف 7، الآية: 38.
(3) النشر في القراءات العشر، 2: 339.
الكشف عن وجوه القراءات السبع، 2: 164.
معاني القرآن: 2: 299.

صرنا تراباً أئنا لمخرجون من القبور أحياء. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا﴾ الذي تخوفنا به من البعث والنشور وعلمه آباؤنا من قبلنا فما وجدنا لذلك حقيقة وما هذا الذي يعدنا به محمد إلا أكاذيب الأولين، وقيل معناه: لقد وعدنا هذا البعث نحن وآباؤنا من قبل محمد وليس ذلك بشيء ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أحاديثهم وأكاذيبهم التي كذبوها قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قل يا محمد سيروا أي سافروا وترددوا في الأرض ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ﴾ آخر أمر المكذبين بالرسل أهلكهم اللّه بأنواع العقوبات ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي لا تحزن على تكذيبهم إياك، ولا على هلاكهم إن لم يؤمنوا، وذلك أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان حريصاً ونجاهم ﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي لا يضيق صدرك يا محمد بما يمكرونه وسيظهرك اللّه عليهم. نزلت هذه الآية في المستهزئين الذين اقتسموا عقاب مكة وقد مضت قصتهم ـ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿48﴾﴾ أي يقولون على وجه التكذيب متى هذا الوعد الذي تعدنا به في الدنيا والآخرة ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ذلك أنه يكون.

قال اللّه تعالى:

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿72﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿73﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿74﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿75﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿76﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿77﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿78﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿79﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿80﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ أي قل لهم يا محمد: عسى أن يكون ردف لكم أي دنا لكم وركبكم بعض الذي تستعجلون به من العذاب ـ لا يجوز أن يكون عسى في هذا الموضع بمعنى الشك، وإنما هو بمعنى الإيجاب على وجه التخويف ـ قال ابن عباس: ردف لكم أي قرب لكم، وقيل

حضركم ـ والمعنى أن اللّه أمر نبيه صلى اللّه عليه وسلم أن يقول للذين يستعجلون بالعذاب: قد دنا لكم بعض ما تستعجلون من العذاب. وكان بعض الذي دنا لهم القتل ببدر، والقحط الذي سلط عليهم عقيب هذه الآية حتى أكلوا الجيف. والمعنى في ردف لكم أي ردفكم فأدخل اللام فيه كما أدخلها في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[1] و﴿لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿43﴾﴾[2] قال الفراء: اللام صلة زائدة، كما يقولون: فقدته وفقدت[3] له ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال مقاتل معناه: لذو فضل على أهل مكة حتى لا يعجلهم بالعذاب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ وقيل لذو فضل عليهم بإمهالهم والإنعام عليهم ولكنهم لا يشكرون فضله عليهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تخفي صدورهم، وتسرُّ من البغض والعداوة ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم من الكفر والتكذيب وعداوة النبي صلى اللّه عليه وسلم فيجازيهم على ذلك ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿75﴾﴾ أي وما من جملة غائبة خافية على أهل السماء والأرض إلا وهي مكتوبة في اللوح المحفوظ بينة فيه ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي يبين لبني إسرائيل ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ كاختلاف اليهود والنصارى في المسيح وفي غيره من الأنبياء، وكاختلافهم في صفة النبي صلى اللّه عليه وسلم المبشر به في التوراة ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿77﴾﴾ أي وإن هذا القرآن لهدى من الضلالة ورحمة من العذاب لمن آمن به ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾ أي يقضي بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة بحكمه ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي العزيز بالانتقام من الكفار العليم بهم، وبعقوبتهم، ولا يمكن ردّ قضائه ـ قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ثق باللّه يا محمد، وفوض أمرك إليه ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي على طريق الإسلام وفي هذه تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلم ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ هذا مثل للكفار شبه اللّه كفار مكة بالأموات ـ يقول كما لا يسمع الميت النداء كذلك لا يسمع

---

(1) سورة الأعراف 7، الآية: 154.

(2) سورة يوسف 12، الآية: 43.

(3) معاني القرآن، 2: 299 بتصرف.

الكافر النداء ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿80﴾﴾ قال قتادة: إن الأصم لو ولّى مدبراً وناديته لم يسمع كذلك الكافر لا يسمع ما يدعى إليه من الإيمان[1]. والمعنى أنهم لفرط إعراضهم عن ما يدعون إليه من التوحيد كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه وكالأصم الذي لا يسمع.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿81﴾ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿82﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿83﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿84﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿85﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿86﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ أي وما أنت بمرشد من أعماه اللّه عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان، وقيل معناه: كما لا يمكن إرشاد الأعمى إلى قصد الطريق بالأمارات الدالة على الطريق كذلك لا يمكن هداية القوم الذين عميت بصائرهم عن آيات اللّه، وليس على الرسول عليه السلام إلا الدعاء إلى اللّه تعالى ـ وقرأ حمزة والأعمش ـ وما أنت تهدي العمي ـ بالتاء ونصب الياء على الفعل هاهنا وفي الروم[2] ـ قوله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ما تسمع سماع الإفهام إلا من يؤمن بآياتنا ويطلب الحق بالنظر في القرآن ـ وقال مقاتل: إلا من يصدق بالقرآن أنه من اللّه تعالى ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون بتوحيد اللّه ـ والمعنى ما يسمع دعوتك سماع يقول إلا من يطلب الحق بالنظر في آيات اللّه فلا يلبث أن يسلم مع ظهور الدلائل ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ

(1) البغوي في تفسيره، 4: 317.
(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ معناه: وإذا وجب القول عليهم بالسخط والعذاب عند قرب الساعة وأخرجنا لهم دابة من الأرض ـ وقال قتادة: إذا غضب اللّه عليهم، وأوجب أن ينزل بهم ما قال اللّه، وحكم به من عذابه وسخطه عليهم أي على الكفار الذين تخرج عليهم الدابة وهو قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وذلك حين لا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر[1] ـ قال خالد بن الحسين: لا تخرج الدابة حتى لا يبقى أحد يريد أن يؤمن. قالوا: وتخرج الدابة من صدع في الصفا ـ وروي أنها تخرج من الصفا والمروة، ولا يخرج إلا رأسها وعنقها فيبلغ رأسها السحاب فيراه أهل المشرق والمغرب، فيسمعون كلامها باللسان فتقول لهم: أيها الكفار مصيركم إلى النار، ثم تقبل على المؤمنين فتقول: أيها المؤمنون مصيركم إلى الجنة، فيتميز عند ذلك أهل الجنة من أهل النار، ويجوز أن يكون قوله: ﴿تُكَلِّمُهُمۡ﴾ من الكلم وهو الجراحة كما روي في قراءة ابن عباس: تكلِمهم، بنصب التاء وكسر اللام، أي تسمعهم، تكتب على جبين الكافر أنه كافر وعلى جبين المؤمن أنه مؤمن ـ قال أبو هريرة: إنها تخرج ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان[2]. وعن ابن عمرانة قال: تنكت على وجه الكافر نكتة سوداء فتفشو في وجهه حتى يسود وجهه، وتنكت على وجه المؤمن نكتة بيضاء فتفشو في وجهه حتى يبيض وجهه فيعرف المؤمن من الكافر بعد ذلك[3]. وعن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه أنه قال: إذا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان ذلك الوقت وقت أشراط الساعة، وخروج الدابة[4]، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ قرأ أهل الكوفة ويعقوب أن الناس بفتح الألف على وجه الحكاية عن قول الدابة ـ وعلى معنى أخرجنا الدابة بأن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ـ وقرأ الباقون بالكسر على الابتداء[5] ـ وعن أبي هريرة

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 318.
(2) الطبري في تفسيره، 19: 19.
(3) الطبري نفسه.
(4) الطبري في تفسيره، 19: 17 عن ابن عمر.
القرطبي في تفسيره، 13: 234، عن ابن عمر وأبي سعيد.
(5) الكشف عن وجوه القراءات السبع، 2: 167.
الفراء معاني القرآن، 2: 300.

رضي اللّٰه عنه قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «**بئس الشعب جياد**» مرتين أو ثلاثاً قالوا: ولم ذلك يا رسول اللّٰه؟ قال: «**تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين**»[1]. وقال بعضهم: كنت مع ابن عباس بمكة فبينما هو على الصفا إذ قرع الصفا بعصاه وهو محرم وهو يقول: إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذه ـ قال ابن عباس: هي دابة ذات زغب وريش لها أربع قوائم ـ وعن أبي هريرة رضي اللّٰه عنه. قال: تخرج الدابة ومعها عصا موسى وخاتم سليمان فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتخطم وجه الكافر[2] بالخاتم والمخاطم هي الأنوف وأحدها مخطِم بكسر الطاء ـ وعن حذيفة قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «**دابة الأرض طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالب ولا يفوتها هارب**» ـ وعن ابن الزبير أنه وصف الدابة فقال: رأسها رأس ثور وعينها عين خنزير وأذنها أذن فيل، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر، وذنبها ذنب كبش، وقوائمها قوائم بعير بين كل مفصلين من مفاصلها اثنا عشر ذراعاً، معها عصا موسى، وخاتم سليمان ـ وقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**تخرج الدابة من الصفا، فيبلغ صدرها الركن اليماني، ولم يخرج ذنبها بعد، وهي دابة ذات قوائم، وريش ووبر**» ـ وعن ابن عمر أنه قال: تخرج الدابة من صدع في الصفا تجري كجري الفرس ثلاثة أيام، وما خرج ثلثها ـ وقال صلى اللّٰه عليه وسلم: «**بينما عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون إذ تضطرب الأرض تحتهم حتى تتحرك القناديل في المسجد، وتنشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة فأول ما يبدو منها رأسها. ذات وبر وريش لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب تسم الناس مؤمناً وكافراً أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب دريّ، وتكتب بين عينيه مؤمن، وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء، وتكتب بين عينيه كافر**»[3].

وعن الحسن أن موسى سأل ربه أن يريه الدابة فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 320.

(2) الحاكم في المستدرك، 4: 485.

(3) الطبري نفسه.

تذهب في السماء، ولم تخرج رجلاها، فنظر منها منظراً فظيعاً فقال: يا رب ردها فردها ـ، قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿82﴾﴾ قال مقاتل: تكلمهم بالعربية فتقول: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿82﴾﴾ تخبر أن أهل مكة لم يؤمنوا بالقرآن[1] ـ والبعث والثواب والعقاب ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الفوج الجماعة من الناس كالزمرة والجماعة، وإنما يريد الرؤساء والمتبوعين والمعنى: ويوم يجمع من كل أمة جماعة من المكذبين بالرسول ـ وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي يحبسون ليتلاحقون فيساقون إلى الموقف لإقامة الحجة عليهم، وقيل يحبس أولهم على آخرهم ليجتمعوا ثم يساقون إلى النار ـ وقال ابن عباس: يوزعون أي يدفعون. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ أي حتى إذا جاؤوا إلى موقف الحساب ـ قال اللّه تعالى لهم: أكذبتم بآياتي؟ استفهام بمعنى الإنكار عليهم والوعيد ـ قال ابن عباس: معناه: أكذبتم أنبيائي وجحدتم فرائضي وحدودي، ولم تحيطوا بها علماً أي ولم تخبروا حتى تعرضوا عنها معناه: ولم تحيطوا بها علماً أنها باطل، والمعنى: أكذبتم بآياتي غير عالمين بها، ولم تتفكروا في صحتها بل كذبتم بها جهلاً بغير علم ـ وقوله تعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ماذا كنتم تعملون حين لم تبحثوا عنها، ولم تتفكروا فيها وهذا توبيخ لهم، وإن كان بلفظ السؤال ـ قوله تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ أي وجب العذاب عليهم بما أشركوا فهم لا ينطقون بحجة عن أنفسهم بل يختم على أفواههم ـ ونظيره ـ قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿35﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿36﴾﴾[2] ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي مضيئاً لطلب المعاش ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن فيما ذكرنا من اختلاف الليل والنهار لدلالات للمؤمنين والكافرين لكنه خص المؤمنين لأنهم هم الذين ينتفعون بالذكر.

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 318، بلفظه تقريباً.
(2) سورة المرسلات 77، الآيتان: 35، 36.

قال الله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ (87) وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ (88) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ (89)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ قال ابن عباس يعني النفخة الأولى وهي نفخة الصعق ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ماتوا من شدة الخوف ـ كقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1] والمعنى بلغ منهم الفزع إلى أن يموتوا ـ وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ قال ابن عباس: يريد الشهداء، وهم أحياء عند ربهم يرزقون ـ قال الكلبي ومقاتل: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ أي كل الخلائق يأتون إلى موضع الجزاء أذلاء صاغرين ـ وأما النفخة الثانية فتسمى نفخة البعث وبينهما أربعون سنة. ويقال ينفخ في الصور ثلاث نفخات الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق وهو الموت، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ـ وعن عبد الله بن عمر قال: جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن الصور فقال: هو قرن ينفخ فيه ـ وقال مجاهد: هو كهيئة البوق ـ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لما فرغ الله من خلق السموات خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه شاخص ببصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر**» ـ قال: قلت يا رسول الله: وما الصور؟ فقال: «**هو قرن**» قلت: كيف هو؟ قال: «**عظيم، فالذي بعثني بالحق نبياً إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات: النفخة الأولى نفخة الفزع، والنفخة الثانية: نفخة الصعق، والنفخة الثالثة: نفخة القيام لرب العالمين، فيأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول له: انفخ نفخة**

---

(1) سورة الزمر 39، الآية: 68.

الفزع، فيفزع منها أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء اللَّه، ويأمره أن يمدها ويطيلها، وهو الذي يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿15﴾﴾[1] **فيسيّر اللَّه الجبال فتمر مر السحاب فتكون سراباً وترتج الأرض بأهلها رجاً، فتكون كالسفينة الموثقة في البحر تضربها الأمواج، وتلقيها الرياح، وكالقنديل المعلق ترجحه الرياح ـ وهو قوله تعالى:** ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿6﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿7﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿8﴾﴾[2] **فتميد بالناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، ويشيب الطفل، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتي الأقطار فتتلقاها الملائكة، وتضرب وجوهها، فترجع؛ ويولي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً ـ وهو قوله تعالى:** ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿32﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿33﴾﴾[3] **ـ فبينما هم كذلك تتصدع الأرض، وتصير السماء كالمهل، وتنشق، وتنتثر نجومها، وتكسف شمسها وقمرها ثم يأمر اللَّه إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء اللَّه»** وقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة وخلف: أتوه، مقصوراً على الفعل بمعنى جاؤوه وقرأ الباقون بالمد وضم التاء[4] ـ وقوله تعالى: ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي صاغرين ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ أي تحسبها يا محمد ـ واقفة مستقرة مكانها وتظنها ساكنة لا تتحرك في رأي العين، وهي تسير في الهواء سيراً سريعاً كراكب السفينة تحسبها واقفة وهي سائرة ـ وقوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ﴾ نصب على المصدر كأنه قال: صنع اللَّه ذلك صنعاً على الإتقان والإحكام، وقيل على الإغراء أي أبصروا صنع اللَّه الذي أتقن كل شيء أي أحكم وأبرم ما خلق ـ ومعنى الإتقان في اللغة: الإحكام للأشياء ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ قرأ نافع وابن عامر

---

(1) سورة ص 38، الآية: 15.

(2) سورة النازعات 79، الآيات 6 ـ 8.

(3) سورة غافر 40، الآيتان: 32 ـ 33.

(4) النشر في القراءات العشر، 2: 399، والكشف عن وجوه القراءات، 2: 167.

والكوفيون: بالتاء، وقرأ الباقون: بالياء[1] ـ والمعنى: إنه خبير بما يفعله أعداؤه من المعصية والكفر، وبما يفعله أولياؤه من الطاعة ـ قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ معناه: من وافى عرصات القيامة بالحسنات فله ثواب أجود وأنفع منها، وقيل معناه: من جاء بالإيمان ـ قال أبو معشر: كان إبراهيم يحلف ما يستثني أن الحسنة: لا إلَه إلا اللَّه[2]. وقال قتادة: الحسنة: هي الإخلاص، والمعنى: من جاء بكلمة الإخلاص ـ شهادة أن لا إلَه إلا اللَّه يوم القيامة أي من وافى يوم القيامة بالإيمان فله خير منها ـ قال ابن عباس: فمنها يصل الخير إليه أي له من تلك الحسنة خير يوم القيامة وهو الثواب والأمن من العذاب ـ وخير هاهنا: اسم من غير تفضيل لأنه ليس شيء خيراً من لا إلَه إلا اللَّه، ولكنه خير منها خير ـ قال بعضهم: دخلت على علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه فقال لي: ألا أنبئك بالحسنة التي من جاء بها أدخله اللَّه الجنة، والسيئة التي من جاء بها أدخله اللَّه النار، ولم يقبل منه عملاً؟ قلت: بلى. قال: الحسنة: حبّنا، والسيئة: بغضنا ـ ومعنى خير منها: رضوان اللَّه[3]، وقيل: الإضعاف ـ يعطيه اللَّه بالواحدة عشراً فصاعداً قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ قرأ أهل الكوفة: فزع منوناً يومئذ، بنصب الميم. وقرأ الباقون: بالإضافة[4] ـ واختاره أبو عبيد لأنه أعم، ويكون شاملاً لجميع فزع ذلك اليوم وإذا كان منوناً كان لفزع دون فزع، وقال أبو علي الفارسي: إذا نون يجوز أن يكون لفزع، واحد، ويجوز أن يعني به تكون الكثرة لأنه مصدر والمصادر تدل على الكثرة، وإن كانت مفردة الألفاظ ـ كقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ۝١٩﴾[5]، قال الكلبي: إذا أطبقت النار على أهلها فزعوا فزعة لم يفزعوا مثلها أبداً، وأهل الجنة آمنون من ذلك الفزع.

---

(1) ابن مجاهد، كتاب القراءات السبعة، ص 487.
(2) الطبري في تفسيره، 19: 28.
(3) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
(4) النشر، نفسه، والفراء في معاني القرآن، 2: 301.
(5) لقمان 31، الآية: 19.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿90﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿91﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿92﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿93﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي من وافى بالشرك والكبائر فكبت وجوههم في النار، ألقوا على وجوههم في النار وتقول لهم خزنة جهنم ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿90﴾﴾ في الدنيا من الشرك ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ أي قل يا محمد للمشركين: إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة يعني مكة الذي حرمها أي الذي حرم فيها ما أهل في غيرها من الاصطياد، والاختلاء، والقتل، والسبي، والظلم، وأن لا يهاج فيها أحد حتى يخرج منها، فلا يصاد صيدها، ولا يختلى خلاها، وقيل معنى حرمها: أي عظم حرمتها فجعل لها من الأمن ما لم يجعل لغيرها ـ قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ لأنه خالقه ومالكه وقرأ ابن عباس: التي حرمها أشار إلى البلدة ـ وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿91﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي وأمرت أن أكون من المسلمين المخلصين للّه بالتوحيد، وأن أتلو القرآن عليكم يا أهل مكة، يريد تلاوة الدعوة إلى الإيمان، وفي الآية تعظيم لأمر الإسلام وتلاوة القرآن ـ قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من اهتدى فإنما منفعة اهتدائه راجعة إلى نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي ومن ضل عن الإيمان والقرآن وأخطأ عن طريق الهدى ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي من المخوفين فليس علي إلا البلاغ، فإني لم أومر بالإجبار على الهدى، وليس علي إلا الإنذار، وكان هذا قبل الأمر بالقتال. قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي قل الحمد للّه على نعمه ـ ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يعني العذاب في الدنيا والقتل ببدر، فتعرفونها حين تشاهدونها، ثم أراهم ذلك، وضربت

وجوههم الملائكة وأدبارهم، وعجلهم اللّه إلى النار ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من المنكر والكفر والعناد، وهذا وعيد لهم بالجزاء على أعمالهم.

وعن أبي بن كعب عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: من قرأ سورة النمل كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من كذَّب، وصدَّق بموسى، وهود، وشعيب، وصالح، ولوط، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وسليمان، عليهم السلام، وخرج من قبره وهو ينادي لا إلَه إلا اللَّه[1].

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف، 3: 164.
الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال اللَّه تعالى: ﴿طسٓمٓ ﴿1﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿2﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿3﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿4﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿5﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿6﴾﴾.

قال أبو بكر: سورة القصص مكية إلا آية واحدة ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية ـ فإنها نزلت بالجحفة بين مكة والمدينة. وعدد حروف السورة خمسة آلاف وثمانمائة حرف، وألف وأربعمائة وإحدى وأربعون كلمة، وثمان وثمانون آية. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة القصص لم يبق ملك في السموات والأرض إلا شهد له يوم القيامة أنه كان صادق أن كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون**»[1].

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿طسٓمٓ ﴿1﴾﴾ قد تقدم تفسيره ـ وقوله تعالى: ﴿نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي نقرأ عليك خبر موسى، وفرعون بالصدق نبينها ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تجبّر وتكبّر في أرض مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي فرقاً وأصنافاً في الخدمة والتسخير يكرم قوماً، ويذل قوماً آخرين ـ وقوله تعالى: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل ثم فسر ذلك فقال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ يقتل

---

(1) الثعلبي في تفسيره، الكشف والبيان خ.
الزمخشري في تفسيره، 3: 194.

الأبناء ويترك البنات فلا يقتلهن، وقيل معناه: يذبح أبناءهم صغاراً ويستحيي نساءهم للخدمة، وسبب ذلك أن بعض الكهنة قالوا له: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون سبباً لذهاب ملكك ـ قال الزجاج: والعجب من حمق فرعون إن كان الكاهن عنده صادقاً فما ينفع القتل، وإن كان كاذباً فما معنى القتل[1] ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿4﴾﴾ يعني بالقتل والعمل بالمعاصي ـ قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نريد أن ننعم على الذين استضعفوا في الأرض وهم بنو إسرائيل ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ يقتدى بهم في الخير ـ وقال قتادة: ولاة وملوكاً، ودليله قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[2] ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لملك فرعون ولمساكن قومه يرثون ديارهم وأموالهم ـ قوله تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي نمكنهم ما كان يملك فرعون ـ قوله تعالى: ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿6﴾﴾ أي ما كانوا يخافون من هذا المولود الذي يذهب ملكهم على يديه، وذلك أنهم أخبروا أن هلاكهم على أيدي رجل من بني إسرائيل، فكانوا على وجل منهم، فأراهم اللّه ما كانوا يحذرون أي ما كانوا يخافونه من جهتهم من ذهاب ملكهم على أيديهم. وقرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف ـ ويرى فرعون ـ بالياء، وما بعده رفعاً على أن الفعل بهم، وقرأ الباقون: بالنون ـ مضمومة[3]، وما بعده نصب بوقوع الفعل عليهم.

قال اللّه تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿7﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿8﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

---

(1) معاني القرآن وإعرابه، 4: 132.

(2) سورة المائدة 5، الآية: 20.

(3) النشر في القراءات العشر، 2: 341.
الفراء، معاني القرآن، 2: 302.

﴿⑨ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا
لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ⑩ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ⑪﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ لم يرد بالوحي وحي الرسالة، وإنما أراد الإلهام ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[1] ويقال أراها اللّه في المنام فعرفته بتعبير الرؤيا ـ وقال بعضهم: أتاها ملائكة خاطبوها بهذا الكلام واسم أم موسى: يوخاند بنت لاوي بن يعقوب[2] ـ قال وهب بن منبه: لما حملت أم موسى كتمته عن جميع الناس، فلم يطلع على حملها أحد من خلق اللّه تعالى، فلما كانت السنة التي ولد فيها موسى بعث فرعون القوابل يفتشن النساء، وحملت أم موسى، ولم ينتأ[3] بطنها، ولم يتغير لبنها وكانت القوابل لا يتعرضن لها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها، ولدته أمه ولا رقيب عليها، ولا قابلة. لم يطلع عليه أحد إلا أخته، ثم أوحى اللّه إليها أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، قال: فكتمته ثلاثة أشهر ترضعه في حجرها لا يبكي ولا يتحرك، فلما خافت عليه، عملت له تابوتاً نظيفاً، ومهدت له فيه ثم ألقته في البحر ليلاً[4] كما أمرها اللّه. فلما أصبح فرعون جلس في مجلسه على شاطىء النيل فبصر بالتابوت فقال لمن حوله ائتوني بهذا التابوت، فأتوا به، فلما وضع بين يديه فتحوه فوجدوا فيه موسى فلما نظر إليه فرعون اغتاظ، وقال: كيف أخطأ هذا الغلام الذبح؟ وكان لفرعون امرأة يقال لها: آسية ـ من خيار النساء ومن بنات الأنبياء، وكانت أماً للمسلمين ترحمهم وتتصدق عليهم، فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه: هذا الولد أكبر من ولد سنة، وأنت أمرت أن يذبح الولدان بهذه السنة، فدعه يكون ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ

---

(1) سورة النحل 16، الآية: 68.
(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
(3) النسخة ك ـ ينب ـ.
(4) البغوي في تفسيره، 41: 328.

لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾ فقال فرعون لها: عسى أن ينفعك، وأما أنا فلا أريد نفعه. قال وهب: لو قال فرعون كما قالت امرأته: عسى أن ينفعنا لنفعه اللّه به ولكنه أبى أن يقول للشقاء الذي كتب اللّه عليه فتركه فرعون ولم يقتله ـ قوله تعالى: ﴿أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ أي أرضعيه ما لم تخافي عليه الطلب ﴿فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ﴾ الطلب ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي في البحر، فقالت: يا رب إني أخاف عليه حيتان البحر، فأمرت أن تجعله في تابوت فغيّر، فذهبت إلى النجار، فأمرته أن يصنع لها تابوتاً على قدره، فعرف النجار ذلك، فذهب إلى الموكلين بذبح بني إسرائيل ليخبرهم بذلك، فلما انتهى إليهم اعتقل لسانه، فلم يطق الكلام، فجعل يشير بيده فلم يفهموا، فقال كبيرهم: أخرجوه، فضربوه وأخرجوه. فلما رجع النجار إلى موضعه ردّ اللّه عليه لسانه، فرجع إليهم ليخبرهم، فاعتقل لسانه، فجعل يشير إليهم بيده فلم يفهموا، فضربوه وأخرجوه، ففعل ذلك ثلاث مرات، فعرف أنه من عند اللّه تعالى فخرّ للّه ساجداً وأسلم ثم صنع التابوت، وسلمه إلى أم موسى، فوضعته فيه، وألقته في النيل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ﴾ أي لا تخافي عليه الغرق والهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ إلى فرعون وقومه ـ قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ قال ابن عباس: لما ألقته أمه في البحر أقبل تهوي به الأمواج حتى كان بحيال منزل فرعون، فخرجت جواري يستقين الماء، فأبصرن التابوت بين الشجر والماء فأخذنه وذهبن به إلى امرأة فرعون، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ هذه اللام لام العاقبة، لأن أحداً لا يلتقط الولد ليكون له عدواً، ونظير هذا قولهم: لدوا للموت وابنوا للخراب ـ وقوله تعالى: ﴿وَحَزَنًاۗ﴾ قرأ أهل الكوفة إلا عاصماً: بضم الحاء وجزم[1] الزاي، وهما لغتان مثل: السُّقم والسَّقم. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ أي متعمدين في الإقامة على الكفر والمعصية، يقال: خطأ فلان يخطىء خطأً إذا تعمد الذنب، وأخطأ

---

(1) النشر في القراءات العشر، 2: 241.

إذا وقع منه على غير الصواب ـ وقيل معناه: إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا آثمين عاصين ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ﴾ وذلك أن فرعون هم بقتله، فقالت له امرأته: ليس من أولاد بني إسرائيل، وقد أتانا اللَّه به من أرض أخرى، فلا تقتله أيها الملك، فهو قرة عين لي ولك، وعسى أن ينفعنا في أمورنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون أن هلاكهم على يديه، وقيل: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أني أفعل ما أريد، ولا أفعل ما يريدون. وقوله تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ مشتق من القرور: وهو الماء البارد، ومعنى قولهم: أقرّ اللَّه عينك أي أبرد دمعتك لأن دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة، قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي أصبح قلب أم موسى وهي: يوخاند بنت لاوي بن يعقوب، فارغاً من كل شيء إلا من هم موسى وذكره ـ قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي كادت تظهر قصتها، وقصة ولدها، وأن تقول بالبيان لولا أن ربطنا على قلبها أي لولا أن شددنا على قلبها بالصبر عن إظهار ذلك ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي من المصدقين بما سبق من الوعد وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ ولو أظهرت لكان ذلك سبباً لقتله، والربط على القلب هو إلهام الصبر وتقويته، وقيل معناه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ أي فارغاً من الصبر على فراق موسى لولا أن ربطنا على قلبها لأبدت به، وقيل فارغاً من الحزن لعلمها بأنه لم يعرفه ـ قرأ فضالة بن عبيد[1]: وأصبح فؤاد أم موسى فزعاً[2] ـ بالزاي والعين من غير ألف من الفزع ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي قالت أم موسى لأخته واسمها: مريم ـ ابتغي أثره، وانظري أين وقع؟ لتعلمي خبره وإلى من صار؟

---

(1) فضالة بن عبيد الصحابي الأنصاري شهد أحداً، والخندق، والمشاهد كلها مع الرسول صلى اللَّه عليه وسلم ثم انتقل إلى الشام فنزل دمشق، وتولى بها القضاء، ومات بها في خلافة معاوية، الطبقات الكبرى، 7: 281 رقم 3708.

(2) ابن جني، المحتسب، 2: 147.
الطبري في تفسيره، 19: 46.
النحاس، إعراب القرآن، 3: 230.

فذهبت في أثر التابوت، فبصرت بموسى عن جنب أي عن بعد قد أخذوه وهم لا يشعرون أنها قد جاءت للتعرف عن خبره ـ وقال ابن عباس: الجنب: أن يسمو بصر الإنسان إلى الشيء البعيد، وهو إلى جنبه لا يشعر به[1] ـ وهي كانت مجانبة لتحديق النظر إليه كيلا يعلم بما قصدت به. وقال قتادة: كانت تنظر إليه كأنها لا تريده[2] ـ وكان يقرأ: عن جَنْب، بفتح الجيم وسكون النون[3] ـ وقرأ النعمان بن سالم[4]: عن جانب[5]، أي عن ناحية ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها أخته.

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ المراضع جمع مرضعة. وقوله

---

(1) الطبري في تفسيره، 19: 49، بلفظه.
(2) الطبري نفسه.
(3) المحتسب، 2: 149.
(4) النعمان بن سالم الطائفي، روى عن أوس بن أبي أوس، وعبد اللَّه بن عمر، وروى عنه سماك، وداود بن أبي هند، وثقه أبو حاتم، الخلاصة، ص 345.
(5) المحتسب، 2: 149.

تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل مجيء أمه ـ ومعنى: حرمنا عليه: أي منعناه وقد يذكر التحريم بمعنى المنع قال الشاعر:

جَالَتْ لِتَصْرَعني فَقُلتُ لها اقصري[1] ∴ إنـي امـرؤٌ صَـرْعـي عـلـيـكِ حَـرامُ[2]

أي ممتنع، وذلك أن اللّه تعالى أراد أن يرده إلى أمه، فمنعه من قبول ثدي المراضع، فلما تعذر عليهم رضاعه قالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾؟ أي يضمنون لكم القيام به، ورضاعه ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ أي يشفقون عليه، وينصحونه، قالوا لها: من؟ قالت: أمي ـ قالوا: أو لأمك لبن؟ قالت: نعم ـ لبن أخي هارون، وكان هارون ولد في سنة لا يقتل فيها صبي، فقالوا: صدقت، فدلتهم على أم موسى، فدفع إليها لتربيه لهم فلما وجد الصبي ريح أمه قبل ثديها، وأتم اللّه لها ما وعدها وهو قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ على فراقه ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بردّ ولدها إليها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن اللّه وعدها بردّ ولدها إليها ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال مجاهد: بلغ أشده، أي بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾، وبلغ أربعين سنة وهو قول ابن عباس وقتادة[3] ـ قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال مجاهد :بلغ أشده يعني: الفقه، والعقل، والعلم في دينه، ودين آبائه، فعلم موسى، وحكم قبل أن يبعث نبياً ـ وقال ابن عباس: لما بلغ موسى أربعين سنة آتاه اللّه النبوة ـ وقيل الأشد: منتهى الشباب، والقوة، والاستواء: إتمام الخلق، واعتدال الجسم في الطول والعظم ـ وإنما يبلغ المرء هذا الحد في اثنتين وعشرين سنة إلى أربعين سنة ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه بيان أن إيتاء العلم والحكمة يجوز أن يكون مجازاة على الإحسان لأنهما يؤديان إلى الجنة التي هي جزاء

---

(1) النسخة: س ـ اصبري ـ.

(2) يتحدث امرؤ القيس عن ناقته، ويصفها بالنشاط والحيوية فيقول: جالت بنشاطها وقلقها لتوقعني من على ظهرها وتصرعني فلم تقدر على ذلك لإتقاني للركوب، ومعرفتي به.
القرطبي في تفسيره، 13: 257.
الطبرسي في تفسيره، 7: 375.

(3) تراجع هذه الأقوال في تفسير الطبري، 19: 52، طبعة دار الفكر، بيروت، 1990م.

المحسنين ـ قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي دخل موسى مدينة فرعون، وهي مدينة يقال لها: منف[1]، وكانت من مصر على فرسخين ـ وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ قال ابن عباس: في وقت الظهيرة عند المقيل وقد خلت الطرق، وقيل: دخلها فيما بين المغرب والعشاء، وقيل: دخلها يوم عيدهم وكانوا مشغولين عن موضع مدينتهم باللهو واللعب.

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أي من القبط وكان القبطي يسخر الإسرائيلي ليحمل له حطباً إلى مطبخ فرعون والإسرائيلي يأبى ذلك ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ أي استنصره الإسرائيلي على القبطي ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ أي ضربه بجمع كفه في صدره ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قتله فوقع القبطي ميتاً، وكل شيء فرغت منه وأتممته فقد قضيت عليه وقضيته ـ والوكز: الضرب بجمع الكف، وكان موسى عليه السلام قد أوتي بسطة في الخلق، وشدة في القوة، والبطش، وكان من نية موسى أنه لا يريد قتله، ولم يتعمد هلاكه، بل قال له أولاً: خلّ سبيله ـ فقال: أريده ليحمل الحطب إلى مطبخ فرعون ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي قتله، وفرغ من أمره ـ والوكز، واللكز، والهز بمعنى واحد: وهو الدفع، ويقال: وكزه بعصاه فلما قتله موسى عليه السلام ندم على قتله، وقال: لم أومر بهذا، ثم دفعه في الرمل فقال: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأني كنت لا أريد قتله، ولكن هيّج الشيطان حزني حين ضربته ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ أي عدو لابن آدم مضل مبين عداوته بهم ثم استغفر موسى ربه فقال ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتل القبطي قبل ورود الأمر، والإذن لي فيه ﴿فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿17﴾﴾ أي بما أنعمت علي بالمغفرة، والعلم، والحلم فلن أكون عوناً للكافرين وهذا

(1) مَنْف: من أقدم عواصم الدنيا، وثانية عواصم مصر القديمة، ينسبون بناءها إلى «مينا» وعلى أطرافها الشمالية من شرقي النيل ضرب عمرو بن العاص «فسطاطه» لم يبق منها إلا بعض الأطلال. الموسوعة العربية الميسرة سنة 1961. وقال القلقشندي في صبح الأعشى، 3: 354، أصلها بالسريانية «مافه» ومعناها ثلاثون وذلك أن مصر بن بيصر بن حام حين نزلها كان في ثلاثين رجلاً من أسرته.

يدل على أن الإسرائيلي الذي أعانه موسى كان كافراً[1] ـ قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ أي أصبح من غد ذلك اليوم في تلك المدينة التي فعل فيها ما فعل خائفاً على نفسه من فرعون وقومه يترقب أي ينتظر عاقبة أمره ـ والترقب: انتظار المكروه ـ أي ينتظر سوءاً يناله منهم، فإذا ذلك الإسرائيلي الذي استنصره بالأمس، يستصرخه أي يستغيثه على رجل آخر من القبط ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ضال عن طريق الحق، بين الجدال، فقاتل من لا تقاومه، وقد قتلت أمس في سببك رجلاً، وتدعوني اليوم إلى آخر، ثم أقبل موسى، وهمّ أن يبطش الثانية بالقبطي، فظنّ الإسرائيلي أنه يريد أن يبطش به لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ فقال الإسرائيلي: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت رجلاً بالأمس؟ ولم يكن أحد من قوم فرعون علم أن موسى هو الذي قتل القبطي حين أفشى عليه هذا الإسرائيلي، وسمع القبطي ذلك، فأتى فرعون فأخبره[2] وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾.

قال الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿19﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿20﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿21﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿22﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ وكان أيضاً هو القبطي الثاني سخر الإسرائيلي ليحمل له حطباً ـ قوله تعالى: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما

---

(1) الثعلبي في تفسيره، الكشف والبيان ـ خ ـ.
(2) الثعلبي نفسه.

تريد إلا أن تكون قتالاً في أرض مصر بالظلم وقال الزجاج: الجبار في اللغة: الذي لا يتواضع لأمر اللّه، والقاتل بغير حق جبار[1] ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي من الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. فلما سمع القبطي مقالة الإسرائيلي علم أن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس ولم يكن أحد علم ذلك قبل هذا، فانطلق القبطي، فأخبر فرعون، فأرسل فرعون إلى أولياء المقتول: أن اقتلوا موسى، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة أي من آخرها إلى موسى فأخبره بذلك ـ وقوله تعالى: ﴿يَسْعَىٰ﴾ أي يمشي على رجليه مسرعاً ـ وهو: حزقيل بن صوريا مؤمن من آل فرعون، فقال له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ أي إن الخواص من قوم فرعون يتشاورون في قتلك فاخرج من المدينة ﴿إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ قال الزجاج: يأتمرون: أي يأمر بعضهم بعضاً بقتلك[2] ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ في أمري لك بالخروج. قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ أي خرج موسى من المدينة خائفاً ﴿يَتَرَقَّبُ﴾ أي ينتظر متى يلحق فيؤخذ؟ قال عند ذلك: ﴿رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي من فرعون وقومه ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ أي لما سار نحو مدين، وكان قد خرج بغير زاد، ولا حذاء، ولا ركوبة، بل خرج هائماً على وجهه، هارباً من فرعون وقومه، لا يدري أين يذهب؟ فخاف أن يخطىء الطريق ـ ومدين: اسم ماء لقوم شعيب بينه وبين مصر: ثمانية أيام ـ سمي ذلك الماء باسم: «مدين بن إبراهيم عليه السلام» فلما لم يكن لموسى علم بالطريق خشي أن يذهب يميناً أو شمالاً فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي يرشدني قصد الطريق إلى مدين، فلما دعا موسى بهذا الدعاء، جاءه ملك على فرس، فانطلق به إلى مدين ـ قال المفسرون: خرج موسى من مصر بغير زاد ولا درهم ولا ركوبة إلى مدين، وبينها مسيرة ثماني ليال، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر[3].

---

(1) معاني القرآن والمراد به، 4: 137.

(2) معاني القرآن نفسه.

(3) ولعله اختار ذلك للنسب الذي كان بينه وبينهم لأن مدين من ولد إبراهيم عليه السلام وموسى من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام. وهذه حالة المضطر، القرطبي في تفسيره، 13: 266.

قال اللّه تعالى:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ (23) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ (24)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ أي بلغ بئرهم التي كانوا يسقون منها ـ قال ابن عباس: ورد ماءهم، وأنه ليتراءى خضرة الشجرة في بطنه من الهزال[1] ـ وقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ أي وجد على ذلك الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم ومواشيهم ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ﴾ أي تحبسان غنمهما عن الماء حتى يفرغ الناس، ويخلو لهما الماء، وهما ابنتا شعيب ـ والذود في اللغة: الطرد، والكف ـ ومعنى تذودان: تدفعان، وتكفان الغنم من أن تختلط بأغنام الناس وحتى لا تقرب الماء إلى أن يفرغ القوم ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ﴾ أي قال موسى لابنتي شعيب ما خطبكما؟ أي ما شأنكما لا تسقيان غنمكما مع الناس؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ﴾ قرأ الحسن، وابن عامر، وأبو عمرو، بفتح الياء وضم الدال، ٥٦/ب جعلوا الفعل للرعاء أي حتى يرجع الرعاء عن الماء، وقرأ الباقون: يُصدِر، بضم الياء وكسر الدال أي حتى يصدوا مواشيهم من ورودهم، فيخلو لنا الموضع فنسقي أغنامنا فضل مائهم في الحوض. والرعاء جمع[2] راع ـ قال ابن إسحاق: قالتا نحن امرأتان لا نستطيع أن نزاحم الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ لا يقدر أن يسقي ماشيته من الكبر، والضعف، وليس له أحد غيرنا، فلذلك احتجنا نحن إلى أن نسقي الغنم، فلما سمع قولهما رحمهما، فقام ليسقي لهما غنمهما، فوجد بقربهما بئراً أخرى على رأسها صخرة عظيمة لا يطيق رفعها إلا جماعة من الناس، فاقتلعها وحده، ثم أخذ الدلو من القوم، فأدلاها في البئر ونزعها وأفرغها في الحوض، ثم دعا بالبركة، فشرب الغنم

---

(1) الطبري في تفسيره، 19: 72، وما بعدها.
(2) إعراب القراءات السبع وعللها، 2: 169.

حتى روي، وقيل: إنه زاحم القوم على بئرهم وسقى لهما غنمهما فذلك قوله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أغنامهما قبل الوقت الذي كانا يسقيان فيه، ثم رجع من الشمس إلى الظل أي إلى ظل شجرة، فجلس تحتها من شدة الحر وهو جائع، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾، أي إني لمحتاج فقير إلى ما قدرت لي[1] من الطعام، وكان خرج من مصر بغير زاد، وكان لا يأكل في الأيام الثمانية إلا الحشيش والشجر إلى أن بلغ ماء مدين، فلما أدركه الجوع الشديد وكان لا يقدر على شيء سأل اللّه أكلة من الطعام ـ قال ابن عباس: سأل اللّه فلق خبز أن يقيم به صلبه ـ قال سعيد بن جبير: لقد قال: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمرة ـ وقال مجاهد: ما سأل اللّه إلا الخبز ـ واللام[2] في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ بمعنى إلى يقال فقير له وفقير إليه.

قال اللّه تعالى:

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لما سقى لهما رجعتا إلى أبيهما سريعاً، فقال لهما أبوهما: ما أعجلكما؟ قالتا: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: اذهبي فادعيه إليَّ، فجاءته تمشي مستحيية مشي من لا يعتاد الدخول والخروج، واضعة كمها على وجهها معترضة من الحياء، وكانت التي أرسلها أبوها إلى موسى هي الصغرى، واسمها: صَفُّورا. قال عمر بن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ قال: ليست بسلفع من النساء خراجة ولا ولاَّجة ـ جاءته على استحياء واضعة

(1) الطبري نفسه.

(2) قال الزمخشري في تفسيره، 3: 171. وإنما عدي فقير باللام لأنه ضمن معنى سائل وطالب.

ثوبها على وجهها أي مستترة بكم درعها[1] ـ قال أهل اللغة السلفع: الجريئة التي غير مستحيية ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ أي ليعطيك ذلك ـ فلما قالت ذلك لموسى شق عليه قولها وهمّ أن لا يتبعها، وكان بينه وبين أبيها مقدار ثلاثة أميال، ثم إنه لم يجد بداً من اتباعها لأجل الجهد والجوع الذي حلَّ به، ولأجل الخوف الذي خرج لأجله، فانطلق معها، وكانت الريح تضرب ثوبها فتلزقه بردفها فتصف له عجيزتها، وكانت ذات عجز، فجعل موسى يغض بصره، ويعرض عنها، ثم قال لها: يا أمة اللَّه كوني خلفي، وانعتي لي الطريق بقولك، ودليني عليها إذا أنا أخطأت فإنا بنو يعقوب لا نستطيع النظر إلى أعجاز النساء ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي فلما جاء موسى إلى شعيب إذ هو بالعشاء يهيّأ، فقال له شعيب: من أنت؟ قال: أنا رجل من بني إسرائيل من أهل مصر، واستنسب له، وحدثه بما كان منه من قتل القبطي وفراره من فرعون، فقال له شعيب: اجلس ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ـ أي نجوت من فرعون وقومه فإنهم لا سلطان لهم بأرضنا، ولسنا في مملكته، فجلس موسى عليه السلام، فقال له شعيب: هاك فتعشى فقال: أعوذ باللَّه، فقال له شعيب: ولم ذلك، وأنت جائع؟ قال: أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لكم، وإنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، فقال له شعيب: لا واللَّه، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس موسى عليه السلام يتعشى حينئذ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ أي قالت إحداهما، وهي التي تزوجها موسى: يا أبت استأجره أي اتخذه أجيراً يرعى لنا غنمنا فإن خير من استأجرت الذي يقوى على العمل ويؤدي الأمانة، فقال لها أبوها: وما علمك بقوته وأمانته؟ فقالت: أما قوته فإنه لما رأى أغنامنا محبوسة عن الماء، قال لنا: هل بقربكما بئر؟ قلنا: نعم لكن عليها صخرة عظيمة لا يرفعها إلا أربعون

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 75، رقم 20837.
القرطبي في تفسيره، 13: 270.

رجلاً، قال: انطلقا بي إليها؟ فانطلقا به إليها فأخذ الصخرة بيده ونحاها سهلاً من غير كلفة، وأما أمانته، فإنه قال لي في بعض الطريق: امشي خلفي فإن أخطأت الطريق فارمي قبلي بحصاة حتى أنهج منهجاً، فإنا قوم لا ننظر إلى[1] وراء النساء، وبهذا المعنى قال عمر رضي الله عنه: لا يصلح لأمور المسلمين إلا القوي من غير عنف، والرفيق من غير ضعف. قال: كلما ذكرت المرأة من حال موسى ما ذكرت: ازداد أبوها رغبة فيه.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿27﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿28﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿29﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿30﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ أي على أن ترعى غنمي وتكون فيها أجيراً إلى ثماني سنين فإن أتممت عشراً فهو بفضل منك وليس بواجب عليك ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ في العشر ولا أكلفك إلا العمل المشروط، والمراد بالحجج السنين ـ وقوله تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي ممن وافق قوله فعله وقيل: ستجدني إن شاء الله من الوافين بالعهد المحسنين للصحبة، فقال موسى لشعيب: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الشرط ﴿بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ يعني الذي وصفت وشرطت على ذلك، وما شرطت لي من تزويج إحداهما، فلي ذلك والأمر بيننا، وتم الكلام، فقال: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ من الثماني أو العشر قضيت أي أتممت وفرغت ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ

---

(1) الطبري في المرجع المذكور، 11: 78، رقم 20852، عن ابن عباس.

﴿عَلَيَّ﴾ أي لا ظلم ولا حرج ولا كلفة ـ قال الفراء: ما صلة في قوله: ﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي شهيد على ما عقد بعضنا على بعض ـ قال ابن عباس: معناه: والله شهيد بيني وبينك ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأجلين قضى موسى؟ فقال: «**أوفاهما وأبطأهما**»[2] ـ وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا سئلت عن أي الأجلين قضى موسى؟ فقل خيرهما وأبرهما، وإن سئلت أي المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما، وهي التي جاءت، فقالت: يا أبت استأجره**»[3]. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ أي فلما وفى موسى أتم الأجلين وهو عشر سنين وسار بأهله نحو مصر ـ قال مقاتل: استأذن موسى صهره شعيباً في العود إلى مصر لزيارة والدته وأخته، فأذن له، فسار بأهله نحو مصر[4]، فأبصر بالليل المظلم عن يسار الطريق من جانب الجبل ناراً ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ﴾ انزلوا هاهنا إني أبصرت ناراً ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي من عند النار بخبر، وأعلم لم أوقدت تلك النار؟ ويقال: كان أخطأ الطريق فأراد أن يسأل عن الطريق من يجده عند النار ـ وقوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ معناه: أو آتيكم بقطعة من الحطب في رأسها شعلة من النار لكي تدفؤوا من البرد، وكانوا في شدة من الشتاء ـ وفي قوله تعالى: ﴿جَذْوَةٍ﴾ ثلاث قراءات فتح الجيم، وهي قراءة عاصم، وضمها وهي قراءة حمزة، وكسرها وهي قراءة الباقين[5] ـ وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي تستدفئون بها عن البرد ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ أي فلما أتى موسى النار نودي من جانب الوادي الأيمن أراد به يمين موسى ـ وقوله تعالى: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ أي المقدسة وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أي من تحت الشجرة وهي العناب في قول ابن عباس. وقال مقاتل: هي عوسجة. وسميت البقعة مباركة لأن كلم الله

---

(1) معاني القرآن، 2: 305.
(2) الطبري في تفسيره، 19: 84.
(3) ذكره القرطبي في تفسيره، 13: 273.
(4) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
(5) ابن خالويه: إعراب القراءات السبع وعللها، 2: 171.

موسى فيها، وبعثه نبياً ـ وقوله تعالى: ﴿أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ قد تقدم تفسيره.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴿31﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿32﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿33﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿34﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي ونودي بأن ألق عصاك من يدك، وموضع أن ألق نصب ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أي فلما رآها بعدما ألقاها تتحرك في غاية الاضطراب كأنها جان في الخفة مع عظمها ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾ أي هارباً ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أي ولم يلتفت إلى ما وراءه، فقال اللَّه له: يا موسى ﴿أَقْبِلْ﴾ إليها ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ منها ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ﴾ من أن ينالك منها مكروه، فأخذها موسى فإذا هي عصا كما كانت، ويقال: سميت جاناً في هذه الآية لأنها صارت جاناً في البقعة المباركة وثعباناً عند فرعون قوله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ﴾ أي أدخلها في جيبك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَآءَ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أي من غير برص ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ أي ضع يدك على صدرك ليسكن ما بيدك من الفزع فتصير آمناً مما كنت تخافه، وهذا لأن من شأن الخائف أن يرتعد ويقلق، فيكون ضم يده إلى نفسه بمعنى السكون، قال مجاهد: كل من فزع وضم جناحه إليه ذهب عنه الفزع، وقرأ هذه الآية[1] ـ وجناح الإنسان عضده، ويقال اليد كلها جناح ـ وقال بعضهم معنى قوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ أي سكن روعك، وضم الجناح هو السكون ومنه قوله

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 284.

تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾[1] يريد الرفق وكذلك ـ قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿215﴾﴾[2] أي ارفق بهم، وألن جناحك لهم. قال الفراء: أراد الجناح العصا[3] ـ وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ وقرىء: من الرهَب أيضاً وهما لغتان مثل الرشْد والرشَد، ويقال: إن قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ متصل بقوله: ﴿مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿31﴾﴾ ـ قوله تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني اليد والعصا، حجتان من اللَّه لموسى على صدقه والمعنى: هما حجتان من ربك أرسلناك بهما ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أي أشراف قومه ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعة اللَّه تعالى ـ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: فذانك، بالتشديد وهي لغة قريش ـ وقرأ الباقون بالتخفيف[4] قال الزجاج: التشديد تثنية ذلك، والتخفيف تثنية ذاك[5] ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾ يعني القبطي الذي قتله ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿33﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ أي أبين مني كلاماً، وأحسن بياناً وكان في لسان موسى عقدة من قبل الجمرة التي تناولها، ولذلك قال فرعون ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[6] ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا﴾ أي عوناً ومصدقاً لي ـ يقال: فلان ردء فلان إذا كان ينصره، ويشد ظهره وقرأ نافع: رداً من غير همز[7] طلباً للخفة ـ وقوله تعالى: ﴿يُصَدِّقُنِيٓ﴾ قرأ عاصم وحمزة: يصدقني: بضم القاف ـ وقرأ الباقون بالجزم على الجواب[8] للأمر ومن رفعه كان صفة للنكرة جواباً للمسألة تقديره: رداً مصدقاً لي، والتصديق لها ردن في قول الجميع وقال مقاتل: لكي يصدقني فرعون ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

---

(1) سورة الإسراء 17، الآية: 24.
(2) سورة الشعراء 26، الآية: 215.
(3) معاني القرآن، 2: 306.
(4) كتاب السبعة في القراءات، ص 493.
(5) معاني القرآن وإعرابه، 4: 143.
(6) سورة الزخرف، 43، الآية: 52.
(7) كتاب السبعة.
(8) إعراب القراءات السبعة، 2: 175.

قال اللّه تعالى:

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35) فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي قال اللّه لموسى: سنعينك ونقويك وننصرك بأخيك، وشدّ العضد كناية عن التقوية ـ وقوله تعالى: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي حجة بينة تدل على النبوة ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ بقتل ولا سوء ولا أذى ﴿بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)﴾ لمن خالفكما وقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ موضعه التقديم ـ والمعنى ونجعل لكما سلطاناً بآياتنا أي بما نعطيكما من المعجزات. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ يعني المعجزات فلم يقدروا على دفع تلك الآيات إلا أن قالوا: هذا سحر مفترى مجترى من قبل نفسك ولم تبعث به ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي تدعونا إليه ﴿فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ﴾ أي هو أعلم بالمحق منا وبمن يدعو إلى الضلالة، أي أنا الذي جئت بالهدى من عند اللّه ـ وقرأ ابن كثير: قال موسى بغير واو[1] ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي هو أعلم بمن تكون له الجنة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي لا يسعد من أشرك باللّه ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ أي قال فرعون لخواص قومه: ﴿مَا عَلِمْتُ

(1) كتاب السبعة في القراءات، ص 494.

لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ وهذه إحدى كلمتيه اللتين أخذه الله بهما، والأخرى قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[1] ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أي اتخذ لي آجراً، واجعل لي صرحاً أي قصراً طويلاً متسعاً مرتفعاً ﴿لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ أي أصعد إليه، ظنّ بجهله أن يتهيأ له أن يبلغ بصرحه إلى السماء وظن أن إله موسى جسم يشاهد كما تقول المشبهة تعالى اللَّه عن ذلك. قال المفسرون: لما أمر فرعون وزيره هامان ببناء الصرح جمع خمسين ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ممن يطبخ الآجر والجص، وينحت الخشب والأبواب ويضرب المسامير[2] ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي في ادعائه إلهاً غيري وأنه رسوله، وهذا اعتراف من فرعون بالشك لأنه شاك لا يدري من في السماء، ولو كان إلّهاً لم يجهل ولم يشك والمبطل تظهر عليه المناقضة ـ قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي تعظموا عن الإيمان ولم ينقادوا للحق ـ وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرض مصر ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بالباطل والظلم ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ أي لا يردون إلينا بالبعث للحساب والجزاء قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي طرحناهم في البحر ـ قال عطاء: يريد البحر المالح بحر القلزم[3] ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حين صاروا إلى الهلاك.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿41﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى
هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿42﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ
مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿43﴾
وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿44﴾ وَلَٰكِنَّآ
أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ
ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿45﴾﴾.

---

(1) سورة النازعات 79، الآية: 24.
(2) القرطبي في تفسيره، 13: 288، بلفظه تقريباً.
(3) ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»، 12: 169.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي جعلناهم في الدنيا أئمة ضلالة وقادة في الكفر والشرك يقودون الناس إلى الشرك وهو قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ لأن من أطاعهم ضل ودخل النار ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي لا يدفع عنهم عذاب اللّه ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ يعني لعنة الملائكة والمؤمنين ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ أي من المشوهين في النار بسواد الوجوه وزرقة الأعين، فعلى هذا يكون المعنى هم من المقبوحين ـ وقيل معناه: هم من المبعدين الملعونين، من القبح وهو الإبعاد[1] ـ قال أبو زيد: يقال: قبح اللّه فلاناً قبحاً وقبوحاً أي أبعده من كل خير ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم الماضية عظة وعبرة للناس ليبصروا بها أمر دينهم، وليبصروا بالتوراة ويهتدوا بها. وهو قوله تعالى: ﴿وَهُدًى﴾ أي من الضلالة لمن عمل به أي بالكتاب، ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي لكي يتذكروا بما فيه من المواعظ والبصائر، وعن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «**ما أهلك اللّه قوماً ولا قرناً ولا أمة ولا أهل قرية بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية الذين مسخوا قردة[2] ـ ألم تر أن اللّه قال:** ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾» ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ معناه: وما كنت يا محمد بجانب الوادي الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر أي إذ أوحينا إليه الأمر بما ألزمناه وقومه ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ تلك الحالة وإنما أخبرناك بذلك لتكون معجزة لك ـ قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي جعلنا قرناً بعد قرن ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي طالت عليهم المهلة فنسوا عهد اللّه، وتركوا أمره وكذبوا الرسل،

---

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك، 2: 408.

وذكره الطبري بسنده عن أبي سعيد الخدري في تفسيره، 19: 98، رقم 20918.

فأهلكناهم قرناً بعد قرن ـ وهذا كلام يدل على أنه قد عهد إلى موسى وقومه عهوداً في محمد صلى اللّٰه عليه وسلم والإيمان به، فلما تطاول عليهم العمر، وخلفت القرون بعد القرون نسوا تلك العهود، وتركوا الوفاء بها ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ أي مقيماً ﴿فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ كقيام موسى وشعيب فيهم ﴿تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي تذكرهم بالوعد والوعيد. قال مقاتل: والمعنى لم يشهد أهل مدين، فيقرأ على أهل مكة خبرهم كخبر من شاهدهم[1] ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾ أي أرسلناك إلى أهل مكة، وأنزلنا عليك هذه الأخبار، ولولا ذلك لما علمتها.

قال اللّٰه تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٤٦ وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٧ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ۝٤٨ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٤٩﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةً﴾ أي وما كنت يا محمد بناحية الجبل الذي كلم اللّٰه عليه موسى إذ نادينا موسى إني أنا اللّٰه، ويا موسى أقبل ولا تخف، ولكن أوحيناها إليك، وقصصنا عليك رحمة ﴿مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا﴾ لم يأتهم رسول مخوف قبلك ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي يتعظون ـ ومعنى ذلك رحمة أي ولكن رحمناك رحمة بإرسالك والوحي إليك ـ قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ يعني أهل مكة لعلهم يتعظون. واسم الجبل الذي نودي عليه جبل زفير. وقرأ عيسى بن عمر: ولكن رحمة بالرفع على معنى ولكن هي رحمة من ربك إذ أطلعك اللّٰه عليه ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ قال مقاتل معناه: ولولا

(1) البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»، 4: 346.

أن يصيبهم العذاب في الدنيا بما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصي يعني كفار مكة ﴿فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ أي هلا أرسلت إلينا رسولاً ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿47﴾﴾ والمعنى لولا أنهم يحتجون بترك الإرسال إليهم لعجلنا لهم بالعقوبة بكفرهم، وحقيقة كشف معنى الآية لولا أنه إذا أصابتهم مصيبة أي عقوبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر فيقولوا عند نزول العذاب بهم: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع كتابك ورسولك ونكون من المؤمنين لعجلنا لهم العقوبة، وقيل معناه: لولا إذا أصابتهم عقوبة الأخرى فيقولوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً في الدنيا لما أرسلناك[1] ـ وفي الآية بيان أن اللَّه تعالى ـ أرسل النبي صلى اللَّه عليه وسلم مبالغة في الحجة، وقطع المعذرة. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحق من عندنا وهو محمد، والقرآن قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ﴾ أي هلا أعطي مثل ما أعطي موسى يعنون هلا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلنا التوراة على موسى جملة واحدة، وهلا أعطي محمد اليد، والعصا، والمن، والسلوى، وغير ذلك من الآيات، فاحتج اللَّه عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي فقد كفروا بما أوتي موسى كما كفروا بآيات محمد ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ أي تعاونا على السحر والضلالة يعنون موسى ومحمد عليهما السلام، ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿48﴾﴾ وقرأ أهل الكوفة: سحران بغير ألف يعنون التوراة[2]، والقرآن، وقالوا: إنا بكل من التوراة والقرآن كافرون ـ قال اللَّه لنبيه صلى اللَّه عليه وسلم: قل لكفار مكة ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ أي من التوراة والقرآن حتى أتبعه إن كنتم صادقين أنهما كانا ساحرين.

قال اللَّه تعالى:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿50﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

(1) ابن عطية في تفسيره، 12: 171.
(2) أبو عمرو الداني، كتاب التيسير في القراءات السبع، ص 172، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1985م.

يَتَذَكَّرُونَ ﴿51﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿52﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿53﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿54﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿55﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ﴾ أي فإن لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ وإنما ركبوه من الكفر لا حجة لهم فيه، وإنما آثروا الهوى ثم ذمّهم اللّه فقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير رشاد ولا بيان جاءه من اللّه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿50﴾﴾ ومعنى قوله فإن لم يستجيبوا لك فإن لم يجيبوك إلى ما سألتهم ولا يجيبون ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي وصلنا لأهل مكة ذكر الأنبياء والأمم وأقاصيص بعضهم لبعض وأخبرناهم أنا أهلكنا قوم نوح بكذا، وقوم صالح بكذا لكي يتعظوا بالقرآن ويخافوا أن ينزل بهم مثل ما نزل بمن قبلهم ـ وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي من قبل القرآن ﴿هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي هم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ـ قال السدي: يعني مسلمي اليهود عبد اللّه بن سلام وأصحابه ـ وقال مقاتل: يعني مسلمي أهل الإنجيل وهم الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة[1] ثم بعثهم اللّه تعالى فقال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ أي صدقنا بالقرآن ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ لأن ذكر النبي صلى اللّه عليه وسلم كان مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فلم يعاندوا وقالوا للقرآن: إنه الحق من ربنا ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ﴾ القرآن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ مخلصين للّه بالتوحيد مؤمنين بمحمد صلى اللّه عليه وسلم أنه نبي حق. ثم أثنى اللّه عليهم خيراً فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ مرة بتمسكهم بدينهم حتى أدركوا محمداً صلى اللّه عليه وسلم فآمنوا به، ومرة بإيمانهم به ـ وقال قتادة: بما صبروا على الكتاب الأول،

(1) القرطبي في تفسيره، 13: 296.

والكتاب الثاني، وقيل مرة لإيمانهم بموسى، ومرة لإيمانهم بمحمد صلى اللّه عليه وسلم[1] قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي يدفعون بشهادة أن لا إلّه إلا اللّه الشرك، كذا قال ابن عباس ـ وقال مقاتل: يدفعون ما يلحقهم من أذية الكافرين، وشتمهم لهم بالعفو والصفح والحلم والاحتمال ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ من الأموال في طاعة اللّه تعالى ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ أي وإذا خوطبوا بالسفاهة وشتمهم المشركون ردوا عليهم جميلاً، وأعرضوا عن الكلام الذي لا فائدة فيه ﴿وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا﴾ أي ديننا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ أي دينكم وذلك أنهم عيروهم بترك دينهم. قال السدي: لما أسلم عبد اللّه بن سلام جعل اليهود يشتمونه وهو يقول ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿55﴾﴾ ـ قال الزجاج: لم يردوا التحية والمعنى أنهم قالوا: بيننا وبينكم المتاركة والسلام. وهذا قبل أن يؤمر المسلمون بالقتال[2] فكأنهم قالوا: سلمتم منا لا نتعرضكم بالشتم. ومعنى قوله: ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ أي لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه وقال الكلبي: معناه لا نحب دينكم الذي أنتم عليه.

قال اللّه تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿56﴾ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿57﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿58﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه الآيات نزلت في أبي طالب وذلك أنه لما مرض مرضه الذي مات فيه دخل عليه النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال له: «**يا عم قل: لا إلّه إلا اللّه أشهد لك**

---

(1) الطبري في تفسيره، 19: 109.

(2) معاني القرآن وإعرابه، 4: 149.

بها يوم القيامة»، قال: لولا أن يعيرني نساء قريش، ويقلن إنه حمله على ذلك الجزع عند الموت لأقررت بها عينك فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[1] ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ هدايته، وقيل: إنك لا تهدي من أحببته ـ وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه دخل على عمه أبي طالب في مرضه الذي مات فيه وعنده أبو جهل، وعبد اللّه بن أبي أمية بن المغيرة فقال له: يا عم قل: لا إلٓه إلا اللّه أشهد لك بها عند اللّه، فقال له أبو جهل، وعبد اللّه بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يعرضها عليه، وهما يعاودانه على تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إلٓه إلا اللّه، فأنزل اللّه في أبي طالب، وقال لرسوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾[2] قال الزجاج: ابتداء نزولها بسبب أبي طالب وهي عامة لأنه لا يهدي إلا اللّه عز[3] وجل ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ﴾ أي قالت قريش لمحمد صلى اللّه عليه وسلم: إن اتبعناك على دينك خفنا العرب على أنفسنا أن يخرجونا من أرضنا مكة إن تركنا ما يعبدون ـ قال اللّه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي ذا أمن يأمن فيه الناس وذلك أن العرب كانت تغير بعضهم على بعض، وأهل مكة آمنون في الحرم من القتل، والسبي، والغارة. أي فكيف يخافون إذا أسلموا وهم في حرم آمنون؟ ومعنى ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي أولم نجعل مكاناً لهم ـ وقوله تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ قرأ نافع ويعقوب: تجبى، بالتاء لأجل الثمرات، وقرأ الباقون: بالياء[4]. لقوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من مصر والشام واليمن والعراق ـ وقوله: ﴿رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي رزقناهم رزقاً من عندنا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنا فعلنا ذلك يعني أهل مكة، والمعنى: أولم

---

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 279، الطبري في تفسيره، 19: 113، رقم 20964.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري، 9: 456، رقم 4772 كتاب التفسير.
أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 1: 214، كتاب الإيمان.

(3) معاني القرآن وإعرابه، 4: 149.

(4) التيسير في القراءات السبع، ص 172.
إعراب القراءات السبع وعللها، 2: 178.

نجعل أهل مكة في أمان قبل الإيمان تجبى إلى الحرم ثمرات كل شيء نعمة من عندنا فكيف يخافون زوال الأمان بالإيمان ولكن أكثرهم لا يعلمون لأنهم لا يتذكرون ولا يتفكرون؟ ثم خوفهم بمثل عذاب الأمم الخالية فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكم أهلكنا من أهل قرية بطرتها معيشتها ـ والبطر: الطغيان عند النعمة، وقيل معناه: بطرت في معيشتها ـ قال عطاء: عاشوا في بطرة فأكلوا رزق اللّه وعبدوا الأصنام ـ وقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي منازلهم التي يسكنونها لم يسكنها أحد إلا المسافرون أو مارّو الطريق ينزلون ببعضها يوماً أو ساعة ثم يرتحلون ـ والمعنى، لم تسكن من بعدهم إلا سكوناً قليلاً ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أي لم يخلفهم أحد بعد هلاكهم في منازلهم فتركوها خراباً غير مسكونة ـ كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿59﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿60﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿61﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿62﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿63﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿64﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ معناه: وما كان ربك يا محمد معذب القرى الكافرة أهلها حتى يبعث في أعظمها قرية رسولاً ينذرهم ويقرأ عليهم آياتنا، وخص الأعظم من القرى ببعثة الرسول فيها لأن الرسول إنما يبعث إلى الأشراف، وأشراف القوم وملوكهم يسكنون المدائن والمواضع التي هم أم ما حولها ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أي ما نهلكهم إلا بظلمهم وشركهم

وقيل: المراد بالقرى التي حول مكة والمراد بأُمِّها: مكة سميت أم القرى لأن الأرض دحيت من تحتها ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ معناه: وما أعطيتم يا أهل مكة من خير في الدنيا ومال فمتاع الحياة الدنيا وزينتها تتمتعون بها أيام حياتكم، ثم تنقطع، ويفنى وينقضي ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب والجنة أبقى وأدوم لأهله وأفضل مما أعطيتم في الدنيا ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الباقي أفضل من الفاني الذاهب، وقيل: أفلا تعقلون خير الأمرين فتطلبونه وشر الأمرين فتتركونه؟ قرأ أبو عمرو: أفلا يعقلون، بالياء[1]. ـ قوله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ استفهام بمعنى التقرير أي كيف يستوي حال من وعدناه الثواب في الدنيا والجنة في الآخرة فهو لاقيه؟ وحال من متعناه بعرض الدنيا ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ العذاب والمعنى: أفمن وعدناه على إيمانه وطاعته الجنة والثواب الجزيل فهو لاقيه أي مدركه ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؟ أي كمن هو متمتع بشيء يفنى ويزول عن قريب ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ النار ـ قال قتادة: يعني المؤمن والكافر فالمؤمن من سمع كتاب اللَّه فصدقه، وآمن بموعود اللَّه فيه، وليس كالكافر الذي تمتع بالدنيا وهو يوم القيامة من المحضرين في عذاب اللَّه[2] ـ قال مجاهد: نزلت هذه الآية في علي وحمزة وأبي جهل ـ وقال الكلبي: نزلت في عمار والوليد بن المغيرة[3] ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي ينادي اللَّه المشركين وهو يوم القيامة ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ في الدنيا أنهم كانوا شركائي؟ والمعنى: اذكر يوم ينادي الكفار وهو يوم القيامة فيقول: أين شركائي؟ فليس للَّه شريك ولكن خرج هذا الكلام على ما كانوا يلفظون به، فيقولون هؤلاء شركاء اللَّه. قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي الذين حقت عليهم كلمة العذاب أو وجب عليهم العذاب وهم الرؤوس. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ يعنون سفلتهم وأتباعهم ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أضللناهم كما ضللنا تبرأنا إليك منهم وقيل:

---

(1) الداني، كتاب التيسير، ص 172.
(2) الطبري في تفسيره، 11: 119، رقم 20982.
(3) الواحدي في أسباب النزول، ص 280.
الطبري في المرجع المذكور، 11: 119، رقم 20986.

تبرأنا تجنبنا إليك من الضلال والإضلال ما كانوا يعبدوننا بإكراه من جهتنا، وقيل: ما كانوا يعبدوننا بحجة ولا استحقاق ـ وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ أي يقال لهم: لستم تسألون عن الإغواء والغواية ولكن ادعوا آلهتكم حتى يدفعوا عنكم عذاب اللّه ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ أي لم يجيبوهم إلى نصرهم ﴿وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي رأوا كلهم القادة والأتباع العذاب ـ قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ﴾ جواب لو محذوف تقديره: لو أنهم كانوا يهتدون في الدنيا لما رأوا العذاب.

قال اللّه تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿65﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿66﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿67﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿68﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿69﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿70﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿65﴾﴾ أي واذكر يوم يناديهم فيقول: ما كان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين؟ وقوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي فالتبست عليهم الأجوبة يومئذ ولم يدروا ماذا يقولون من الفزع والتحير؟ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً في تلك الساعة لرد الجواب، وقيل: لا يسأل أحد عن حال أحد لاشتغال كل أحد منهم بنفسه، وقيل: لا يسأل أحد أحداً أن يبذل له طاعة أو يتحمل عنه معصية ـ ومعنى قوله: ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أي خفيت فاشتبهت عليهم الأنباء قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي من تاب من الشرك، وآمن، وصدق بتوحيد اللّه، وبمحمد صلى اللّه عليه وسلم، وعمل صالحاً، أي أدى الفرائض ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ أي من الناجين الفائزين، وعسى من اللّه واجب أي سيكون في الآخرة من الفائزين ـ قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾

وذلك أن الوليد بن المغيرة ـ كان يقول ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿31﴾﴾ يعني نفسه، وأبا مسعود الثقفي ـ فأنزل اللّٰه هذه[1] الآية ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ من يشاء للرسالة فكذلك الاختيار إليه في جميع الأشياء للرسالة والنبوة أي فكما أن الخلق إليه يخلق ما يشاء فكذلك الاختيار إليه في جميع الأشياء، فيختار مما يخلق ما يشاء ـ وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ ابتداء كلام في الاختيار عن المشركين وذلك أنهم اختاروا الوليد بن المغيرة من مكة أو عروة بن مسعود من الطائف ـ فقال اللّٰه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ أي ليس لهم الاختيار على اللّٰه ثم نزه نفسه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ومن قرأ ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ من غير أن يقف على ويختار جعل ما بمعنى الذي كأنه قال: ويختار الذي لهم الخيرة[2] فيصنع بهم ما هو الأصلح لهم وأنشد محمود الورّاق[3]:

توكّل على الرحمٰن في كل حاجةٍ ∴ أردتَ فإنّ اللّٰه يقضي ويَقْدِرُ[4]

متى ما يُردْ ذو العرش أمراً بعبده ∴ يُصبْه وما للعبد ما يتخيّرُ

فقد يهلكُ الإنسانُ من حيثُ أمنه ∴ وينجو بحمدِ للّٰه من حيثُ يحذرُ

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ أي ما تستر من الكفر والعداوة للّٰه ولرسوله أي يعلم ما تضمر قلوبهم من ذلك ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بألسنتهم من الكفر والمعاصي ـ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ يستحق الحمد في الدارين ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي الفصل بين الخلائق حكم لأهل طاعته بالمغفرة، ولأهل معصيته بالشقاء والويل ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إلى موضع جزائه.

---

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 280.

(2) النحاس في إعراب القرآن، 3: 241.

(3) محمود بن حسن الوراق، شاعر مجيد أكثر شعره في المواعظ والحكم، روى عنه ابن أبي الدنيا. ونقل له المبرد في الكامل بعض شعره، وجمع عدنان العبيدي شعره في ديوان مطبوع، توفي سنة خمس وعشرين ومائتين هجرية. فوات الوفيات 2: 285، الكامل، 4: 104.

(4) القرطبي في تفسيره، 13: 306.
الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (75) ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ (76)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة أخبروني إن جعل الله عليكم الليل سرمداً دائماً أبداً إلى يوم القيامة لا نهار معه من إله سوى الله يأتيكم بنهار مضيء تنصرفون فيه، وتطلبون فيه المعيشة ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماع قبول وتفهم فتستدلون بذلك على توحيد الله؟ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا﴾ أي قل لهم أخبروني إن جعل الله عليكم النهار دائماً إلى يوم القيامة ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ﴾ تستريحون فيه من الحركة والنصب ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أدلة الله تعالى ـ قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي ومن نعمته عليكم أن خلق لكم الليل والنهار لتستريحوا ليلاً ولتنصرفوا نهاراً ـ والمعنى ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي في الليل ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي ولتلتمسوا في النهار من فضل الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي أنعم الله عليكم بهما ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (74)﴾ قد تقدم تفسيره ـ قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ أي وأخرجنا من كل أمة رسولها الذي يشهد عليهم بالتبليغ وما كان منهم فقلنا ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ أي فقلنا للمشهود عليهم هاتوا برهانكم أي حجتكم بأن معي شريكاً ﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ

﴿لِلَّهِ﴾ أي أن التوحيد للّه ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ أي زال وبطل في الآخرة ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ في الدنيا من قولهم أن مع اللّه شريكاً ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ قال أكثر المفسرين ابن عم موسى[1] من بني إسرائيل، وكان من العلماء بالتوراة ـ وقال بعضهم: كان ابن خالته ـ وقوله تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أي بكثرة ماله ـ والمعنى أنه تطاول على موسى وقومه، وجاوز الحد في التكبر عليهم والبغي في اللغة: طلب العلو بغير حق ـ قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ أي أعطيناه من الأموال المجموعة ما إن مفاتحه ـ قال ابن عباس: أراد بالمفاتيح الخزائن كانت خزائنه تقفل بالجماعة ذي القوة إذا حملوها. وقال بعضهم هو جمع مفاتيح وهو ما يفتح به الباب وهذا قول قتادة ومجاهد[2]، وقيل مفاتح جمع مِفتح بكسر الميم وهي قلة. قال خيثمة[3] كانت مفاتح قارون من جلود كل مفتاح مثل الإصبع مفاتح كل خزانة على حدة فإذا ركب حمل المفاتيح على ستين بغلاً[4] ـ وقال ابن عباس: كان يحمل مفاتيحه أربعون رجلاً أقوى ما كان من الرجال ومعنى قوله: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾ يقال ناء بحمله إذا نهض به مثقلاً والمعنى يثقلهم حمل المفاتيح فإن قيل كيف تنوء بالعصبة؟ وإنما العصبة تنوء بالمفاتيح أي تثقل في حملها قيل هذا شائع في الكلام كما يقال: عرضت الناقة على الحوض وإنما يعرض الحوض عليها ولا تعرض الناقة على الماء ـ الكنز في اللغة: اسم للمال الذي يجمع بعضه على بعض وإذا أطلق أريد به ما يخبأ تحت الأرض ـ وقال خيثمة وجدت في الإنجيل أن مفاتيح خزائن قارون وقر ستين[5] بغلاً غُراً محجلة قيل: إنها كانت من جلود الإبل وكانت من حديد فلما ثقُلت عليه جعلت من خشب، فلما ثقُلت عليه جعلت من جلود ـ قوله

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 76.

(2) الطبري نفسه.

(3) خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة أدرك خيثمة ثلاثة عشر صحابياً، الطبقات الكبرى، 6: 292.

(4) ذكره الطبري في تفسيره، 11: 130، بسنده عن خيثمة، رقم 21007.

(5) الوقر: الحمل، والأغر من الخيل والبغال، الذي في جبهته بياض أكبر من الدرهم، وقد وسط جبهته: والمحجل: ما كان البياض في موضع القيد.

تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾ أي قال له قومه من المؤمنين من بني إسرائيل: لا تفرح بالكنوز والمال ولا تأشر ولا تبطر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي الأشير من البطرين الذين لا يشكرون اللّه على ما أعطاهم والفرح إذا أطلق أريد به المرح الذي يخرج إلى البطر ولذلك قال: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[1] وأما قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[2] فهو فرح بهداية النفس وهو حسن جميل قال الشاعر:

ولَسْتُ بِمِفْراحٍ إذا الدَّهْرُ سَرَّني ∴ ولا جازع من صرفه المُتقلّب[3]

قال اللّه تعالى:

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿77﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿78﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿79﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي واطلب فيما أعطاك اللّه من الأموال والنعمة الجنة ـ وهو أن يقوم بشكر اللّه فيما أنعم اللّه عليه وينفعه في رضاء اللّه ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ولا تنس بأن تعمل لآخرتك ـ وقال الحسن: أمر أن يقدم الفضل، أن يمسك ما يغنيه[4] ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي وأحسن إلى الفقراء والمساكين كما أحسن اللّه إليك ـ وقيل معناه: أطع اللّه واعبده كما

---

(1) سورة هود 11، الآية: 7 ـ 10.
(2) سورة آل عمران 3، الآية: 170.
(3) ذكره القرطبي في تفسيره، 3: 313، وكذا الطبرسي، 7: 409.
(4) الطبري في تفسيره، 11: 137.

أنعم عليك ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ أي ولا تعمل في الأرض بالمعاصي ومخالفة موسى عليه السلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ في الأرض ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ قال عطاء: فكفر قارون لما رأى أن المال حصل له بعلمه، ولم ير ذلك من عطاء اللّٰه تعالى ـ والمعنى قال قارون: إنما أعطيت هذا المال على علم عندي بوجوه الاكتساب والتجارات لا يعلمها أحد غيري ـ وقيل معناه: على علم عندي يعني لفضل علمي فكنت أهلاً لما أعطيته، وكان أقرأهم للتوراة ـ والمعنى: فضلني اللّٰه تعالى عليكم بهذا المال لفضلي عليكم بالعلم، وقيل يعني: علم الكيمياء ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ﴾ معناه: أولم يعلم هذا المسكين الذي قد أعجبته نفسه، وما ملك من الدنيا، يعني قارون، أن اللّٰه قد أهلك بالعذاب من قبله من القرون في الدنيا حين كذبوا برسله من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً للمال والخدم والحشم ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ معناه: لا يسأل المجرمون عن ذنوبهم في الآخرة فإنهم يعرفون بسيماهم ـ قال قتادة: إنهم يدخلون النار بغير حساب وأما قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢﴾[1] فإنهم يسألون سؤال تقريع وتوبيخ ـ كما قال الحسن في معنى هذه الآية إنهم لا يسألون سؤال الاختبار ليعلم ذلك من قبلهم وإنما يسألون سؤال التوبيخ والمناقشة[2] ـ قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ﴾ قال السدي: خرج في جواد أبيض على سرج من ذهب على قطن أرجوان على بغال بيض عليهم ثياب حمر وحلي من ذهب ـ وقال مقاتل: خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب عليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس على الخيل عليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلاثمائة جارية على بغال شهب سروجهن الذهب ولباسهن أرجوان أحمر عليهن الحلي والحلل[3] ـ وقال ابن زيد: خرج في سبعين ألفاً عليهم المعصفرات ـ وهذا معنى قول الحسن في ثياب جعفر ـ قال الزجاج: الأرجوان في اللغة: صبغ أحمر فرؤي أنه كان

(1) سورة الحجر 5، الآية: 92.
(2) البغوي في تفسيره، 4: 356.
(3) البغوي نفسه.

عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر[1] قال: وكان ذلك أول يوم رؤيت المعصفرات ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي قال مؤمنو أهل ذلك الزمان لما رأوا تلك الزينة والجمال ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ من المال ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي ذو نصيب وافر من الدنيا، وكان الذين تمنوا هذه الأمنية العوام الذين يرغبون في الدنيا ويتمنونها.

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ (82)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي قال العلماء العاملون الراغبون في الآخرة للذين تمنوا مثل ما أوتي قارون: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي ارتدعوا عن مقالكم فإن ثواب الله في الآخرة خير لمن آمن بالله وعمل صالحاً، وقام بالفرائض خير مما أعطي قارون في الدنيا، وخير من الدنيا وما فيها ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ أي لا يؤتى الأعمال الصالحة يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ ـ وقال الكلبي: لا يعطاها في الآخرة إلا الصابرون على ما أمر الله تعالى يعني الجنة، يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ ـ قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أي فخسفنا بقارون وقصره الذي بناه عقوبة له على كفره، وذلك أنه لما أضاف النعم التي أعطاه الله إياها إلى فعل نفسه وعلمه، ولم ينسبها إلى تسهيل الله ذلك عليه صار كافراً بنعم الله، وقيل في سبب خسفه أنه لما حسد موسى وهارون دعا امرأة ذات جمال معروفة بالفجور، وجعل لها

(1) معاني القرآن وإعرابه، 4: 156.

ألف درهم، وقيل: ألف مثقال، وقال لها: إني أخلطك بنسائي على أن تقذفي موسى بنفسك غداً إذا حضر بنو إسرائيل، وتدعي أنه راودك عن نفسك فأجابت قارون إلى ذلك. فلما كان من الغد جمع قارون بني إسرائيل ثم أتى موسى فقال: إن بني إسرائيل قد اجتمعوا ينتظرون خروجك لتأمرهم وتنهاهم، فخرج موسى، فقام فيهم يعظهم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، وقال: يا بني إسرائيل من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، ومن زنى وله امرأة رجمناه حتى يموت ـ قال له قارون: وإن كنت أنت، قال: وإن كنت أنا، قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فقال موسى: ادعوها، فدعوها وقد ألهمها اللّه التوبة والتوفيق، فقالت في نفسها لأن أحدث اليوم توبة خير من أن أوذي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فجاؤوا بها وقد عقدوا مجلساً استحضر فيه قارون الخاص والعام فقال قارون للمرأة: ما تقولين؟ قالت: يا ويلاه قد عملت كل فاحشة وما بقي إلا أن أفتري على نبي اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأنا أبرأ إلى اللّه من ذلك، ثم أخرجت خريطتين مملوءتين دراهم، وعليهما خاتم قارون، فقالت: يا أيها الملأ إن قارون أعطاني هاتين الخريطتين على أن آتي جماعتكم، فأزعم أن موسى راودني عن نفسي، ومعاذ اللّه أن أفتري على نبي اللّه، وأنا أبرأ إلى اللّه من ذلك، وهذه دراهمه، وعليها خاتمه، فعرف بنو إسرائيل خاتم قارون، فافتضح قارون بين أولئك القوم، وغضب موسى عليه السلام، فخر ساجداً يبكي وهو يقول: إن كنت رسولك فاغضب لي؟[1]

فأوحى اللّه إليه: إني قد أمرت الأرض أن تطيعك فمرها بما شئت، فقال موسى عليه السلام: يا أرض خذيه فأخذته إلى ركبتيه، فناشده بالرحم، فقال: يا أرض خذيه، فأخذته حتى غيبت حقويه[2] فتضرع إلى موسى، وناشده بالرحم، فلم يسمع تضرعه، فقال: يا أرض خذيه، فأخذته حتى غيبته فروي أنه

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 141.
البغوي في تفسيره، 4: 359.

(2) تثنية «حَقْو» وهو معقد الإزار.

استغاث بموسى، وناشده سبعين مرة، فلم يلتفت موسى إلى ذلك، فأوحى اللَّه إلى موسى: ما أفضك، وأغلظك، استغاث بك قارون سبعين مرة فلم ترحمه، ولم تغثه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته، ولو دعاني لوجدني قريباً مجيباً ـ واختلفوا في أي وقت خسف بداره؟ قال بعضهم: إنه خسف بها معه، وقال بعضهم: لما خسف بقارون قالت بنو إسرائيل: إن موسى أراد أن يأخذ دار قارون وأمواله وكنوزه، فدعا اللَّه موسى، فخسف بداره، وأمواله بعدما خسف بقارون بثلاثة أيام ـ قال قتادة: وذكر لنا أن قارون يتجلجل في الأرض هو وداره، وماله كل يوم قامة لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة[1] ـ قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ما كان له من جند وجماعة يمنعونه من عذاب اللَّه، ﴿وَمَا كَانَ﴾ هو ﴿مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿81﴾﴾ أي وما كان من الممتنعين عما نزل به من الخسف ـ قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي أصبح الذين تمنوا مكانه وماله بالأمس حين رأوه في زينته يتندمون على ذلك التمني ـ يقول بعضهم لبعض بعدما خسف به: ويك، هذه كلمة تنبيه، ومعناها: أما ترون ـ وقال مجاهد: وسبيلها سبيل: أما تعلم ـ ويحكى أن امرأة من العرب قال لها زوجها: أين ابنك؟ قالت له: ويكأنه وراء هذا البيت ـ يعني أما ترى أنه وراء هذا البيت[2] ـ وذهب بعض النحويين إلى أن قول الرجل: ويكأنه بمنزلة: ويلك أعلم ـ وقال الخليل ويونس: وي: مفصولة من كأن ووي، كلمة تندم وتنبيه، وكأن في هذا الموضع بمعنى الظن أو العلم ـ كأنهم لما رأوا الخسف تكلموا على قدر علمهم، وقالوا: كان اللَّه يبسط الرزق لمن يشاء لا لكرامته عليه، ويضيق على من يشاء لا لهوانه عليه ـ قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ أي لولا أن منَّ اللَّه علينا بالعافية والرحمة والإيمان

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 145.
البغوي في تفسيره، 4: 361.

(2) القرطبي في تفسيره، 13: 318.
النحاس في إعراب القرآن، 3: 244.
الفراء في معاني القرآن، 2: 312.

لخسف بنا ـ وقرأ يعقوب، وحفص: لخسف، بفتح الخاء والسين[1] أي لخسف الله بنا ـ وقوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي أما ترى أنه لا يسعد من كفر بالله.

قال الله تعالى:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
(83) مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (84) إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّىٓ
أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (85) وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ
ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ (86) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ
ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
(88)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ المراد بالدار الآخرة الجنة نجعلها للذين لا يريدون علواً على خلقي في الأرض، ولم يتكبروا كما تكبر قارون ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ أي ولا دعاء إلى عبادة غير الله، وقيل ولا فساداً: ولا عملاً بالمعاصي، وقيل: هو أخذ المال بغير حق. قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي العاقبة الحميدة لمن اتقى عقاب الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، وقيل للذين يتقون الكفر والعلو والفساد ـ وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه قال: يحشر المتكبرون يوم القيامة كالذر في صورة الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، يسلكون في النار، ويسقون من طينة الخبال ـ قيل: وما طينة الخبال؟ قال: عصارة أهل[2] النار ـ والمراد بالمتكبر أن يكون التكبر لأمر يرجع إلى الدنيا، فأما ما يكون من ذلك

---

(1) ابن الجزري في النشر في القراءات العشر، 2: 342.
(2) أخرجه البيهقي في الشعب، 6: 288، رقم 8185 مع بعض الاختلاف.

لإزالة المنكر، وإقامة حق من حقوق اللَّه فلا يكون ذلك من التكبر في شيء، وإنما هو تمسك بالدين ـ قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ قد تقدم تفسيره ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿84﴾﴾ أي ومن جاء بالسيئة فلا يزاد في عقوبته أكثر مما يستحقه ـ والمعنى: إن الذين أشركوا يجزون بما كانوا يعملون من الشرك وجزاؤهم النار ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ معناه: إن الذي فرض عليك العمل بالقرآن لرادك إلى بلدك يعني مكة، فإن معاد الرجل بلده، وقيل معناه: إن الذي فرض عليك القرآن أي أنزل عليك القرآن ـ وقال الزجاج: فرض عليك العمل بما يوجبه القرآن(1) تقدير الكلام فرض عليك أحكام القرآن، وفرائض القرآن، لرادك إلى معاد يعني مكة ـ قال مقاتل: خرج النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى الغار ليلاً ثم هاجر من وجهه ذلك إلى المدينة، فسافر في غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع إلى الطريق، فنزل بالجحفة بين مكة والمدينة، وعرف الطريق إلى مكة، فاشتاق إليها وذكر مولده ومولد آبائه، فأتاه جبريل، فقال له: أتشتاق إلى بلدك ومولدك؟ قال: نعم. قال جبريل: فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يعني مكة ظاهراً عليها، فنزلت الآية بالجحفة فليست بمكية ولا مدنية(2).

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا جواب كفار مكة لما قالوا للنبي صلى اللَّه عليه وسلم: إنك في ضلال، فقال اللَّه: قل لهم: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ يعني النبي صلى اللَّه عليه وسلم ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يعني المشركين، والمعنى: إن اللَّه قد علم أني جئت بالهدى، وإنكم لفي ضلال مبين ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ معناه: ما كنت يا محمد ترجو أن يوحى إليك القرآن، وأنك تكون نبياً تتلو على أهل مكة قصص الأولين إلا أن ربك رحمك وأراد بك الخير، فأوحى إليك الكتاب، وأكرمك بالنبوة نعمة منه عليك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ

---

(1) معاني القرآن وإعرابه، 4: 157.
(2) القرطبي في تفسيره، 13: 321.

ظَهِيرًا﴾ أي عوناً للكافرين على دينهم وذلك حين دعوه إلى دين آبائه، فذكّره اللَّه النعمة، ونهاه على مظاهرتهم على ما كانوا عليه، وأمره بالتحرز منهم - قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ أي لا يصرفنك عن العمل بآيات اللَّه بعد إذ أنزلت إليك ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي إلى طاعته - ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال ابن عباس: الخطاب للنبي صلى اللَّه عليه وسلم والمراد به أهل دينه، أي لا تظاهروا الكفار ولا توافقوهم[(1)] - قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي لا تعبد أحداً سوى اللَّه ولا تدع الخلق إلى أحد دون اللَّه - وقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود سواه - وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي إلا هو، وانتصب قوله: ﴿وَجْهَهُۥ﴾ على الاستثناء كأنه قال: إلا إياه، وقال عطاء معناه: كل شيء هالك إلا ما أريد به وجهه، وكل عمل لغيره فهو هالك إلا ما كان له - وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ أي الفصل بين الخلائق دون غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة نجزيكم بأعمالكم.

---

(1) البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»، 4: 363.

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ② وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ③ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ④ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ⑤ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ⑥﴾.

قال أبو بكر: سورة العنكبوت ـ وهي تسع وستون آية، وألف وتسعمائة وواحد وثمانون كلمة، وأربعة آلاف ومائة وخمسة وتسعون حرفاً، كلها مكية ـ وعن أبي بن كعب قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين**»[1].

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ـ ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ②﴾ ـ قد تقدم تفسير الٓمٓ، فمن جعل الحروف التي هي أوائل السور قسماً احتمل أن يكون جواب القسم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ واحتمل أن يكون: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ لفظه استخبار ومعناه التوبيخ، والتقدير كأنه قال: أظنوا أن يقنع منهم بأن يقولوا: آمنا فقط ولا يمتحنون بالأوامر، والنواهي، والتكليف، ولا يختبرون بما يعلم به صدق إيمانهم. قال الحسن رضي اللَّه عنه: سبب نزول هذه الآية أنه لما أصيب المسلمون يوم أحد وكانت الكرة عليهم عيرهم اليهود، والنصارى بذلك فشق ذلك على المسلمين فأنزل اللَّه هذه الآية. قال السدي وقتادة ومجاهد

---

(1) ذكره الثعلبي بسنده عن أبي بن كعب ـ خ ـ.
والزمخشري في تفسيره الكشاف، 3: 213.

معناه: أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يبتلون في أموالهم وأنفسهم بالقتل والتعذيب. وقال مقاتل: نزلت هذه الآية في مِهْجَع بن صالح[1] مولى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وكان أول قتيل من المسلمين يوم بدر رماه عامر بن الحضرمي بسهم فقتله. فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**سيد الشهداء مِهْجع، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة من هذه الأمة**» فجزع عليه أبواه وامرأته فأنزل اللّه فيهم هذه الآية[2]، وأخبر أنه لا بد لهم من البلاء والمشقة في ذات اللّه. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ فيه تسلية للمؤمنين معناه: ولقد امتحنا الذين من قبلهم فيعلمن اللّه الصادق بوقوع صدقه منه بالصبر على ما يؤمر به، والكاذب بوقوع كذبه منه بالجزع والمخالفة في القتال الذي يؤمر به. فاللّه تعالى قد علم الصادق من الكاذب قبل أن يخلقهما، ولكن القصد من الآية قصد وقوع العلم بما يجازى عليه لأن علم الشهادة هو الذي يجب به الجزاء، فأما علم الغيب قبل وقوعه فلا يجب به الجزاء. وقال ابن عباس في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ منهم إبراهيم الخليل عليه السلام ابتلي بالنمروذ، ومنهم قوم من بعده نشروا بالمناشير على دين اللّه فلم يرجعوا عنه، وقال بعضهم: يعني بني إسرائيل ابتلوا بفرعون، وكان يسومهم سوء العذاب[3]. قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ④﴾ معناه: أظنّ الذين يعملون السيئات يعني الشرك. قال ابن عباس: يعني الوليد بن المغيرة، وأبا جهل، والأسود، والعاص بن هشام، وغيرهم. أن يسبقونا أي أن يفوتونا ويعجزونا، ساء ما يحكمون أي بئس ما حكموا لأنفسهم حين ظنوا ذلك، وقيل: إن هذه الآية نزلت في عتبة بن ربيعة، وأخيه شيبة، وفي الوليد بن عتبة وهم الذين بارزوا علياً، وحمزة، وعبيدة بن الحارث: يوم بدر، فقتلوا على أيديهم يومئذ[4] ـ قوله تعالى: ﴿مَن

---

(1) النسخة، س ـ عبد اللّه.
(2) ذكره القرطبي في تفسيره، 13: 324.
والواحدي في أسباب النزول، ص 282.
(3) البغوي في تفسيره، 4: 365.
(4) القرطبي في تفسيره، 13: 326.

كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي من كان يطمح في الثواب، ويخشى العقاب، ويخاف الحساب فليبادر إلى طاعة الله قبل الموت، فإن أجل الموت لآت لمن يرجو، ولمن لا يرجو، وإن ثواب العمل الصالح لقريب، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالة الكفار والمؤمنين ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿5﴾﴾ بما يستحقه كل واحد منهم، وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية قال: «**يا علي، يا فاطمة إن الله قد أنزل** ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ﴾ **وإن حقيقة رجاء لقاء الله: أن يستعد الإنسان لأجل الله إذا كان آتياً باتباع طاعته، واجتناب معاصيه**». قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ أي من عمل الخير فإنما يعمل لنفسه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عن أعمالهم وعباداتهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بالإيمان، والتوبة، ومعنى ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ أي لنبطلنها حتى كأنها لم تعمل ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي يجزيهم بأحسن أعمالهم وهي الطاعة، ولا يجزيهم بمساوىء أعمالهم.

قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿7﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿8﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿9﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿10﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿11﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ نزلت هذه الآية في سعد بن أبي وقاص وكان باراً بأمه، فلما أسلم قالت له أمه حنة بنت أبي سفيان بن أمية: يا سعد بلغني أنك قد صبأت فوالله لا يظلني سقف بيت، وإن الطعام والشراب علي حرام حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، فأبى سعد عليها، وبقيت هي لا تأكل ولا تشرب، ولا تستظل بشيء فمكثت يوماً وليلة لا تأكل فأصبحت قد جهدت، ثم مكثت أيضاً يوماً وليلة أخرى لا تأكل،

وقالت: يا سعد لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيّر بي، فيقال: يا قاتل أمه، فقال سعد: واللَّه يا أمه لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت أن تأكلي، وإن شئت فلا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت، فأنزل اللَّه هذه الآية[1]، ومعناها: ووصينا الإنسان بالبر والإحسان إلى والديه، وقلنا له: وإن طلبا منك أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما، فإن طاعتهما في الإشراك والمعصية ليس من باب الحسن بل هي قبيحة: قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[2] قوله تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي إلي متقلبكم في الآخرة فأخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الخير والشر، والبر، والعقوق. واختلف النحاة في نصب قوله: ﴿حُسْنًا﴾ فقال البصريون: بنزع الخافض تقديره: ووصينا الإنسان بالحسن ـ كما يقال: وصيته خيراً، أي بخير، وقال الكوفيون معناه: ووصينا الإنسان أن يفعل حسناً، فحذفه لدلالة الكلام عليه وقيل: هو مثل قوله تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾[3] أي يمسح مسحاً، وقيل معناه: ألزمناه حسناً وقرأ أبو رجاء: حَسَناً بفتح الحاء والسين ـ وفي[4] مصحف أبيّ: إحساناً. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾ أي في زمرة الأنبياء، والأولياء وقيل: خواص أصحاب محمد صلى اللَّه عليه وسلم ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ ـ روي أن هذه الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة ـ كان أسلم مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وكان يخاف على نفسه من أمه وأخويه لأمه وهما: أبو جهل، والحارث. فخرج عياش بعدما أظهر إسلامه هارباً إلى المدينة قبل هجرة النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وبلغ أمه الخبر، فجزعت جزعاً شديداً، وامتنعت عن الطعام والشراب، فخرج أخواه، وقومه في طلبه، فأخذوه،

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 15: 185.
القرطبي في تفسيره، 13: 328، وأسباب النزول للواحدي، ص 282.
البغوي في تفسيره، 4: 366.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، 5: 66، من حديث ابن الصامت.

(3) سورة ص 38، الآية: 33.

(4) القرطبي نفسه.

وقيدوه، وحلفت أمه أسماء بنت مخرمة بن أبي جندل: باللَّه لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم، ثم أقبلت تجلده بالسياط، وتعذبه حتى كفر جزعاً من الضرب، فأنزل اللَّه هذه الآية[1]. قال مقاتل والكلبي: لما هاجر عياش إلى المدينة خوفاً من أمه وأخويه حلفت أمه أسماء بنت مخرمة بن أبي جندل: أن لا تأكل ولا تشرب ولا تغسل رأسها، ولا تدخل بيتاً حتى يرجع إليها ابنها، فلما رأى ابناها أبو جهل والحارث ابنا هشام وهما أخوا عياش لأمه جزعها ركبا في طلبه حتى أتيا المدينة فلقياه، فقال له أبو جهل: قد علمت أنك أحب إلى أمك من جميع أولادها، وكنت باراً بها، وقد حلفت لا تأكل، ولا تشرب، ولا تدخل كناً حتى ترجع إليها، وأنت تزعم أن في دينك بر الوالدين فارجع إليها، فإن ربك الذي تعبده بالمدينة هو ربك بمكة فاعبده بها، فلم يزالا به حتى أخذ عليهما المواثيق أن لا يحركاه، ولا يصرفاه عن دينه، فأعطياه المواثيق، فتبعهما، فلما خرجا به من المدينة أخذاه وأوثقاه، وضربه كل واحد منهما مائة جلدة حتى تبرأ من دين محمد صلى اللَّه عليه وسلم جزعاً من الضرب، وكان الحارث أشدهما عليه، وأسوأهما قولاً فيه، فحلف عياش باللَّه لئن قدر عليه ليضربن عنقه، فلما رجعوا إلى مكة مكثوا حيناً، ثم هاجر النبي صلى اللَّه عليه وسلم، والمؤمنون إلى المدينة، فهاجر عياش وأسلم، وحسن إسلامه، ثم إن اللَّه تعالى وفق الحارث بن هشام، فهاجر إلى المدينة، وتابع النبي صلى اللَّه عليه وسلم على الإسلام ولم يحضر عياش، فلقيه عياش يوماً بظهر قباء ولم يعلم بإسلامه، فضرب عنقه يظن أنه كافراً فقيل له: إنه قد أسلم، فندم، واسترجع وبكى ثم أتى النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فأخبره بذلك، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾[2] الآية، ومعنى الآية: ومن الناس من يقول آمنا باللَّه، فإذا عذب في طاعة اللَّه جعل تعذيب الناس كتعذيب اللَّه، فأطاع الناس خوفاً منهم كما يطيع اللَّه من خاف عذابه ـ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
وكذا القرطبي في تفسيره، 13: 330.
(2) سورة النساء 4، الآية: 92.

مَعَكُمْۚ﴾ أي إذا جاء فتح من ربك ليقولن إنا كنا معكم وهذه صفة المنافقين. يقول اللّه تعالى: ﴿أَوَ لَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي بما في قلوب الخلق من الطمأنينة بالإيمان، والانشراح بالكفر ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي ليجزين اللّه المؤمنين، وليميزنّ المنافقين.

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (12) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (13) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ (14) فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ (15)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ معناه: قال كفار مكة أبو جهل وغيره لمن آمن من قريش، واتبع محمداً صلى اللّه عليه وسلم: اتبعوا ديننا، وملة آبائنا ونحن الكفلاء بكل تبعة تصيبكم من اللّه في ذلك، ونحمل عنكم خطاياكم إن كان عليكم فيه إثم ووزر، فنحن نحمله عنكم. قال الفراء قوله تعالى: ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ لفظه لفظ أمر ومعناه الجزاء[1] أي إن اتبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما ضمنوا من حمل خطاياهم ولا يخففون العذاب عنهم ـ قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ﴾ معناه: أوزاراً مع أوزارهم، وذلك أنهم يعاقبون على كفرهم، وعلى دعاء غيرهم إلى الكفر وهذا موافق لقوله صلى اللّه عليه وسلم: «**من سنّ سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**[2] **لا ينقص من أوزارهم شيء**» ـ ومعنى الآية: وليحملن أوزارهم التي عملوها، وأوزاراً مع أوزارهم بقولهم للمؤمنين ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾

---

(1) معاني القرآن، 2: 314.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 2: 705، من حديث جرير.

وهذا لقوله: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿13﴾﴾ أراد به سؤال توبيخ لا سؤال استعلام يقال لهم: هل كان عندكم من الغيب شيء إذ قلتم إنكم تحملون أوزار غيركم - قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ﴾ أي مكث بين أظهرهم يدعوهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يجبه إلى الإيمان منهم إلا قليل وقد أهلك اللّه المكذبين بالطوفان وهو الغرق ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي مشركون. وفي الحديث أن نوحاً عليه السلام أرسل إليهم بعدما أتى عليه مائتان وخمسون سنة، وعاش بعد الطوفان مائتان وخمسون سنة[2]، وعرف طوفاناً: لأن الماء في ذلك اليوم طاف في جميع الأرض - قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ أي أنجيناه من الغرق ومن كان معه من المؤمنين في السفينة ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي جعلنا السفينة عبرة لمن يكفر من الناس، إن عصوا رسولهم فعلنا بهم مثل ذلك.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿16﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿17﴾ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿18﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿19﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿20﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿21﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿22﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ انتصب إبراهيم عطفاً على

---

(1) سورة النحل 16، الآية: 25.
(2) ذكره القرطبي في تفسيره، 13: 323، من حديث أنس.

نوح معناه: وأرسلنا إبراهيم أيضاً ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي وحدوه وأطيعوه واخشوه ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي عبادة اللَّه خير لكم من عبادة الأوثان ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك ـ قوله تعالى: ﴿تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا﴾ أي أصناماً تتخذونها من الحجارة والخشب ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي وتخترعون للَّه كذباً في قولكم إنها آلهة، ويجوز أن يكون معنى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي تتخذون أصناماً ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي إن الذين تعبدون من الأصنام لا يقدرون أن يرزقوكم ـ قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي اطلبوا الرزق مني فأنا القادر على ذلك ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي اعبدوا من رزقكم واشكروا من ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ يعني كذبوا أنبياءهم كما كذبتم نبيكم فأهلكهم اللَّه تعالى ـ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي ما عليه إلا تبليغ الرسالة عن اللَّه تعالى بلغة الذين أرسل إليهم ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ معناه: أولم يعلم ويعتبر أهل مكة كيف يبدىء اللَّه الخلق في أرحام الأمهات من النطفة، ثم من العلقة، ثم من المضغة إلى تمام الخلق ثم يميته، ثم يعيده بعد الموت للبعث خلقاً جديداً ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن بدء الخلق، وإعادته هين على اللَّه فإن القادر على الاختراع من غير دال على مثال قادر على الإعادة، وكانوا يقرّون بأن اللَّه هو الذي خلقهم ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ أي سافروا في الأرض وابحثوا، فانظروا هل تجدون خالقاً غير اللَّه؟ واعتبروا كيف خلق اللَّه من قبلكم ثم أهلكهم بعد ذلك ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي ثم إن لبث الخلق ثانية يوم القيامة إن اللَّه على كل شيء من الإحياء، والإماتة قادر ـ قرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن: النشاءة بالمد وقرأ الباقون النشأة بإسكان الشين والقصر وهما لغتان[1] قوله: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يعذب من يشاء من كان أهلاً للتعذيب ويرحم من يشاء من كان أهلاً للرحمة ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي تردون في الآخرة ـ قوله

(1) كتاب السبعة في القراءات، ص 498.
إعراب القراءات السبع وعللها، 2: 183.

تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾ أي ما أنتم يا أهل مكة بفائتين من عذاب اللَّه هرباً في الأرض ولا في السماء ولا تغترّوا بالإمهال ويجوز أن يكون معناه: ولا من في السماء بمعجز أي ما أنتم يا كفار مكة بفائتي اللَّه في الأرض أو في السماء كنتم أينما تكونوا يأت بكم فيجزيكم بأعمالكم السيئة ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ﴾ أمركم وحفظكم ﴿وَلَا نَصِيرٖ﴾ يمنع العذاب عنكم.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ
أَلِيمٞ (23) فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ
ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (24) وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ
بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم
بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (25) فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ
إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (26) وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ
ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (27)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ أي الذين كفروا بمحمد، والقرآن، والبعث بعد الموت ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أي من جنتي في الآخرة باعتقاد أنها لا تقع لهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ـ قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ بالنار أي اقذفوه في النار فأنجاه اللَّه من النار سالماً، وجعلها عليه برداً، وسلاماً، ولم تحرق منه إلا وثاقه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ باللَّه، ورسوله ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ أي قال إبراهيم إن ما عبدتم من دون اللَّه أوثاناً هي ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ أي تلك مودة بينكم والمعنى أن ألفتكم واجتماعكم على الأصنام ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ ثم تنقطع عن قريب وتنقلب تلك المودة عداوة بعد الموت يتبرأ بعضكم من بعض، ويلعن العابد المعبود وكذلك يلعن العابدون بعضهم بعضاً، ويكون مصيرهم في الآخرة إلى النار، وما لكم من مانع يمنعكم

من عذاب اللّه ويجوز أن يكون ـ ما ـ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم﴾ بمعنى الذي كأنه قال: إن الذي اتخذتموه من دون اللّه أوثاناً مودة بينكم ما دمتم في الحياة الدنيا، فتكون مودة رفعاً لأنها خبر إن. وقرأ حمزة وحفص: مودة، بالنصب، بينكم بالخفض على الإضافة بوقوع الاتخاذ عليه، وجعل إنما حرفاً واحداً ـ وقرأ الباقون: مودة نصباً منوناً، بينكم بالنصب على أنه مفعول أيضاً[1]. ومعناه: اتخذتم هذه الأوثان مودة بينكم تتوادون وتتحابون على عبادتها وتتواصلون عليها ـ قوله تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾ أي صدور لوط بإبراهيم وهو أول من صدق به، وقال إبراهيم ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي إلى الموضع الذي أمرني ربي بالهجرة إليه، وكان مأموراً بالهجرة من كوثي وهو سواد العراق إلى الشام، وقيل إن كوثي من سواد[2] الكوفة فهاجر إبراهيم ومعه لوط وهو ابن أخيه وامرأته سارة ـ قال مقاتل: هاجر إبراهيم وهو ابن خمس وسبعين سنة قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي المنتقم ممن عصاه الحكيم فيما حكم علينا من الهجرة ـ قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ أي لإبراهيم إسحاق من امرأته سارة ويعقوب ابن ابنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ وذلك أن اللّه لم يبعث نبياً بعد إبراهيم إلا من صلبه ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي جعلنا التوراة، والإنجيل، والقرآن في ولده ـ وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أراد به الثناء الحسن، وموالاة جميع الأمم إياه لأن جميع أهل الأديان يحبونه، وقال السدي: إنه أري مكانه في الجنة ثم أعلم اللّه أن له مع ما أعطاه في الدنيا الدرجات العلى بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أمر أنه في الآخرة مع آبائه المرسلين في الجنة مثل آدم، ونوح.

قال اللّه تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ (28) أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ

---

(1) الكشف عن وجوه القراءات، 2: 178.
النحاس إعراب القرآن، 3: 254.
(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿29﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿30﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ
إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿31﴾
قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ
مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿32﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا
تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿33﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أي وأرسلنا لوطاً بالنبوة إذ قال لقومه ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ يعني عملهم الخبيث الذي لم يكن يعمله أحد قبلهم ـ وقوله تعالى: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وذلك أنهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن مرَّ بهم من المسافرين فلما فعلوا ذلك شاع الخبر، فترك الناس المرور بهم، وانقطع السبيل ـ وقوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ النادي المجلس والمتحدث، أي تأتون في مجالسكم الفسق ـ قيل: إنهم كانوا يفعل بعضهم ببعض الفاحشة في المجالس، وقيل: إنهم كانوا يصفقون بأيديهم ويصفرون بأفواههم ـ وقال القاسم بن محمد: هو أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ويضربون بالعود، والمزامير، ويلعبون بالحمام[1] ـ وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ قال مجاهد: كان يجامع بعضهم بعضاً في المجالس وسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن المنكر الذي كانوا يأتونه قوم لوط؟ فقال: «**كانوا يجلسون وعند كل رجل منهم قصعة حصى فإذا مرّ بهم عابر سبيل حذفوه، فأيهم أصابه كان أولى به**[2] ـ **قال صلى اللّه عليه وسلم: إياكم والحذف فإنه لا ينكى العدو، ولا يصيب الصيد، ولكن يفقأ العين، ويكسر السن**»[3] ـ فلما أنكر لوط على قومه ما كانوا يفعلونه من القبائح

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 373.
(2) البغوي نفسه، والقرطبي في تفسيره، 13: 342.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري، 11: 29 ـ 5479 من حديث ابن مغفل كتاب الذبائح والصيد.
أخرجه مسلم بشرح النووي، 13: 105 من حديث ابن مغفل.

قالوا له استهزاء: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أن العذاب نازل بنا فعند ذلك قال لوط عليه السلام: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ أو انصرني بتحقيق قولي في العذاب على القوم المفسدين العاصين. فاستجاب الله دعاءه، وبعث جبريل ومعه الملائكة لتعذيب قومه ـ وهو قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ أي بالبشرى بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ يعنون سدوم قرية لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ بالشرك والعمل الخبيث. قال إبراهيم: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فكيف تهلكونهم؟ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ وأهل دينه وابنتيه ـ زعوراء وريثا ـ إلا امرأته ـ واغلة ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي من الباقين في المهلكين.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (34)
وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (35) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ
يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ
فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ
لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا
مُسْتَبْصِرِينَ (38)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ أي ساءه مجيئهم خوفاً عليهم من قومه لأنهم جاؤوه على هيئة الغلمان ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي ضاق عليه الأمر بسببهم ـ فقالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ منهم، ومنجو أهلك[1] ـ قال المبرد: الكاف في منجوك مخفوضة ولم يجز عطف الظاهر على المضمر المخفوض فجعل الثاني على المعنى فصار التقدير وننجي أهلك أو منجون أهلك ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي عذاباً بالحجارة، وقيل: الخسف، والحصب ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

---

(1) أبو البقاء العُكبري: التبيان في إعراب القرآن، 2: 254.
النحاس في إعراب القرآن، 3: 255.

أي بسبب فسقهم ـ يروى أن تلك القرية كانت مشتملة على سبعمائة ألف رجل ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ يعني آثار منازلهم الخربة وهي ترك ديارهم منكوسة عظة وعبرة للناس، وأظهر اللّه فيها ماء أسود منتناً يتأذى الناس برائحته وقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي يتفكرون فيما فعل اللّه بهم فلا يفعلون مثل فعلهم ـ قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيباً ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ أي واخشوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تسعوا في الأرض بالفساد، فكذبوه في الرسالة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي ميتين باركين على ركبهم ـ قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمودا ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجر واليمن آية في هلاكهم حيث يمرون بها ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ القبيحة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي فصرفهم عن طريق الحق ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي عقلاء يمكنهم تمييز الحق من الباطل، ويقال: معجبين بضلالهم يرون أنهم على الحق ولم يكونوا كذلك والمعنى أنهم كانوا عند أنفسهم مستبصرين فيما عملوا من الضلالة يحسبون أنهم على هدى.

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿39﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿40﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿41﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿42﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿43﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿44﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿45﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ﴾ أي وأهلكنا قارون وفرعون وهامان بعدما جاءهم موسى بالمعجزات فتعظموا عن الإيمان به ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَـٰبِقِينَ﴾ أي لم يكونوا فائتين من عذاب اللّه ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ أي كل هؤلاء القوم الذين ذكرناهم عاقبناهم بذنوبهم ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ يعني الحجارة وهم قوم لوط، وقيل: الحاصب: الريح التي تأتي بالحصباء وهي الحصى الصغار ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهم قوم صالح، وشعيب ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ يعني قارون، وأصحابه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ يعني قوم نوح، وقوم فرعون ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بإهلاكه إياهم ﴿وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر، والمعاصي. قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ يعني الأصنام يتخذونها أولياء يرجون نصرها ونفعها كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وبيتها لا يغنيها عن الحر والبرد والمطر، كذلك آلهتهم لا ترزقهم شيئاً ولا تملك لهم ضراً ولا نفعاً ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ أي لا بيت أضعف منه مما يتخذه الهوام ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أن اتخاذهم الأولياء سوى اللّه كاتخاذ العنكبوت بيتاً في قلة النفع ما اتخذوهم أولياء ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ قرأ أبو عمرو: يدعون، بالياء لذكر الأمم قبلها ـ وقرأ الباقون: بالتاء[1] ـ ومعنى الآية: إنه عالم بما عبدتموه من دونه فهو يجازيكم على كفركم ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ يعني أمثال القرآن ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نبينها للناس ـ قال مقاتل يعني: كفار مكة، وما يعقل الأمثال إلا العالمون أي العلماء ـ قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي للحق وإظهار الحق أن في خلقها ﴿لَـَٔايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لدلالة على قدرة اللّه، وتوحيده.

قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي اقرأ عليهم يا محمد ما أنزل إليك من القرآن، وأقم الصلوات الخمس في مواقيتها

---

(1) الكشف عن وجوه القراءات السبع، 2: 179.

بشرائطها، وسننها ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وذلك أن في الصلاة تكبيراً، وتسبيحاً، وقراءة، ووقوفاً للعبادة على وجه الذل والخشوع، وكل ذلك يدعو إلى شكله، ويصرف عن ضده فهو كالآمر، والناهي بالقول ـ والفحشاء: ما قبح من العمل، والمنكر: ما لا يعرف في شريعة ولا سنة ـ قال ابن عباس: في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله فمن لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد من الله إلا بعداً[1] ـ وعن أنس رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من اللَّه إلا بعداً**»[2] ـ قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ولذكر اللَّه إياكم بالتوفيق والمغفرة والثواب أكبر من ذكركم إياه بالطاعة، وقيل: ذكر اللَّه في المنع من الفحشاء والمنكر أكبر من الصلاة، ويجوز أن يكون أكبر في معنى الكبير في الجزاء والثواب كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[3] قالت الحكماء: ذكر اللَّه للعبد أكبر من ذكر العبد للَّه لأن ذكر اللَّه للعبد على حد الاستغناء، وذكر العبد إياه على حد الافتقار، ولأن ذكر العبد لجر نفع أو وقع ضر، وذكر اللَّه للعبد للفضل والكرم، ولأن ذكر العبد مخلوق، وذكر اللَّه غير مخلوق ـ وقال صلى اللَّه عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي ذكر اللَّه على كل حال أحسن، وأفضل، والذكر: أن تذكره عند ما حرم فتدع ما حرم، وعند ما أحل فتأخذ ما أحل. وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**من أحب أن يرتفع في رياض الجنة فليكثر من ذكر اللَّه تعالى**»[4] ـ وقال أبو الدرداء: ألا أخبركم بخير أعمالكم، وأحبها إلى مليككم، وأتمها في درجاتكم، وخير لكم من أن تغزوا عدوكم، وتضربوا رقابهم، وخير لكم من إعطاء الدنانير والدراهم، قالوا: وما هو؟ قال: ذكر اللَّه عز[5] وجل. قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾. وقال

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 188 ـ 189.

(2) ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة، 1: 14 ـ 15. وقال: إنما صح من قول ابن مسعود، والحسن البصري.

(3) سورة البقرة 2، الآية: 45.

(4) رواه البيهقي في الشعب، 1: 598 رقم 529. فصل في إدامة ذكر اللَّه.

(5) ذكره الطبري في تفسيره، 19: 191 ـ 21167.

معاذ بن جبل: سألت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أي الأعمال أحب إلى اللَّه تعالى؟ قال: «**أن تموت ولسانك رطب من ذكر اللَّه عز وجل**»[1] ـ وقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما من قوم جلسوا في مجلس يذكرون اللَّه فيه إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، وذكرهم اللَّه فيمن عنده**»[2] ـ وروي أن رجلاً أعتق أربع رقاب، وقال آخر: سبحان اللَّه والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر، ثم إن الذي لم يعتق سأل حبيب بن أوفى وأصحابه فقال: ما تقولون فيمن أعتق أربع رقاب، وأنا قلت: سبحان اللَّه والحمد للَّه ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر فأيهما أفضل؟ فنظروا هنيهة، فقالوا: ما نعلم شيئاً أفضل من ذكر اللَّه ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ أي ما تعملون من الخير والشر لا يخفى عليه شيء.

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (46) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ (47) وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (48) بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (49)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي لا تخاصموا أهل الكتاب إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي أن تعظوهم بالقرآن على وجه النصح لهم والاستمالة إلى دين الإسلام، وتعظيم اللَّه وطلب ثوابه ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي إلا من ظلم من أهل الكتاب فمنع الجزية أو نقض العهد، وعاد حرباً لكم فجاوبوهم باللسان، والسنان، وأغلظوا عليهم حتى يسلموا، أو

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، 1: 393 ـ 516، والمنذري في الترغيب، 2: 395.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 17: 22. فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر. وأخرجه البيهقي في الشعب، 1: 398 ـ 530، فضل في إدامة ذكر اللَّه.

يعطوا الجزية، وقولوا لمن قبل الجزية منهم إذا أخبروكم بشيء من كتبهم ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ أي آمنا بالقرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي مخلصون بالعبادة والتوحيد وهذه صفة المجادلة الحسنة ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ أي أنزلنا إليك يا محمد القرآن كما أنزلنا إليهم الكتب ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ أي الذين أكرمناهم بعلم التوراة وهم عبد اللّه بن سلام، وأصحابه يؤمنون بالقرآن بدلالة التوراة ـ وقوله تعالى: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ أراد به كفار مكة ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ يعني من يسلم منهم ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿47﴾﴾ أي ما يجحد بمحمد والقرآن بعد المعرفة إلا الكافرون، أي ما يجحد من اليهود وذلك أنهم عرفوا أن محمداً نبي، والقرآن حق فجحدوا، وأنكروا ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ أي ما كنت يا محمد تقرأ من قبل القرآن من كتاب أي ما كنت قارئاً قبل الوحي ولا كاتباً ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ أي ولا تكتبه بيمينك، ولو كنت تقرؤه وتكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى التشكيك في أمرك والارتياب في نبوتك، فيقولون: إنه يقرؤه من الكتب الماضية، فلما كان معلوماً عندهم أنه عليه السلام كان لا يقرأ ولا يكتب ثم أتى بالقرآن الذي عجزوا عن الإتيان بسورة مثله دلهم ذلك على أنه من عند اللّه، ولأنه كان صفته في التوراة والإنجيل أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولو كنت قارئاً كاتباً لشك اليهود فيك، وقالوا: إن الذي نجده في التوراة أميّ لا يقرأ ولا يكتب ـ قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾ قال الحسن: يعني القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم يعني المؤمنين[1] الذين حملوا القرآن على عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وحملوه بعد ـ وقال مقاتل: بل هو يعني محمداً صلى اللّه عليه وسلم ـ آيات بينات أي ذو آيات بينات في صدور أهل العلم من أهل الكتاب لأنهم يجدونه بنعته وصفته[2] ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿49﴾﴾ يعني كفار اليهود.

---

(1) تفسير الطبري، 20: 9، 21199، بلفظه تقريباً.
(2) تفسير البغوي، 4: 381.

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ (50) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (51) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ
(52) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
(53) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ (54) يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن
فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (55)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي قال كفار مكة هلاّ أنزل على محمد آية من ربه كما كانت الأنبياء تجيء بها إلى قومهم أرادوا بها الآيات التي كانوا يقترحونها عليه من قولهم ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾[1] الآية ـ قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف آية على التوحيد ـ وقرأ الباقون: آيات، بالجمع[2] ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكم اللّه إن شاء أنزلها ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي رسول مخوف لكم بلغة تعرفونها، وليس إنزال الآيات بيدي ـ وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ يعني أولم يكن لهم كفاية في معرفة نبوتك؟ أنا أنزلنا عليك القرآن الذي تقرؤه عليهم بلغتهم مما فيه من أخبار الأمم الماضية مع عجزهم عن الإتيان بحديث مثله ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ أي في إنزال القرآن لرحمة لمن آمن به، وعمل بما فيه ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي وذكرى وموعظة لهم ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ أي قل لهم يا محمد كفى باللّه شاهداً بأني رسول اللّه إليكم ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي صدقوا بالأصنام وجحدوا وحدانية اللّه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ بالعقوبة وفوت

(1) سورة الإسراء 17، الآية: 90.
(2) الكشف عن وجوه القراءات السبع، 2: 179، وكتاب السبعة في القراءات، ص 501.

المثوبة ـ قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ أي يستعجلك كفار مكة بالعذاب قبل وقته استهزاء أو تكذيباً منهم بذلك ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لولا أن اللّه جعل لعذابه أجلاً قد سماه وهو يوم القيامة، وقيل: يعني مدة أعمارهم لأنهم إذا ماتوا صاروا إلى العذاب لعجل لهم العذاب في الحال ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه ـ قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿54﴾﴾ فيه تعجيب باستعجالهم العذاب مع أن جهنم محيطة بهم في الآخرة جامعة لهم في يوم ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ فلا يبقى جزء منهم إلا وهو معذب في النار، ويقال لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون. قرأ الكوفيون ونافع: ويقول، بالياء يعني الموكل بعذابهم يقول لهم ذلك، وقرأ الباقون بالنون[1]، لأنه لما كان بأمره سبحانه جاز أن ينسب إليه.

قال اللّه تعالى:

﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿56﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿57﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿58﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿59﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ قال مقاتل: نزلت في ضعفاء مكة[2] يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها، أمروا بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة اللّه، وكذلك يجب على كل من كان في بلد يعمل فيها بالمعاصي، ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له أن يعبد اللّه حق عبادته. ثم خوفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة فقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿57﴾﴾ أي كل أحد ميت أينما كان فلا تقيموا بدار الشرك خوفاً من الموت ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بعد الموت فنجزيكم بأعمالكم ـ وقال سعيد بن جبير معنى الآية: إذا عمل في أرض

---

(1) الكشف نفسه، وكتاب السبعة نفسه.

(2) البغوي في تفسيره، 4: 383، والقرطبي في تفسيره، 13: 357.

بالمعاصي فاخرجوا منها، فإن أرضي واسعة[1]. وقال عطاء: إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا منها فإن أرضي واسعة[2]. وقال مجاهد: إن أرضي واسعة فهاجروا وجاهدوا. وقال الكلبي: نزلت في المستضعفين من المؤمنين الذين كانوا بمكة لا يقدرون على إظهار الإيمان، وعبادة الرحمٰن فحثهم على الهجرة إلى المدينة فشق عليهم، وقالوا: كيف يكون حالنا إذا انتقلنا إلى دار الغربة، وليس بها أحد يعرفنا فيواسينا، ولا نعرف وجوه الاكتساب فيها، فقطع اللّٰه عذرهم بهذه الآيات؟ ومعناها: إن أرض المدينة واسعة آمنة، وواسعة أي رزقي لكم فيها واسع فاخرجوا من هذه الأرض التي أنتم فيها. وعن الحسن قال: قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: «**من فر بدينه من أرض إلى أرض، وإن كان شبراً من الأرض استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم، ومحمد**»[3] عليهما السلام. ثم ذكر اللّٰه ثواب من هاجر فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعني المهاجرين ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ قال ابن عباس: ليسكننهم غرف الدر، والزبرجد، والياقوت، ولنبوئنهم قصور الجنة ـ وقرأ حمزة والكسائي: لنبوينهم[4] ـ يقال: تبوأ الرجل إذا أقام، وبوأته إذا أنزلته منزلاً يقيم فيه، والمعنى والذين آمنوا وعملوا الصالحات لننزلنهم من الجنة غرفاً عوالى تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ للّٰه ثم وصفهم فقال: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي على دينهم فلم يتركوه لشدة لحقتهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن المهاجرين توكلوا على اللّٰه، وتركوا دورهم وأموالهم. وقيل معناه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في أرزاقهم وجهاد أعدائهم، ومهمات أمورهم. قال مقاتل: إن أحدهم كان يقول بمكة: كيف أهاجر إلى المدينة، وليس لي بها مال ولا معيشة؟ فقال اللّٰه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾.

(1) البغوي نفسه، والقرطبي نفسه.
(2) البغوي نفسه، والقرطبي نفسه.
(3) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ، والزمخشري في تفسيره، 3: 210.
(4) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 502.

قال اللّه تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿60﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿61﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿62﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿63﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أي كم من دابة في الأرض: وهي كل حيوان يدب على الأرض مما يعقل، ومما لا يعقل والمعنى: كم من نفس دابة لا تحمل رزقها أي لا ترفع رزقها معها، ولا تدخر شيئاً لغد يرزقها حيثما توجهت، وإياكم يرزقكم إن خرجتم إلى المدينة، وإن لم يكن لكم زاد ولا نفقة. قال سفيان[1]: وليس مما يخبئ، ويدخر إلا الإنسان، والفأرة، والنملة، والغراب على ما قيل، وقيل إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال للمؤمنين الذين كانوا بمكة، وقد أذاهم المشركون: «**اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ولا تجاوروا الظلمة فيها**»، فقالوا: يا رسول اللّه كيف نخرج إلى المدينة وليس لنا فيها عقار، ولا مال، فمن يطعمنا، ويسقينا؟ فأنزل اللّه هذه الآية[2] ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ﴾ يوماً بيوم أي يرزق من يحمل ومن لا يحمل فكم من دابة لا تجمع رزقها لغد، ولا تقدر على حمل رزقها لضعفها ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوالهم: نخشى إن فارقنا أوطاننا العيلة[3]، العليم بما في قلوبهم ونفوسهم، فلا تتركوا عبادة اللّه بسبب الرزق، ولا تهتموا لأجل ذلك. قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ يعني لئن سألت مشركي مكة: من خلق السمٰوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن اللّه فأنى يؤفكون، أي يصرفون

---

(1) ابن عيينة، ذكره الزمخشري في الكشاف، 3: 211.
(2) الثعلبي في تفسيره، الكشف والبيان ـ خ ـ.
(3) العيلة: الفقر والحاجة.

عن عبادة اللّه الذي هذه صفته إلى عبادتهم جمادات لا تضر ولا تنفع. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ﴾ أي يبسط الرزق على قوم ويضيقه على قوم يفعل ذلك عن علم وحكمة لا عن غلط وخطأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ يعني كفار مكة أيضاً ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي أحمد اللّه على إقرارهم لأن ذلك يلزمهم الحجة، ويوجب عليهم التوحيد، وقيل معناه: الحمد للّه على هذه النعم، وعلى ما تفضل به جل ذكره من الإنعام على العباد ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ توحيد ربهم مع إقرارهم بأنه خلق السمٰوات والأرض، وأنزل المطر.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (64) فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (65) لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (66) أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (68) وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ (69)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي باطل وغرور وعبث ينقضي عن قريب بسرعة ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾، يعني الجنة هي الحيوان أي الحياة، والدوام، والبقاء الذي لا نفاد له والحيوان والحياة واحد ـ وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون الفرق بين الحياة الدائمة والحياة الفانية لرغبوا في الباقي الدائم عن الفاني الزائل ولكنهم لا يعلمون. قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يعني المشركين إذا ركبوا في السفينة، وهاجت الرياح، واضطربت الأمواج وخافوا الغرق والهلاك دعوا اللّه مخلصين له الدين أي دعوا اللّه مفردين له بالدعاء، وتركوا شركاءهم وأصنامهم فلا يدعونهم لإنجائهم ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ أي

فلما خلصهم من تلك الأهوال، وأخرجهم إلى البر عادوا إلى شركهم لكي يكفروا بما أعطيناهم ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ في كفرهم ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاء فعلهم. قال عكرمة: كان أهل الجاهلية إذا ركبوا في البحر حملوا معهم الأصنام فإذا اشتدت بهم الريح ألقوا تلك الأصنام في البحر، وصاحوا يا اللَّه[1] يا اللَّه. وقيل إن اللام في قوله: ﴿لِيَكْفُرُواْ﴾ لام الأمر ومعناها التهديد والوعيد كقوله: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾[2] ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾[3] ولذلك عقبه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ أي ألم يرَ كفار مكة أنا جعلنا حرماً آمناً يعني مكة، ويسلب الناس من حولهم فيقتلون ويؤسرون وتؤخذ أموالهم وأهل مكة آمنون من ذلك ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي فيقرون ويصدقون بالباطل وهي الأصنام بعد قيام الحجة ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي بمحمد والإسلام يجحدون. والتخطف: هو تناول الشيء بسرعة. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥ﴾ أي لا أحد أظلم ممن زعم أن للَّه شريكاً وكذب بالحق لما جاءه يعني محمداً والقرآن ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أما لهذا الكافر المكذب مأوى في جهنم وهو استفهام ومعناه التقرير. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي الذين جاهدوا الكفار لابتغاء مرضاتنا لنهدينهم سبل الشهادة والمغفرة. وقال الفضيل معناه: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به. وقال أبو سليمان الداراني[4] معناه: الذين يعملون بما يعلمون يهديهم اللَّه إلى ما لا يعلمون[5]. وعن ابن عباس أن معناه: والذين جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا[6]. وقيل معناه: والذين جاهدوا بالصبر على المصائب والنوائب لنهدينهم سبل الوصول إلى المواهب، وقيل معناه: والذين جاهدوا بالثبات على الإيمان

---

(1) البغوي في تفسيره، 4.
(2) سورة فصلت 41، الآية: 40.
(3) سورة الإسراء 17، الآية: 64.
(4) أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني، وداران قرية من قرى دمشق توفي سنة خمس عشرة ومائتين هجرية، الرسالة القشيرية، 1: 96.
(5) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
(6) تفسير القرطبي، 13: 365، بلفظه.

لنهدينهم سبل الجنان وقال سهل بن عبد اللَّه: والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سبل دخول الجنة[1] ـ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي بالنصر على أعدائهم والمعونة في دنياهم، والثواب والمغفرة في عقباهم. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المؤمنين والمنافقين**»[2].

---

(1) الثعلبي نفسه.
(2) الزمخشري في تفسيره، 3: 213.

سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال اللَّه تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾.

قال أبو بكر: سورة الروم مكية وهي ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة وثلاثون حرفاً، وثمانمائة وتسع عشرة كلمة، وستون آية. وقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح بين السماء والأرض**»[1].

بسم اللَّه الرحمن الرحيم ـ ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ أي غلبت فارس الروم، ففرح بذلك كفار مكة، وقالوا: الذين ليس لهم كتاب غلبوا الذين لهم كتاب وافتخروا على المسلمين، وقالوا لهم: نحن أيضاً نغلبكم كما غلبت فارس الروم، وقصة ذلك أن كسرى ملك فارس أرسل «شهريار» إلى الروم، فسار إليهم بأهل فارس ليغزوهم، فظهر على الروم فقتلهم وخرب مدائنهم، وكان قيصر ملك الروم قد بعث بجيش لما سمع قدوم شهريار، فالتقيا بأذرعات، وبصرى، وهي أدنى أرض الشام إلى أرض العرب، فغلبت فارس الروم حتى انتزعوا بيت المقدس من الروم، وكان ذلك موضع عبادتهم، فبلغ ذلك النبي صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه بمكة فشق ذلك عليهم، وكان النبي صلى اللَّه عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من

---

(1) الزمخشري في تفسيره، 3: 228، والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح بذلك كفار مكة وشمتوا فلقوا أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الروم وإنكم إن قابلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل اللَّه عز وجل هذه الآيات[1] ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ فخرج أبو بكر رضي اللَّه عنه إلى الكفار، وقال: أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا فلا تفرحوا ولا يقر اللَّه أعينكم فواللَّه لتظهرن الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا، فقام إليه أبي بن خلف الجمحي وقال له: كذبت. فقال له أبو بكر: أنت أكذب يا عدو اللَّه. فقال أبي بن خلف: كما غلبت عبدة النيران أهل الكتاب، فكذلك نحن نغلبكم. فاستبعد المشركون ظهور الروم على فارس لشدة شوكة أهل فارس، فقال أبو بكر لأبي بن خلف: أنا أراهنك على أن الروم تغلب أهل فارس إلى ثلاث سنين، فراهنه أبي على خمس من الإبل، وقيل عشر من الإبل فإن ظهرت الروم على فارس غرمت أنت، وإن ظهرت فارس غرمت أنا، ثم جاء أبو بكر إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فأخبره بذلك، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**زد في الخطر**[2]**، وأبعد في الأجل**»، ففعل ذلك، وجعل الأجل تسع سنين، وكان ذلك قبل تحريم القمار. روي أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال لأبي بكر: «**إنما البضع ما بين الثلاث إلى التسع، فزايده في الخطر وماده في الأجل**»، فخرج أبو بكر فلقي أبيا، فقال: لعلك ندمت قال: لأزايدك في الخطر، وأمادّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين قال: قد فعلت[3]. فلما خشي أبي بن خلف أن يخرج أبو بكر من مكة أتاه فلزمه وقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأقم لي كفيلاً وامضِ فكفل له ابنه عبد اللَّه بن أبي بكر فلما أراد أبي بن خلف أن يخرج إلى أحد أتاه عبد اللَّه بن أبي بكر فلزمه، وقال لا واللَّه لا أدعك حتى تعطيني كفيلاً، فأعطاه كفيلاً ومضى إلى أحد، ثم رجع فمات بمكة من جراحته التي جرحه

---

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 285.
(2) الخطر (بالتحريك): الرهن: وما يخاطر عليه.
(3) الطبري في تفسيره، 19: 23 ـ 2127.

النبي صلى اللَّه عليه وسلم حين بارزه وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية وذلك عند رأس تسع سنين من مراهنتهم وهذا قول أكثر المفسرين[1]. وقال أبو سعيد الخدري ومقاتل: لما كان يوم بدر قتلت المسلمون كفار مكة، وأتاهم الخبر أن الروم قد غلبت فارس ففرح المسلمون بذلك، وغلب أبو بكر رضي اللَّه عنه أبيا، وأخذ مال الخطر من ورثته، وجاء به إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فقال له النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**تصدق به**». ومعنى الآية: غلبت الروم في أدنى الأرض يعني الجزيرة وهي أقرب أرض الروم إلى فارس ـ وقال عكرمة: يعني أذرعات وكسكر[2] وقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾ يعني الروم من بعد غلبة فارس إياهم ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ فارس ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ وهو ما بين الثلاث إلى العشر، فالتقى الروم وفارس في السنة السابعة من غلبة فارس إياهم فغلبتهم الروم، فجاء جبريل إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم بهزيمة فارس وظهور الروم عليهم، ووافق ذلك يوم بدر قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ أي من أن غلبت الروم ومن ما غلبت يعني أن غلبة أحد الفريقين الآخر أيهما كان الغالب أو المغلوب فإن ذلك كان بأمر اللَّه، وإرادته، وقضائه، وقدرته. وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ يعني يوم يغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بنصر اللَّه تعالى الروم على فارس ويكون فرح المؤمنين يومئذ لظهور معجزة النبي صلى اللَّه عليه وسلم وإهلاك بعض الكفار بعضاً كما يفرح الصالحون بقتل الظالمين بعضهم بعضاً.. وقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي ينصر محمداً صلى اللَّه عليه وسلم على أعدائه ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي هو العزيز بالنقمة ممن عصاه، الرحيم بأوليائه وهم المؤمنون.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 388.

(2) البغوي نفسه.

الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ
(8) أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ
ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9) ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (10)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ نصب على المصدر أي وعد اللّه ذلك وعداً وهو راجع إلى قوله تعالى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ أي وعد اللّه ذلك وعداً لا يخلف اللّه وعده بظهور الروم على فارس ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني كفار مكة لا يعلمون أن اللّه لا يخلف وعده لأن أكثرهم كفار. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني معايشهم وما يصلحهم. قال الحسن: يعلمون متى زرعهم، ومتى حصادهم، ويعلمون وجوه الاكتساب من التجارة، والزراعة، والفراسة، وما يحتاجون إليه في الشتاء والصيف. قال الحسن: بلغ واللّه من علم أحدهم بالدنيا أنه ينقد الدرهم بيده فيخبرك بوزنه ولا يحسن يصلي[1]. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ أي مع علمهم بأمور الدنيا لا يعلمون ما طريقة الدليل من أمر الآخرة، وما يكون فيها من البعث والثواب والعقاب ﴿فَهُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ عن ما هو أولى لهم وعما يلزمهم من الاستعداد لذلك. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ﴾ أي في خلق اللّه إياهم فيعلموا أن اللّه لم يخلق السمٰوات والأرض إلا بالحق أي إلا للحق ـ ومعنى الآية: أولم يتفكر أهل مكة بقلوبهم فيعلموا أن اللّه ما خلق السمٰوات والأرض بما فيهما من العجائب والبدائع إلا ليحق الحق، ويبطل الباطل، ويجزي كل عامل بما عمل عند انقضاء الأجل المسمى الذي جعله اللّه لانقضاء أمر السمٰوات والأرض وهو يوم القيامة ـ. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني كفار مكة ﴿بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ﴾ أي بالبعث ﴿لَكَـٰفِرُونَ (8)﴾ ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أولم يسافروا في الأرض ﴿فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ﴾ صار أمر الذين من

---

(1) ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز» 12: 245، والقرطبي في تفسيره، 14: 8.

قبلهم من الأمم حين كذبوا الرسل إلى الهلاك بتكذيبهم فيعتبروا، ثم وصف تلك الأمم فقال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي حرثوها وقلبوها للزراعة والغرس وعمروها هم أكثر مما عمرها كفار مكة لأنهم كانوا أطول عمراً وأكثر عدداً، فلم يبق منهم ولا من عمارتهم أثر، فكذلك يكون حال هؤلاء. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾ بإهلاكهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بالكفر والتكذيب. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ثم صار آخر أمر الذين أساؤوا بالكفر والمعاصي السوأى، يعني العذاب والنار بسبب تكذيبهم واستهزائهم بآيات اللّه ـ قال الفراء والزجاج: السوأى: ضد الحسنى وهي الجنة، وضدها النار[1]، وقال ابن قتيبة: السوأى ـ جهنم والحسنى الجنة وإنما سميت سوأى لأنها تسوء صاحبها.

قال اللّه تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿11﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿12﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿13﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿14﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿15﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿16﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أي يخلقه من النطفة، ثم يحييه بعدما أماته ثم إلى موضع حسابه وجزائه ترجعون فيجزيهم بأعمالهم ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿12﴾﴾ أي ييأس المجرمون من رحمة اللّه، ومن كل خير حين عاينوا العذاب، وقال الفراء: ينقطع كلامهم وحجتهم[2]، وقيل معنى: يبلس: أي يفتضح، وقيل معناه:

---

(1) الفراء في معاني القرآن، 2: 322.
الزجاج معاني القرآن وإعرابه، 4: 179.
(2) معاني القرآن، 2: 322.

يندمون، وقيل المبلس: الساكت المنقطع من حجته الآيس من أن يهتدي إليها. قال الشاعر[1]:

يا صاح هل تعرف رسماً مُكْرَسا ∴ قال نعَمْ أعْرِفُه وأبْلَسَا[2]

والمجرمون: هم المشركون. قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾ أي لم يكن للكفار ممن أشركوه في العبادة شفعاء يشفعون لهم إلى اللّه ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي يتبرؤون منها، ويتبرؤون منهم ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿14﴾﴾ أي واذكر يوم تقوم الساعة يومئذ يتفرق الخلائق في طريق الجنة، وطريق النار، وقيل معناه: يوم القيامة يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار فلا يجتمعون أبداً، وقال الحسن: إن كانوا اجتمعوا في الدنيا ليتفرقن يوم القيامة، هؤلاء في عليين وهؤلاء في أسفل سافلين. وهو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿15﴾﴾ أي في الجنة ينعّمون، ويكرمون بالتحف ويسترّون ـ والحبرة: السرور، وقيل الحبرة: كل نعمة حسنة، والتحبير: التحسين. وسمي العالم حبراً: لتخلقه بأحسن أخلاق المؤمنين. وسمي المداد حبراً: لأنه يحسن به الأوراق. وقيل معنى الآية: فهم في رياض الجنة يتلذذون قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي وكذبوا بالبعث بعد الموت ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ أي يحضرون في العذاب ويحبسون.

قال اللّه تعالى:

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿17﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

(1) أبو الشعثاء عبد اللّه بن رؤبة بن لبيد السعدي التميمي العجّاج، راجز مجيد من الشعراء، ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها وأسلم، وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك، وهو والد «رؤبة» الراجز المشهور له ديوان مطبوع توفي سنة تسعين هجرية. الأعلام، 4: 86. الشعر والشعراء، 230.

(2) البيت من الرجز للعجّاج، ديوانه، ص 31.
ومجاز القرآن لأبي عبيدة، 2: 120.
والرسم المكرس: هو الذي بعرت فيه الإبل وبولت، فركب بعضه بعضاً.
وأبلس الرجل: انقطعت حجته وسكت، وأبلس من رحمة اللّه: يئس وندم.

وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿18﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿19﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿20﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿21﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿17﴾﴾ أي فصلوا للّه على تأويل فسبحوا للّه. قال ابن عباس: جمعت هذه الآية الصلوات الخمس، ومواقيتها فوقت المساء يصلى فيه المغرب، والعشاء ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ صلاة الفجر، ﴿وَعَشِيًّا﴾ العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: الظهر[1]. قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي يحمده أهل السمٰوات وأهل الأرض، ويصلون له ويسجدون ـ وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**من قال:** ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿17﴾﴾ **إلى قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ **وآخر سورة الصافات**[2]**، دبر كل صلاة كتب اللّه له من الحسنات عدد نجوم السماء، وقطر المطر وعدد ورق الشجر، وعدد نبات الأرض، وإذا مات أجرى اللّه له بكل حسنة عشر حسنات في قبره**[3]. **وقال صلى اللّه عليه وسلم: من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل:** ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿17﴾﴾ **إلى قوله تعالى:** ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾﴾ **إلى آخر السورة**»[4]، قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي الإنسان الحي من النطفة الميتة، ويخرج النطفة وهي ميتة من الإنسان الحي، ويقال يخرج الفرخ من البيضة والبيضة من الفرخ ﴿وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ﴾ بإخراج الزروع منها ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي بعد أن كانت لا تنبت ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم يوم القيامة إلى المحشر، فإن بعثكم بمنزلة ابتداء خلقكم وهما في

---

(1) الطبري في تفسيره، 21: 36، دار الفكر، بيروت، 1995م.

(2) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿180﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿181﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿182﴾﴾.

(3) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

(4) الزمخشري في تفسيره، 3: 217.

القدرة مستويان ـ قرأ حمزة: تخرجون، بفتح التاء[1]. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي من دلائل قدرته، وعلامات توحيده ﴿أَنْ خَلَقَ﴾ أصلكم من تراب يعني آدم ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ أي ثم إذا أنتم من لحم ودم تنتشرون أي تتفرقون في حوائجكم وتنبسطون في الأرض. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ أي من علامات توحيده وقدرته أن خلق لكم من جنسكم نساء تطمئنوا إليها ولم يجعلهن من الجن ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي جعل بين الزوجين مودة ورحمة فهما يتراحمان ويتوادان، وما من شيء أحب إلى أحد منهما من الآخر من غير رحم بينهما حتى إن كثيراً من الناس يهجر عشيرته بسبب زوجته وكذلك من النساء من تهجر عشيرتها بسبب زوج. والمعنى: من دلالة توحيد اللَّه وقدرته أن خلق لكم من نطف الرجال ذكوراً، وإناثاً ليسكن الذكور إلى الإناث والنطف على صفة واحدة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في عظمة اللَّه تعالى وقدرته.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿22﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿23﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿24﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿25﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَـٰنِتُونَ ﴿26﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿27﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي ومن علامات توحيده

---

(1) كتاب السبعة في القراءات، 506.

خلق السمٰوات والأرض بما فيهما من العجائب، واختلاف لغاتكم وأصواتكم وصوركم وألوانكم لأن الخلق بين عربي وعجمي وأسود وأحمر وأبيض وهم ولد رجل واحد وامرأة واحدة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ أي للبر والفاجر والإنس والجن. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي ومن آياته كيفية نومكم، وكيف يغلب عليكم ومن أين يأتيكم، وكيف يزول عنكم فتطلبون معيشتكم. وقوله تعالى: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ تقديره وابتغاؤكم من فضله بالنهار يعني تصرفكم في طلب المعيشة بالنهار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ القرآن سماع الاستدلال والاعتبار والتدبر. قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً للمسافر من الصواعق، وطمعاً للمقيم في المطر، وسقي الزرع ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في البرق وإنزال المطر وإحياء الأرض بعد قحطها ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني من غير عمد تحتها ولا علاقة فوقها بقدرة اللّه وتسكينه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي ثم إذا دعاكم من القبور عند النفخة الثانية يدعو إسرافيل بأمره من صخرة بيت المقدس: أيتها الأجساد البالية، والعروق المتمزقة، والشعور المترطبة ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ من قبوركم مهطعين إلى الداعي. قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي هم له عبيد أو ملك ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي كل له مطيعون في الحياة والبقاء والموت والبعث وإن عصوا في العبادة فهم منقادون للّه عز وجل لا يقدرون على الامتناع من شيء يراد بهم من صحة، ومرض، وغناء وفقر، وحياة، وموت. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق من النطفة ثم يميته فيصيره تراباً كما كان ثم يبعثه في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي الإعادة هينة عليه وما شيء عليه بعسير، وقد يذكر لفظ أفعل بمعنى فعيل ـ كقوله: اللّه أكبر، بمعنى كبير، وكذلك ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي هيِّن عليه. قال معن بن أوس[1]:

---

(1) معن بن أوس المزني، وهو شاعر مخضرم مجيد متين الكلام حسن الديباجة له مدائح في صحابة الرسول صلى اللّه عليه وسلم. وله ديوان شعر مطبوع توفي سنة أربع وستين هجرية، ولكمال مصطفى «معن بن أوس» رغبة الآجل، 5: 190، الأعلام، 7: 273.

لَعَمْرُكَ ما أدري وإني لأوجَلُ ∴ على أيِّنا تعدو المنية أول[1]

يريد بقوله لأوجل ـ أي لوَجِل ـ وقال الفرزدق:

إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا ∴ بيتاً دعائمه أعز وأطول[2]

أي عزيزة طويلة. وإنما قيل على هذا التأويل لأنه لا يجوز أن يكون بعض الأشياء على الله تعالى أهون من بعض. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي له الصفة العليا، وهي القدرة التي لا يجرى عليها العجز ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي القاهر لكل شيء الحكيم في جميع أفعاله.

قال الله تعالى:

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28) بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ (29) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي وصف لكم أيها المشركون مثلاً من أنفسكم، وبين لكم ذلك المثل من أنفسكم ثم بينه فقال: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي هل لكم من عبيدكم وإمائكم

---

(1) هذا البيت من الطويل، وهو مطلع لامية «معن بن أوس» التي أنشأها يستعطف بها صديقه وشقيق زوجته الذي غضب عليه بسبب طلاقه لأخته، وهي غاية في الاستعطاف والرقة، وأشار فيها إلى هذا الحادث، شرح المفصل، 4: 87. فقال:

فلا تعجبن أن تستعار ظعينة ∴ وترسل أخرى كل ذلك يفعل

ديوانه، ص 57.

(2) هذا البيت من الكامل وهو مطلع قصيدة للفرزدق يفتخر بها على جرير ويهجوه وقد استخدم صيغتي التفضيل «أعز وأطول» لغير التفضيل لأنه لا يعترف بأن لجرير بيتاً دعائمه عزيزة طويلة حتى تكون دعائم بيته أكثر عزة وأشد طولاً، ولو بقي أعز وأطول على معنى التفضيل لتضمن اعترافه بذلك، ديوانه: 714 كخزانة الأدب، 8: 242، العمدة، 1: 252.

من شركاء فيما رزقناكم من الأموال؟ أي هل يشاركونكم في أموالكم فتكونوا أنتم مع عبيدكم سواء فيما أعطيناكم تخافون عبيدكم أن يقاسموكم في مالكم كما تخافون أبناءكم وأقاربكم أن يرثوكم بعدكم، أو تخافوا لائمة عبيدكم إذا لم تعطوهم حقهم كما تخافون لائمة بعضكم بعضاً من الأقارب والشركاء إذا لم تؤدوا حقهم إليهم؟ قالوا: لا. فقال لهم: أفترضون للَّه تعالى ما لا ترضون لأنفسكم؟ تشركون عبيد اللَّه في ملكه، وقد خلقهم، ولا تشركون عبيدكم فيما رزقكم اللَّه وأنتم لم تخلقوهم، وتجعلون الخوف من عبيد اللَّه كالخوف من اللَّه إذ تعبدونهم كعبادته؟ وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي هكذا نبين الآيات: واحدة بعد واحدة ليكون ذلك أقرب إلى الفهم، وأوقع في القلب، ومعنى أنفسكم هاهنا: أمثالكم من الأحرار كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾[1] ومعنى الآية: كيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركاء وأنتم وهم عبيدي، وأنا مالككم جميعاً، فكما لا يجوز استواء المملوك مع سيده كذلك لا يجوز استواء المخلوق مع خالقه؟ قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ليس لهم في الإشراك شبهة من حيث الحجة ولكنهم يشركون باللَّه بناء على الجهل، وهوى النفس ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ أي لا هادي لمن أضله اللَّه ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي ما لهم من مانعين من عذاب اللَّه ـ قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي فأقم يا محمد على دين الإسلام ـ وقوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين سوى الإسلام. وقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ أي اتبع دين اللَّه، والفطرة: الملة وهي الإسلام والتوحيد ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي التي خلق اللَّه المؤمنين عليها. وقد ورد في الحديث: «**كل مولود يولد على الفطرة**»[2]، إلى آخر الحديث. وانتصب قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ على الإغراء، وقيل على معنى: اتبع فطرة اللَّه. وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ أي التغيير لدين اللَّه الذي أمر الناس بالثبات عليه، وهو نفي معناه النهي أي لا تبدلوا دين اللَّه الذي هو التوحيد بالشرك. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ يعني التوحيد هو الدين المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ

---

(1) سورة الحجرات 49، الآية: 11.
(2) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري، 9: 465، 4775 كتاب التفسير.

﴿أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني كفار مكة لا يعلمون أن توحيد اللّه هو دين الإسلام وهو الحق.

قال اللّه تعالى:

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿31﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿32﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿33﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿34﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿35﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿36﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿37﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿38﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي أقيموا وجوهكم راجعين إلى اللّه في كل ما أمركم به لا تخرجون عن شيء من أوامره وهذا لأن الخطاب في أول هذه الآيات للنبي صلى اللّه عليه وسلم بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ والمراد به أمته كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[1] فكأنه قال: أقيموا وجوهكم منيبين إليه أي راجعين إلى أوامره وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي اتقوا مخالفته ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿31﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾
وقرىء (فارقوا دينهم)، أي زايلوا دينهم الذي أمروا بالثبات عليه، ومن قرأ ٦٨
(فرّقوا دينهم)[2] فمعناه: صاروا فرقاً وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي صاروا جماعة كل جماعة اختارت ديناً مثل: اليهود، والنصارى، وسائر الملل كل أهل دين يفرحون بما عندهم من الدين. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أي إذا أصاب الناس شدة وبلية وقحط يعني كفار مكة

(1) سورة الطلاق 65، الآية: 1.

(2) قال ابن الجزري في النشر، 2: 216 واختلفوا في (فرقوا) في الأنعام، والروم فقرأهما حمزة والكسائي (فارقوا) بالألف مع تخفيف الراء، وقرأ الباقون بغير ألف مع التشديد فيهما.

دعوا ربهم لدفع الشدة منيبين إليه أي راجعين إليه منقطعين من الخلق لا يلجأون في شدائدهم إلى أوثانهم، ثم إذا ذهبت عنهم تلك الشدة وأذاقهم منه رحمة أي أعطاهم من عنده المطر ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أي يعودون إلى الشرك لكي يكفروا بما آتيناهم فيبدلوا الشرك كفراً ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي تلذذوا في الدنيا فسوف تعلمون ماذا ينزل بكم. قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾ أي أم أنزلنا على هؤلاء حجة وبرهاناً وكتاباً من السماء فهو يشهد وينطق بأن اللّه أمرهم بما يفعلون، وهذا استفهام إنكار أي ليس الأمر على هذا. قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ أي إذا أعطيناهم نعمة استبشروا بها، وإن تصبهم شدة ومحنة وبلية ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ في الشرك من المعاصي ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ أي إذا هم ييأسون من رحمة اللّه. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي ويضيق إن في البسط والتقتير لآيات دالة على التوحيد ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ أي أعط ذا القربى في الرحم حقه من الصلة والبر وأعط المسكين الذي يطوف على الأبواب حقه أيضاً وهو التصدق عليه، وأعط ابن السبيل النازل بك حقه أي ضيافته يعني أكرم الضيف النازل بك ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي الذي ذكر من الصلة والإعطاء والضيافة ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ رضى اللّه أي إعطاء الخير أفضل من الإمساك ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الفائزون السعداء الباقون في الجنة، ومن أعطى أحداً لا يريد به وجه اللّه ذهب ماله من غير أن يحصل على شيء فلذلك قال: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿39﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿40﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿41﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿42﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي ما تعاطيتم من عقد الربا رجاء أن تزيد أموالكم فلا تزيد في حكم اللّه، وعلى الآخذ أن يرده إلى المأخوذ منه. قال اللّه تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[1] قرأ ابن كثير: أتيتم؛ مقصوراً غير ممدود[2]، وقوله تعالى: ﴿لِّيَرْبُوَاْ﴾ قرأ الحسن ونافع، لتُربوا، بتاء مضمومة، وجزم الواو على الخطاب ـ أي لتربوا ـ أنتم وقرأ الباقون: ليربوا بياء مفتوحة ونصب الواو[3] ـ وجعلوا الفعل للربا وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ أي ما أعطيتم من صدقة تريدون بها رضى اللّه تعالى. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ الذين يضاعف لهم في العاجل والآجل، يقال: رجل مضعف أي ذو إضعاف، كما يقال: رجل مقو أي ذو قوة، وموسر أي صاحب إيسار. وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ الربا هاهنا: هو هبة الرجل لصاحبه يريد أن يثاب أفضل منه[4]. وقال السدي: هو الهدية يهديها الرجل لأخيه يطلب المكافأة، فإن ذلك لا يربو عند اللّه أي لا يؤجر صاحبه عليه، ولا إثم عليه ـ وقال الزجاج: هو دفع الإنسان الشيء ليعوض ما هو أكثر منه. وذلك ليس بحرام ولكنه لا ثواب فيه لأن الذي يهبه يستدعي به ما هو أكثر منه[5]، وإن ما يربو عند اللّه هو العطية التي لا تطلب بها المكافأة ولا يراد بها إلا رضى اللّه تعالى. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ أي خلقكم في بطون أمهاتكم ثم أخرجكم ورزقكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد المـوت ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ أي قحط المطر ونقصت الغلات وذهبت البركة في البر والبحر أي أخذت البر

---

(1) سورة البقرة 2، الآية: 276.

(2) ابن خالويه: إعراب القراءات السبع وعللها، 2: 196.

(3) الكشف عن وجوه القراءات السبع، 2: 184، ابن عطية في تفسيره، 12: 264.

(4) الطبري في تفسيره، 21: 57، 21420.

(5) معاني القرآن وإعرابه، 4: 187.

وانقطعت مادة البحر بما كسبت أيدي الناس أي بشؤم ذنوبهم ومعاصيهم يعني بالناس كفار مكة ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ اللّه بالجوع في السنين السبع يعني ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ أي جزاؤه فيكون عقوبة معجلة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة فيكشف اللّه عنهم الشدة، وفي هذا تنبيه على أن اللّه تعالى إنما يقضي بالجدوبة ونقص الثمرات والنبات لطفاً منه في رجوع الخلق عن المعصية. قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لأهل مكة سافروا في الأرض فانظروا كيف صار آخر أمر ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ أي انظروا إلى ديار عاد وثمود وقوم لوط ليدلكم ذلك على أنه لا ينبغي لأحد أن يكفر باللّه.

قال اللّه تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ
(43) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44) لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ (45) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ
وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (46) وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ (47) ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ
وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ
يَسْتَبْشِرُونَ (48) وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ (49)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ أي أقم قصدك وعملك واجعل جهتك اتباع الدين القيم وهو الإسلام المستقيم الذي لا عوج فيه، واعمل به أنت ومن تبعك ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني يوم القيامة ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يوم القيامة يتفرقون بعد الحساب إلى الجنة والنار[1]. قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي عليه ضرر كفره ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ

---

(1) البغوي في معالم التنزيل، 4: 402.

يَمۡهَدُونَ﴾ أي يوطئون لأنفسهم منازلهم في الجنة ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثوابهم ثم يزيدهم ﴿مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ أي يثيبهم أكثر من أعمالهم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يكرمهم ولا يثيبهم ولا يرضى عنهم. قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ﴾ أي ومن علامات توحيده إرساله الرياح قدام المطر للبشارة بالمطر ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ يعني الغيث والخصب. ﴿وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ﴾ أي السفن تجري في البحر بتلك الرياح بأمره ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أي ولتسلكوا في البحر على السفن للتجارة وطلب الرزق بهذه الرياح ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ هذه النعم فتوحدونه. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي بالدلالات الواضحات فكذبوها ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ﴾ أي عذبنا الذين كذبوهم ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي كان واجباً علينا إنجاء المؤمنين مع الرسل من عذاب الأمم، وفي هذا تبشير للنبي صلى الله عليه وسلم بالظفر والنصر على من كذبه. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ أي تزعجه من حيث هو وذلك أن اللّه يحدث السحاب عقيب الرياح فترفعه الرياح في الهوى ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ﴾ اللّه ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا﴾ أي قطعاً بعضها فوق بعض فترى الودق يعني المطر يخرج من خلاله أي من وسطه إلى قوم دون قوم فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يفرحون بالمطر ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾ المطر آيسين[1] من ذلك كرره للتأكيد والمبلس هو الآيس القانط.

قال اللّه تعالى:

﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿50﴾ وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ
﴿51﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿52﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿53﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا

---

(1) البغوي في المرجع نفسه.
الطبري في تفسيره، 11: 61.

يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ ﴿54﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ﴿55﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وغيره، وآثار الرحمة: هو أنواع النبات الذي ينبت من المطر من بين أخضر وأحمر وغير ذلك من الألوان[1]. وقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ أي كيف يجعل الأرض مخضرة بعد يبسها، إن الذي فعل ذلك هو الذي يحيي الموتى للنشور، فإنه كما يعيد الشجر الذي ظهر يبسه، ويعيد فيه الخضرة والنور والثمرة كذلك يحيي الموتى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من البعث والموت ﴿قَدِيرٞ﴾. قوله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أي ولئن أرسلنا ريحاً حارة أو باردة فأيبست زروعهم، ورأوا الزرع مصفراً بعد خضرته لصاروا من بعد اصفرار النبات يجحدون ما سلف من النعمة يعني أنهم يفرحون عند الخصب وإذا استبطأوا الرزق والمطر جزعوا، فكفروا بالنعم. قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ يعني الكفار، وسماهم موتى لأنهم في تركهم العمل بما يسمعون ويبصرون بمنزلة الموتى، وبمنزلة الأصم الذي لا يسمع، والأعمى الذي لا يبصر، ولذلك قال: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴿52﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ﴾ أي لا تقدر أن تجبرهم على الهدى، وإنما بعثت داعياً ومبلغاً ـ وقوله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي إلا من يصدق كتابنا ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أي هم الذين يستدلون به فهم مخلصون منقادون لأمر الله. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ أي من نطفة ضعيفة في بطون الأمهات، ثم أطفالاً لا تملكون لأنفسكم نفعاً ولا ضراً، ثم جعلكم أقوياء بما أعطاكم من العقل والاستطاعة، والهداية للتصرف في اختلاف المنافع ودفع المضار ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ﴾ الشباب ﴿ضَعۡفٗا﴾ عند الكبر والهرم ﴿وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ من ضعف وقوة وشيبة وشباب ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ أي العليم بخلقه القادر عليهم بتحويلهم من حال إلى حال ـ قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ

(1) الطبري في تفسيره، 11: 66.

ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي يوم تقوم الساعة يحلف المشركون ما لبثوا في القبور غير ساعة واحدة، وقيل: ما لبثوا في الدنيا غير ساعة يستقلون أيام الدنيا في جنب أيام الآخرة ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي هكذا كانوا يكذبون في الدنيا بجهلهم وغفلتهم كما كذبوا في الآخرة.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (56) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (57) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (58) كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (59) فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (60)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أراد بالذين أوتوا العلم الملائكة والأنبياء والمؤمنين يقولون للكفار بعدما أقسموا: لقد لبثتم في القبور فيما كتب اللَّه لكم من اللبث إلى يوم البعث، وقيل في حكم اللَّه، وقيل فيه تقديم وتأخير تقديره: وقال الذين أوتوا العلم في كتاب اللَّه وهم الذين يعلمون كتاب اللَّه. وقوله تعالى: ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ أي اليوم الذي كنتم تنكرونه في الدنيا، وتكذبون به ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوعه في الدنيا، فلا ينفعكم العلم به الآن. قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي اعتذارهم من الذنوب إن اعتذروا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي لا يجابون إلى ما يطلبون من الرجعة إلى الدنيا فإنهم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾[1]. قال ابن عباس: لا يقبل من الذين أشركوا عذر ولا عتاب ولا توبة في ذلك اليوم. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي بينا لهم في القرآن من كل صفة ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ مثل العصا واليد، وبكل حجة ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾

---

(1) سورة السجدة 32، الآية: 12.

أي ما أنتم إلا على الباطل يا محمد وأصحابك. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿59﴾﴾ أي يختم على قلوب الذين لا يعلمون توحيد اللَّه، فكل من لا يعلم توحيد اللَّه فذلك لأجل ما طبع اللَّه على قلبه. قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي اصبر يا محمد على تبليغ الرسالة والوحي وعلى ما يلحقك من أذية الكفار، فإن ما وعد اللَّه من النصر، وإظهار دين الإسلام صدق كأن يأتيك في حينه. والمعنى: فاصبر إن وعد اللَّه حق بنصر دينك وإظهارك على عدوك حق فلا يحملنك تكذيب الكفار الذين لا يستيقنون بأمر اللَّه على الحق وكن حليماً صبوراً وقوراً لا تعجل بالدعاء عليهم فيما يستعجلون من العذاب بقولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[1] ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾[2] ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[3] ـ ومعنى الآية: لا يستخفن رأيك وحلمك يا محمد الذين لا يوقنون بالبعث والحساب.

---

(1) سورة العنكبوت 29، الآية: 29.
(2) سورة النمل 27، الآية: 71.
(3) سورة ص 38، الآية: 16.

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ⑥ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ
يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ⑦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ⑧ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑨﴾.

قال أبو بكر: سورة لقمان مكية. وهي: ألفان ومائة وعشرة أحرف، وخمسمائة وثمان وأربعون كلمة، وأربع وثلاثون آية.

بسم اللّه الرحمن الرحيم. ﴿الٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ②﴾ أي هذه السورة آيات الكتاب المحكم الذي وعدك اللّه أن ينزله عليك. وانتصب ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ على الحال. وقرأ حمزة: بالرفع[1] على الابتداء، وقيل: على إضمار هو ـ قال ابن عباس ومعنى الآية: هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب للموحدين من أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم. وما بعد هذا تقدم تفسيره. قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في النضر بن الحارث[2]، كان قد اشترى كتباً فيها أخبار الأعاجم، ويحدث بها أهل مكة ويتلهى بها في المجالس،

---

(1) كتاب السبعة في القراءات، ص 512.

(2) النضر بن الحارث بن علقمة من قريش، صاحب لواء المشركين ببدر، له اطلاع على كتب الفرس وغيرهم ومن ألد أعداء المسلمين، وآذى الرسول صلى اللّه عليه وسلم مات بعد انصرافهم من غزوة بدر. الكامل لابن الأثير، 2: 26، الأعلام، 8: 33.

ويقول: إن محمداً يحدثكم أحاديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم أحاديث فارس والروم وأقرأ عليكم كما محمد يقرأ عليكم أساطير الأولين، هو يأتيكم بكتاب فيه قصص الأمم الماضية، وأنا أتيت بمثله فكانوا يستملحون حديثه، وكان إذا سمع شيئاً من القرآن يهزأ به ويعرض عنه، فذلك قوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي ليصرف الناس عن دين اللّه بلا علم ومن قرأ: ليضل، بفتح الياء فمعناه: ليتشاغل بما يلهيه، وليصير أمره إلى الضلال والباطل. ومعنى قوله تعالى: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي باطل الحديث هذا قول[1] الكلبي ومقاتل. وقيل المراد بلهو الحديث: الغناء. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**لا يحل تعليم المغنيات، ولا بيعهن، ولا شراؤهن، وثمنهن حرام، والذي نفس محمد بيده ما رفع رجل قط عقيرته يتغنى إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما على ظهره وصدره ومنكبيه حتى يسكت**»[2]. وهذا قول سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن مسعود. قالوا: هو واللّه الغناء، واشتراء المغني والمغنية بالمال. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة**». قيل: وما الروحانيون يا رسول اللّه؟ قال: «**قرأة أهل الجنة**». وعن إبراهيم النخعي أنه قال: الغناء ينبت النفاق في القلب، وقال مكحول: من اشترى جارية ضرابة ليمسكها لغنائها وضربها مقيماً عليها حتى يموت لم أصلِّ عليه. قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي إنه جاهل فيما يفعل لا يفعله عن علم ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ بالرفع عطفاً على ﴿مَن يَشْتَرِي﴾ وبالنصب على ﴿لِيُضِلَّ﴾ والكناية المذكورة تعود إما إلى الآيات المذكورة في أول السورة أي ويتخذ آيات الكتاب هزواً وإما إلى ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. والسبيل: تؤنث كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾[3]. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي أعرض عن قبولها متعظماً عن الإيمان بها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً يمنعه عن السماع. ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي وجع في الدنيا قبل أن يصل إلى الآخرة، وهو ما روي أنه أخذ أسيراً يوم

---

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 287.

(2) البغوي في تفسيره، 4: 407، عن أبي أمامة، والثعلبي في تفسيره.

(3) سورة يوسف 12، الآية: 108.

بدر فقتل صبراً. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ ظاهر المعنى.

قال اللَّه تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ أي جبالاً ثوابت أوتاداً لها لئلا تميد بأهلها ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ أي فرق الدواب الكثيرة في الأرض ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي من كل نوع حسن. وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى﴾ أي هذا الذي ذكرت لكم مما تعاينون خلق اللَّه فأروني أيها الكفار أي شيء خلقه الذين تعبدون من دونه، فلم يجدوا شيئاً يشيرون إليه من خلق غيره، ولم يقدروا على جواب هذا الكلام فقيل ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي الكافرون ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني العقل والعلم والعمل والإصابة في الأمور، واتفق العلماء على أن لقمان كان حكيماً ولم يكن نبياً إلا عكرمة وحده فإنه قال: كان لقمان نبياً[(1)]. وقال بعضهم: خيِّر لقمان بين الحكمة والنبوة فاختار الحكمة. وعن ابن عمر قال: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «**حقاً أقوله: لم يكن لقمان نبياً**[(2)]**، ولكن عبد صمصامة كثير التفكر حسن اليقين أحب اللَّه فأحبه فمن عليه بالحكمة**». وروي أنه كان تتلمذ لألف نبي عليهم السلام، واختلفوا في حرفته فقال الأكثرون: كان نجاراً، ويقال: كان خياطاً، ويقال: كان راعياً.

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 82 ـ 21395.
(2) ابن عطية في تفسيره، 13: 12.

ويروى أنه كان عبداً حبشياً غليظ الشفتين مشقوق الرجلين. وعن أبي هريرة قال: مر رجل بلقمان والناس مجتمعون حوله، وهو يعظهم فقال له: ألست العبد الأسود الذي كنت ترعى الغنم؟ قال: بلى، قال: فما بلغ بك إلى ما أرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني[1]. وعن أنس أن لقمان كان عند داود عليه السلام، وهو يسرد درعاً، فجعل لقمان يتعجب مما يرى، ويريد أن يسأله، فتمنعه حكمته من السؤال، فلما فرغ منها، جعلها عليه، وقال: نعم درع الحرب هذا، ونعم حامله، فقال لقمان: الصمت حكمة وقليل فاعله[2]. وقال عكرمة: كان لقمان من أهون مماليك سيده، فبعثه مولاه مع عبد له إلى بستان لمولاهم يأتونه من ثمره، فجاؤوا وليس معهم شيء، وقد أكلوا الثمرة، وأحالوا على لقمان بذلك فقال لقمان لمولاه: إن ذا الوجهين لا يكون عند اللّه أميناً، فاسقني وإياهم ماء حميماً؟ فسقاهم، فجعلوا يتقيّأون الفاكهة، وجعل لقمان يتقيأ ماء بحتاً، فعرف صدقه وكذبهم. قال: وأول ما روي من حكمته: أنه جاء مع مولاه فدخل المخدع، فأطال الجلوس فيه، فناداه لقمان: إن طول الجلوس على الحاجة ينجع منه الكبد، ويورث الباسور ويصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هوينا، وقم هوينا. قال: فخرج وكتب حكمته على باب الحش. ومعنى الآية: ولقد آتينا لقمان علم التوحيد، والمواعظ، والفقه، والعقل، والإصابة في القول، وألهمناه أن يشكر اللّه على ما أعطاه اللّه من الحكمة. ومعنى قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي قلنا له اشكر للّه فيما أعطاك من الحكمة ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي ومن يشكر نعم اللّه، فإن منفعة شكره راجعة إلى نفسه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ النعم، فلم يوحد ربه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عن شكره ﴿حَمِيدٌ ﴿12﴾﴾ يحمد الشاكر ويثيبه على شكره.

قال اللّه تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ
﴿13﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ

(1) البغوي في تفسيره، 4: 409.
(2) القرطبي في تفسيره، 14: 61.

لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿14﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿15﴾ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي
صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿16﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ
﴿17﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ أي واذكر إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أحداً في العبادة ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ عند اللَّه أي ليس من الذنوب شيء أعظم من الشرك باللَّه لأن اللَّه تعالى هو المحيي المميت الخالق الرازق، وإذا أشركت به أحداً غيره، فقد جعلت النعمة لغير ربها، وذلك من أعظم الظلم. قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ نزل في سعد بن أبي وقاص لما آمن بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم حلفت أمه لا تذوق طعاماً ولا شراباً، ولا يظلها شيء حتى يرجع سعد إلى دينه فمضى على هذا أياماً، فبلغ من أمرها إلى أن تداخل بعض أسنانها في بعض، فأنزل اللَّه هذه الآية[1]، فقال سعد: لو كانت لها سبعون نفساً فخرجت، ما ارتددت عن الإسلام، ففتح فاها، وصب فيه الطعام والشراب. ومعنى وصينا الإنسان: أي أمرناه ببر والديه عطفاً عليهما. وقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي ضعفاً على ضعف، ومشقة على مشقة، كلما ازداد الولد في الرحم كبراً ازدادت الأم ضعفاً. قوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ أي وفطامه في انقضاء عامين، وقدره بعامين بناء على الأغلب أو لأن الرضاع لا يستحق بعد هذه المدة. والفصال: هو الفطام وهو أن يفصل الولد عن الأم كيلا يرضع. والمعنى بهذا ذكر مشقة الوالدة بإرضاع الولد عامين. وروي عن يعقوب ـ وفَصْلُه في عامين ـ

---

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 288.
الطبري في تفسيره، المجلد 11: 85.

بغير ألف[1]. قوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ أي قلنا له: اشكر لي على خلقي إياك، وعلى إنعامي عليك، واشكر لوالديك على تربيتهما إياك. وقال مقاتل معناه: اشكر لي إذ هديتك للإسلام، ولوالديك بما أولياك من النعم. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ أي مصيرك ومصير والديك. وعن سفيان بن عيينة في قوله تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ قال: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر اللَّه، ومن دعا للوالدين في أدبار الصلوات، فقد شكر للوالدين[2]. قوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي إن اجتهدا عليك لتشرك بي جهلاً بغير علم فلا تطعهما، فإن حقهما وإن عظم، فليس بأعظم من حقي. وقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**حسن المصاحبة: أن تطعمهما إذا جاعا، وتكسوهما إذا عريا، وعاشرهما عشرة جميلة**». ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أي واتبع طريق من رجع إلي، أي من سلك طريق محمد صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه، والمعنى: واتبع دين من أقبل إلى طاعتي وهو النبي صلى اللَّه عليه وسلم.

وقال عطاء عن ابن عباس يعني: أبا بكر الصديق رضي اللَّه عنه أنه حين أسلم أتاه عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد[3]، وعثمان، وطلحة، والزبير، فقالوا له: يا أبا بكر آمنت، وصدقت محمداً؟ قال: نعم، فأتوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فآمنوا به وصدقوا، فأنزل اللَّه تعالى يقول لسعيد: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ يعني: أبا بكر رضي اللَّه عنه[4]، ويستدل من قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ على أن الابن لا يستحق القود على أبيه، ولا يحد الأب بقذفه الابن، ولا يحبس الأب بدين الابن لأن في إيجاب القود، والحد، والحبس له عليه ما ينافي مصاحبتهما بالمعروف،

---

(1) ابن عطية في تفسيره، 13: 14.
(2) البغوي في معالم التنزيل، 4: 401.
(3) أبو الأعور سعيد بن زيد بن عمرو العدوي صحابي جليل من السابقين في الإسلام ومن المبشرين بالجنة، شهد المشاهد مع الرسول صلى اللَّه عليه وسلم إلا بدراً، كان في مهمة للرسول عليه الصلاة والسلام.
(4) القرطبي في تفسيره، 14: 66. طبقات ابن سعد 3: 275. حلية الأولياء، 1: 95.

وعن أبي يوسف: إن القاضي يأمر الأب بقضاء دين الابن، فإن تمرد[1] حبسه لاستخفافه بأمره، وقال محمد بن الحسن: يحبس الأب في نفقة الابن الصغير، ولا يحبس بالدين الذي له عليه لأنه لو لم يحبس في نفقة الصغير لتضرر الولد. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مرجعكم ومرجع آبائكم ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر، وقد تضمنت هذه الآية النهي عن صحبة الكفار، والفساق، والترغيب في صحبة الصالحين. لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ وذلك أن ابن لقمان سأل أباه، فقال: أرأيت الحبة التي تكون في قعر البحار يعلمها اللّه؟ فأعلمه أن اللّه تعالى يعلم الحبة أينما كانت، وقيل إن ابن لقمان قال لأبيه: يا أبت إن عملت بالخطيئة حيث لا يراني أحد كيف يعلمها اللّه؟ فقال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ﴾ يعني إن المعصية ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ يعني الصخرة التي تحت الأرضين السبع أو في السمٰوات أو في الأرض ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ للجزاء عليها ـ ومن قرأ برفع ـ مثقال ـ فتقديره: أن تقع مثقال حبة[2]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي قادر على الإتيان بها خبير بموضعها يوصلها إلى صاحبها حيث كان، واللطيف: العالم بكل دقيق وجليل ـ ومعنى الآية: إن اللّه تعالى ضرب هذا مثلاً لأعمال العباد يعني أنه يأتي بأعمالهم يوم القيامة، وإن كان العمل الصالح في الصغر بوزن حبة من خردل فاللّه تعالى يحفظه، ولا يخفى عليه مكانه حتى يجازيه عليه، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ⑦ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑧﴾[3]. قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ أي أقم الصلاة التي افترضها اللّه عليك وأمر بالطاعة، وانه عن المعصية ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ من الأذية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ

---

(1) الجصاص في تفسيره «أحكام القرآن» 3: 352.

(2) قال مكي في الكشف عن وجوه القراءات السبع، 2: 188. قرأ نافع برفع «مثقال» ونصب الباقون.

(3) سورة الزلزلة 99، الآيتان: 7، 8.

ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي الصبر على ما أصابك في ذات اللّه من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر من عظام الأمور، وقيل من حق الأمور التي أمر اللّه بها.

قال اللّه تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿18﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿19﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ قرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف: تصاعر بالألف وقرأ الباقون: تصعّر ـ بغير ألف[1]. قال ابن عباس رضي اللّه عنهما معناه: لا تتكبر فتحقرك الناس ولا تعرض عنهم بوجهك إذا كلموك يقال: صعر خده وصاعر إذا أمال وجهه، وأعرض تكبراً والمعنى: لا تتعظم على خلق اللّه ولا تعرض عن الناس تكبراً[2] عليهم بل يكون الغني والفقير عندك سواء، ولا تعبس في وجه أحد من الناس. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي لا تمش في الأرض بالإعجاب، والبطر، وازدراء الناس. قال الحسن: أنّى لابن آدم الكبر، وقد خرج من مخرج البول مرتين[3] ـ وروي أن المهلب بن أبي صفرة[4] مرَّ على مطرف بن عبد اللّه[5] وهو يتبختر في جبة خز، فقال له: هذه مشية يبغضها اللّه، ورسوله، فقال له المهلب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أولك نطفة قذرة، وآخرك جيفة قذرة، وتحمل بين

---

(1) كتاب السبعة في القراءات، ص 513، وتفسيره القرطبي، 14: 69.

(2) تفسير الطبري، 11: 90.

(3) الجصاص في أحكام القرآن، 3: 352.

(4) أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي، أمير، بطاش، جواد، تولى قتال الأزارقة، وولّاه «عبد الملك» خراسان فمات بها سنة ثلاث وثمانين هجرية. الأعلام، 7: 315. تاريخ الطبري، 8: 19. وفيات الأعيان، 2: 145.

(5) أبو عبد اللّه مطرف بن الشخير العامري، زاهد من كبار التابعين، له كلمات في الحكمة مأثورة، إقامته ووفاته بالبصرة سنة سبع وثمانين هجرية. الأعلام، 7: 250، حلية الأولياء، 2: 198، رغبة الآمل، 3: 68.

ذلك العذرة. فمضى المهلب، وترك مشيته تلك. ويروى أن عبد اللَّه بن محمد بن واسع خرج يوماً يمشي، فقال محمد بن واسع[1] من هذا؟ قالوا: هذا ولدك عبد اللَّه، قال: ادعوه، فجاؤوا به إليه، فقال: يا بني أتدري بكم اشتريت أمك؟ اشتريتها بثلاثمائة درهم، وأبوك لا كثّر اللَّه مثله في الناس، أتمشي هذه المشية؟ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. الاختيال: هو التبختر في المشي، والفخور هو التطاول بذكر المناقب على السامع، والافتخار عليه، وذلك مذموم لأن المستحق على نعم اللَّه الشكر لا الفخر. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أنا سيد ولد آدم، ولا فخر**»[2]. فأخبر أنه ذكرها شكراً لا فخراً. قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي تواضع ولا تتبختر، ولتكن مشيتك قصداً لا تبختراً ولا إسراعاً. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن**»[3]. يقال: فلان قصد في مشيته إذا مشى مستوياً وقال مقاتل معناه: لا تختل في مشيك. وقال عطاء: قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ أي امش بالوقار والسكينة كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[4] والمعنى اقصد في المشي ولا تعجل، ولا تمش بالهوينا. قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أي اخفض صوتك ولا ترفعه على وجه انتهار الناس، وإظهار الاستخفاف بهم، وقال عطاء معناه: اغضض من صوتك إذا دعوت وناجيت ربك، وكذلك وصية اللَّه تعالى في الإنجيل لعيسى عليه السلام: مر عبادي إذا دعوني يخفضوا أصواتهم، فإني أسمع وأعلم ما في قلوبهم. قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ لأن أوله زفير وآخره شهيق. قال ابن زيد: لو كان في رفع الصوت خير ما جعله اللَّه للحمير. وعن أم سعد قالت:

---

(1) أبو بكر محمد بن واسع الأزدي، فقيه ورع من الزهاد، من البصرة عرض عليه قضاؤها فأبى، توفي سنة ثلاث وعشرين ومائة هجرية. حلية الأولياء، 2: 345. تهذيب التهذيب، 9: 499.

(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 15: 37، كتاب الفضائل.
رواه البيهقي في الشعب، 12: 181، رقم 1489.
ذكره القاضي عياض في الشفا، 1: 90.

(3) ذكره أبو نعيم في الحلية، 10: 290، والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

(4) سورة الفرقان، 25: 63.

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**إن اللّه تعالى يبغض ثلاثة أصوات: نهيق الحمار، ونباح الكلب، والداعية بالويل والحرب**»[1]. وقال سفيان: صياح كل شيء تسبيح اللّه إلا الحمار فإنه ينهق[2] بلا فائدة.

قال اللّه تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿20﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿21﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلموا أن اللّه خلق وذلك لمنافعكم ولصالحكم ما في السمٰوات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر، وما في الأرض من الأشجار والأنهار والبحار والدواب ـ قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أي أتم عليكم، ووسع لكم نعمه ظاهرة من الخلق الحسن، وسلامة الأعضاء الظاهرة ﴿وَبَاطِنَةً﴾ من العقل والفهم، والفطنة، والمعرفة باللّه تعالى، وقيل: النعمة الظاهرة: هي الإسلام، والباطنة: ما تخفى من الذنوب، ويستر من العورات، وقيل الظاهرة: ما يعلم الناس من حسناتك، والباطنة: ما لا يعلمون من سيئاتك. وقال الضحاك: الظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء، والباطنة: المعرفة[3]. وقيل الظاهرة: الإسلام، وما أفضل عليك من الرزق، والباطنة: ما ستر من سوء عملك، وقيل الظاهرة: نعيم الدنيا، والباطنة نعيم العقبى، وقيل الظاهرة: تسوية الظاهر، والباطنة: تصفية السرائر. وقيل الظاهرة: الرزق والذي يكتسب والباطنة: الرزق من حيث لا تحتسب، وقيل الظاهرة: المدخل للغذاء، والباطنة: المخرج للأذاء، وقيل الظاهرة: نعمه عليك

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
(2) الثعلبي نفسه، وسليمان الجمل في حاشيته على الجلالين، 3: 407.
(3) البغوي في معالم التنزيل، 4: 413.

بعدما خرجت من بطن أمك والباطنة: نعمة عليك وأنت في بطن أمك. وقيل الظاهرة: ألوان العطايا، والباطنة: غفران الخطايا، وقيل الظاهرة: المال والأولاد. والباطنة: الهدى والإرشاد، وقيل الظاهرة: التوفيق للعبادات، والباطنة: الإخلاص من المرديات. وقيل الظاهرة: ما أعطي من النعماء، والباطنة: ما زوي من أنواع البلاء. وقيل الظاهرة: إنزال القطر والأمطار، والباطنة: إحياء الأقطار والأمصار، وقيل الظاهرة: ذكر اللسان، والباطنة: ذكر الجنان. وقيل الظاهرة: ضياء النهار، والباطنة: ظلمة الليل للسكون والقرار. ومن قرأ نعمة على التوحيد فهي واحدة تنبىء عن الجميع[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[2]. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يعني النضر بن الحارث يخاصم في آيات اللّه وفي صفاته جهلاً بغير علم ولا حجة ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أي مضيء وقد تقدم تفسيره في سورة الحج. قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي اعملوا بما أنزل اللّه ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وقد تقدم ذلك في سورة البقرة وقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ معناه: يقول اللّه تعالى: أيتبعون آباءهم وإن كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب جهنم. قال أبو عبيدة: لو هاهنا متروكة الجواب ـ تقديره: أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير فيتبعونه[3].

قال اللّه تعالى:

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿22﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿23﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿24﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم
مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿25﴾ لِلَّهِ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿26﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ

---

(1) النشر في القراءات العشر، 2: 346.
(2) سورة إبراهيم 4، الآية: 34.
(3) الثعلبي في تفسيره الكشف والبيان ـ خ ـ.

وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿27﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي من يخلص طاعته لله وهو محسن فيها فيفعلها على موجب الشريعة، فقد أخذ بالأمر الأوثق ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ خواتم الأمور كلها فيجزى كل عامل بما عمل. قرأ السلمي: ومن يسلّم[1] بالتشديد، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي اعتصم بالطرف الأوثق الذي لا يخاف انقطاعه. قال ابن عباس: هي لا إله إلا الله[2]. قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحزنه كفرهم مخافة أن يكون ذلك لتقصير من جهته، فأمنه الله من ذلك. والمعنى: من كفر فلا تهتم لكفره، فإن رجوعهم إلينا، وحسابهم علينا. وهو قوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ أي نخبرهم بقبائح أعمالهم في الدنيا، ونجزيهم عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عليم بما في القلوب من خير وشر. قوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ أي نمهلهم في الدنيا يسيراً ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد. قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿25﴾﴾ قد تقدم تفسيره. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة أتته أحبار اليهود، فقالوا: بلغنا أنك قلت: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3] أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال: «**بل عنيت الجميع**»، فقالوا: ألم تعلم أن الله أنزل التوراة على موسى وفيها أنباء كل شيء، وقد خلقها فينا فهي معنا، فقال صلى الله عليه وسلم: «**التوراة وما**

---

(1) النحاس في إعراب القرآن، 3: 287.
(2) الطبري في تفسيره، 11: 96.
(3) سورة الإسراء 17، الآية: 85.

فيها من الأنباء قليل في علم اللَّه»، فأنزل اللَّه هذه الآية[1] ـ والمعنى: لو جعل ما في الدنيا من الأشجار أقلاماً يكتب بها، وصارت الجن والإنس كتاباً، والبحار مداداً يمدها من بعدها سبعة أبحر أي سبعة أمثال بحر الدنيا، وكتب بها كلمات اللَّه وحكمه لانكسرت الأقلام، وأعيت الإنس والجن، وفنيت قبل أن ينقطع كلام اللَّه وحكمه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي عزيز في سلطانه، وحكيم في أقواله وأفعاله، وذهب بعضهم إلى أن معنى كلمات اللَّه تعالى في هذه الآية: معاني القرآن وفوائده، وقال بعضهم: هي نعم اللَّه في الدنيا والآخرة وإن نعمه في الآخرة غير متناهية.

قال اللَّه تعالى:

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (28) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (29) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (30) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (31) وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (32)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ قال مقاتل: قالت كفار قريش: إن اللَّه خلقنا أطواراً نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم لحماً فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة؟ فأنزل اللَّه تعالى[2]: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾ في المقدرة إلا كخلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة أي قدرة اللَّه تعالى على بعث الخلق كلهم كقدرته على بعث نفس واحدة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لما قالوا من

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 288.
الطبري في تفسيره، 11: 98.

(2) حاشية الجمل على الجلالين، 3: 409.
تفسير القرطبي، 14: 78.

أمر الخلق والبعث ﴿بَصِيرٌ﴾ به. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ أي ألم تعلم أن اللّه يزيد من ساعات الليل في ساعات النهار صيفاً، ويزيد من ساعات النهار في ساعات الليل شتاء ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي ذللهما لمنافع بني آدم يجريان إلى يوم القيامة، ثم يسقطان، وينقطع جريهما. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿29﴾﴾ أي خبير بأعمالكم في الدنيا، ومجازيكم عليها. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي سبق ذكره بسبب أن اللّه هو الحق أو لتعلموا أن عبادة اللّه حق ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ من عبادة الأصنام باطل ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ بصفاته ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي لا شيء مثله في كبريائه وعظمته. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم﴾ أي ألم تعلم أن السفن تجري في البحر بإنعام اللّه تعالى لو لم يخلق الرياح، والماء على الهيئة التي خلقها اللّه عليها لما جرت السفن على ظهر الماء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي لدلالات على توحيد اللّه لكل صبار، أي كثير الصبر على الطاعات والمحن ﴿شَكُورٍ ﴿31﴾﴾ أي كثير الشكر على نعم اللّه تعالى. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**إن أحب العباد إلى اللّه تعالى من إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر**». قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي إذا أصابهم في البحر موج كالجبال في الارتفاع دعوا اللّه مخلصين له الدعاء، فلما أنجاهم من البحر وأهواله ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي منهم من يثبت على ذلك، ومنهم من يجحد ثم قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي لا ينكر دلائل توحيدنا ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي غدار ﴿كَفُورٍ﴾ أي كثير الكفر بآيات اللّه وبنعمه. والختر في اللغة: أقبح الغدر. والظلل: جمع ظلّة وهي السحابة التي ترتفع فتغطي ما تحتها وروي أن هذه الآية كانت سبب إسلام[1] عكرمة بن أبي جهل. وذلك أنه لما كان يوم فتح مكة أمّن النبي صلى اللّه عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر فإنه قال: «**اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبي جهل، وعبد اللّه بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد اللّه بن سعد بن أبي السرح**»، فأما عكرمة فركب في البحر فأصابهم ريح عاصف، فقال أهل السفينة: اخلصوا، فإن

(1) البغوي في معالم التنزيل، 4: 416.

آلهتكم لم تغن عنكم شيئاً هاهنا. فقال عكرمة: لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص ما ينجيني في البر غيره، ثم قال: اللهم إن لك عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فجاء فأسلم. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ أي من هول ما هم فيه، ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي عدل في الوفاء في البر بما عاهد اللّه عليه في البحر من التوحيد له.

قال اللّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ (33) إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ (34)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي اتقوا مخافة ربكم، واخشوا عذاب يوم لا يغني والد عن ولده، ولا مولود هو قاض عن والده شيئاً لاشتغال كل منهم بنفسه، وقيل معنى: ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ أي لا يحمل شيئاً من سيئاته، ولا يعطيه شيئاً من طاعته ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ في البعث والجزاء أي صدق كائن فلا تغتروا بالحياة الدنيا وما فيها من زينتها وزهرتها ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يعني الشيطان فإنه الغرور وهو الذي من شأنه أن يغر، وغرور الشيطان تمنيته العبد بأن اللّه تعالى كريم عفو فيهون عليه ركوب المعاصي وما يهواه. ومن قرأ: الغُرور بضم الغين فهو مصدر[1] ومعناه الأباطيل. وعن سعيد بن جبير: إن الغرور تمني المغفرة مع الإصرار على المعصية[2]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ نزلت

---

(1) الزمخشري في الكشاف، 3: 238.

(2) الطبري في تفسيره، 11: 104.

هذه الآية في البراء بن مالك[1]، أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال: إن أرضنا أجدبت فمتى الغيث؟ وقد تركت امرأتي حبلى فماذا تلد؟ وقد علمت بأي أرض ولدت أي علمت أين ولدت فبأي أرض أموت؟ وقد علمت ما عملت اليوم فما أعمل غداً؟ ومتى الساعة؟ فأنزل اللّه هذه الآية[2]. وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا اللّه: لا يعلم متى تقوم الساعة إلا اللّه، وما يعلم ما تفيض الأرحام إلا اللّه، ولا يعلم ما في غد إلا اللّه، ولا نفس بأي أرض تموت إلا اللّه، ولا يعلم متى ينزل الغيث إلا اللّه**»[3]. ويقال إن هذه الخمسة الأشياء التي ذكرها اللّه في هذه الآية هي مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو استأثر اللّه بهن فلم يطلع عليهن ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً. ومعنى الآية: إن اللّه عنده علم قيام الساعة فلا يدري أحد سواه متى تقوم في أي سنة أو في أي شهر ليلاً أو نهاراً. وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ معناه هو المختص بإنزال الغيث وهو العالم بوقت إنزاله، ويعلم ما في الأرحام أي لا يعلم أحد ما في الأرحام أذكر أم أنثى، أحمر أم أسود؟ وإنما يعلمه اللّه عز وجل نطفة، وعلقة، ومضغة، وذكراً أو أنثى وشقياً أو سعيداً، ومتى ينفصل عن أمه. وقوله عز وجل: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ يعني ما تكسب من الخير والشر أي ما تدري نفس ماذا تكسب غداً خيراً أو شراً ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ أي في بر أو بحر أو سهل أو جبل. قال ابن عباس: هذه الخمسة لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مصطفى. فمن ادعى أنه يعلم شيئاً من هذه فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه[4]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بخلقه خبير بأعمالهم، وبما

---

(1) البراء بن مالك البخاري الخزرجي، صحابي شجاع شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، أخو أنس بن مالك، توفي سنة عشرين هجرية. الطبقات الكبرى، 7: 11. حلية الأولياء، 1: 350.

(2) الواحدي في أسباب النزول، ص 289.

(3) سبق تخريجه.

(4) القرطبي في تفسيره، 14: 82، بلفظه تقريباً.

يصيبهم في مستقبل عمرهم وروي أن يهودياً كان بالمدينة يحسب حساب النجوم فسأله ابن عباس فقال له اليهودي: إن شئت أنبأتك عن ولدك، وعن نفسك، أنك ترجع إلى منزلك فتلقى ابناً لك محموماً ولا يمكث عشرة أيام حتى يموت الولد، وأنت لا تخرج من الدنيا حتى تعمى، فقال ابن عباس: وأنت يا يهودي فقال: لا يحول علي الحول حتى أموت، قال: فأين موتك يا يهودي، قال ما أدري، فقال ابن عباس: صدق الله ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ قال فرجع ابن عباس، فلقي ابناً له محموماً، فلما بلغ عشراً مات الصبي، وسأل عن اليهودي قبل الحول، فقالوا: مات، وما خرج ابن عباس من الدنيا حتى كف بصره[1].

---

(1) القرطبي نفسه.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ② أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ
بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ③
ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا
لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ④ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ
ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ⑤﴾.

قال أبو بكر: سورة الجرز ـ مكية ـ وهي ألف وخمسمائة وثمانية عشر حرفاً، وثلاثمائة وثمانون كلمة، وثلاثون آية قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**من قرأها أعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر**»(1)، وكان صلى اللّه عليه وسلم لا ينام حتى يقرؤها هي وسورة تبارك(2).

بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ②﴾ أي ألٓمٓ هو تنزيل الكتاب لا شك فيه إنه تنزيل من رب العالمين. ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ﴾ معناه: أيقول أهل مكة إن محمداً اختلقه من تلقاء نفسه، وليس كما يقولون: ﴿بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ أي لتخوف بالقرآن قوماً لم يشاهدوا قبلك في زمانهم الذي هم فيه رسولاً مخوفاً ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي لكي يهتدوا إلى الإيمان. قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ أي في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا أولها يوم الأحد ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي استولى عليه، وقد تقدم تفسير ذلك في سورة الأعراف وقوله تعالى:

---

(1) الزمخشري في تفسيره، 3: 247، الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
(2) الحاكم في المستدرك، 2: 412، أحمد في المسند، 3: 340.

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ أي من قريب ينفعكم، ولا شفيع يشفع لكم ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تعتبرون قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي يدبر اللَّه أمر الدنيا مدة أيامها، فينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال ابن عباس معناه: ثم يعود إليه الأمر والتدبير حين ينقطع أمر الأمراء، وأحكام الحكام، وينفرد اللَّه بالأمر في يوم كان مقداره ألف سنة، يعني أن يوماً من أيام الآخرة مثل ألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا، وأراد بهذا اليوم يوم القيامة وقيل معناه: فيقطع الملك هذه المسافة نازلاً وصاعداً في يوم واحد، وهو مسيرة ألف عام مما يعده أهل الدنيا لمسيرهم، وذلك أن بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، فنزوله من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام لبني آدم وصعوده من الأرض إلى السماء كذلك، والملك يقطعه في يوم واحد، ولو أراد اللَّه من الملك الصعود والنزول بدون مقدار اليوم لفعله الملك. وأما قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④﴾[1] فإن كان أراد مدة المسافة من الأرض إلى سدرة المنتهى التي فيها مقام جبريل، فالمعنى يسير جبريل والملائكة الذين معه من أهل مقامه مسيرة خمسين ألف سنة في يوم واحد من أيام الدنيا، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ﴾ على هذا التأويل أي إلى مكان الملك الذي أمره اللَّه أن يعرج إليه كقول إبراهيم ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾[2] إلى حيث أمرني ربي بالذهاب إليه وهو الشام، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[3] أي إلى المدينة ولم يكن اللَّه عز وجل بالمدينة ولا بالشام. وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**أتاني ملك برسالة من اللَّه عز وجل، ثم رفع رجله فوضعها فوق السماء والأخرى في الأرض لم يرفعها**»[4].

---

(1) سورة المعارج 70، الآية: 4.
(2) سورة الصافات 37، الآية: 99.
(3) سورة النساء 4، الآية: 100.
(4) ذكره القرطبي في تفسيره، 14: 88 عن أبي هريرة.

قال الله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿6﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿7﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿8﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿9﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿10﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿6﴾﴾ أي الذي صنع ما ذكرناه من خلق السمٰوات والأرض هو عالم ما غاب عن الخلق، وعالم ما خفي لا يقدر على ذلك سواه كما لا يعلم الغيب غيره. وقوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي القادر الذي لا يقاوم، المنيع في ملكه المنعم على عباده. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قرأ نافع وأهل الكوفة. خلَقه بفتح اللام على الفعل أي حكم كل شيء مما خلقه. وقرأ الباقون: خلْقه، بسكون اللام[1] أي أحسن خلق كل شيء فيكون نصب قوله: ﴿خَلَقَهُۥ﴾ على البدل. وقال مقاتل معناه: الذي علم كيف يخلق الأشياء من غير أن يعلمه أحد. وقال السدي: أحسنه لم يتعلمه من أحد. قيل إن اللّه عز وجل: لما طول رجل البهيمة والطير، طول عنقه لئلا يتعذر عليه تناول قوته من الأرض، ولو لم يطول عنقه لما نال معيشته. قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ يعني آدم عليه السلام كان أوله طيناً، ثم جعل نسله أي ذريته من سلالة من ماء مهين، أي من قليل من الماء ينسلُّ من صلب الرجل، وترائب المرأة، وهي النطفة، ووصفها بالمهين لأنه لا خطر لها عند الناس، وسميت سلالة لأنها تنسل من الإنسان أي تخرج، والمهين: هو الضعيف. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ رجع إلى ذكر آدم يعني سوى خلقه، ونفخ فيه من روحه، ثم عاد إلى ذريته فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ بعد أن كنتم نطفاً. والأفئدة

---

(1) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 516، فقد صرح بأسماء القراء.
النحاس في إعراب القرآن، 3: 292.
القرطبي في تفسيره، 14: 90.

هي القلوب ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ربّ هذه النعم فتوحدونه والمعنى: خلق لكم السمع فاستمعوا إلى الحق، والأبصار فابصروا الحق، والأفئدة أي القلوب فاعقلوا الحق، وقيل معنى ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ يعني الماء المهين جمعه وخلقه وصوره، ونفخ فيه من روحه أي نفخ فيه الروح الذي يحيي به الناس، وأضاف اللّه تعالى ذلك إلى نفسه لأنه هو الخالق. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ أي قال الكفار أئذا هلكنا وانقطعت أوصالنا، وذهبت آثارنا وصرنا تراباً فلم يتبين شيء من خلقنا أنبعث من بعد ذلك؟ هذا لا يكون أبداً، ومعنى الضلال في اللغة: الغيبوبة يقال: ضل متاع فلان، وضاع بمعنى واحد ـ وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ﴾.

قال اللّه تعالى:

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿11﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿12﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿13﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿14﴾ ﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي يقبض أرواحكم أجمعين ملك الموت الذي وكل بكم. قال مجاهد: زويت له الأرض فجعلت له مثل طست يتناول منها حيث يشاء(1). وقال الكلبي: اسم ملك الموت: عزرائيل وله أربعة أجنحة جناح منها بالمشرق، وجناح بالمغرب، وخلق بين رجليه ورأسه وجسده، وجعلت له الدنيا مثل راحة اليد لصاحبها يأخذ منها ما أمر بقبضه من غير مشقة ولا عناء، وله أعوان من ملائكة الرحمة، ومن ملائكة العذاب(2). وعن أنس بن مالك قال: لقي جبريل ملك الموت بنهر فارس،

---

(1) الطبري في تفسيره، 11: 118.
(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

فقال له: يا ملك الموت: كيف تستطيع قبض الأنفس هاهنا عشرة آلاف، وهاهنا كذلك، وهاهنا كذا وكذا، قال: يا جبريل تزوى لي الأرض حتى كأنها بين فخذيَّ فألتقطهم بيدي ـ وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**إذا حان أجل الرجل أتاه ملك الموت، فقال له: أيها العبد كم خبر بعد خبر، وكم رسول بعد رسول أنا الخبر ليس بعدي خبر، وأنا الرسول ليس بعدي رسول أجب ربك طائعاً أو مكرهاً، فإذا قبض روحه، وتصارخوا عليه، قال: على من تصرخون وعلى من تبكون؟ واللّه ما ظلمت له أجلاً، ولا أكلت له رزقاً، بل دعاه ربه، فليبكِ الباكي على نفسه فإن لي فيكم عودات وعودات حتى لا أبقي منكم أحداً**»[1]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي تصيرون إليه أحياء فيجزيكم بأعمالكم. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني كفار مكة ناكسو رؤوسهم حياء وندماً. والمعنى ولو ترى يا محمد إذ المجرمون مطرقو رؤوسهم من الخزي وشدة الندم في يوم القيامة عند علمهم بأن الحجة قد قامت عليهم من كل جهة وأنهم لا مهرب لهم من العذاب. وذلك هو الغاية في الوجل والخجل يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا أي لك الحجة علينا لأنا أبصرنا رسلك، وسمعنا كلامهم ولكن نسألك أن ترجعنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ بك وبكتابك ورسلك، وهذه الآية محذوفة الجواب أي لو رأيت يا محمد لرأيت غاية ما يعتبر به. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ قال الحسن: أراد به مشيئة القدرة من اللّه تعالى لأنه لم يعجز عن شيء، ولكنه لا يجبر العباد على ذلك لكيلا يبطل الثواب والعقاب، والمعنى: ولو شئنا لآتينا كل نفس رشدها وثباتها، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[2] ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ معناه: ولكن وجب قولي عليهم بالعذاب ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بكفرهم

---

(1) القرطبي في «التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة»، 1: 108، دار ابن زيدون، بيروت، ط1، 1986م.
(2) سورة يونس 10، الآية: 99.
(3) سورة الأنعام 6، الآية: 35.

وذنوبهم. وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ معناه: يقال لأهل النار إذا دخلوها: ذوقوا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم هذا أي بما تركتم الإيمان بيومكم هذا. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي تركناكم في العذاب وأحللناكم محل المنسي ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ الذي لا ينقطع ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والتكذيب.

قال اللّه تعالى:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ۩ (15) تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (16) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (17) أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ (18)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ معناه: إنما يقر ويصدق بدلائلنا الذين إذا ذكروا بها أي وعظوا بها خروا سجداً للّه مصلين مع الإمام ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي عظموا اللّه ونزهوه في صلاتهم حامدين لربهم ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أن يعفروا وجوههم صاغرين. قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ أي ترتفع جنوبهم عن المضاجع لأجل الصلاة. قال مجاهد: هم الذين لا ينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة[1]. والمضاجع: هي الفرش الذين يضطجعون عليها للنوم واحدها مضطجع. وعن أنس رضي اللّه عنه قال: نزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار كنا نصلي المغرب فلا نرجع حتى نصلي العشاء مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم[2]. وروي أن امرأة جاءت إلى أنس بن مالك، فقالت: إني أنام قبل العشاء، فقال: لا تنامي فإن هذه الآية نزلت في الذين لا ينامون قبل العشاء[3]: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ وقال الحسن: المراد بالآية: قيام الليل. والتهجد. وكان يقول: هم قوم أخفوا

---

(1) نسبه البغوي في معالم التنزيل، 4: 423، إلى عطاء.
(2) البغوي نفسه.
(3) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

للّه عملاً، وأخفى اللّه لهم ثواباً[1]. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «**عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وإن قيام الليل قربة إلى اللّه ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات[2]، ومطردة للداء عن الجسد**». وقال الضحاك: هو أن يصلي الرجل العشاء والفجر في جماعة[3]. قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خوفاً من عذاب اللّه، وطمعاً في رحمة اللّه، وانتصب خوفاً وطمعاً: لأنه مفعول له. وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ومما أعطيناهم من المال يتصدقون واجباً وتطوعاً. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي لا يعلم أحد ما أخفاه اللّه مما تقر به أعينهم، وتطيب به أنفسهم ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة. قال ابن مسعود: إن في التوراة مكتوباً لقد أعد اللّه للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولا يخطر على قلب بشر، وما لا يعلمه ملك مقرب[4]، وأنه في القرآن ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿17﴾﴾ قرأ حمزة: ما أُخفْي لهم بإسكان الياء أي ما أخفي لهم أنا وحجته قراءة عبد اللّه: نخفي لهم بالنون. وقرأ محمد بن كعب ما أَخْفَى لهم بفتح الألف والفاء يعني أخفى اللّه[5] لهم. قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿18﴾﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب، والوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيْط جرى بينهما تنازع وتساب، فقال له الوليد: اسكت فإنك صبي، وأنا واللّه أحد منك لساناً، وأبسط منك في القول، وأملأ منك في الكتيبة، فقال له علي رضي اللّه عنه: اسكت فإنك فاسق تقول الكذب، فأنزل اللّه هذه الآية[6]، والمراد بالمؤمن:

---

(1) الزمخشري في الكشاف، 3: 244.
(2) البغوي نفسه.
(3) القرطبي في تفسيره، 14: 100.
(4) الثعلبي نفسه ـ خ ـ والقرطبي نفسه.
(5) كتاب السبعة في القراءات، ص 516، الفراء: معاني القرآن، 2: 332، النحاس: إعراب القرآن، 3: 295.
(6) الواحدي في أسباب النزول، ص 291، تفسير الطبري، 11: 129 ـ 21532.

علي رضي اللّه عنه والفاسق: الوليد بن عقبة، وقال الزجاج: إنه لم يرد بالمؤمن مؤمناً واحداً، ولا بالفاسق فاسقاً واحداً، وإنما أراد جمع الفساق وجمع المؤمنين ولذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ﴾ ولم يقل لا يستويان[1]، وقال قتادة في معنى الآية: لا واللّه ما استووا في الدنيا، ولا عند الموت، ولا في الآخرة[2].

قال اللّه تعالى:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي التي يأوي إليها المؤمنون. وقوله تعالى: ﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي معدة لهم بأعمالهم. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي وأما الذين خرجوا من طاعة اللّه بكفرهم، فمأواهم النار كلما رفعهم لهيب النار إلى أعلاها، فظنوا أنهم يخرجون منها، ردّتهم ملائكة العذاب إلى أسفلها بمقامع من حديد ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قيل إن المراد بالعذاب الأدنى: هو القحط والجوع الذي أصاب أهل مكة سبع سنين حتى أكلوا الجيف، والعظام، والكلاب، وقيل: هو القتل يوم بدر، وقيل العذاب الأدنى: هو مصائب الدنيا، وأسقامها وبلاؤها، وقيل العذاب الأدنى: هو عذاب القبر، والعذاب الأكبر:

---

(1) معاني القرآن وإعرابه، 4: 208.

(2) في تفسير الطبري، 11: 129 ـ 21533، بلفظه.

عذاب يوم القيامة. وقوله تعالى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ يعني بالعذاب الأكبر: عذاب الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي اختبرناهم ليرجعوا عن الكفر. قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ ظاهر المعنى. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ يعني الذين قتلوا ببدر، وعجلنا أرواحهم إلى النار، وأراد بالمجرمين المشركين. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**ثلاثٌ من فعلهنَّ فقد أجرمَ، مَن عَقَدَ لِوَاءً في غَيْر حقٍّ، أو عَقَّ وَالدَيْه، أو مَشَى مع ظالمٍ لِينصُرَه**»[1]. قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي أعطيناه التوراة جملة واحدة ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ وعد اللَّه النبي صلى اللَّه عليه وسلم أن سيلقى موسى قبل أن يموت، ثم لقيه في السماء ليلة المعراج، أو في بيت المقدس حين أسري به. والمعنى: فلا تكن في شك من لقاء موسى. قال ابن عباس: يعني ليلة الإسراء[2]. ويقال: أراد به التقاءهما في الجنة. ويقال: أراد به لقاء اللَّه. ويقال أراد به أن يلقى محمد صلى اللَّه عليه وسلم من قومه الأذى مثل ما لقي موسى من قومه[3]. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي جعلنا التوراة هدى لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي جعلنا من بني إسرائيل أئمة يدلون الناس على ديننا فيقتدى بهم، وهم أنبياؤهم، ومن استقام منهم على الدين. وقوله تعالى: ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ أي لما صبروا جعلناهم أئمة كأنه قال: إن صبرتم على طاعتنا، وصبرتم عن معصيتنا جعلناكم أئمة. وقرأ حمزة والكسائي: لِمَا صبروا بكسر اللام وتخفيف الميم أي بصبرهم[4]. ومعنى القراءة الأولى حين صبروا، والمعنى: لما صبروا على دينهم، وعلى البلاء من عدوهم بمصر ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿24﴾﴾ أي وبكونهم موقنين بآياتنا.

---

(1) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، 7: 90.
(2) القرطبي في تفسيره، 14: 108.
(3) النحاس في إعراب القرآن، 3: 297.
(4) الداني في التيسير، ص 177، والفراء في معاني القرآن، 2: 332.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿25﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿26﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿27﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿28﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿29﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿30﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي هو الذي يقضي بين المؤمنين والكفار يوم القيامة ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين، ثم خوف الله كفار مكة فقال: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ معناه: أولم نبين لهم آثار عذاب الاستئصال فيمن أهلك من الأمم الماضية المكذبة ما يكون عبرة لهم يمشون في مساكن المهلكين على منازلهم وقراهم، مثل آثار عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم إن في إهلاكنا لهم بالتكذيب لدلالات واضحات لمن بعدهم ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع القبول والطاعة. ومن قرأ أولم نهد بالنون فالمعنى نبين بإضافة الفعل إلى الله[1] تعالى. قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ معناه: أولم يعلموا أنا نسوق المطر بالسحاب، والرياح إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها، ولا شجر، فنخرج بذلك المطر زرعاً تأكل أنعامهم من ساقها وهم يأكلون من حبها ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ أي يعقلون. والأرض الجرز: هي الأرض التي يؤكل نباتها. يقال ناقة جروز إذا كانت أكولاً، وسيف جراز إذا كان مستأصلاً. ورجل جرز إذا كان أكولاً. قال ابن عباس: الأرض الجرز هي أرض باليمن[2]. وقال مجاهد: هي أبين[3]. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ

---

(1) النحاس في إعراب القرآن، 3: 298، فقد صرَّح بمن قرأ «أو لم نهد» بالنون. وكذا القرطبي في تفسيره، 14: 110.

(2) الطبري في تفسيره، 11: 138.

(3) الطبري نفسه.

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿28﴾ وذلك أن كفار مكة كانوا يؤذون أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وكان أصحاب رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقولون: يوشك أن يكون يوم نستريح فيه من شركهم، وكان الكفار يهزؤون بهم، ويقولون متى هذا الفتح أي الحكم الذي يحكم بيننا وبينكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون، والمعنى: إن كفار مكة يقولون متى هذا الفتح أي القضاء: وهو يوم البعث يقضي اللَّه فيه بين المؤمنين والكافرين فقال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ﴾ يعني: يوم القيامة القضاء والفصل ﴿لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾ لو آمنوا يومئذ ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي ولاهم يمهلون، ولا يؤخرون لمعذرة أو توبة، ولا تؤخر عنهم عقوبتهم. وعن ابن عباس: في هذه الآية أن المراد بالفتح فتح مكة، وأن الآية نزلت في بني جذيمة. كانوا هم يستهزئون بأصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم حين كان أصحاب النبي صلى اللَّه عليه وسلم يتذاكرون وهم بمكة فتح مكة لهم، فلما كان يوم الفتح تكلمت بنو جذيمة بكلمة الإسلام فقتلهم خالد بن الوليد ولم يقبل منهم إسلامهم[1]، وكان النبي صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «**اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»[2]. قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي عن جوابهم، وانتظر الفرصة فيهم إنهم منتظرون الفرصة فيك. قال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ نسخته آية السيف[3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أي منتظرون بك حوادث الأزمان: من موت، أو قتل فيستريحوا منك.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام، 4: 428. وتاريخ الطبري، 3: 66.
(2) ابن سعد في الطبقات الكبرى، 2: 112.
(3) تفسير القرطبي، 14: 112.

سُورَةُ الأَحْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
(1) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (2) وَتَوَكَّلْ عَلَى
اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (3)﴾.

قال أبو بكر: سورة الأحزاب مدنية، وهي خمسة آلاف وسبعمائة وتسعون حرفاً، وألف ومائتان وثمانون كلمة، وثلاث وسبعون آية، قال صلى اللّه عليه وسلم: «**من قرأها، وعلَّمها أهله، وما ملكت يمينه أعطي الأمان من عذاب القبر**»[1] وباللّه التوفيق. بسم اللّه الرحمن الرحيم. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي اثبت على تقوى اللّه ودم عليه. ولا تطع الكافرين. قال ابن عباس: وذلك أن أبا سفيان بن حرب، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السلمي، قدموا المدينة، ونزلوا على عبد اللّه بن أبي، رأس المنافقين، وجد بن قبيس، ومعتب بن قشير، المنافقين، وكان يومئذ مع المشركين عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح ـ فطلبوا النبي صلى اللّه عليه وسلم، وقد كانوا طلبوا منه الأمان على أن يكلموه، فقالوا له: يا محمد ارفض ذكر آلهتنا ـ اللات، والعزى، ومناة ـ وقل: إن لها شفاعة في الآخرة، ومنفعة لمن عبدها، وندعك أنت، وربك، فشق ذلك على النبي صلى اللّه عليه وسلم، فقال له عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: إئذن لي يا رسول اللّه في قتلهم.

فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: إني قد أعطيتهم الأمان، فأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم عمر أن يخرجهم من المدينة، فقال لهم عمر رضي اللّه

---

(1) تفسير الثعلبي ـ خ ـ، وتفسير الكشاف للزمخشري، 3: 278.

عنه: اخرجوا في لعنة اللّه وغضبه، فأنزل اللّه هذه الآية[1]. ومعناها: يا أيها
النبي اتق اللّه في نقض العهد الذي بينك، وبين أهل مكة لا تنقضه قبل أجله،
ولا تطع الكافرين، والمنافقين فيما دعوك إليه، ولا تمل إليهم، ولا ترفق بهم
ظناً منك أن ذلك أقرب إلى استمالتهم إلى الإيمان فإن ذلك يؤدي إلى أن نظن
بك مقاربة القوم على كفرهم فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني أبا
سفيان، وأبا الأعور، وعكرمة. ومعنى قوله: ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ عبد اللّه بن أبي،
وجد بن قيس، وغيرهما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي عليماً
بأحوالهم، حكيماً بما أوجبه عليك في أمرهم، وفيما يخلقه. قوله تعالى:
﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اعمل بما أمرك اللّه به في القرآن من
مجانبة الكفار، والمنافقين، وترك موافقتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا﴾ قرأ بالياء أبو عمرو، وقرأ الباقون بالتاء[2]، أي خبيراً بك وبهم. قوله ٧٨
تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي فوض أمورك إلى اللّه، واعتمد
عليه في معاملتهم بما أمرت به في شأنهم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً
وناصراً.

قال اللّه تعالى:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿4﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿5﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ قال ابن عباس: نزلت

---

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 292.
القرطبي في تفسيره، 14: 114.
(2) كتاب السبعة في القراءات، ص 418.
القرطبي نفسه.

هذه الآية: في أبي معمر جميل بن راشد الفهري، وكان رجلاً لبيباً حافظاً لما سمع، وكان يقول: إن في جوفي لقلبين أعقل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد، وكانت قريش تسميه ذا القلبين لدهائه، وكثرة حفظه للحديث، فأنزل اللّه هذه الآية تكذيباً[1] لهم، وأخبر أنه ما خلق لأحد قلبين، فلما كان يوم بدر، وهزم المشركون، وفيهم أبو معمر تلقاه أبو سفيان وهو يعدو، وإحدى نعليه في يده، والأخرى في رجله، فقال له: يا أبا معمر: ما فعل الناس، قال انهزموا، فقال له: ما بال إحدى نعليك في يدك، والأخرى في رجلك؟ فقال: ما شعرت إلا أنهما جميعاً في رجلي، فعرفوا يومئذ أنه لو كان له قلبان ما نسي نعليه في يده. وقال الزهري ومقاتل: هو مثل ضربه اللّه للمظاهر من امرأته، والمتبنّي ولد غيره يقول: فكما لا يكون للرجل قلبان كذلك لا تكون امرأة المظاهر أمه حتى لا يكون له أمّان، ولا يكون ولد ابن رجلين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي ما جعل نساءكم اللائي تقولون لهن: أنتن علينا كظهور أمهاتنا لم يجعلهن كأمهاتكم في الحرمة، وكانت العرب تطلق نساءها في الجاهلية بهذا اللفظ، فلما جاء الإسلام نهوا عنه، وأوجبت الكفارة على المظاهر في سورة المجادلة. قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي ما جعل من تدعونه ابناً من أبناء غيركم كأبنائكم الذين من أصلابكم في الانتساب والحرمة والحكم. وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد تبنّى زيد بن حارثة بعد أن أعتقه فكان يقال: زيد بن محمد، فلما جاء اللّه بالإسلام أمر أن تلحق الأدعياء بآبائهم وكان يوم تبناه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قبل الوحي[2]. قرأ نافع، وأبو عمرو: يظهرون، بفتح الياء وتشديد الظاء والهاء من غير ألف وقرأ الشامي كذلك إلا أنه بالألف، وقرأ حمزة والكسائي مثل قراءة الشامي إلا أنه بالتخفيف، وقرأ

---

(1) الواحدي: في أسباب النزول، ص 292.
الطبري في تفسيره، 11: 142.

(2) أسباب النزول للواحدي، ص 293.
القرطبي في تفسيره، 14: 118.

عاصم، والحسن بضم التاء وتخفيف الظاء وبالألف وكسر الهاء[1] ـ قال أبو عمرو: وهذا منكر لأن التظاهر من التعاون. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي الذي تقولونه من إضافة القلبين إلى الرجل الواحد. وقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، وقول الرجل لغير ابنه: هذا ابني تقولونه بأفواهكم من غير أن تكون له حقيقة، ولا عليه دلالة، ولا حجة. ﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي يبين أن الذي تقولونه قول باطل. ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤﴾ أي يدل على طريق الحق، وإلى الدين المستقيم. قوله تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أي انسبوا هؤلاء الأدعياء إلى آبائهم الذين قد ولدوا على فرشكم، وقولوا «زيد بن حارثة»، ولا تقولوا «زيد بن محمد».

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ أي أعدل في حكم اللّه من نسبتكم إياهم إلى الذين تبنوهم، وعن ابن عمر رضي اللّه عنه أنه كان يقول: ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد، حتى نزل قوله[2] تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾. قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين أي من أسلم منهم ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي وبنو عمكم فقولوا: يا أخي، ويا ابن عمي، وفي الآية إباحة إطلاق اسم الأخوة، وحظر إطلاق اسم الأبوة في ذلك. دليل على أنه لو قال لعبد: هذا أخي لم يعتق لأنه يحتمل الأخوة في الدين، وإن قال: هذا ابني عتق لأن ذلك ممنوع من غير النسب. قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾ أي ليس عليكم إثم في نسبة الرجل إلى غير أبيه على وجه الخطأ. قال قتادة: لو دعوت رجلاً لغير أبيه وأنت تحسب أنه أبوه لم يكن عليك بأس ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الإثم فيما تعمدونه من دعائهم إلى غير آبائهم[3]. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن

---

(1) الكشف عن وجوه القراءات، 2: 194.
الفراء معاني القرآن، 2: 334.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري، 9: 471، 4782 كتاب التفسير.
ذكره القرطبي في تفسيره، 14: 119.

(3) القرطبي نفسه.
الطبري في تفسيره، 11: 146، رقم 21591.

تعمد ثم تاب ﴿رَّحِيمًا ۝٥﴾ بعد التوبة. قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ موضع قوله: ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ﴾ خفض عطفاً على قوله: ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ تقديره: ولكن فيما تعمدت قلوبكم.

قال اللَّه تعالى:

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي هو أشفق وأبرّ وأحق بالمؤمنين من بعضهم ببعض وهو أولى بكل إنسان منه بنفسه، وقيل معناه: إذا حكم عليهم بشيء نفذ حكمه فيهم ووجبت طاعته عليهم. وقال ابن عباس: إذا دعاهم النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى شيء، ودعتهم أنفسهم إلى شيء كانت طاعة النبي صلى اللَّه عليه وسلم أولى بهم من طاعة أنفسهم[1]. وقال مقاتل معناه: طاعة النبي صلى اللَّه عليه وسلم أولى من طاعة بعضهم لبعض. وقالت الحكماء: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم لأن أنفسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، والنبي صلى اللَّه عليه وسلم يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم[2]. وقال أبو بكر الوراق: لأن النبي صلى اللَّه عليه وسلم يدعوهم إلى العقل، وأنفسهم تدعوهم إلى الهوى[3]. وقال بسام بن عبد اللَّه: الآن أنفسهم تحترس من نار الدنيا، والنبي صلى اللَّه عليه وسلم يحرسهم من نار الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أي كأمهاتهم في تعظيم حقهن وفي تحريم

---

(1) البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»، 4: 433.
(2) ابن عطية في تفسيره «المحرر الوجيز»، 13: 50.
(3) الثعلبي في تفسيره «الكشف والبيان» ـ خ ـ.

نكاحهن فلا يحل لأحد أن يتزوج بهن كما لا يحل التزوج بالأم، ولم يرد إثبات الأمومية من جميع الوجوه ألا ترى أنه لا تحل رؤيتهن، ولا يرثن المؤمنين، بخلاف الأمهات، وكذلك لا يخلو بهن ولا يسافر بهن ولا يرتضعن ولا يرثوهن ولو كنّ كالأمهات من جميع الوجوه لكان النبي صلى اللَّه عليه وسلم لا يزوج بناته من أحد من الناس لأن البنات يكنّ أخوات المؤمنين. ومن هذا المعنى ما روي أن امرأة قالت لعائشة: يا أمَّاه، قالت: لست لك بأم إنما أنا أم رجالكم[1] فبان بهذا أن معنى الأمومة تحريم نكاحهن فقط. ولهذا لا يجوز أن يقال لبناتهن: هن أخوات المؤمنين. وفائدة تحريم نكاح أزواج النبي صلى اللَّه عليه وسلم على المؤمنين في حياته، وبعد وفاته تعظيم أمره، وتفخيم شأنه، ولذلك حرم على الابن نكاح امرأة أبيه. قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي وذوو القرابة بعضهم أحق بميراث بعض في حكم اللَّه من المؤمنين والمهاجرين إذا لم يكونوا قرابة وذلك أنهم كانوا يتوارثون في ابتداء الإسلام بالهجرة، والمؤاخاة. قال الكلبي: آخى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بين الناس فكان يؤاخي بين الرجلين فإذا مات أحدهما، ورثه الثاني دون عصابته وأهله، فمكثوا كذلك ما شاء اللَّه حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين آخى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بينهم والمهاجرين فنسخت هذه الآية الموارثة بالمؤاخاة والهجرة، وصارت للأدنى فالأدنى من القرابات[2]. قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ﴾ استثناء ليس من الأول ومعناه: ولكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز. يريد أن يوصي الرجل لمن يتولاه ممن لا يرثه بما أحب من ثلث ماله فيكون الموصى له أولى بقدر الوصية من القريب الوارث.

وقال ابن زيد معناه: إلا أن توصوا لأوليائكم من المهاجرين[3]. قوله تعالى:

---

(1) ابن العربي في أحكام القرآن، 3: 1509.
القرطبي في تفسيره، 14: 123.
(2) البغوي في معالم التنزيل، 4: 434.
(3) الطبري في تفسيره، 11: 150.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي كان الميراث للأقرباء، والوصية للأصدقاء، ونسخ الميراث بالهجرة ورده إلى ذوي الأرحام مكتوباً في اللوح المحفوظ. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ أي واذكر إذ أخذنا من النبيين عهودهم أن يصدق بعضهم بعضاً، وبشر الأول بالآخر ويأخذ كل رسول منهم على قومه بما أمره اللّه به. وقوله تعالى: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ قيل: إن الواو مقحمة وتقديره: منك ومن نوح فيكون منك وما بعده تفسير النبيين، والفائدة في تخصيص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أهل الشرائع، والكتب، وأولو العزم من الرسل، ولهم الأمر والتبع، وقدم ذكر النبي صلى اللّه عليه وسلم لأن الخطاب معه. وجاء في التفسير أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «**إني خلقت قبل الأنبياء وبعثت بعدهم**»(1). قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً بأن يعبدوني ولا يشركوا بي شيئاً، وقيل: أخذنا منهم عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا قوله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي ليسأل المبلغين عن تبليغهم. وهو قوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(2) وفائدة سؤال الرسل وهم صادقون تبكيت الذين كفروا بهم فيكون هذا السؤال احتجاجاً على الكاذبين، وإذا سئل الصادقون فكيف يظن بالكاذبين. قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي أعد للذين كفروا بالرسل عذاباً شديداً.

قال اللّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿9﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿10﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿11﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿12﴾﴾.

(1) الطبري نفسه.
(2) سورة القصص 28، الآية: 65.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يذكرهم اللَّه إنعامه عليهم في دفع الأحزاب عنهم من غير قتال، وذلك أن الكفار جاؤوا بأجمعهم في وقعة الخندق وأحاطوا بالمدينة من أعلاها وأسفلها، فكان طلحة بن خويلد الأسدي وأصحابه من فوق الوادي وكان أبو الأعور السلمي وأصحابه من أسفل الوادي، وكان أبو سفيان وأصحابه، ويهود بني قريظة في مواجهة المؤمنين فاشتدَّ الخوف بالمؤمنين[1] وزاغت أبصارهم ،أي مالت من الخوف، ويقال مالت أبصار المنافقين خوفاً من النظر إليهم وكان الكفار خمسة عشر ألفاً، وبلغت قلوب المسلمين الحناجر أي كادت تبلغ الحلوق وذلك أن شدة الخوف ترفع الرئة فترفع الرئة القلب كما روي في الخبر عن أبي سعيد قال: قلنا يا رسول اللَّه قد بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيء؟ فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا يكفيكهم اللَّه تعالى**»، فأرسل اللَّه على الكفار ريحاً باردة منكرة شغلتهم عن الاستعداد للحرب، ومنعتهم من الثبات على المكان، وقلعت خيامهم وأكفأت أوانيهم[2]، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، والمسلمون منها في سلامة، وليس بينهم إلا مسافة الخندق، وكان ذلك إحدى معجزاته عليه السلام كما قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور**»[3].

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الذين تحزبوا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يوم الخندق وهم: عيينة بن حصن، وأبو سفيان بن حرب، وبنو قريظة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ وهي الصبا أرسلت عليهم حتى أكفأت قدورهم، ونزعت فساطيطهم. قوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة. روي أن شاباً من أهل الكوفة قال لحذيفة بن اليمان: «يا أبا عبد اللَّه: هل رأيت رسول

---

(1) سيرة ابن هشام، 3: 214، تاريخ الطبري، 2: 564، الطبقات الكبرى، 2: 50.

(2) ذكره الطبري في تفسيره، 11: 153، رقم 21614.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري، 8: 157، رقم 4105. كتاب المغازي، الصَّبَا: بفتح المهملة، وتخفيف الموحدة: الريح الشرقية. الدبور: الريح الغربية.

اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم؟ قال: أي واللَّه لقد رأيته، قال: واللَّه لو رأيناه لحملناه على رقابنا وما تركناه يمشي على الأرض فقال له حذيفة: يا ابن أخي أولا أحدثك عني وعنه؟ قال: بلى. قال: واللَّه لو رأيتنا يوم الخندق، وبنا من الجهد، والجوع ما لا يعلمه إلا اللَّه، قام رسول اللَّه ﷺ فصلى من الليل ما شاء اللَّه، ثم قال: «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله اللَّه رفيقي في الجنة**» فواللَّه ما قام منا أحد مما بنا من الخوف، والجهد، والجوع، ثم صلى ما شاء اللَّه، ثم قال: «**ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله اللَّه رفيقي في الجنة؟**» فواللَّه ما قام منّا أحد مما بنا من الخوف، والجهد، والجوع، فلما لم يقم أحد دعاني فلم أجد بداً من إجابته، قلت: لبيك يا رسول اللَّه، قال: «**اذهب فجئ بخبر القوم، ولا تحدثنَّ شيئاً حتى ترجع**»، قال حذيفة: فقمت وجنبيّ يضطربان، فمسح رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم رأسي، ووجهي، ثم قال: «**اللهم احفظه من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته**». قال: فانطلقت أمشي حتى أتيت القوم، وإذا ريح اللَّه، وجنوده تفعل بهم ما تفعل: ما يستمسك لهم بناء، ولا تثبت لهم نار، ولا تطمئن لهم قدر. فبينما هم كذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله، فقال: يا معشر قريش ما أنتم بدار مقام لقد هلك الخِفُّ والحافر، وأخلفتنا بنو قريظة، وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء ولا تثبت لنا نار، ولا تطمئن لنا قدر، ثم عجله، وركب راحلته، وإنها لمعقولة ما حلَّ عقالها إلا بعد ما ركبها[1].

قال حذيفة: فقلت في نفسي لو رميت عدو اللَّه فقتلته فكنت قد صنعت شيئاً، فأوترت قوسي، ثم وضعت السهم في كبد القوس، وأنا أريد أن أرميه، ثم ذكرت قول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**ولا تحدثن شيئاً حتى ترجع**»، فحططت القوس ثم رجعت إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، وهو يصلي، فلما فرغ قال: «**ما الخبر؟**» فأخبرته بذلك، فضحك حتى بدت أنيابه في

(1) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، 3: 451 ـ 452.
أخرجه الحاكم في المستدرك، 3: 31.
وذكره الهيثمي في المجمع، 6: 36.
وذكره الطبري في تفسيره، 11: 153، رقم 21616.

سواد الليل، ثم أدناني منه، وبي من البرد ما أجده، فألقى علي طرف ثوبه، وألزق صدري بطن قدميه وهو قائم يصلي[1]. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي مالت عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى عدوها مقبلاً من كل جانب، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ الحنجرة: جوف الحلقوم. قال قتادة: شخصت القلوب[2] من مكانها، فلولا أنه ضاق الحلقوم عنها أن تخرج لخرجت. قوله تعالى: ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني الملائكة بعث الله ملائكة على المشركين فقلعت أوتاد الخيام وأطناب الفساطيط، وأطفأت النيران، وجالت الخيل بعضها في بعض، وكثر تكبير الملائكة في جانب عسكرهم حتى وقع بهم الرعب فانهزموا من غير قتال. قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي من فوق الوادي من قبل المشرق عليهم مالك بن عوف النضري وعيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان، ومن أسفل منكم يعني من قبل المغرب فيهم أبو سفيان في قريش ومن تبعه وأبو الأعور السلمي من قبل الخندق. وكان من حديث الخندق: أن نفراً من اليهود منهم حيي بن أخطب وكنانة بن الربيع وهوذة بن قيس وأبو عمارة الوائلي وجماعة بن بني النضير خرجوا حتى قدموا مكة على قريش فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابوهم إلى ذلك ونشطوا له.

ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجابوهم، فاجتمعوا مع قريش فسارت غطفان وقائدها «عيينة بن حصن الفزاري»، وسارت بنو عامر وقائدها «الحارث بن عوف» وسارت بنو أشجع وقائدها «مسعر بن رحيلة الأشجعي»، وسارت قريش وقائدها أبو سفيان. فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الخندق على المدينة، وكان الذي أشار بالخندق على رسول الله صلى الله عليه وسلم «سلمان الفارسي» فقال: يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا

(1) القرطبي في تفسيره، 14: 137، السيرة النبوية لابن هشام، 3: 231.
أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 12: 145. باب غزوة الأحزاب.
ذكره أبو نعيم في الحلية، 1: 354.
(2) الطبري في تفسيره، 11: 158.

حوصرنا خندقنا، فحفره رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم والمسلمون حتى أحكموه، فلما فرغ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم من حفر الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بالمدينة، فخرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، والمسلمون وهم ثلاثة آلاف من المسلمين، فكان الخندق بينهم وبين المشركين، وعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم العدو من فوقهم، ومن أسفل منهم حتى ظن المؤمنون كل ظن، وظهر النفاق في قلوب المنافقين حتى قال معتب بن قشير المنافق: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى، وقيصر، وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط. ما وعد اللَّه، ورسوله إلا غروراً. فأقام النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وأقام الكفار معه بضعاً وعشرين ليلة قريباً من شهر ولم يكن بين القوم إلا الرمي بالنبل والحصى[1]، فلما اشتد البلاء على الناس واستطال، بعث النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى عيينة بن حصن الفزاري وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما من القوم، فجرى الصلح بينهما حتى وقع الكتاب، ولم تقع الشهادة[2]. فذكر ذلك رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، واستشارهما في ذلك، فقالا: يا رسول اللَّه أهذا شيء أمرك اللَّه به؟ أم أمر تحبه أنت؟ أم أمر تصنعه لنا؟ فإن كان أمراً من اللَّه لك فلا بد لنا من العمل به، وإن كان أمراً تحبه، فاصنع ما شئت، وإن كان شيئاً تصنعه لنا، فعرفنا به. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**بل واللَّه ما صنعت ذلك إلا أني رأيت العرب قد رمتكم بقوس واحد وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم**». فقال سعد بن معاذ: يا رسول اللَّه لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك، وعبادة الأوثان لا نعبد اللَّه ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمارنا ثمرة إلا قراء، أو شراء، فكيف وقد أكرمنا اللَّه بالإسلام، وأعزنا بك؟ نعطيهم أموالنا ما لنا بهذا من حاجة واللَّه لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم اللَّه بيننا وبينهم، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**فأنت وذاك**»، فتناول سعد

---

(1) تفسير الطبري، 11: 156، رقم 21623.
(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

الصحيفة التي كتبوا فيها صلحهم فمحاها[1]، ثم إنهم تراموا بالنبل، فوقعت رمية في أكحل[2] سعد بن معاذ فقطعه ،رماه[3] «ابن العرقة»[4] من قريش، فما زال أكحله يسيل دماً حتى خيف عليه، فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً، فأبقني لها. فإنه لا شيء أحب إلي من جهاد قوم آذوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وكذبوه، وأخرجوه، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة، ثم إن نعيم بن مسعود الغطفاني أتى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فقال: يا رسول اللّه إني قد أسلمت، وإن قومي من غطفان لم يعلموا بإسلامي، فمرني فيهم بما شئت، فقال عليه السلام: «**إنما أنت رجل واحد، فخذِّلهم**[5] **عنا إن استطعت**»[6].

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في الجاهلية، فقال لهم: يا بني قريظة لقد عرفتم ودّي لكم، وما بيني وبينكم من المحبة، قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشاً وغطفان جاؤوا لحرب محمد، وإن قريشاً وغطفان ليسوا من آلهتكم لأن هذه بلدكم وبها أموالكم،وأبناؤكم، ونساؤكم، ولا تقدرون أن تحولوا إلى غيرها، وإن قريشاً وغطفان، أموالهم، وأولادهم، ونساؤهم بعيدة إن رأوا لهم ها هنا صولة وغنيمة أخذوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم، وبين هذا الرجل، وهو رجل ببلدكم لا طاقة لكم به فلا تقاتلوه حتى تأخذوا رهناً من أشراف قريش، وغطفان يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم، فقالوا: لقد أشرت برأي ونصيحة، ثم جنح حتى أتى قريشاً فقال: يا معشر

---

(1) السيرة النبوية، 3: 223.
(2) الأكحل: عرق في الذراع.
(3) رماه: حبان بن عبد مناف بن منقذ بن عمرو بن معيص بن عامر بن لؤي.
(4) العرقة: هي قلابة بنت سعيد بن سعد بن سهم، ولقبت بالعرقة لطيب ريحها، السيرة النبوية، 3: 227.
(5) فخذلهم عنَّا: أي ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً.
(6) تفسير القرطبي، 14: 135.
السيرة النبوية لابن هشام، 3: 229.

قريش قد عرفتم ودّي إياكم وفراقي محمداً وقد بلغني أمر رأيت أن حقاً علي أن أبلغكموه نُصْحاً لكم فاكتموا علي، قالوا: نفعل، قال: اعلموا أن معشر اليهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من القبيلتين قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكَهُم فتضرب رقابهم. ثم نكون معك على من بقي منهم، فقال لهم نُعيم: وأنتم إذا بعثت اليهود إليكم يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً ثم خرج حتى أتى غطفان، وقال لهم: يا معشر غطفان أنتم أهلي وعشيرتي، وأحب الناس إلي، ولا أراكم تتهموني، قالوا: صدقت، قال: فاكتموا علي، ثم قال لهم مثل ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم[1]، فأرسل أبو سفيان ورؤوس غطفان إلى يهود بني قريظة نفراً من قريش، وغطفان، فأتوهم وقالوا لهم: قد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى يفرغ ما بيننا، وبين محمد. فقال بنو قريظة: لسنا بالذين نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم تكون ثقة في أيدينا، فإنا نخاف أنكم إذا اشتد عليكم الحرب والقتال أن تسيروا إلى بلادكم وتتركونا، وهذا الرجل قريب من بلادنا ولا طاقة لنا به. فرجعت الرسل بما قالت بنو قريظة، فقالت قريش، وغطفان: واللَّه إن الذي حدثنا به نعيم بن مسعود لحق، وأرسلوا إلى بني قريظة، واللَّه لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ولكنكم إذا كنتم تريدون الحرب، فاخرجوا فقاتلوا، ونحن معكم، قالت بنو قريظة: لا نقاتل إلا إذا أعطيتمونا رهناً من رجالكم، فقالوا لهم: قد حدثنا نعيم بن مسعود بذلك، فلم نصدقه، فقالوا لهم: إن الذي ذكره لكم لحق وجادل بينهم، وبعث اللَّه عليهم الريح في ليلة شاتية شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين والحمد للَّه رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ فأما المنافقون فظنوا أن محمداً وأصحابه سيغلبون ويستأصلون، وأما المؤمنون فأيقنوا أن ما وعدهم اللَّه تعالى حق، وأنه سيظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون قال الحسن: في معنى ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ يعني ظن المؤمنون باللَّه خيراً، وظن المنافقون أن الكافرين ظهروا

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام، 3: 230.

على المؤمنين[1] - قرأ نافع، وعاصم، وابن عارم «الظنونا والرسولا والسبيلا» بإثبات الألف فيها وقفاً ووصلاً لأنه من أواخر الآي، وقرأ أبو عمرو بغير ألف وصلاً ووقفاً، وقرأ الباقون بالألف في الوقف دون الوصل[2]. قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في تلك الحال اختبر المؤمنون بالقتال ليتبين المخلص من المنافق، وقيل معناه: امتحن المؤمنون بالخوف الشديد الذي عنده يظهر المؤمن القوي من المؤمن الضعيف وذو العزم الصحيح من غيرهم. قوله تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي أزعجوا وحركوا تحريكاً شديداً وذلك أن الخائف يكون قلقاً مضطرباً لا يستقر على مكانه. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ معناه: إذ يقول الذين يستبطنون الكفر، والذين في قلوبهم شك، وضعف اعتقاد ما وعدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن فارس والروم تفتحان علينا ونحن في مكاننا هذا الذي لا يقدر أحدنا أن يبرز لحاجته إلا باطلاً. قال قتادة: قال ناس من المنافقين يعدنا محمد أن نفتح قصور الشام وفارس، وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله، هذا والله الغرور[3].

قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

---

(1) تفسير الطبري، 11: 159.
(2) كتاب السبعة في القراءات، 519.
النشر في القراءات العشر، 2: 347.
(3) السيرة النبوية، 3: 222.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ قال مقاتل: هم بنو سالم من المنافقين[1]، وقال السدي: عبد اللّه بن أبي وأصحابه[2]. قالوا: يا أهل يثرب أي يا أهل المدينة. قال أبو عبيدة: يثرب اسم أرض ومدينة الرسول في ناحية منها[3] وقوله تعالى: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أي لا موقف لكم في هذا الموضع، فارجعوا إلى المدينة. وقرأ عاصم: لا مُقام لكم، بضم الميم[4] أي لا إقامة لكم هاهنا لكثرة العدو وغلبة الأحزاب، فارجعوا إلى منازلكم. أمروهم بالهرب من عسكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ معناه: ويستأذن فريق منهم النبي صلى اللّه عليه وسلم في الرجوع إلى منازلهم بالمدينة وهم بنو حارثة، وبنو سلمة[5]، وكانوا يعتلون في الاستئذان بقولهم: إن بيوتنا عورة أي إنها خالية من الرجال نخاف عليها. وقيل معناه: إن بيوتنا ليست بحريزة. وقال مقاتل والحسن معناه: قالوا بيوتنا ضائعة نخشى عليها السراق، وقال قتادة: قالوا بيوتنا مما يلي العدو ولا نأمن على أهلنا[6] فأكذبهم اللّه تعالى، وأعلم أن قصدهم الهرب، فقال عز وجل: ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال ونصرة المؤمنين.

قرأ ابن عباس، وأبو رجاء: ـ إن بيوتنا عوِرة ـ بكسر الواو[7] أي قصيرة الجدران فيها خلل وفرجة. قال الزجاج: يقال عور المكان يعور عوراً وعورة وبيوت عورة وعورة[8]. وهي مصدر والعورة في اللغة: ما ذهب عنه الستر،

---

(1) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
(2) القرطبي في تفسيره، 14: 148.
(3) مجاز القرآن، 2: 134.
(4) كتاب السبعة في القراءات، ص 520.
(5) البغوي في تفسيره، 4: 446.
(6) تفسير القرطبي نفسه.
(7) ابن جني في المحتسب، 2: 176، والنحاس: في إعراب القرآن، 3: 306.
(8) معاني القرآن وإعرابه، 4: 220.

والحفظ تقول العرب: أعور الفارس إذا كان فيه موضع خلل لضرب، وعور المكان إذا بدت فيه عورة. قال الشاعر:

مَتَى تَلْقَهم لا تَلْق للبيْتِ مُعْوراً ∴ ولا الضيف مفْجوعاً ولا الجَارَ مُرْمِلاً[1]

يقال أرمل القوم إذا فرغ زادهم. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ لو دخلت المدينة على هؤلاء المنافقين من أطرافها، يعني لو دخلت عليهم هؤلاء الأحزاب من نواحيها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا﴾ أي ثم دعوا إلى الشرك لأجابوها سريعاً وأعطوها من أنفسهم. والمعنى لو أن الأحزاب دخلوا المدينة ثم أمروهم بالشرك لأشركوا. قرأ أهل المدينة، لأتوها بالقصر[2] أي لفعلوها ٨١
بأنفسهم ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي وما تلبثوا بإجابتها إلا قليلاً حتّى يقتلوا. قال قتادة: وما احتبسوا عن الإجابة إلى الكفر إلا قليلاً. يقال معنى ما يتلبثون بالمدينة بعد إجابتهم إلى الشرك إلا يسيراً حتى يهلكوا. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ قيل إنهم بنو حارثة هموا يوم أحد أن يفشلوا مع بني سلمة فلما نزل فيهم ما نزل عاهدوا اللّه أن لا يعودوا لمثلها[3]. وقال قتادة: هم قوم كانوا قد غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى اللّه أهل بدر من الكرامة والفضيلة، فقالوا: لئن أشهدنا اللّه قتالاً لنقاتلن[4] فلما كان يوم الأحزاب لم يفوا بذلك العهد ومعنى الآية: ولقد كانوا عاهدوا اللّه من قبل غزوة الخندق لا يولون الأدبار، أي لا ينهزمون ولا يولون العدو ظهورهم. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ أي مطالباً به مسؤولاً عنه محاسباً عليه يسألون عنه في الآخرة. ثم أخبر اللّه أن الفرار لا يزيد في آجالهم.

فقال تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ أي من حضر أجله مات أو قتل فكلاهما مكتوب عليكم. قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي إن فررتم من الموت أو القتل في هذه الوقعة لم تمتعوا إلا قليلاً

---

(1) القرطبي في تفسيره، 14: 148.
(2) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات ص 520.
(3) القرطبي في المرجع المذكور، 14: 150.
(4) الطبري في تفسيره، 11: 166.

حتى يلحقكم أحد الأمرين، والمعنى: لا تمتعون بعد الفرار في الدنيا إلا مدة آجالكم ثم أخبر اللّه تعالى، أن ما قدره عليهم وأراده بهم لا يدفع عنهم، لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾. أي من ذا الذي يجيركم ويمنعكم من اللّه إن أراد بكم سوءاً أي هلاكاً وهزيمة، أو أراد بكم رحمة أي خيراً هو النصر. وهذا كله أمر للنبي صلى اللّه عليه وسلم، أن يخاطبهم بهذه الأشياء، ثم أخبر اللّه أنه لا ينفعهم قريب لهم ولا ناصر ينصرهم من اللّه تعالى فقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

قال اللّه تعالى:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿18﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿19﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ قال المفسرون: هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون المجاهدين، ويمنعونهم عن الجهاد. يقال: عاق يعوق إذا منع. وعوق إذا اعتاد المنع وعوقه إذا صرفه عن الوجه الذي يريده. قال قتادة: هم قوم من المنافقين كانوا يقولون: ما محمد، وأصحابه إلا أكلة[1] رأس ولو كانوا لحماً لالتقمهم أبو سفيان وحزبه. دعوا هذا الرجل فإنه[2] هالك، فخلوهم وتعالوا إلينا، ودعوا محمداً فلا تشهدوا معه الحرب، فإنا نخاف عليكم الهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي لا يحضرون القتال في سبيل اللّه إلا قليلاً أي لا يقاتلون إلا رياء وسمعة من غير احتساب ولو كان ذلك القليل للّه لكان كثيراً قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ أي بخلاً عليكم بأنفسهم وأموالهم

---

(1) أي جمع آكل فهم يعنون أن عددهم قليل يشبعهم رأس واحد.
(2) الطبري في تفسيره، 11: 168.

لا ينفقون شيئاً منها في سبيل اللّه ونصرة المؤمنين، ثم أخبر عن جبنهم فقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ في رؤوسهم من الخوف والفزع كما تدور أعين الذي يحضره الموت فيغشى عليه ويذهب عقله ويشخصه بصره فلا يطرف. كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم وتحار أعينهم لما يلحقهم من الخوف، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي بسطوا ألسنتهم وأرسلوها فيكم طاغين عليكم. قال الفراء معناه: آذوكم بالكلام[1] وعضوكم بألسنة سليطة ذربة يقال: خطيب مسلاق إذا كان بليغاً في خطبته. قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ أي بخلاً بالغنيمة يخاصمون فيها ويشاحون المؤمنين عليها عند القسمة، فيقولون: أعطونا فلستم أحق منا. قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾ أي هم وإن أظهروا الإيمان ونافقوا فليسوا بمؤمنين ﴿فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي أبطل جهادهم وثواب أعمالهم لأنه لم يكن من إيمان، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٩﴾. قال مقاتل معنى الآية: فإذا ذهب الخوف وجاء الأمن والغنيمة سلقوكم بألسنة حداد أي بسطوا ألسنتهم فيكم وقت قسمة الغنيمة، ويقولون: أعطونا فلستم أحق بها منا فأما عند الناس والقتال فأجبن قوم وأخذلهم، وأما عند الغنيمة فأشح[2] قوم.

قال اللّه تعالى:

﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ٢٢ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ﴾ أي يظن المنافقون من جبنهم

---

(1) معاني القرآن، 2: 339.

(2) الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

وخبثهم أن الأحزاب لم يذهبوا إلى مكة وقد ذهبوا وإن يأت الأحزاب في المرة الثانية أي يرجعوا إلى القتال يودوا لو أنهم داخلون في البادية مع الأحزاب يسألون عن أنبائكم أي يتمنون لو كانوا في بادية بالبعد منكم يسألون عن أخباركم يقولون: ما فعل محمد، وأصحابه؟ فيعرفون ما لكم بالاستخبار لا بالمشاهدة، والمعنى بسؤالهم أنه إذا كان الظفر لكم شاركوكم، وإن كان للمشركين شاركوهم، كل هذا من الخوف والجبن. قرأ يعقوب ـ يساءلون ـ بالتشديد[1] والمد يعني يتساءلون أي يسأل بعضهم بعضاً عن أخباركم. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ معناه: لو كان هؤلاء المنافقون فيكم ما قاتلوا إلا رمياً بالحجارة من غير احتساب. قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم في رسول اللّه قدوة حسنة في الصبر على القتال، والثبات عليه، واحتمال الشدائد في ذات اللّه لمن كان يرجو ثواب اللّه، وثواب الدنيا والآخرة، وذكر اللّه كثيراً، وذلك أن كل من ازداد ذكر اللّه في لسانه ازدادت رغبته في الاقتداء بالنبي صلى اللّه عليه وسلم، ومعنى الآية: لقد كان لكم برسول اللّه اقتداء لو اقتديتم به في نصرته والصبر معه في مواطن القتال كما فعل هو يوم أحد إذ كسرت رباعيته، وشج حاجبه، وقتل عمه فواساكم مع ذلك بنفسه فهلا فعلتم مثل ما فعل هو[2]. قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بدل من قوله لكم. وهو تخصيص بعد التعميم للمؤمنين. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ وذلك أن اللّه تعالى كان قد وعدهم في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[4] قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ أي ما زادهم مما رأوه إلا إيماناً وتصديقاً بوعد اللّه وتسليماً لأمره. قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا

---

(1) النشر في القراءات العشر، 2: 348، تفسير القرطبي، 14: 155.
(2) ينظر السيرة النبوية لابن هشام، 3: 79.
(3) سورة البقرة، 2: 214.
(4) سورة التوبة 9، الآية: 33. سورة الفتح 48، الآية 28. سورة الصف 61، الآية: 9.

﴿عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ أي من جملة المؤمنين رجال وافوا ما عاهدوا اللَّه عليه بالثبات على الدين والعمل بموجبه من الصبر على القتال وغير ذلك ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ أي من وفى بنذره، ومنهم من أقام على ذلك العهد، حتى قتل شهيداً في سبيل اللَّه. قيل: إن المراد به ـ «حمزة بن عبد المطلب» وأصحابه الذين قتلوا يوم أحد[1]. والنحب في اللغة: هو النذر، وقيل: النحب هو النفس ومنه النحيب: وهو التنفس الشديد، والنشيج في البكاء. والمعنى على هذا القول: منهم من قضى أجله، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ الموت على ذلك العهد. وقيل معناه: فمنهم من قضى نحبه أي مات، أو قتل في سبيل اللَّه فأدرك ما تمنى فذلك قضاء النحب، وقيل: فرغ من عمله، ورجع إلى اللَّه. وقال الحسن: قضى أجله على الوفاء والصدق[2]. قال ابن قتيبة: قضى نحبه أي قتل. وأهل النحب: النذر كان قوم نذروا أنهم إن لقوا العدو قاتلوا حتى يقتلوا أو يفتح اللَّه تعالى، فقتلوا. يقال: فلان قضى نحبه إذا قتل. وقال محمد بن إسحاق: ﴿فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ﴾ يعني: من استشهد يوم بدر وأحد، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ﴾ ما وعد اللَّه من نصر أو شهادة على ما مضى عليه أصحابه[3]. وعن عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت: طلحة بن عبيد اللَّه ممن قضى نحبه، ثبت مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى أصيبت يده[4]، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**أوجب طلحة الجنة**»[5]. وعن ابن أبي نجيح أن طلحة بن عبيد اللَّه كان يوم أحد عند النبي صلى اللَّه عليه وسلم في الجبل فجاء سهم متوجه إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فاتقاه طلحة بيده، فأصاب خنصره[6]. وعن عائشة أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قال: «**من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على**

---

(1) السيرة النبوية، 3: 112، طبعة المكتبة العلمية، بيروت لبنان.
(2) تفسير الطبري، 11: 176.
(3) السيرة النبوية، 3: 249، وتفسير البغوي، 4: 451.
(4) تفسير الثعلبي ـ خ ـ.
(5) أوجب الرجل: أي فعل فعلاً وجبت له به الجنة، الطبقات الكبرى، 3: 163، تفسير القرطبي، 14: 159.
(6) الثعلبي نفسه، وفي الطبقات الكبرى، 3: 162، أن الذي رمى ذلك السهم: مالك بن زهير.

الأرض وقد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة»[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**من سره أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله**»[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي ما غيروا عهد الله الذي عاهدوه عليه كما غيره المنافقون بقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي صدق المؤمنون في عهدهم ليجزيهم الله بصدقهم، ويعذب المنافقين بنقض العهد إن شاء. قال السدي: يميتهم الله على نفاقهم إن شاء فيوجب لهم العذاب، فمعنى شرط المشيئة في عذاب المنافقين إماتتهم على النفاق ﴿إِن شَآءَ﴾ ثم يعذبهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ليغفر لهم ليس إنه يجوز أن لا يعذبهم إذا ماتوا على النفاق[3]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لمن تاب، ﴿رَّحِيمًا ﴿24﴾﴾، بمن مات على التوبة.

قال الله تعالى:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿25﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿26﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿27﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ﴾ معناه: وصرف الله الكفار عن المؤمنين مغتاظين لم يكن فيهم من شفى غيظه، ولم ينالوا منهم مالاً ولا غنيمة ولم يروا سروراً. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ﴾ بالريح، والملائكة التي أرسلت عليهم ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ أي لم يزل قوياً في ملكه عزيزاً في قدرته، منيعاً بالنقمة من أعدائه. قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ معناه: وأنزل الذين عاونوا المشركين من أهل الكتاب وهم «بنو قريظة»[4] نقضوا العهد، وأعانوا الأحزاب[5] على رسول الله صلى

---

(1) الطبقات الكبرى نفسه، وحلية الأولياء، 1: 88.

(2) الزمخشري في تفسيره، 3: 256، وذكره الهيثمي في المجمع، 9: 148.

(3) ينظر ابن عطية في تفسيره، 13: 63.

(4) ينظر تفسير «سورتي آل عمران والنساء» من أحكام القرآن، لابن الفرس الغرناطي، تحقيق: محمد إبراهيم يحيى، ص 39.

(5) السيرة النبوية لابن هشام، 3: 221.
تفسير الطبري، 11: 181.

اللَّه عليه وسلم، فأنزلهم اللَّه من حصونهم مع شدة شوكتهم، وألقى في قلوبهم الرعب، وذلك أن بني قريظة كانوا قد عاهدوا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن لا ينصروا أعداءه عليه، فلما رأوا الأحزاب وكثرتهم ظنوا أنهم يستأصلون المؤمنين، فنقضوا العهد ولحقوا بهم.

فلما هزم اللَّه المشركين، ورجع النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلى بيته، وأراد أن ينزع لأمته[1] سمع همساً فنظر فإذا جبريل عليه السلام في درعه وسلاحه، فخرج إليه، فقال له جبريل: أتنزع لأمتك يا رسول اللَّه والملائكة لم ينزعوا حتى تقاتل بني قريظة، وتصلي فيهم العصر؟ فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**وكيف لي بقتالهم وهم في حصونهم**»؟ فقال جبريل: لا يهمنك ذلك فواللَّه لأدقنهم اليوم كما يُدَق البيض على الصفا، فنادى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في الأصحاب فخرجوا إلى حصون بني قريظة[2]، فألقى اللَّه الرعب في قلوب القوم حتى طلبوا الصلح، وأبوا أن ينزلوا إلا على حكم «سعد بن معاذ» وكان سعد قد أصابه سهم في أكحله في حرب الخندق، فسأل اللَّه أن يؤخره إلى أن يرى قرة عين النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فاستجاب اللَّه دعاءه فلما طلبت بنو قريظة النزول على حكم سعد رضي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فحمل سعد إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم[3] وقد احتبس أكحله فقال له النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**احكم فيهم**»، فقال: حكمت فيهم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، ونساؤهم، وأموالهم. فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لقد حكمت فيهم بمثل ما حكم اللَّه فيهم**»[4]، فلما قتل مقاتلتهم، وسبيت نساؤهم، وذراريهم، انفجر أكحل سعد فمات رحمه اللَّه[5]. والصَّياصِي: جمع صيصية وصيصية الثور: قرنه سمي بذلك لأن قرنه حصنه الذي يتحصن به، وروي أن

---

(1) اللأمة: هي أداة الحرب كلها من رمح، وبيضة، ومغفر، وسيف، ودرع.
(2) وكانوا في المنطقة الجنوبية الشرقية من المدينة، على بعد ثلاثة كيلومترات منها تقريباً.
(3) السيرة النبوية لابن هشام، 3: 239.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري، 8: 172 ـ 421 كتاب المغازي، ومسلم بشرح النووي، 12: 92.
(5) الطبقات الكبرى، 3: 393.

رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما رجع من الليلة التي انصرف فيها الأحزاب، ورجع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى المدينة، ووضع النبي صلى اللَّه عليه وسلم السلاح أتى جبريل عليه السلام إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم متعجِّراً[1] بعمامة من استبرق[2] على بغلة عليها قطيفة من ديباج ،ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم عند زينب بنت جحش تغسل رأسه وقد مشطت عقيصته، فقال جبريل: قد وضعت السلاح يا رسول اللَّه؟ قال: «**نعم**». قال: عفا اللَّه عنك يا رسول اللَّه، فواللَّه ما وضعت الملائكة السلاح منذ أربعين ليلة: إن اللَّه يأمرك بالسير إلى بني قريظة[3]، وكان هذا في وقت الظهر. فأمر النبي صلى اللَّه عليه وسلم منادياً ينادي[4]: «**من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة**»[5]. وقدم النبي صلى اللَّه عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه برايته إليهم، فسار إليهم علي رضي اللَّه عنه حتى إذا دنا من الحصون سمع منهم مقالة قبيحة في رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فرجع علي رضي اللَّه عنه حتى لقي النبي صلى اللَّه عليه وسلم بالطريق فقال: يا رسول اللَّه لا عليك أن تدنو من هؤلاء الخبائث، قال: «**أظنك سمعت منهم أذى**»؟ قال: نعم. فسار النبي صلى اللَّه عليه وسلم نحوهم حتى دنا من حصونهم، فقال لهم: «**يا إخوان القردة أخزاكم اللَّه، وأنزل فيكم نقمته**»، قالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً[6]، فحاصرهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف في قلوبهم الرعب، فلما أيقنوا أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم غير راجع عنهم، قال لهم كعب بن أسيد: يا معشر اليهود إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني سأعرض عليكم ثلاث خصال فخذوا بأيها شئتم، قالوا: وما هن؟ قال: أما الأولى فنبايع هذا الرجل ونصدقه، فواللَّه لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنوا على دمائكم،

---

(1) الاعتجار: أن يعتم الرجل دون أن يلقي شيئاً من عمامته تحت لحيته.
(2) الاستبرق: ضرب من الديباج غليظ.
(3) السيرة النبوية، 3: 233، البداية والنهاية، 4: 116، ط4، مكتبة المعارف، سنة 1982.
(4) قال ابن حجر في فتح الباري، 8: 168، فأمر بلالاً فأذّن في الناس... إلخ.
(5) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري، 8: 167 ـ 4119، كتاب المغازي.
(6) السيرة النبوية، 3: 234، بلفظه تقريباً، البداية والنهاية، 4: 119.

وأموالكم، ونسائكم، قالوا: لا نفارق ديننا أبداً، ولا نستبدل به غيره قال: فإن أبيتم هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد رجالاً مُصْلِتين السيوفَ ولم يكن وراءنا ثقل يهمنا حتى يحكم اللَّه بيننا وبينه، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فلا خير في العيش بعدهم، قال: فإن أبيتم هذه، فاعلموا أن هذه ليلة السبت، وأنه عسى أن يكون محمداً وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا، وقد علمت أن الذين أحدثوا فيه الأحداث مسخوا ولم يخف عليك أمرهم[1]، قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن ابعث إلينا «أبا لبابة» أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس نستشيره في أمرنا فأرسله النبي صلى اللَّه عليه وسلم إليهم، فسألوه: أننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه إنه الذبح[2].

قال أبو لبابة: فعلمت أني خنت اللَّه ورسوله، ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح حتى يتوب اللَّه عليّ مما صنعت، وعاهد اللَّه أن لا يطأ أرض بني قريظة أبداً، وقال: لا يراني اللَّه في بلد خنت اللَّه ورسوله فيه، فلما علم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قد مضى على وجهه، ولم يأته قال: **«أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذا فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه حتى يتوب اللَّه عليه»** ثم إن اللَّه تعالى أنزل توبته، فقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: **«تيب على أبي لبابة»** فثار الناس إلى أبي لبابة يطلقونه، فقال: لا واللَّه حتى يكون رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم هو الذي يطلقني، فجاء النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فأطلقه[3]، قال: فلما أصبح بنو قريظة نزلوا على حكم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فتواثبت الأوس، وقالوا: يا رسول اللَّه إنهم موالينا وحلفاؤنا دون الخزرج وقد فعلت في موالي الخزرج ما قد علمت وكان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قبل بني قريظة حاصر بني قَيْنُقاع وكانوا حلفاء

(1) السيرة النبوية أيضاً.
(2) المرجع المذكور نفسه، والبداية والنهاية، 4: 121.
(3) السيرة النبوية، 3: 237.

الخزرج فنزلوا على حكمه فسألهم إياه عبد اللَّه بن أبي بن سلول، فوهبهم له، فلما كلمه الأوس قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**يا معشر الأوس أما ترضون أن أحكِّم فيهم رجلاً منكم**»؟ قالوا: بلى، قال: «**فذاك سعد بن معاذ**»، وكان سعد بن معاذ قد جعله رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في خيمة امرأة من أسلم[1] يقال لها «رُفَيْدة» تداوي الجرحى وتخدم المرضى فلما حكمه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في بني قريظة أتاه قومه، فاحتملوه على حمار وقد وطأوا له وسادة من أدم وكان رجلاً جسيماً، ثم أقبلوا به إلى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وهم يقولون له: يا أبا عمرو أحسن في مواليك، فإن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إنما ولاك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه، قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في اللَّه لومة لائم فعرفوا أن بني قريظة مقتولون[2].

فلما انتهى سعد إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم قال: **قوموا إلى سيدكم**» فأنزلوه فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد ولاك مواليك لتحكم بينهم، فقال سعد: عليكم عهد اللَّه، وميثاقه إن الحكم فيهم ما حكمت. قالوا: نعم، قال: أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري، والنساء، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لقد حكمت فيهم يا سعد بحكم اللَّه من فوق سبعة أرقعة**»[3]، ثم استنزلوا فحبسهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم في دار امرأة[4] من بني النجار، ثم بعث إليهم من يخرجهم إليه أرسالاً[5]، وأمر بضرب أعناقهم وكان فيهم يومئذ عدو اللَّه «حُيَي بن أخطب» و«كَعْب بن أسد» رأس القوم في سبعمائة وقيل من ثمانمائة إلى سبعمائة، فقالوا لكعب وهم يذهب بهم إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم أرسالاً: يا كعب ما ترى ما يصنع بنا؟ قال: ما لكم لا تعقلون؟ ألا ترون أن

---

(1) في النسخة، س ـ المسلمين.

(2) السيرة النبوية.

(3) تقدم تخريجه ـ وأرقعة: بالقاف جمع رقيع، وهو من أسماء السماء، قيل سميت بذلك لأنها رقعت بالنجوم، النهاية في غريب الحديث والأثر رقع.

(4) أم ثابت رملة بنت الحارث بن ثعلبة النجارية، زوجة معاذ بن الحارث، أسلمت رملة، وبايعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، السيرة النبوية، 3: 240، الطبقات الكبرى، 8: 328، رقم 4598.

(5) أرسالاً: أي طائفة بعد طائفة.

من ذهب منكم لا يرجع؟ هو واللَّه القتل، فلم يزل ذلك ما بهم حتى فرغ منهم رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، ثم أتى بحيي بن أخطب عدو اللَّه وعليه حلة فقاحية[1]، ويداه مغلولتان إلى عنقه بحبل ثم أجلس، وضرب عنقه. قالت عائشة: كان علي، والزبير يضربان أعناق بني قريظة ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم جالس هناك. قالت عائشة: ولم يقتل من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة كانت واللَّه عندي تتحدث معي وتضحك، ورسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقتل رجالها فبينما هي كذلك إذا هاتف يهتف باسمها أين فلانة؟ قالت: هي أنا واللَّه. قالت عائشة: فقلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: طلبت لأقتل، قلت: ولم؟ قالت: حدثاً أحدثته، قالت: فانطلق بها، فضرب عنقها، قالت عائشة: ما أنسى عجباً منها، طيب نفس، وكثرة ضحك وقد علمت أنها تقتل. قال الواقدي: واسم تلك المرأة «نباتة» امرأة الحكم[2] القرظي وكانت قتلت «خلاد بن سويد»[3] رمت عليه رحى فقتلته. قتلها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بخلاد بن سويد[4].

وعن الزهري رضي اللَّه عنه قال: كان رجل من بني قريظة يقال له: «الزَّبير بن باطا» ويكنى: أبا عبد الرحمن. مرَّ يوماً على «ثابت بن قيس بن شماس» في الجاهلية يوم بعاث[5] أخذه وجزّ ناصيته، ثم خلّى سبيله فجاء

---

(1) فقاحية: يميل لونها إلى الحمرة، على لون الورد حين يقرب أن يتفتح ـ اللسان، فقح.

(2) في النسخة، ك: الحسن، الطبقات الكبرى، 3: 402، ط1، 1990م دار الكتب العلمية، بيروت.

(3) خلاد بن سويد بن ثعلبة، شهد خلاد العقبة، وشهد بدراً، وأحداً، والخندق، ويوم بني قريظة وقتل يومئذ شهيداً، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «له أجر شهيدين» الطبقات الكبرى، 3: 401 رقم 210.

(4) السيرة النبوية، 3: 242.

(5) من أشهر معارك العرب في الجاهلية «يوم بعاث» وسبب هذه المعركة أن اليهود من بني النضير، وبني قريظة سعوا في حلف مع الأوس، ووعدوهم النصرة والمؤازرة ضد الخزرج، وكانت الخزرج كثيراً ما تنتصر على الأوس وفي معركة بعاث انهزمت الأوس أولاً ثم انتصرت بعد ذلك على الخزرج، وأكثرت القتل فيهم حتى صاح صائح: يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فكف الأوس عن القتال، مراعاة لحرمة إخوانهم، وإبقاء عليهم وقبضوا أيديهم عن أعمال السلب، واتفق الطرفان على تتويج عبد اللَّه بن أبي بن سلول، ثم جاء الإسلام واتفقت الكلمة، واجتمعوا تحت راية النبي صلى اللَّه عليه وسلم على نصرة الإسلام وأهله؛ تاريخ ابن خلدون، 2: 88.

ثابت بن قيس يوم بني قريظة فوجده وقد صار شيخاً كبيراً فقال له ثابت: يا زبير هل تعرفني؟ قال: نعم وهل يجهل مثلي مثلك؟ قال: فإني أريد أن أجازيك بمالك عندي من اليد، قال: افعل فإن الكريم يَجْزي الكريم. قال ثابت: فأتيت النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فقلت: يا رسول اللَّه قد كان للزَّبير عندي يداً وصنيعة، وله علي منة، وقد أحببت أن أجزيه، فهب لي دمه، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**هو لك**»، فأتاه، فقال له: يا شيخ إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد وهب لي دمك، فقال: إني شيخ كبير، فإن ذهب أهلي، وأولادي فما أصنع بالحياة؟ قال ثابت: فأتيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فسألته أهله، وأولاده. فقال: «**هم لك**»، فقلت له: يا شيخ قد وهب لي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أقاربك، وأولادك، فقال: يا ثابت كيف يكون أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك؟ قال فأتيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فسألته ماله، فقال: هو لك، فأعلمته بذلك، فقال لي: يا ثابت ما فعل الذي وجهه مرآة مضيئة «كعب بن أسد»؟ قلت: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر، والبادي «حُيَي بن أخطب»؟ قلت: قتل، قال: فما فعل مقدمنا إذا شددنا، وحامينا إذا كررنا «غزَّال بن سَمَوْأَل»؟ قلت: قتل، قال: فما فعل ببني كعب بن قريظة؟ وبني عمرو بن قريظة؟ قلت: قتلوا كلهم، قال: فإني أسألك يا ثابت بما بيني وبينك من الصنيعة واليد إلا ما ألحقتني بالقوم، فواللَّه ما لي بالعيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصائر حتى ألقى الأحبة. فضرب ثابت عنقه[1]، فلما بلغ أبا بكر الصديق رضي اللَّه عنه قوله: «ألقى الأحبة» قال: يلقاهم واللَّه في نار جهنم خالدين فيها أبداً[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ أي ألقى في قلوبهم الخوف ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني المقاتلة ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿26﴾﴾ يعني الذراري، ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ يعني عقارهم ونحلهم ومنازلهم وأموالهم من الذهب والفضة والحلي والعبيد والإماء. قوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ يعني أرض بني

(1) السيرة النبوية، 3: 242، البداية والنهاية، 4: 125.
(2) السيرة النبوية، البداية والنهاية، نفسه.

النضير، وقيل: أرض خيبر[1]، والمعنى: وسيفتح اللَّه عليكم أرضاً لم تطأوها الآن بأقدامكم يعني خيبر، ففتحها اللَّه عليهم بعد بني قريظة. وقال الحسن: هي فارس والروم[2]، وقال قتادة: هي مكة. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ فيه بيان أن اللَّه تعالى قادر على إظهار الإسلام بغير القتال، وإنما أمر المؤمنين بالقتال ليعرضهم لجزيل الثواب.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿28﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿29﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿30﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿28﴾﴾ قال المفسرون: كان بعض أزواج النبي صلى اللَّه عليه وسلم سألنه شيئاً من عرض الدنيا وآذينه بزيادة النفقة، وهجرهن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم وآلى منهن شهراً أن لا يقربهن، ولا يخرج إلى أصحابه للصلوات، فقالت الصحابة: ما شأن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم؟ فقال عمر رضي اللَّه عنه: إن شئتم ذهبت إليه لأعلمكم ما شأنه؟ فذهب إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم، فاستأذن فأذن له، قال عمر: فجعلت أقول في نفسي: أي شيء أكلم به رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لعله ينبسط

---

(1) خيبر: تبعد عن المدينة حوالى مائة وخمسين كيلومتراً، على مسيرة أربعة أيام، أو خمسة شمالي المدينة بشرق، وقد غادر الجيش المدينة في المحرم سنة سبع من الهجرة، وكان يتألف من ألف وتسعمائة مقاتل، ومائة فارس، سار هذا الجيش الإسلامي بقيادة الرسول صلى اللَّه عليه وسلم ليلاً، فقطع المسافة في ثلاث مراحل لأن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم كان يعلم أن الطريقة الوحيدة التي يهزم بها هذا العدو المتحصن القوي هي المفاجأة، واتخذ صلى اللَّه عليه وسلم في سيره، طريق الصهباء فنزل في وادي الرجيع بين غطفان وخيبر، فأوهم غطفان أن الهجوم موجه إليهم، وبذلك عزل يهود خيبر عن حلفائهم غطفان. ينظر ابن كثير في البداية والنهاية، 4: 181.

(2) تفسير الطبري، 11: 186.

له؟ فقلت: يا رسول اللَّه لو رأيت فلانة وهي تسألني النفقة فصككتها صكة[1].

فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**فذلك الذي أجلسني عنكم**» فأتى عمر حفصة، فقال لها: لا تسألي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم شيئاً فما كان ذلك من حاجة فإليّ، ثم جعل يتبع نساء النبي صلى اللَّه عليه وسلم، ويكلمهن حتى قال لعائشة رضي اللَّه عنها: لا يغرنك أنك امرأة حسناء، وأن زوجك يحبك. لتنتهنّ أو لينزلنّ اللَّه فيكن القرآن. فقالت أم سلمة: يا ابن الخطاب أو ما بقي لك إلا أن تدخل بين رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم ونسائه، فمن تسأل المرأة إلا زوجها؟ فأنزل اللَّه تعالى هذه الآية[2] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى آخرها وكان يومئذ مع رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم تسع نسوة: خمس من قريش: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة[3] بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبي أمية، فهؤلاء من قريش؛ وصفية[4] بنت حيي بن أخطب، الخيبرية، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية[5] بنت الحارث، المصطلقية. وعن ابن عباس رضي اللَّه

---

(1) صكه صكة: دفعه بقوة، ولطمه، وضربه.

(2) أخرجه مسلم بشرح النووي من حديث أبي الزبير عن جابر بن عبد اللَّه، 10: 80، كتاب الطلاق.
تفسير الطبري، 11: 188، رقم 21703.

(3) أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان بن حرب، صحابية جليلة، من أمهات المؤمنين، تزوجها النبي صلى اللَّه عليه وسلم بعد وفاة زوجها عبيد اللَّه بن جحش الذي هاجرت معه إلى الحبشة، أرسل إليها الرسول صلى اللَّه عليه وسلم يخطبها وهي بالحبشة، وعهد للنجاشي بذلك ووكلت خالد بن سعيد، وقدمت على الرسول بالمدينة سنة سبع. روى لها البخاري ومسلم وغيرهما. توفيت بالمدينة سنة أربع وأربعين، الاستيعاب، 4: 1929.

(4) صفية بنت حيي بن أخطب من زوجات النبي صلى اللَّه عليه وسلم كانت قبل الإسلام تدين باليهودية، وتزوجها سلام بن مشكم القرظي، وفارقها فتزوجها كنانة بن الربيع النضري، وقتل عنها يوم خيبر، فأسلمت، وتزوجها الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، لها في كتب الحديث عشرة أحاديث، توفيت بالمدينة سنة خمسين هجرية، الاستيعاب، 4: 1871.

(5) جويرية بنت الحارث، إحدى زوجات النبي صلى اللَّه عليه وسلم تزوجها قبله مسافع بن صفوان، وقتل يوم المريسيع، وكان أبوها سيد قومه في الجاهلية فسبيت مع بني المصطلق فافتداها أبوها وزوجها من الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، وكانت من فضليات النساء أدباً وفصاحةً. روى لها البخاري، ومسلم وغيرهما، توفيت بالمدينة سنة ست وخمسين هجرية، الإصابة، 1: 265، الاستيعاب، 4: 1804.

عنهما، قال: كان رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم جالساً مع حفصة فتشاجرا فيما بينهما، فقال لها: «**هل لك أن أجعل بيني وبينك رجلاً؟**» قالت: نعم. قال: فأبوك إذاً فأرسل إلى عمر رضي اللَّه عنه، فلما دخل عليهما قال لها: تكلمي، قالت: يا رسول اللَّه تكلم ولا تقل إلا حقاً، فرفع عمر يده، فوجأ وجهها، فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم: كفَّ، فقال عمر: يا عدوة اللَّه أو يقول رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلا حقاً؟ والذي بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدي حتى تموتي، فقام صلى اللَّه عليه وسلم، فصعد إلى غرفة فمكث فيها شهراً لا يقرب شيئاً من نسائه يتغذى ويتعشى فيها، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ الآية فنزل النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وعرض ذلك عليهن كلهن، فلم يخترن إلا اللَّه ورسوله وكان آخر من عرض عليها حفصة، فقالت: يا رسول اللَّه إني في مكان العائذ بك من النار واللَّه لا أعود لشيء تكرهه أبداً بل أختار اللَّه ورسوله، فرضي عنها.

وقيل: إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لما نزلت عليه آية التخيير بدأ بعائشة، وكانت أحبهن إليه، فخيرها، فاختارت اللَّه ورسوله والدار الآخرة، فرؤي الفرح في وجهه عليه السلام وتابعها جميع نسائه على ذلك، فشكرهن اللَّه، وقصر نبيه صلى اللَّه عليه وسلم عليهن فقال ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، وقيل: لما نزلت هذه الآية قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**يا عائشة إني ذاكر لك أمراً فلا تعجلي حتى تستأمري فيه أبويك**»، ثم قرأ هذه الآية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ الآية، فقالت عائشة: قد علم اللَّه أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقك، وهل استأمر في هذا؟ إني أريد اللَّه ورسوله والدار الآخرة، ثم قالت: يا رسول اللَّه لا تخبر أزواجك أني اخترتك، ثم فعل أزواج النبي صلى اللَّه عليه وسلم كما فعلت[1]، وقيل: لما نزلت آية التخيير دعا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم نساءه، وخيرهن، وقال لعائشة: «**أما أنت فلا تحدثي من أمرك شيئاً حتى تشاوري أبويك**»، فقالت: أفيك أشاورهما؟ أنا

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري، 9: 474، رقم 7486، كتاب التفسير.

أختار اللَّه، ورسوله، والدار الآخرة، ما لنا وللدنيا فتبعها سائر أزواجه عليه السلام. ولم تختر واحدة منهن نفسها إلا المرأة الحميرية. قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أي أعطيكن مهوركن ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي أطلقكن على وجه السنة وقيل معناه: أخرجكن من البيوت لأنه ذكر المتعة قبل التسريح. قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ثواب اللَّه ورضى رسوله ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي الجنة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ﴾ باختيار ثواب اللَّه ورضى رسوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ في الآخرة. قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ قال ابن عباس: يعني النشوز وسوء الخلق. ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي يجعل عذاب جرمها في الآخرة كعذاب جرمين، والمعنى يزد في عذابها ضعف كما زيد في ثوابها ضعف في قوله تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ وإنما ضوعف عذابهن على الفاحشة لأنهن يشاهدن من الزواجر ما يردع عن مواقعة الذنوب ما لا يشاهد غيرهن، فإذا لم يمتنعن استحققن ضعف العذاب. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي وكان عذابهن على اللَّه هيناً. قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ﴾ قرأ ابن كثير، وابن عامر نُضَعِّف بالنون، وكسر العين مشددة من غير ألف العذابَ بالنصب، وقرأ أبو عمرو يُضَعَّف: بالياء، وفتح العين، والتشديد، ورفع العذابُ. قال أبو عمرو: وإنما قرأت هكذا مشدداً من غير ألف لقوله تعالى: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ يقال ضعفت الشيء إذا جعلته مثله، وضاعفته إذا جعلته أمثاله، وقرأ الباقون: يضاعف بالألف، ورفع العذابُ[1].

قال اللَّه تعالى:

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿31﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿32﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

(1) تراجع هذه القراءات في كتاب السبعة في القراءات، ص 521.
وكذا الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، 2: 196.

لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿33﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿34﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي ومن يطع منكن اللّه ورسوله، وقيل: ومن يقم منكن على طاعة اللّه وطاعة رسوله ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ فيما بينها وبين ربها ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أي نعطها مكان كل حسنة عشرين حسنة ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي حسناً يعني الجنة. والرزق الكريم: ما سلم من كل آفة ولا يكون ذلك إلا في الجنة. قرأ يعقوب: تقنت بالتاء[1] ومثله روي عن ابن عباس. قوله تعالى: ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ قرأ الأعمش وحمزة والكسائي وخلف: ويعمل صالحاً يؤتها، بالياء فيهما، وقرأ غيرهم: وتعمل بالتاء، ونؤتها بالنون[2]. قال الفراء: وإنما قرىء: يقنت بالياء لأن من أداة تقوم مقام الاسم يعبر به عن الواحد والاثنين والجمع والمؤنث والمذكر. قال اللّه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ﴾[3] ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ﴾[4] ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ﴾. قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾ معناه: ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات أنتن أكرم عليَّ، وأنا بكن أرحم، وثوابكن أعظم إن اتقيتن اللّه. وشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى لاتصالهن بالنبي صلى اللّه عليه وسلم. وقيل معناه: ليست حالتكن كحالة النساء غيركن في الطاعة، والمعصية، والثواب والعقاب، فإن كنتن متقيات عن المعاصي مطيعات للّه تعالى فلا نُلت القول للرجال على وجه يورث ذلك الطمع فيكن فيطمع المنافقون في مواضعتكن. فقوله تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ يعني زنى وفجورٌ، ونفاق. والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في المقالة لأن ذلك أبعد من الطمع في الريبة، وإنما قال: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ﴾. ولم يقل: كواحدة؟ لأن أحد عام يصلح للواحد والاثنين والجمع، والمذكر، والمؤنث. قال اللّه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ

---

(1) ينظر تفسير القرطبي، 14: 176، وتفسير الثعلبي ـ خ ـ.
(2) كتاب السبعة في القراءات، ص 521، والنشر في القراءات العشر، 2: 348.
(3) سورة يونس 10، الآية: 43.
(4) سورة يونس 10، الآية: 42.

بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[1] وقال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿47﴾﴾[2]. قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي قلن قولاً حسناً لا يؤدي إلى الريبة. وقيل معناه: وقلن ما يوجبه الدين والإسلام بغير خضوع فيه بل بتصريح، وبيان. قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الزمن بيوتكن ولا تخرجن إلا في ضرورة. قرأ نافع وعاصم: وقرن بفتح القاف[3] وهو من قررت في المكان أقرُّ وكان الأصل اقررن في بيوتكن، فحذفت الراء الأولى التي هي عين الفعل لأجل ثقل التضعيف، وألقيت حركتها على القاف كقوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿65﴾﴾[4] و﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾[5] والأصل: ظللت وظللتم. وقرأ الباقون: وقرن بكسر القاف[6] من الوقار أي كن أهل سكينة ووقار. والأمر منه للرجل: قِرْ وللمرأة: قري ولجماعة النساء: قرن كما يقال من الوعد: عِدْنَ ومن الوصل: صِلْنَ. وعن محمد بن سيرين قال: قيل لسودة بنت زمعة: ألا تحجين، ألا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حججت، واعتمرت، ثم أمرني اللَّه أن أقر في بيتي، فواللَّه لا أخرج منه حتى أموت، فواللَّه ما خرجت من باب بيتها حتى أخرجوا جنازتها[7] رضي اللَّه عنها. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التبرج: التبختر وإظهار الزينة وما يستدعي به من شهوة الرجال، وإبراز المحاسن للناس. والجاهلية الأولى: هي ما بين عيسى، ومحمد عليهما الصلاة والسلام. كانت المرأة من أهل ذلك الزمان تتخذ الدرع من اللؤلؤ فتلبسه ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها غيره، وتعرض نفسها للرجال. وقال بعضهم: الجاهلية الأولى هي ما بين آدم، ونوح. كان نساؤهم أقبح ما يكون من النساء، ورجالهم حسان، وكانت المرأة تراود الرجل عن نفسه، فنهى اللَّه تعالى هؤلاء

---

(1) سورة البقرة 2، الآية: 285.
(2) سورة الحاقة 69، الآية: 47.
(3) كتاب السبعة في القراءات، ص 521، والكشف عن وجوه القراءات السبع، 2: 197.
(4) سورة الواقعة 56، الآية: 65.
(5) سورة طه 20، الآية: 97.
(6) كتاب السبعة نفسه.
(7) القرطبي في تفسيره، 14: 180، والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

عن فعل هذه الجاهلية، وأمرهن بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة اللَّه ورسوله في باقي الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أي إنما أمركن اللَّه بما أمركن من الطاعة، ولزوم البيوت ليذهب عنكم الرجس يعني رجس الذنوب والعيوب. وقال ابن عباس: عمل الشيطان وما ليس فيه رضى. ومعنى الرجس: السوء وما يوجب العقوبة والمراد بأهل البيت هاهنا: نساء النبي صلى اللَّه عليه وسلم لأنهن في بيته[1] وقيل أهل البيت: كل من اتصل بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم من جهة نسب أو سبب على العموم. وعن أبي سعيد الخدري: أن الآية نزلت في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين[2] رضي اللَّه عنهم أجمعين، وعن أم سلمة رضي اللَّه عنها قالت: لما نزلت هذه الآية دعا رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم علياً، وفاطمة، والحسن، والحسين فجمعهم، وأنا بقطيفة خيبرية فلفها عليهم ثم ألوى بيده إلى السماء: «**اللهم أهلي هؤلاء أذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً**»، فقالت أم سلمة: فقلت: ولست من أهلك؟ قال: «**نعم**» فدخلت الكساء بعدما دعا، وانقضى دعاؤه[3]، وعن عكرمة رضي اللَّه عنه أنه قال: نزلت هذه الآية في أزواج النبي خاصة، وليس هو الذي يذهبون إليه، وكان عكرمة ينادي بهذا في السوق[4]، واحتج بقوله في الخطاب: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ وكلا الخطابين لأزواج النبي صلى اللَّه عليه وسلم يعني الخطاب الأول ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، وهذا الخطاب الثاني وإنما ذكر الخطاب في قوله تعالى: ﴿عَنكُمُ﴾ ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ لأن النبي صلى اللَّه عليه وسلم كان فيهن فغلب المذكر. قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي واحفظن ما يقرأ عليكن في بيوتكن من القرآن، والمواعظ، وهذا مثالهن على حفظ القرآن والأخبار

---

(1) البغوي في تفسيره، 4: 464.
(2) البغوي نفسه، وكذا الواحدي في أسباب النزول، ص 295.
(3) المرجع نفسه، وكذا الواحدي في المرجع نفسه.
(4) الثعلبي في تفسيره: خ، والواحدي نفسه.

ومذاكرتهنّ بهما للإحاطة بحدود الشريعة. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي لطيفاً بأوليائه، خبيرا بجميع خلقه، وبجميع مصالحهم.

قال اللّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿35﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآية قال قتادة: لما ذكر اللّه أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم دخل النساء من المسلمات عليهن فقلن ذكرتن ولم نذكر؟ فأنزل اللّه هذه الآية[1]. وقال مقاتل: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب دخلت على نساء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا. فأتت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقالت: يا رسول اللّه إن النساء لفي خيبة وخسارة قال: «**ومم ذلك؟**» قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[2]، وقال مقاتل: قالت أم سلمة بنت أبي أمية، وأنيسة بنت كعب الأنصارية للنبي صلى اللّه عليه وسلم: ما بال ربنا يذكر الرجال، ولا يذكر النساء في شيء من كتابه، فعسى أن لا يكون فيهن خير ولا للّه فيهنّ حاجة؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[3]، وقيل: إن أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم قلن: يا رسول اللّه ذكر اللّه عز وجل الرجال في القرآن ولم يذكر النساء بخير فما فينا خير نذكر به إنا نخاف ربنا ألا يتقبل منا طاعة؟ فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[4]. وأعلم أن الرجال، والنساء يجازون بأعمالهم الصالحة مغفرة ذنوبهم وأجراً عظيماً، ومعنى الآية: إن المسلمين والمسلمات يعني

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 296، والطبري في تفسيره، 12: 14.
(2) الواحدي في المرجع نفسه.
(3) البغوي في تفسيره: 4: 465.
(4) البغوي في المرجع نفسه.

المخلصين بالتوحيد والمخلصات، والمؤمنين والمؤمنات أي المصدقين بالتوحيد، والمصدقات، والإسلام في اللغة هو الانقياد والاستسلام، والإيمان في اللغة: هو التصديق غير أن معنى الإسلام والإيمان في هذه الآية واحد.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ أي المطيعين للَّه في أوامره ونواهيه والمطيعات. والقانت: هو المواظب على الطاعة. والقنوت: هو طول القيام في الصلاة. قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ يعني الصادقين في إيمانهم والصادقات. قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ الصابر: هو الذي يحبس نفسه عن جميع ما يجب الصبر عنه، ويصبر على جميع ما يجب الصبر عليه. قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ يعني بالمتصدقين: الذين يؤدون ما عليهم من الصدقة المفروضة. ويقال: أراد به جميع الصدقات، وأما الخاشع: فهو المتواضع للَّه تعالى وللناس. قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ يعني الصائمين صوم الفرض بنية صادقة، ويكون فطرهم على حلال. قال ابن عباس: من صام شهر رمضان، وثلاثة أيام من كل شهر الغرّ البيض كان من أهل هذه الآية، ويؤتون يوم القيامة بمائدة من الجنة يأكلون منها والناس في شدة، ويظلهم اللَّه تحت ظل عرشه، والناس في شدة، وينفخ من أفواههم ريح المسك[1]. قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أي عما لا يحل. قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ قيل: أراد به الذكر في الصلوات الخمس، وقيل: أراد به الذكر باللسان والقلب، في جميع الأحوال. قال ابن عباس: يريد في أدبار الصلوات، وغدواً وعشياً، وفي المضاجع وكلما استيقظ من نومه، وكلما غدا وراح من منزله ذكر اللَّه تعالى.

وقال مجاهد: لا يكون الرجل من الذاكرين اللَّه كثيراً حتى يذكر اللَّه قائماً وقاعداً ومضطجعاً[2]، وعن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته، فصليا جميعاً**

---

(1) الثعلبي في تفسيره: خ.

(2) القرطبي في تفسيره، 14: 186.

ركعتين كتبا من الذاكرين اللّه كثيراً والذاكرات»[1]. قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ وهو الجنة.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ نزلت هذه الآية: في عبد اللّه بن جحش، وأخته زينب، وكانت أمهما أمية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى اللّه عليه وسلم، خطب النبي صلى اللّه عليه وسلم زينب بنت جحش لزيد بن حارثة مولاه، فكره أخوها عبد اللّه أن يزوجها من زيد وكان زيد عربياً في الجاهلية مولى في الإسلام[2]، كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أصابه من سبي الجاهلية فأعتقه وتبناه، فقالت زينب: لا أرضاه لنفسي. ثم قالت: يا رسول اللّه أنا أيم نساء قريش وابنة عمتك فلم أكن لأفعل، ولا أرضاه يا رسول اللّه، وقال أخوها عبد اللّه: كذلك أيضاً. وكانت زينب بيضاء جميلة، وكان فيها حدة، فقال صلى اللّه عليه وسلم: «**لقد رضيته لك**» فأنزل اللّه تعالى هذه الآية[3]: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ﴾ أي ما ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة، يعني عبد اللّه بن جحش وأخته زينب، إذا اختار اللّه تعالى ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة من أمرهم بخلاف ما اختار اللّه ورسوله. قرأ أهل الكوفة: تكون لهم الخيرة، بالياء

٨٦

(1) ذكره الزمخشري في تفسيره من غير سند، 3: 261.
وكذا السيوطي في تفسيره الدر المنثور، 5: 380.
(2) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 16.
(3) الطبري نفسه.

للحائل بين التأنيث والفعل، وقرأ الباقون بالتاء[1]. قوله تعالى: ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ قرأ العامة بفتح الياء، وقرأ ابن السميقع: الخيرة بسكون الياء[2] وهما لغتان وإنما جمع الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ لأن المراد بقوله: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ كل مؤمن ومؤمنة في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمر به ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أي فقد أخطأ وذهب عن الحق والصواب ذهاباً بيناً. فلما نزلت هذه الآية: قالت: قد رضيت يا رسول اللّه، وكذلك رضي أخوها، فجعلت أمرها إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فزوجها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من زيد. ساق إليها النبي صلى اللّه عليه وسلم عشرة مثاقيل، وستين درهماً، وخماراً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر[3]. قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي واذكر يا محمد قولك للذي أنعم اللّه عليه بالإسلام وغيره، وأنعمت أنت عليه بالإعتاق، وهو زيد بن حارثة وقع بينه وبين امرأته زينب تشاجر فجاء زيد إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم، يشكوها مما كانت تستطيل عليه لشرفها، فقال صلى اللّه عليه وسلم لزيد على سبيل الأمر بالمعروف ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي امرأتك ولا تطلقها. ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فيها ولا تفعل في أمرها ما تأثم به. قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ خطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلم وذلك أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أضمر في نفسه أنه إن طلقها زيد تزوجها هو وضمها إلى نسائه صلة لرحمها وشفقة عليها، فعاتبه اللّه على إضمار ذلك وإخفائه لكي لا يكون ظاهر الأنبياء عليهم السلام إلا كباطنهم. وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يعلم أنهما لا يتفقان لكثرة ما كان يجري بينهما من الخصومة فجعل يخفيه عن زيد، وكان الأولى بالنبي صلى اللّه عليه وسلم أن يدعوهما إلى الخلع فلم يفعل،

---

(1) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 522.

(2) ذكر القرطبي في تفسيره هذه القراءة، 14: 187.
والثعلبي في تفسيره: خ.

(3) الثعلبي في تفسيره: خ.

وقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾. خشية أنه لو خالعها ثم تزوجها النبي صلى اللَّه عليه وسلم أن يطعن الناس عليه، فيقال تزوج بحليلة ابنه بعدما بين للناس: أن حليلة الابن حرام على الأب. فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي تخاف لائمتهم أن يقولوا: أمر رجلاً بطلاق امرأته ثم نكحها.

قال ابن عباس: في هذه الآية أراد بالناس «اليهود» خشي أن يقول اليهود تزوج محمد امرأة ابنه. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ أي هو أولى أن تخشاه في كل الأحوال. وعن علي بن الحسين: أنه سئل عن هذه الآية فقال: كان اللَّه تعالى قد أعلم نبيه عليه السلام أن زينب ستكون من أزواجه، وأن زيداً سيطلقها، فعلى هذا يكون النبي صلى اللَّه عليه وسلم معاتباً على قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ مع علمه بأنها ستكون زوجته، وكتمانه ما أخبره اللَّه به، وإنما كتم النبي صلى اللَّه عليه وسلم لأنه استحيا أن يقول لزيد إن زوجتك ستكون امرأتي(1)، وقيل: إن زيد بن حارثة أراد فراقها، فجاء إلى النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: «**ما لك؟ أرابك منها شيء**»؟ قال: لا واللَّه يا رسول اللَّه، واللَّه ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي لشرفها، وتؤذيني بلسانها، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ثم إن زيداً طلقها، فلما انقضت عدتها قال صلى اللَّه عليه وسلم لزيد: «**ما أجد في نفسي أحداً أوثق منك. اذهب إلى زينب فاخطبها لي**»، قال زيد: فذهبت، فإذا هي تخمر عجينتها، فلما رأيتها عظمت في صدري حتى لم أستطع أن أنظر إليها حين علمت أن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم قد ذكرها فوليتها ظهري، وقلت: يا زينب أبشري: إن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يخطبك ففرحت بذلك، ونزل القرآن ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فتزوجها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، فدخل بها، وما أولم على امرأة من نسائه ما أولم عليها. أطعم الناس الخبز واللحم حتى امتدّ النهار. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ قضاء الوطر في اللغة: بلوغ منتهاها في النفس من الشيء يقال: قضى وطراً منها: إذا بلغ ما أراد من

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 18.
وكذا القرطبي في تفسيره، 14: 190.

حاجته فيها، ثم صار عبارة عن الطلاق لأن الرجل إنما يطلق امرأته: إذا لم يبق له فيها حاجة.

وعن أنس رضي اللَّه عنه قال: لما انقضت عدة زينب بنت جحش خطبها رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم، ونزل قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ فجاء رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى دخل عليها بغير إذن لقوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وكانت زينب تفاخر نساء النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وتقول: زوجكن أهلوكن، وزوجني اللَّه عز وجل. ومعنى الآية: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا﴾ وطراً وطلقها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾[1]. قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي زوجناك زينب لكيلا يظن أن امرأة المتبنى لا تحل. والأدعياء جمع دعيّ وهو الذي يدعي ابناً من غير ولادة. قال الحسن: كانت العرب تظن أن حرمة المتبنى كحرمة الابن، فبين اللَّه: أن حلائل الأدعياء غير محرمة على المتبنى وإن أصابوهن وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ بخلاف ابن الصلب فإن امرأته تحرم بنفس العقد. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ معناه: وكان تزويج النبي صلى اللَّه عليه وسلم لزينب قضاء كائناً مكتوباً في اللوح المحفوظ.

قال اللَّه تعالى:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿38﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿39﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿40﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي ما كان عليه من ضيق وإثم فيما شرعه اللَّه تعالى وأحله له، كسنة اللَّه في سائر الأنبياء الماضين في التوسعة عليهم في النكاح. قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ منصوب بنزع الخافض قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ أي قضاء مقضياً أخبر اللَّه تعالى أن أمر زينب كان من حكم اللَّه وقدره.

---

(1) ينظر القرطبي في تفسيره، 14: 192.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ موضع الذين الخفض لأنه نعت الأنبياء عليهم السلام، الذين خلوا من قبل. كانوا يبلغون الرسالة ويخشون اللّه ولا يخشون أحداً سواه، أي لا يخشون مقالة الناس ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ أي مجازياً لمن يخشاه، وقيل: حفيظاً لأعمال العباد مجازياً لهم. قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما تزوج زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه، فأنزل اللّه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ يعني أنه ليس بأبي زيد[1] حتى يحرم عليه زوجته، ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، فعظموه واقتدوا به. قرأ الحسن وعاصم: وخاتم بفتح التاء أي آخر النبيين، وقرأ الباقون بكسر التاء على الفاعل[2] أي أنه ختم النبيين بالنبوة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ أي لم يزل عالماً بكل شيء من أقوالكم وأفعالكم.

قال اللّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42) هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (43) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (44)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (42)﴾ اختلفوا في المراد بالذكر الكثير في هذه الآية ـ قال الكلبي المراد به: الصلوات الخمس وهي تتضمن أذكاراً كثيرة، وأراد بالتسبيح: التنزيه في الصلاة. وقال مجاهد: هو أن لا ينساه أبداً، وقال مقاتل: هو التسبيح، والتحميد، والتهليل والتكبير على كل حال، وهو أن يقول: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر، وهذه الكلمات يتكلم بهن صاحب الجنابة، والغائط، والحدث[3]. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**يقول اللّه تعالى:**

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره، 4: 471.

(2) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 522، والفراء في معاني القرآن، 2: 344. والنحاس: في إعراب القرآن، 3: 317.

(3) تراجع هذه الأقوال في تفسير القرطبي، 14: 197، والبغوي في المرجع نفسه.

أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه»[1].

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿42﴾﴾ أي صلوا له بالغداة والعشي. قال الكلبي: أما بكرة: فصلاة الفجر وأما أصيلاً فصلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء[2]. وقال بعضهم: أراد بذلك صلاة الصبح، وصلاة العصر على قول قتادة[3]. وصلاة المغرب على قول غيره، وخص طرفي النهار بالذكر لأنه يجتمع عندهما ملائكة الليل والنهار، فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون، وقيل: خص التسبيح بطرفي النهار: لأن صحيفة العبد إذا كان في أولها وآخرها ذكر وتسبيح يرجى أن يغفر ما بين طرفي الصحيفة. وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**ما جلس قوم مجلساً قط يذكرون اللَّه تعالى إلا نادى مناد من السماء: أن قوموا فقد غفرت لكم ذنوبكم، وبدلت سيئاتكم حسنات**»[4]. وقيل معنى قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ أي بالليل والنهار، وفي البر، والبحر، والسفر، والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر، والعلانية، وعلى كل حال. قال مجاهد: الكثير: هو الذي لا يتناهى أبداً. قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي يرحمكم، ويغفر لكم. قوله تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أي يدعون لكم، وقيل يأمر الملائكة بالاستغفار لكم والصلاة من اللَّه تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي من ظلمات المعاصي والجهل إلى نور العلم والطاعة. وقيل: من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ أي لم يزل رحيماً بهم إذ رضي عنهم، وأمر الملائكة بالاستغفار لهم. قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ أي تحية المؤمنين من اللَّه تعالى يوم يلقونه أن يسلم عليهم. تقول لهم الملائكة بأمر اللَّه: السلام عليكم مرحباً بعبادي المؤمنين الذين أرضوني في دار الدنيا باتباع أمري، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ

---

(1) أخرجه ابن ماجه في سننه، 2: 1246 رقم 3792، كتاب الأدب باب فضل الذكر.
(2) البغوي في تفسيره، 4: 473.
(3) الطبري في تفسيره، 12: 23.
(4) أخرجه ابن ماجه في سننه، 2: 1245 رقم 3791، باب فضل الذكر.

خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾[1]. قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا﴾ أي رزقاً حسناً في الجنة. وقيل الأجر الكريم: هو الذي يكون عظيم القدر.

قال اللّٰه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿45﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿46﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿47﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿48﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ أي شاهداً على أمتك، وعلى جميع الأمم بتبليغ الرسالة، ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ للخلق بالجنة والثواب لمن أطاع اللّٰه وصدقك، ﴿وَنَذِيرٗا﴾ أي ومخوفاً بالنار والعقاب لمن عصى اللّٰه تعالى وكذبك. قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي وأرسلناك داعياً للخلق إلى دين اللّٰه تعالى بأمره، يعني أنه أمرك بهذا. قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ أي وأرسلناك سراجاً مضيئاً لمن اتبعك واهتدى بك كالسراج في الظلمة يستضاء به، وإنما سمي النبي صلى اللّٰه عليه وسلم سراجاً لأنه بعث والأرض في ظلمة الشرك، فكان حين بعث كالسراج في الظلمة. قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿47﴾﴾ أراد بالفضل الكبير: مغفرة اللّٰه لهم وما أعد لهم في الجنة. قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يطلبونه منك وقد ذكرنا تفسيره في أول السورة. قوله تعالى: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ أي اصبر على أذاهم واحتمل منهم ولا تشتغل بمجازاتهم إلى أن تؤمر فيهم بأمر وهذا منسوخ بآية السيف[2]. قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي فوض أمورك إليه فإنه سيكفيك أمرهم إذا توكلت عليه أي توكل عليه في كفاية شرهم وأذاهم ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ إذا وكلت أمرك إليه.

---

(1) سورة الزمر 39، الآية: 73.

(2) يراجع الناسخ والمنسوخ لابن العربي، 2: 331. تحقيق: عبد الكبير.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿49﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ أي إذا تزوجتموهن ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن فما لكم عليهن من عدة تستوفونها بالعدد لا بالحيض ولا بالشهور. والاعتداد: هو استيفاء العدد، أسقط اللَّه العدة عن المطلقة قبل الدخول لبراءة رحمها، فلو شاءت تزوجت من يومها. قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ أي أعطوهن متعة الطلاق وهذا على سبيل الوجوب فيمن لم يدخل بها ولم يسم لها مهراً، وعلى الندب فيمن سمى لها مهراً ثم طلقها قبل الدخول. وقال سعيد بن المسيب: نسخ حكم هذه الآية[(1)] بقوله في سورة البقرة: ﴿فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ﴾[(2)]. وقال الحسن: المتعة واجبة لكل مطلقة، ومختلعة، وملتعنة ولكن لا يجبر عليها الزوج[(3)]. قوله تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أراد به التسريح عن المنزل لا عن النكاح لأن حق الحبس لا يثبت إلا بأحد أمرين: إما النكاح وإما العدة وقد عُدما جميعاً في هذا الموضع بعد الطلاق المذكور. والسراح الجميل: هو الذي لا يكون فيه جفوة، ولا أذى، ولا منع حق. قال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي أعطوهن المتعة قال: وهذا إذا لم يكن سمى لها صداقاً، فأما إذا فرض لها صداقاً فلها نصفه[(4)].

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ

---

(1) يراجع ابن العربي في الناسخ والمنسوخ، تحقيق عبد الكبير، 2: 336.
وكذا أحكام القرآن لابن العربي، 1: 218 وما بعدها.
الطبري في تفسيره، 12: 25، 26.

(2) سورة البقرة 2، الآية: 237.

(3) ينظر تفسير القرطبي، 3: 200 ـ 201.

(4) البغوي في تفسيره، 4: 475.

أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿50﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي أبحنا لك نساءك اللاتي تزوجتهن بمهور مسماة، وأعطيت مهورهن، وسمى المهر أجراً لأنه يجب بدلاً عن منافع البضع كما أن الأجر يجب بدلاً عن منافع الدار، والعبد. قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي وأبحنا لك ما ملكت يمينك يعني الجواري التي تملكها. قوله تعالى: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي مما أعطاك اللَّه من الغنيمة مثل «جويرية بنت الحارث» و«صفية بنت حيي». ويدخل في هذا اللفظ التسري والتزوج كما روي في «صفية» أنه عليه السلام: أعتقها، ثم تزوجها، وجعل عتقها صداقها. قوله تعالى: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ﴾ أراد به إباحة تزويج بنات عمه وبنات عماته من بني عبد المطلب، وبنات خاله وبنات خالاته يعني نساء بني زهرة من بني عبد مناف. قوله تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي هاجرن معك من مكة إلى المدينة، وهذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات، ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل. قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أي وأحللنا لك امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي بلا مهر إن أراد النبي أن يتزوجها. ومن قرأ: أن وهبت نفسها بالفتح فمعناه: أحللناها لأن وهبت نفسها، وهي قراءة الحسن. والفتح على المضي والكسر على الاستئناف[1]. قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ أي إن أراد أن يتزوجها فله ذلك قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي خاصة لك من دون المؤمنين فليس لامرأة أن تهب نفسها لرجل بغير شهود، ولا ولي، ولا مهر إلا النبي صلى اللَّه عليه وسلم وهذا من خصائصه في النكاح كالتخيير والعدد في النساء، ولو تزوجها بلفظ الهبة وقبلها بشهود ومهر انعقد النكاح، ولزمه المهر، وهذا مذهب أبي حنيفة، وقال الشافعي ومالك: لا ينعقد النكاح

(1) ينظر النحاس في إعراب القرآن، 3: 320.
وكذا تفسير القرطبي، 14: 209.

بلفظ الهبة إلا للنبي صلى اللّه عليه وسلم خاصة لأنه تعالى قال: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ولم يقل لك لأنه لو قال: وهبت نفسها لك. كان يجوز أن يتوهم أنه يجوز ذلك لغيره عليه السلام كما جاز في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ﴾، ولأنه تعالى قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وحجة أبي حنيفة وأصحابه: أن في إضافة الهبة إلى المرأة دليلاً أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن مخصوصاً بالنكاح بلفظ الهبة، وإنما كان خصوصيته في جواز النكاح بغير بدل ولو لم يكن بلفظ الهبة نكاحاً. قال تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ فلما جعل اللّه الهبة جواباً للاستنكاح علم أن لفظ الهبة نكاحاً. قال تعالى: ﴿خَالِصَةً﴾ نعت مصدر تقديره: إن وهبت نفسها هبة خالصة لك بغير عوض أحللنا لك ذلك من دون المؤمنين. فأما المؤمنون إذا قبلوا هذه الهبة على وجه النكاح لزمهم المهر. ويقال إن الخالصة، نعت للمرأة أي جعلناها خالصة لك فلا تحل لغيرك من بعدك. وقد اختلفوا في هذه المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى اللّه عليه وسلم فقال قتادة: هي ميمونة بنت الحارث، وقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة امرأة من الأنصار وكانت تسمى أم المساكين، وقال الضحاك ومقاتل: هي أم شريك بنت جابر من بني أسد، وقال عروة بن الزبير: هي خولة بنت حكيم بن الأوقص[(1)] من بني سليم .قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ أي قد علمنا المصلحة للمؤمنين في أن لا يتزوجوا أكثر من الأربع، ولا يتزوجوا بغير مهر، وولي، وشهود. قوله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي وقد علمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم حتى لا يجوز لهم التزوج بالمعتقة من غير مهر وحتى لا يباح لهم بملك اليمين كما أبيح للنبي صلى اللّه عليه وسلم فإنه كان له الصفي من الغنيمة ولم يكن لغيره وقيل معناه: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ممن يجوز سبيه، وحربه فأما من كان له عهد فلا، قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ أي ضيق في أمر النكاح، ومنع من شيء تريده وهذا فيه تقديم وتأخير تقديره: خالصة لك من

---

(1) تنظر هذه الأقوال في تفسير البغوي «معالم التنزيل»، 4: 477.

المؤمنين لئلا يكون عليك حرج أي أحللنا لك ما ذكرنا ليرتفع عنك الحرج، والضيق. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي غفوراً للنبي صلى الله عليه وسلم في التزويج بغير مهر، رحيماً به في تحليل ذلك له. وقيل: غفوراً لمن يستحق المغفرة، رحيماً بالعباد فيما يتصل بالدين والدنيا.

قال الله تعالى:

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (51) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا (52) ﴾.

قال الإمام الحداد:

قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ معناه: تؤخر من تشاء عن فراشك من نسائك، وتضم إلى فراشك من تشاء منهن من غير حرج عليك، وهذا من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم تفضيلاً له، أبيح له أن يجعل لمن أحب منهن يوماً أو أكثر ويعطل من يشاء منهن فلا يأتيها، وكان القسم واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم، والتسوية بينهن.. فلما نزلت هذه الآية سقط عنه الوجوب، وصار الاختيار إليه فيهن. قال منصور عن أبي رزين: وكان ممن آوى عائشة، وأم سلمة، وزينب، وحفصة ـ رضي الله عنهن، وكان يسوي بينهن بالقسم، وكان ممن أرجى صفية، وسودة، وجويرية، وأم حبيبة، وميمونة وكان يقسم لهن ما يشاء وكان قد أراد أن يفارقهن، فقلن له: أقسم لنا ما شئت من نفسك، ودعنا على حالنا[1]. قوله تعالى: ﴿ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ معناه: إن أردت أن تؤوي إليك امرأة ممن عزلتهن من القسمة وتضمها إليك فلا عتب عليك ولا لوم. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 31.
وكذا القرطبي، 14: 215.

ذلك التخيير الذي خيرتك في صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذا كان منزلاً عليك من اللَّه، ويرضين كلهن بما أعطيتهن من تقريب وإرجاء وإيواء. قال قتادة: إذا علمن أن هذا جاء من اللَّه كان أطيب لأنفسهن، وأقل لحزنهن[1] ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من النساء والميل إلى بعضهن، ويعلم ما في قلوبكم من الرضى والسخط وغير ذلك، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد ﴿حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾ على جهلهم لا يعاتبهم بكل ذنب.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ قال قتادة: وذلك أن النبي صلى اللَّه عليه وسلم لما خير نساءه فاخترن اللَّه ورسوله شكر اللَّه لهن، فقصره اللَّه عليهن، وحرم عليه سواهن، وكن يومئذ تسعاً[2] عائشة، وحفصة، وزينب، وأم سلمة، وأم حبيبة، وصفية، وميمونة، وجويرية، وسودة. ومعنى الآية: لا يحل لك من النساء سوى هؤلاء اللاتي اخترنك وليس لك أن تطلق واحدة منهن، وتتزوج بدلها. قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ يعني مارية القبطية وغيرها من السبايا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي حفيظاً. وعن عائشة رضي اللَّه عنها أنها قالت: ما مات رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حتى حلت له النساء[3].

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ

---

(1) تفسير الطبري، 12: 35، رقم 21812 بنصه تقريباً.
(2) ينظر تفسير الطبري، 12: 36، رقم 21815.
(3) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 40، رقم 21825.

طَعَامٍ غَيْرَ نَظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ نزلت هذه الآية في شأن وليمة زينب. قال أنس بن مالك: لما بنى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بزينب بنت جحش أولم عليها بتمر وسويق، وذبح شاة، وبعثت إليه أمّي أم سليم بحيس في تور من حجارة، فأمرني رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أن أدعو أصحابه إلى الطعام، فدعوتهم فجعل القوم يدخلون فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم آخرون، فيأكلون ويخرجون، فوضع النبي صلى اللَّه عليه وسلم يده على الطعام ودعا فيه، فأكلوا حتى شبعوا وخرجوا وبقيت طائفة منهم لم يخرجوا، فقال النبي صلى اللَّه عليه وسلم: «**ارفعوا طعامكم**» فرفعوا وخرج النبي صلى اللَّه عليه وسلم، وبقي أولئك القوم يتحدثون في البيت فأطالوا المكث[1].

وإنما خرج رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم لكي يخرجوا، فمشى رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إلى جميع بيوت أزواجه ثم رجع فإذا القوم جلوس يتحدثون في بيته، وكان النبي صلى اللَّه عليه وسلم شديد الحياء، فأنزل اللَّه هذه الآية. قال أنس بن مالك: فلما نزلت آية الحجاب جئت لأدخل كما كنت أدخل، فقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**وراءك يا أنس**»[2]. ومعنى الآية ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ أي إلا أن تدعوا إلى الضيافة أو يؤذن لكم في الدخول من غير أن تتحينوا وقت الطعام فتستأذنوا في ذلك الوقت ثم تقعدوا انتظاراً لبلوغ الطعام ونضجه. والمعنى ﴿غَيْرَ نَظِرِينَ﴾ أي منتظرين نضجه وإدراكه يقال: آنى يأنى إناء ـ إذا حان وأدرك وكانوا يدخلون بيته فيجلسون منتظرين إدراك الطعام فنهوا عن ذلك. قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا﴾ أي إذا دعيتم إلى الطعام فادخلوا ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا﴾ أي فتفرقوا ولا تجلسوا مستأنسين لحديث بعد أن تأكلوا إن طول مقامكم في منزل النبي صلى اللَّه عليه وسلم ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ صلى اللَّه عليه وسلم ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ أن يأمركم بالخروج ﴿وَٱللَّهُ﴾ عز وجل ﴿لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يمتنع عن بيان ما هو الحق استحياء منكم وإن كان رسوله يفعل ذلك. قوله تعالى:

---

(1) الواحدي في أسباب النزول، ص 297.
الطبري في المرجع السابق، 12: 45.
(2) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري، 9: 983، رقم 4791، كتاب التفسير.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ أي إذا سألتم أزواج النبي صلى اللَّه عليه وسلم شيئاً من متاع البيت فخاطبوهن من وراء حجاب الباب والستر. قال مقاتل: أمر اللَّه المؤمنين أن لا يكلموا نساء النبي صلى اللَّه عليه وسلم إلا من وراء حجاب. وعن أنس رضي اللَّه عنه قال: قال عمر: يا رسول اللَّه إنه يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فنزلت آية الحجاب[1]. وعن عائشة رضي اللَّه عنها قالت: كان عمر يقول: يا رسول اللَّه أحجب نساءك، فلم يفعل حتى نزلت هذه الآية. وعن عامر رضي اللَّه عنه قال: مر عمر رضي اللَّه عنه على نساء النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقال لهن: احتجبن فإن لكُنَّ على النساء فضلاً كما أن لزوجكن على الرجال فضلاً، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى نزلت آية الحجاب.

وعن ابن مسعود قال: أمر عمر بن الخطاب نساء النبي صلى اللَّه عليه وسلم بالحجاب. فقالت زينب: يا ابن الخطاب إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا[2]. وقال أنس: كنت أدخل على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم بغير إذن فجئت يوماً لأدخل فقال: «**مكانك يا بني قد حدث بعدك أن لا تدخل علينا إلا بإذن**»[3] ـ وعن إسماعيل بن حكيم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ قال هذا أدب أدب اللَّه به الثقلاء. وقالت عائشة رضي اللَّه عنها: حسبك من الثقلاء أن اللَّه لم يحتملهم، فقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ﴾ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي سؤالكم إياهن المتاع من وراء حجاب أطهر لقلوبكم، وقلوبهن من الريبة وهذا الحكم في الحجاب، وإن نزل في أزواج النبي صلى اللَّه عليه وسلم فالمعنى عام فيه، وفي غيره، ونحن مأمورون باتباعه والاقتداء به إلا فيما خصه اللَّه به دون أمته. قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي ليس لكم أن تؤذوه بالدخول في منزله بغير إذنه ولا بالحديث مع أزواجه، ولا بشيء من الأشياء، ولا يحل لكم

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري، 9: 483، رقم 4790، كتاب التفسير.
الواحدي في أسباب النزول، ص 298.
وكذا الطبري في تفسيره، 12: 146، رقم 21832 ـ 21837.

(2) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 149.

(3) ذكره الثعلبي في تفسيره: ـ خ.
والواحدي في أسباب النزول نفسه.

ذلك. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ نزلت في طلحة بن عبيد اللّه قال: ينهانا محمد أن ندخل على بنات أعمامنا يعني عائشة، وهما من بني تيم بن مرة، ولئن مات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأنا حي لأتزوجن عائشة رضي اللّه عنها، فحرم اللّه أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم على عامة الناس، وجعلهن كأمهاتهم في الإكرام والتحريم[1]. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إن الذي قلتم وتمنيتم من تزويج أزواجه بعد موته كان عند اللّه عظيماً في الوزر والعقوبة. قوله تعالى: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي إن تظهروا قولاً أو تضمروه فإن اللّه عالم بالظواهر والبواطن والضمائر. وقيل معناه: إن تظهروا شيئاً من أمرهن يعني طلحة. وقوله تعالى: ﴿أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ أي تسرونه في أنفسكم وذلك أن نفسه حدثته بتزويج عائشة. وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ أي عليم بكل شيء من السر والعلانية.

قال اللّه تعالى:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿55﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

فلما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول اللّه ونحن أيضاً نكلمهن من وراء الحجاب؟ فأنزل اللّه تعالى[2] قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ﴾ الآية أي لا حرج عليهن في إذن آبائهن بالدخول عليهن وفي إذن الأبناء والإخوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات. فإن قيل: فهلا ذكر الأعمام والأخوال؟ قيل: إن العم والخال يجريان مجرى الوالدين في

---

(1) ينظر البغوي في تفسيره، 4: 483.
وكذا القرطبي في تفسيره، 14: 228.

(2) الثعلبي في تفسيره: خ.
وكذا البغوي في تفسيره، 4: 483.

الرؤية، فكان ذكر الآباء يتضمن بيان حكم الأعمام والأخوال، وقيل إنما لم يذكر العم والخال لكيلا يدخل أبناؤهما ولا يطمعا فيهن. قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ قال ابن عباس يعني: نساء المؤمنين لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن نساء رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم إن رأينهن. قوله تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يعني العبيد، والإماء. وقيل حمله على الإماء أولى لأن الحر والعبد لا يختلفان فيما يباح لهما من النظر ولا يجوز للبالغين من العبيد أن ينظروا إلى شيء منهن. قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ أي اتقين اللَّه أن يركنّ غير هؤلاء، وقيل: اتقين اللَّه في الإذن لغير المحارم، في الدخول عليكن، إن اللَّه كان على كل شيء من أعمال العباد شهيداً لم يغب عنه شيء.

قال اللَّه تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا
(56) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا
(57) وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا
(58)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ معناه: أن اللَّه يترحم على النبي ويثني عليه، وقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ أي وملائكته يدعون له بالرحمة. وقوله تعالى: ﴿يُصَلُّونَ﴾ الضمير فيه يعود على الملائكة دون اسم اللَّه لأن اللَّه عز وجل يفرد ذكره عن ذكر غيره إعظاماً كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[1] وقرأ ابن عباس: وملائكته بالرفع[2]، عطفاً على محل قوله: «اللَّه» قبل دخول إن، ونظيره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾[3] وقد مضى ذلك. وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ يُصَلُّونَ﴾ أي يثنون ويترحمون ويدعون له. وقال مقاتل: أما صلاة اللَّه: فالمغفرة، وأما صلاة الملائكة: فالاستغفار له. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ

(1) سورة التوبة 9، الآية: 62.
(2) ذكر الثعلبي في تفسيره ـ خ ـ هذه القراءة.
(3) سورة المائدة 5، الآية: 69.

﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أي قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد تعظيماً، وإجلالاً لقدره. وعن كعب بن عجرة قال: لما نزلت هذه الآية قلنا: يا رسول اللَّه كيف الصلاة عليك؟ قال: «**قولوا: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»[(1)]. وعن عبد اللَّه بن مسعود أنه قال: إذا صليتم على النبي صلى اللَّه عليه وسلم فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، قالوا: فعلمنا ذلك؟ قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه فيه الأولون والآخرون، اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد[(2)]. قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ يجوز أن يكون معناه: واخضعوا لأمره خضوعاً، ويجوز أن يكون معناه: الدعاء بالسلام. يقول: السلام عليك يا رسول اللَّه.

وعن الحسن قال: سئل النبي صلى اللَّه عليه وسلم فقيل: يا رسول اللَّه عرفنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟ قال: «**قولوا: اللهم اجعل صلواتك، وبركاتك على محمد، وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»[(3)]. والأفضل في هذا الباب أن يصلى على محمد، وعلى آله. فتقول: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد. فإن اقتصر على أحدهما جاز. واختلفوا في كيفية وجوب الصلاة على النبي صلى اللَّه عليه

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري، 9: 489، رقم 4797، كتاب التفسير.
أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 4: 126، باب الصلاة على النبي صلى اللَّه عليه وسلم.
والطبري في تفسيره، 12: 53، رقم 21849.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، 2: 208، رقم 1550، باب في تعظيم النبي صلى اللَّه عليه وسلم وإجلاله وتوقيره.
وذكره القرطبي في تفسيره، 14: 234.

(3) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 55.

وسلم فقال بعضهم: تجب في العمر مرة واحدة بمنزلة الشهادتين[1]، وإلى ذلك ذهب الخرقي[2] قال: إذا صلى عليه في عمره مرة واحدة فقد أدى فرضه إلا أن المستحب لكل مسلم أن يكثر من الصلاة عليه في مقابلة حقه في الدين علينا، كما يلزم المرء الدعاء لأبويه المؤمنين ليقضي بذلك حقهما عليه، وقال بعضهم: يجب عليه في كل مجلس مرة بمنزلة سجدة التلاوة. وقال الطحاوي: يجب عليه الصلاة على النبي صلى اللَّه عليه وسلم كلما ذكر، واستدل بما روي أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى اللَّه عليه وسلم: من ذكرت عنده فلم يصل عليك فلا غفر اللَّه له[3]. وقال الشافعي: الصلاة عليه فرض في كل صلاة. وهذا قول لم يقل به أحد غيره، كذا في تفسير عبد الصمد. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ قال المفسرون: هم المشركون واليهود والنصارى. وصفوا اللَّه بالولد فقالوا: عزير ابن اللَّه، والمسيح ابن اللَّه، والملائكة بنات اللَّه، وكذبوا رسوله، وشجوا وجهه، وكسروا رباعيته، وقالوا: مجنون، وشاعر، وساحر كذاب. قال صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما من أحد أصبر على أذى يسمعه من اللَّه تعالى، جعلوا له نداً، وجعلوا له ولداً وهو مع ذلك يعافيهم ويعطيهم ويرزقهم**»، وكذلك أيضاً قالت اليهود: يد اللَّه مغلولة، وقالوا: إن اللَّه فقير. ومعنى ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ ـ أي يخالفون أمر اللَّه ويعصونه، ويصفونه بما هو منزه عنه واللَّه تعالى: لا يلحقه الأذى[4].

قوله تعالى: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي باعدهم اللَّه يعني بالقتل، والجلاء في الدنيا، والعذاب بالنار في الآخرة وهو قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي ذا هوان. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ أي

---

(1) ينظر ابن قدامة في المغني، 1: 541.

(2) أبو القاسم عمر بن الحسين بن عبد الله بن أحمد الخرقي فقيه حنبلي من أهل بغداد، كان صاحب دين وورع، له مصنفات كثيرة احترقت، وطبع منها «المختصر» في الفقه، توفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، الشيرازي طبقات الفقهاء، ص 172.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، 2: 210، رقم 1573، باب في تعظيم النبي صلى اللَّه عليه وسلم.

(4) ينظر القرطبي في تفسيره، 14: 237، 238.

يرمونهم بما ليس فيهم. قال قتادة والحسن: إياكم وإيذاء المؤمن فإن اللَّه يغضب له[1]، ويؤذي من آذاه. وعن عبد الرحمن بن سَمرة[2] قال: خرج النبي صلى اللَّه عليه وسلم على أصحابه فقال: رأيت الليلة عجباً، رأيت رجالاً معلقين بألسنتهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يرمون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا. قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ أي فقد قالوا كذباً وجنوا على أنفسهم، وزراً وعقوبة.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿59﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ﴾ أي قل لنسائك، وبناتك، والحرائر من النساء يلقين على رؤوسهن وجباههن من جلابيبهن. والجلباب هي: المقنعة التي تستر بها المرأة ما يظهر من العنق والصدر. وهي: الملاءة التي تشتمل بها المرأة. قال المفسرون: يغطين رؤوسهن، ووجوههن إلا عيناً واحدة. وظاهر الآية ـ يقتضي أن يكنّ مأمورات بالستر التام عند الخروج إلى الطرق، فعليهن أن يستترن إلا بمقدار ما يعرفن به الطريق. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ﴾ معناه: ذلك أقرب أن يعرف الحرائر من الإماء فلا تؤذى الحرائر لأن الناس كانوا يومئذ يمازحون الإماء، ولا يمازحون الحرائر، وكان المنافقون يمازحون الحرائر، فإذا قيل لهم في ذلك قالوا: حسبناهن إماء، فأمر اللَّه الحرائر بهذا النوع من الستر قطعاً لأعذار المنافقين.

وعن عمر رضي اللَّه عنه أنه كان يضرب الإماء، ويقول: اكشفن رؤوسكن

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 56، رقم 21860.

(2) أبو سعيد عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب من عبد شمس، كان اسمه عبد الكعبة فسماه الرسول صلى اللَّه عليه وسلم حين أسلم عبد الرحمن، كان صحابياً جليلاً روى عن الرسول صلى اللَّه عليه وسلم، أحاديث، وتحول إلى البصرة فمات بها سنة خمسين هجرية، وصلى عليه زياد بن أبي سفيان، الإصابة، رقم الترجمة 5125، الأعلام، 3: 307.

ولا تتشبّهن بالحرائر. ومرت جارية بعمر رضي الله عنه متقنعة فعلاها بالدرة، وقال: يا لكاع أتتشبهين بالحرائر ألقين القناع[1]. ويقال في معنى ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أي أقرب إلى أن يعرفن بالستر والصلاح فييأس منهن فساق الرجال فلا يطمعون فيهن كطمعهم فيمن تتبرج وتتكشف.

قال الله تعالى:

﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ
بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿60﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا
﴿61﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿62﴾ يَسْـَٔلُكَ
ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿63﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿64﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿65﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي لئن لم ينته المنافقون عن نفاقهم والذين في قلوبهم مرض يعني: الفجور وهم الزناة وضعفاء الدين عن أذى المؤمنين، والمرجفون في المدينة وهم قوم كانوا يوقعون الأخبار بما يكره المؤمنون. يقولون: قد أتاكم العدو، ويقولون لسراياهم إنهم قتلوا وهزموا يخوفون المؤمنين بذلك لئن لم ينتهوا عن هذه الأفعال القبيحة ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي لنسلطنك عليهم ونأمرك بقتلهم حتى تقتلهم وتخلي منهم المدينة. وهو قوله تعالى: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي في المدينة. والمعنى يساكنونك في المدينة إلا يسيراً حتى يهلكوا ملعونين. مطرودين مبعدين عن الرحمة أين ما ثقفوا، أي أينما وجدوا وأدركوا. قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ نصب على الحال، وقيل: على الذم. وتقدير النصب على الحال لا يجاورونك إلا وهم ملعونون مطرودون مخذولون. قوله تعالى: ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ أي أخذوا وقتلوا مرة بعد مرة لأنه إذا ظهر أمر المنافقين كانوا بمنزلة الكفار ومن حق الكفار أن يقتلوا حيث يوجدون. قال

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره، 4: 88.

قتادة: أراد المنافقون أن يظهروا ما في قلوبهم من النفاق فأوعدهم اللّه في هذه الآية فكتموه[1].

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾ أراد بالسنة: الطريقة التي أمر اللّه بلزومها واتباعها وقد كانت هذه السنة في الأمم الماضية لما آذى المنافقون أنبياءهم أمر اللّه أنبياءه بقتالهم. قال الزجاج: سنّ اللّه في الذين ينافقون الأنبياء ويرجفون بهم أن يقتلوا حيثما ثقفوا[2] ولا يبدل اللّه سنته فيهم. وهو قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ أي هكذا سنة اللّه فيهم إذا أظهروا النفاق. قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾ قال الكلبي: سأل أهل مكة النبي صلى اللّه عليه وسلم عن الساعة وعن قيامها، فقال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ أي قل لهم يا محمد إنما العلم بوقت قيامها عند اللّه لا يطلع أحداً عليها. قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ أي أي شيء يعلمك أمر الساعة ومتى يكون قيامها، أي أنت لا تعرفه ثم قال ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿63﴾﴾، وما بعد هذه الآية ظاهر المعنى.

قال اللّه تعالى:

﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿66﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿67﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿68﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ أي تقلب وجوه الكفار ظهراً لبطن، وقيل تقلب إلى السواد، وقيل: تقلب إلى الأقفية. وقرأ أبو جعفر: تقلب بفتح التاء بمعنى تتقلب، وقرأ عيسى بن عمر: تقلب بالنون وكسر اللام. وجوههم بالنصب[3]. قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿66﴾﴾ في الدنيا ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ أي رؤساءنا وعظماءنا ﴿فَأَضَلُّونَا

---

(1) ذكر الطبري في تفسيره، 12: 59، رقم 21872.

(2) معاني القرآن وإعرابه، 4: 236 ـ 237، بلفظه.

(3) ذكر الثعلبي في تفسيره قراءتي أبي جعفر وعيسى، وذكر ابن جني في المحتسب، 2: 184، قراءة عيسى بن عمر، وكذا القرطبي في تفسيره، 14: 249.

﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي صرفونا عن الدين وعن سبيل الهدى. قرأ الحسن، وابن عامر، ويعقوب: ساداتنا بالألف وكسر التاء على جمع الجمع[1]. قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي عذبهم مثلي عذابنا فيكون ضعف على كفرهم وضعف على دعائهم لنا إلى الضلال. قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿68﴾﴾ قرأ عاصم: كبيراً بالباء أي عظيماً، ـ وقرأ الباقون بالثاء من الكثرة[2]، وإنما اختاروا الكثرة لقوله: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[4] فهذا يشهد للكثرة.

حدثنا محمد بن الحسن العسقلاني قال سمعت محمد بن أبي السري يقول: رأيت في المنام كأني في مسجد عسقلان وكأن رجلاً يناظرني ويقول: والعنهم لعناً كبيراً، وأنا أقول: كثيراً[5]، وإذا بالنبي صلى اللّه عليه وسلم قد دخل علينا المسجد وكان في وسط المسجد منارة لها باب، وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يقصدها فقلت: هذا النبي صلى اللّه عليه وسلم، فقلت: السلام عليك يا رسول اللّه استغفر لي، فأمسك عني فجئته عن يمينه، فقلت: يا رسول اللّه استغفر لي، فأعرض عني، فقمت من تلقاء صدره، فقلت: يا رسول اللّه حدثنا سفيان بن عيينة عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد اللّه: أنك ما سئلت شيئاً قط، فقلت لا، فتبسم عليه السلام، ثم قال: اللهم اغفر له، فقلت: يا رسول اللّه إني وهذا نتكلم في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿68﴾﴾ فأنا أقول: ﴿كَثِيرًا﴾ وهو يقول: ﴿كَبِيرًا﴾ قال فدخل النبي صلى اللّه عليه وسلم المنارة وهو يقول: كثيراً كثيراً بالثاء إلى أن غاب عني[6] صوته.

قال اللّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ

---

(1) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات ص 523، وابن الجزري في النشر، 2: 349، والثعلبي في المرجع السابق.

(2) ينظر ابن مجاهد، وابن الجزري في المرجعين المذكورين، والقرطبي في تفسيره، 14: 250.

(3) سورة البقرة 2، الآية: 159.

(4) سورة البقرة 2، الآية: 161.

(5) ذكره الثعلبي في تفسيره: ـ خ.

(6) القرطبي في تفسيره: 14: 250.

وَجِيهًا ﴿69﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿71﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ أي لا تكونوا في أذى محمد صلى اللّه عليه وسلم كبني إسرائيل الذين آذوا موسى بعيب أضافوه إليه ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ عليه ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي رفيع القدر والمنزلة واختلفوا في العيب الذي أضافه بنو إسرائيل إلى موسى - فقال بعضهم: كان هارون أحب إلى بني إسرائيل من موسى لزيادة رفقه بهم، فلما مات هارون في حال غيبتهما عنهم قالوا: إن موسى قتله لتخلص له النبوة، فأحياه اللّه تعالى حتى كذبهم[1]، وقال بعضهم: كان آذاهم له أنهم رموه بالأدرة[2] لكثرة حيائه، واستتاره عن الناس، وكانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم لسوأة بعض، وكان موسى يغتسل وحده[3].

فقالوا: واللّه ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر. قال: فذهب يغتسل مرة فوضع ثوبه على حجر فذهب الحجر بثوبه فخرج موسى من الماء في إثر الحجر يقول: ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى عليه السلام، فقالوا: واللّه ما به من بأس، فقام الحجر بعدما نظروا إليه، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً. قال أبو هريرة رضي اللّه عنه: واللّه إن بالحجر ندباً[4] ستة، أو سبعة من ضرب موسى، رواه مسلم[5] في الصحيح. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي حفيظاً لا يسأله شيئاً إلا أعطاه. قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿70﴾﴾ أي اتقوا عذاب اللّه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، وقولوا قولاً مستقيماً. وقال ابن عباس:

---

(1) الثعلبي في المرجع نفسه.
والطبري في تفسيره، 12: 64، رقم 21888.
(2) الأدرة: بوزن: الغرفة، وهو انتفاخ الخصية.
(3) القرطبي في تفسيره، 14: 250.
(4) النَّدَبُ بالتحريك: أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد، فشبه به أثر الضرب في الحجر. النهاية: باب النون مع الدال.
(5) صحيح مسلم بشرح النووي، 15: 126، باب فضائل موسى صلى اللّه عليه وسلم.

صواباً. وقال الحسن: صدقاً[1] يعني كلمة التوحيد لا إله إلا الله[2]. قوله تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ قال ابن عباس معناه: يتقبل حسناتكم ويغفر لكم ذنوبكم بسداد قولكم ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ أي فقد نال الخير كله وظفر به، والفوز العظيم: هو الظفر بالكرامة، والرضوان من الله تعالى.

قال الله تعالى:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ معناه: إنا عرضنا الأمانة التي هي الشرائع والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب، وبتركها العقاب. قال ابن عباس: عرضت الأمانة على السمٰوات السبع التي زينت بالنجوم، وحملت العرش العظيم، فقيل لهن: أتأخذن الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قيل: إن أحسنتن جوزيتن، وإن أسأتن عوقبتن[3] قلن: لا. ثم عرضت الأمانة على الأرضين السبع اللاتي شددن الأوتاد وذللن للمهاد وأسكنّ العباد، فقيل لهن أتأخذن الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قيل: إن أحسنتن جوزيتن، وإن أسأتن عوقبتن، قلن لا.

ثم عرضت الأمانة على الجبال الصم الشوامخ الصلاب البواذخ، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها. قال ابن جريج: قالت السماء: يا رب فلقتني، وجعلتني سقفاً محفوظاً، وأجريت فيّ الشمس، والقمر، والنجوم، لا أعمل فريضة، ولا أبتغي ثواباً، ولا عقاباً، وقالت الأرض: يا رب جعلتني بساطاً، ومهاداً، وشققت في الأنهار، وأنبت فيّ الأشجار لا أتحمل فريضة ولا أبتغي ثواباً، ولا عقاباً. ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي مخافة وخشية لا معصية ولا

---

(1) ينظر البغوي في معالم التنزيل، 4: 491.
(2) نسب الطبري في تفسيره، 12: 65، رقم 21892 هذا القول إلى عكرمة.
(3) البغوي في المرجع المذكور.

مخالفة، والعرض كان تخييراً لا إلزاماً. قوله تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي خفن من الأمانة أن لا يوفينها فيلحقهن العقاب، فأبوا ذلك تعظيماً لدين اللَّه تعالى وخوفاً أن لا يقوموا به. وقالوا: نحن مسخرات لأمرك لا نريد ثواباً ولا عقاباً. قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعني وحملها آدم عليه السلام. قال اللَّه تعالى له: يا آدم إني قد عرضت الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، ولم يطقنها، فهل أنت آخذها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن أحسنت جوزيت، وإن أسأت عوقبت، فتحملها آدم، وقال حملتها بين أذني وعاتقي(1). قال ابن عباس: عرض اللَّه على آدم أداء الصلوات الخمس في مواقيتها، وأداء الزكاة عند محلها، وصيام رمضان، وحج البيت على أن له الثواب، وعليه العقاب فقال: حملتها بين أذني وعاتقي، وقال مقاتل: قال اللَّه تعالى لآدم: أتحمل هذه الأمانة [فإن أحسنت] فلك الكرامة، وحسن الثواب في الجنة، وإن عصيت، وأسأت، فإني معذبك ومعاقبك؟ قال: قد رضيت يا رب، وتحملتها. فقال اللَّه عز وجل: قد حملتكها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قال الكلبي: ظلمه حين عصى ربه، وأخرج من الجنة وجهله حين تحملها، وقال مقاتل: ظلوماً لنفسه جهولاً بعاقبة ما تحمل، وقال مجاهد: لما خلق اللَّه السمٰوات والأرض والجبال عرض الأمانة عليها، فلم تقبلها، فلما خلق اللَّه آدم عرضها عليه. فقال قد تحملتها يا رب، قال مجاهد: فما كان بين أن تحملها، وبين أن أخرج من الجنة إلا قدر ما بين العصر(2) والظهر.

وعن ابن عباس قال: إن اللَّه قال لآدم إني عرضت على السمٰوات والأرض فلم تطقهما. فهل أنت حاملها بما فيها؟ قال: يا رب وما فيها؟ قال: إن حفظتها أجرت وإن ضيعتها عوقبت، قال تحملتها، فما بقي في الجنة إلا كقدر ما بين الظهر والعصر حتى خرج منها. وقال زيد بن أسلم: الأمانة هي الصوم، والغسل(3) من الجنابة، وقال بعضهم: هي أمانات الناس، والوفاء بالعهود فحق

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 68.
والقرطبي في تفسيره، 14: 254.
(2) في المرجعين المذكورين.
(3) في النسخة ك: الاغتسال.

على كل مؤمن ألاَّ يغش مسلماً في شيء لا قليل ولا كثير، وقال السدي: هي ائتمان آدم ابنه «قابيل» على أهله، وولده، وذلك أن آدم عليه السلام لما أراد أن يحج إلى مكة قال: يا سماء احفظي أولادي بالأمانة فأبت، وقال للأرض كذلك فأبت، وقال للجبال كذلك فأبت، ثم قال لابنه «قابيل» أتحفظهم بالأمانة؟ قال: نعم تذهب وترجع فتجد أهلك كما يسرك، فانطلق آدم ورجع وقد قتل «قابيل» «هابيل» فذلك قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ يعني قابيل حين حمل أمانة أبيه ثم لم يحفظها[1]. قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ أي ليعذبهم اللَّه بما خانوا الأمانة، وكذبوا الرسل، ونقضوا الميثاق الذي أقروا به حين أخرجوا من ظهر آدم، قال الحسن: هؤلاء الذين خانوها، وهم الذين ظلموها، وقوله تعالى: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لأنهم أدوا الأمانة وهي الفرائض، وقيل معنى الآية: إنا عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق، وشرك المشرك، فيعذبهم اللَّه، ويظهر إيمان المؤمنين فيتوب اللَّه عليهم أي يعود عليهم بالمغفرة والرحمة إن حصل منهم تقصير في بعض الطاعات، ولذلك ذكر بلفظ التوبة، فدل على أن المؤمن العاصي خارج من العذاب ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ للمؤمنين إذا تابوا ﴿رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾ بمن مات على التوبة.

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره، 11: 70، رقم 21905.
وكذا الثعلبي في تفسيره: ـ خ.

سُورَةُ سَبَإٍ

سورة سبأ مكية ـ وهي ألف وخمسمائة واثني عشر حرفاً، وثمانمائة وثلاثون كلمة، وأربع[1] وخمسون آية، قال صلى الله عليه وسلم: «**من قرأ سورة سبأ لم يبق نبي ولا رسول إلا كان يوم القيامة له رفقاً ومصالحاً**»[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ
(1) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ
ٱلْغَفُورُ (2) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ
مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ
مُّبِينٍ (3) لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)
وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (5) وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (6)﴾.

قال أبو بكر الحداد: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الحمد للَّه: هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني له ما في السمٰوات وما في الأرض ملكاً وخلقاً ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي يحمده أهل الآخرة على دوام نعمه عليهم، كما يحمده أهل الدنيا. ولكن الحمد في الدنيا تعبد، وفي الآخرة شكر على سبيل السرور لأنه لا تكليف في الآخرة، يقول أهل الآخرة: الحمد للَّه الذي صدقنا وعده، والحمد للَّه الذي هدانا لهذا، والحمد للَّه الذي أذهب عنا الحزن، والنعم في الدارين كلها منه. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ

---

(1) في تفسير الثعلبي: خمس، وكذا في النسخة: س: خمس.

(2) ذكره الزمخشري في تفسير الكشاف، 3: 279. والثعلبي في تفسيره: خ.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ أي الحكيم في أفعاله، الخبير بأحوال عباده. وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي يعلم ما يدخل في الأرض ويغيب فيها من المطر والحيوانات الميتة، ويعلم ما يخرج منها من أنواع النباتات والزروع[1] وغير ذلك مما لا يعلمه إلا هو ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من الأمطار التي هي سبب أرزاق العباد، ويعلم ما يعرج في السماء أي من يصعد فيها من الملائكة الحفظة لديوان العباد، وما يرتفع فيها من الرياح، والحر والبرد. ويعلم ما يصعد فيها من أعمال العباد يقال: عَرَجَ يَعْرُجُ إذا صعد، وعَرِجَ يَعْرَجُ إذا صار أعرج وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي الرحيم بعباده الغفور لمن استحق المغفرة قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أي قال الكفار لا تأتينا القيامة - ﴿وَقَالَ﴾ لهم يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ على ما أخبر اللَّه تعالى ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ قرأ حمزة والكسائي: علاَّم الغيب بخفض الميم[2] على وزن فعَّال على المبالغة كقوله: ﴿عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[3]، وقرأ نافع، وابن عامر: عالمُ برفع الميم على تقدير: هو عالم، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: عالم بالكسر[4] نعتاً لقوله: ﴿وَرَبِّى﴾. ٩٠

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يغيب عنه ولا يبعد عليه معرفة وزن ذرة في السموات. ولا في الأرض، وخص الذرة بالذكر لأنها أصغر شيء يدخل في أوهام البشر، وهذا مثل لأنه سبحانه لا يخفى عليه ما هو دون الذرة، والمعنى: اللَّه يعلم كل شيء دقّ أو جلّ. قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الكتاب المبين في هذه الآية: هو اللوح المحفوظ، وقوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي معناه: لتأتينكم الساعة ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات على أعمالهم بالمغفرة والرزق الكريم أي الثواب الحسن في الجنة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ أي سعوا فيها بعد ظهورها ووضوحها بالتكذيب لها والجحود لها

---

(1) في النسخة: ك: والزرع.
(2) ينظر الداني في التيسير، ص 179، وكذا ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات ص 526.
(3) سورة المائدة 5، الآية: 109، والآية: 116، وسورة التوبة 9، الآية: 78، وسورة سبأ 34، الآية: 48.
(4) الداني، وابن مجاهد في المرجعين المذكورين. وابن خالويه: الحجة في القراءات السبع، ص 291.

مقدرين أنهم سيفوتوننا ويعاجزون الرسول صلى اللّه عليه وسلم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ عذاب مؤلم، والرجز: أسوأ العذاب. قرأ ابن كثير: أليمٌ بالرفع على نعت العذاب، وقرأ الباقون بالخفض[1] على نعت الرجز. قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ⑥﴾ أول هذه الآية عطف على قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أي ولكي يعلم الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك وهو القرآن، وأنه يهدي إلى صراط العزيز بالنعمة لمن لا يؤمن به الحميد لمن وحده أي يهدي إلى دين اللّه وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب، وقال قتادة: يعني أصحاب[2] رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ إنما دخلت هو في هذا الموضع للفصل عند البصريين ويسمى ذلك عماداً ولا يدخل العماد إلا في المعرفة قال الشاعر[3]:

ليت الشباب هو الرجيعُ[4] على الفتى ∴ والشيبَ كان هو البَدِيءُ الأوَّلُ

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ⑧ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑨﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦﴾ أي قال الكفار على وجه التعجب والإنكار: أي قال بعضهم لبعض: هل ندلكم على رجل يعنون محمداً صلى اللّه عليه وسلم يزعم أنكم تبعثون بعد أن تكونوا عظاماً ورفاتاً وتراباً، وذلك قوله تعالى:

---

(1) ينظر الداني في التيسير، ص 180، وابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 526.

(2) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 77، رقم 21919.

(3) قال الفراء في معاني القرآن، 2: 352، أنشدني الكسائي.

(4) كأنه يريد بالرجيع: الذي يرجع ويبقى.

﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي يقول لكم: إذا بليتم، وتقطعت أجسامكم، واندرست آثاركم تعودون. وقوله تعالى: ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي إذا تفرقتم في الأرض، وذهبت العظام والجلود كل تفريق ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي يجدد خلقكم بأن تبعثوا وقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ هذا من قول الكفار بعضهم لبعض قالوا: افترى محمد على اللّه كذباً حين زعم أنا نبعث بعد الموت ﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ أي جنون، يقولون: زعم كذباً، أم به جنون، فرد اللّه عليهم مقالتهم بقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ أي ليس الأمر على ما قالوا من الافتراء والجنون كأنه قال: لا هذا ولا ذاك، ولكن الذين لا يؤمنون بالبعث في الآخرة في العذاب والخطأ البعيد في الدنيا. قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أن سماءنا تحيط بهم، والأرض حاملة لهم إن نشأ نخسف بهم هذه، أو نسقط عليهم تلك فما يحذرون هذا فيرتدعون عن التكذيب بآياتنا، والمعنى أن الإنسان حيثما نظر رأى السماء فوقه، والأرض قدامه، وعن يمينه وعن شماله، فكأنه تعالى قال: إن أرضي وسمائي محيطة بهم وأنا القادر عليهم إن شئت خسفت بهم، وإن شئت أسقطت عليهم قطعة من السماء. وقرأ حمزة والكسائي، وخلف: يشأ، ويخسف، ويسقط في ثلاثتها بالياء[1] لذكر اللّه تعالى قبله، وقوله تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ ألف استفهام دخلت على ألف الوصل فلذلك نصب وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ إن فيما ذكر من صنعته وقدرته، وفيما ترون من السماء والأرض لعلامة تدل على قدرة اللّه على البعث، وعلى ما يشاء من الخسف بهم لكل عبد أناب إلى اللّه ورجع إلى طاعته، وتأمل ما خلق، قال الحسن: المنيب: الراجع إلى اللّه تعالى بقلبه، وقوله وفعله فإذا نوى: نوى للّه تعالى، وإذا قال: قال للّه تعالى، وإذا عمل: عمل للّه.

---

(1) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 527، وابن الجزري في النشر، 2: 349، وابن خالويه: الحجة في القراءات السبع، ص 292، والقرطبي في تفسيره، 14: 264.

قال اللّه تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿10﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿11﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿12﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ يعني النبوة، والكتاب، والملك وقوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ أي سبحي معه إذا سبح فكان داود عليه السلام إذا سبح سبّحت الجبال معه حتى يسمع صوت تسبيحها. وقرىء ﴿أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾[1] أي عودي في التسبيح معه كلما عاد فيه: وقال القتيبي: أصله من التأويب[2] وهو السير بالنهار كله كأنه أراد أوبي النهار كله بالتسبيح معه وقيل سيري معه كيف شاء. وقوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ قراءة العامة بالنصب وله وجوه أحدها بالفعل تقديره: وسخرنا له الطير كقولك: أطعمته طعاماً وماء أي وسقيته ماء، والثاني بالنداء يعني بالعطف على موضع النداء لأن موضع كل منادى النصب، والثالث بنزع الخافض كأنه قال: أوبي معه مع الطير[3]، كما يقال: لو بركت الناقة وفصيلها لرضعها أي مع فصيلها، وقرأ يعقوب[4]: ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفاً على الجبال، وقيل: على الابتداء قال الشاعر[5]:

ألا يا زَيدُ والضَّحاكَ سيرا ∴ فقد جاوَزْتُما خمر[6] الطريق

---

(1) يراجع الفراء في معاني القرآن، 2: 355، وكذا الزجاج في معاني القرآن وإعرابه، 4: 243. والطبري في تفسيره، 12: 80.

(2) ذكر الثعلبي في تفسير: خ، هذا القول.

(3) تراجع هذه الوجوه عند الزجاج في المرجع المذكور، وعند النحاس في إعراب القرآن، 3: 333.

(4) ذكر ذلك ابن الجزري في النشر، 2: 349.

(5) لم أعثر على نسبة هذا البيت وقال الفراء في المرجع المذكور، وأنشدني بعض العرب: ألا يا عمرو... إلخ.

(6) الخمر: ما سرّ من الشجر وغيره، يأمر الشاعر صديقين له بأن يجدا في السير، لأنهما صارا في طريق لا ساتر فيه، يتواريان وراءه ممن يطلبهما.

يروى هذا البيت بنصب الضحاك ورفعه. قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ أي جعلنا له الحديد ليناً يضربه كيف شاء من غير نار، ولا مطرقة، وكان عنده مثل الشمع والطين المبلول والعجين. قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ أي قلنا له اعمل دروعاً واسعات تامات يجرها لابسها على الأرض وكان داود عليه السلام أول من عمل الدروع، والسابغ: هو الذي يغطي كل ما على الرجل حتى يفضل وكان داود يبيع كل درع بأربعة آلاف فيأكل، ويطعم عياله، ويتصدق على الفقراء والمساكين.

قوله تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي اجعل حلق الدرع متتابعة متناسقة بعضها إلى بعض على مقدار معلوم لا تتفاوت على وجه لا تنفذ فيه السهام ولا السنان. يقال سرد الكلام يسرده إذا ذكره بالتأليف على وجه تحصل به الفائدة، ومن هذا يقال لصانع الدروع: سرَّاد وزرَّاد، والسرود والزرود للوصل، وقال بعضهم السرد: سوك طرفي الحلق، أي لا تجعل المسامير دقاقاً فتقلق[1]، ولا غلاظاً فتكسر الحلق، واجعل ذلك على قدر الحاجة. والقول الأول أقرب إلى الآية لأن الدروع التي عملها داود كانت بغير المسامير لأنها كانت معجزة له قوله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أي قال اللّه لآل داود: واعملوا صالحاً فيما بينكم وبين ربكم ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من شكر وطاعة. قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح كانت تحمل سريره فيذهب في الغدو مسيرة شهر، وترجع في الرواح مسيرة شهر، قال الفراء: نصب الريح على المفعول أي وسخرنا لسليمان الريح[2]، وقرأ عاصم: الريحُ بالرفع[3] على معنى: وله تسخير الريح، والمعنى: أنِ الريح كانت تسير في اليوم مسيرة شهرين للراكب المسرع. قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ أي أذبنا له عين النحاس فسالت له ثلاثة أيام كما يسيل الماء وإنما ينتفع الناس منه بما أخرج اللّه لسليمان، وكان قبل سليمان لا يذوب، والقطر: هو

---

(1) القلق: ألا يستقر في مكان.
(2) معاني القرآن، 2: 356.
(3) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 527، والفراء في المرجع السابق.

الرصاص. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي وسخرنا له من الجن من يعمل بين يديه من القصور والبنيان بإذن ربه ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يمل من الشياطين عن أمرنا الذي أمرناه من الطاعة لسليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي من عذاب النار الموقدة وقيل: إن اللَّه تعالى وكلّ ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه ضربة أحرقته[1].

قال اللَّه تعالى:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿13﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿14﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي يعملون لسليمان ما يشاء من محاريب أي مساجد كان هو والمؤمنون يصلون فيها، ويقال: أراد بالمحاريب الغرف والمواضع الشريفة، يقال لأشرف موضع في الدار: محراب، والمحراب: مقدم كل مسجد وبيت. وقوله تعالى: ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ أي تمثال كل شيء يعني صوراً من نحاس، وزجاج، ورخام كانت الجن تعملها وكانوا يصورون له الأنبياء والملائكة في المساجد ليراها الناس فيزدادوا عبادة، وهذا يدل على أن التصوير كان مباحاً في ذلك الزمان، ثم صار حراماً في شريعة نبينا صلى اللَّه عليه وسلم كما روي في الحديث: «**إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة**»[2]. وروي: «**لعن اللَّه المصورين بما صوروا**». قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ الجفان جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة من الصفر. وقوله: ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ أي كالحياض العظام يعني كحياض الإبل، والجواب: جمع جابية، وسمي الحوض جابية لأنه يجبي الماء أي يجمعه، والجباية جمع الماء، يقال: إنه كان يجتمع على جفنة واحدة ألف رجل يأكلون بين يديه. قوله تعالى:

---

(1) يراجع البغوي في تفسيره، 4: 498.

(2) أخرجه مسلم بشرح النووي، 14: 85، باب تحريم تصوير صورة الحيوان. وأخرجه البيهقي في الشعب، 5: 187، رقم 6308، فصل في زينة البيوت.

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ أي ثابتات عظام من الحجر كالجبال لا ترفع من أماكنها، ولكن يوقد تحتها حتى ينطبخ ما فيها من الأطعمة فيأكل منها ألوف، وكانت هذه الأعمال التي يعملونها معجزة لسليمان عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ أي قلنا لهم اعملوا بطاعة اللّه شكراً له على هذه النعم التي منَّ اللّه بها عليكم، وقيل انتصب قوله: ﴿شُكْرًاۚ﴾ على المصدر وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ أي قليل من عبادي من يشكرني لأن الشاكرين وإن كثروا فقليل في جنب من لم يشكر. قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام كان يعتاد طول القيام في الصلاة، وكان إذا أعيا اتكأ على عصاه، فاتكأ ذات يوم على عصاه، فقبض اللّه روحه، فبقي على تلك الحالة سنة، والعملة في أعمالهم يعملون كما هم، ولم يجترئ أحد أن يدنو منه هيبة له.

قوله تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ دابة الأرض هي: الأرضة التي تأكل الخشب. وقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي عصاه التي كان يتكىء عليها. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي فلما سقط سليمان لتآكل المنسأة تبين الجن للإنس أي ظهروا أنهم لا يعلمون الغيب فلو علموا ما عملوا له سنة وهو ميت، فذلك قوله تعالى: ﴿مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أي في العذاب من أعمالهم الشاقة التي كانوا يعملونها في بناء بيت المقدس وغيره، فلما علموا بموته لسقوط العصا تركوا الأعمال كلها. ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام لأتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين الشراب لأتيناك بأطيب الشراب ولكنا سننقل إليك الطين والماء، فهم ينقلون إليها ذلك حيث كانت فما رأيتموه من الطين في جوف الخشب فهو مما تنقله الشياطين إليها شكراً لها. وسميت العصا: منسأة لأنه ينسأ بها الغنم وغيره أي يؤخر ويطرد، ويقال: أنسأ اللّه في أجله أي أخر اللّه في أجله. وأكثر القراء يقرؤون منسأته بالهمز، وقرأ أبو عمرو، ونافع بترك الهمز[1]، وهما لغتان قوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ

٩٤

(1) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 527، وابن الجزري في النشر، 2: 349. والطبري في تفسيره، 12: 690، والفراء في معاني القرآن، 2: 356.

﴿ٱلْغَيْبَ﴾ أن في موضع الرفع لأن معنى الكلام، فلما خرَّ تبين وانكشف أن لو كان الجن يعلمون الغيب أي ظهر أمرهم، وقيل في موضع النصب تقديره: علمت وأيقنت الجن أن كانوا يعلمون الغيب، وكان الإنس قبل هذا يظنون أن الشياطين يعلمون السرَّ يكون بين اثنين فظهر لهم يومئذ أنهم لا يعلمون ذلك. قال أهل التاريخ: كان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة، ومدة ملكه أربعون سنة، وملك يوم ملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه وكان عمر داود عليه السلام مائة وأربعين سنة.

قال اللَّه تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿15﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿16﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿17﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿18﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿19﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ﴾ قال فروة بن مسيك:[1] أتيت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم فسألته عن سبإ ما هو؟ فقال: **«رجل من العرب أولد عشرة أولاد تيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تيامنوا: فالأزد، وَكِنْدَة، وحِمْير، ومَذْحِجْ، والأشعريون، وأنْمار، ومنهم بُجَيْلَة وأما الذين تشاءموا: فَعَامِلَةٌ، وغسَّان، وَلَخْم، وجُذَام»**[2]، والمراد بسبإ:

(1) أبو عمر فروة بن مسيك الغطيفي المرادي، صحابي من الولاة من أهل اليمن وفد على النبي صلى اللَّه عليه وسلم فأسلم، وأجازه النبي صلى اللَّه عليه وسلم بمبلغ من المال، وأعطاه حلة، واستعمله على مراد، ومذحج، وزبيد، وكتب له كتاباً فيه فرائض الصدقة، وأقره عمر بن الخطاب، وسكن الكوفة في آخر حياته، وروى عنه عدة أحاديث، توفي سنة ثلاثين هجرية، السيرة النبوية لابن هشام، 4: 582، الطبقات الكبرى، 2: 247 ـ 6: 57.

(2) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 93، رقم 21981.

القبيلة الذين هم من أولاد سبإٍ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقوله تعالى: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ أي كان بمساكنهم بمأرب من اليمن ﴿ءَايَةٍ﴾ علامة تدلهم على قدرة اللَّه تعالى، وأن المنعم عليهم هو اللَّه، ثم فسر تلك الآية فقال: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي عن يمين واديهم وشماله كانتا قد أحاطتا بذلك الوادي الذي بين مساكنهم، والمعنى: لقد كان لأهل سبإٍ في مواضعهم علامة، وهي جنتان أي بستانان إحداهما عن يمين الطريق، والأخرى عن يسار الطريق، ويقال: كانا بستانين عن يمين الطريق، وبستانين عن شمال الطريق إلا أن البستانين كل واحد من الجانبين سمي جنة لاتصال بعضها ببعض، وكانوا في النعمة بحيث كانت المرأة تمشي في تلك الطريق بين البستانين، وعلى رأسها الزنبيل فيمتلىء من ألوان الفواكه من غير أن تمس شيئاً بيدها. قرأ حمزة، والنخعي، وحفص: «في مسكنهم» بفتح الكاف على الواحد أيضاً، وقرأ الباقون «مساكنهم»[1] على الجمع. قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ أي قيل لهم: كلوا من رزق ربكم يعني هذه النعم، واشكروا له أي للَّه على نعمه هذه، وهذا حد الكلام. ثم ابتدأ فقال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي هذه بلدة طيبة، أو لكم بلدة طيبة يعني لست بسبخة ولم يكن يرى فيها بعوضة قط، ولا ذباب، ولا برغوث، ولا حية، ولا عقرب، وإن الرجل الغريب ليأتيها وفي ثوبه القمل والدواب فحين يرى بيوتهم تموت الدواب، والقمل، والمعنى: بلدة طيبة الهواء. وقوله تعالى: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي غفور الخطايا كثير العطايا. قوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ أي فأعرضوا عن الحق، وكفروا وكذبوا أنبياءهم، ولم يشكروا نعم اللَّه، وقالوا: لا نعرف للَّه تعالى نعمة علينا، وقالوا لأنبيائهم: قولوا لربكم الذي تزعمون أنه منعم علينا: فليحبس علينا نعمه إن استطاع. قال وهب: بعث اللَّه تعالى إلى سبإٍ ثلاثة عشر نبياً فدعوهم إلى اللَّه، وذكروهم نعمه، وخوفوهم عقابه، فكذبوهم وقالوا: لا نعرف للَّه علينا نعمة[2]. وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ قال ابن الأعرابي: العرم

---

(1) يراجع ابن مجاهد في المرجع السابق، وابن الجزري في المرجع السابق. والنحاس: في إعراب القرآن، 3: 339.

(2) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 96 رقم 21985، وكذا البغوي في تفسيره، 4: 502.

السيل الذي لا يطاق[1]، وقال مقاتل: العرم اسم وادي سبأ، وقيل العرم: المطر الشديد الذي يأتي منه سيل لا يطاق دفعه، وعرمة الماء: ذهابه في كل مذهب، وقيل العرم: هو الفأر الذي نقب السد عليهم[2]، وصفة ذلك: أن الماء كان يأتي أرض سبأ من البحر وأودية اليمن، فردموا ردماً بين جبلين، وحبسوا الماء في ذلك الردم، وجعلوا لذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، وكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الباب الثاني، ثم من الباب الأسفل فلا ينفذ الماء حتى يأتي ماء السنة الثانية، فأخصبوا وكثرت أموالهم، فلما كذبوا الرسل بعث اللَّه عليهم جرذاً نقب ذلك الردم، فاندفع الماء عليهم، وعلى جنتيهم، فدفن السيل بيوتهم، وأغرق جنتيهم، وخرب أراضيهم. قوله تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ أي بدلناهم بالجنتين اللتين أهلكناهما جنتين ﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ والأكل: اسم لما يؤكل، والخمط: شجر الأراك. ويقال الخمط: كل نبت قد أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله، وقيل: هو شجر ذات شوك. قرأ أبو عمرو، ويعقوب: أكل خمط بالإضافة، وقرأ الباقون: أكل بالتنوين[3]، وهما متقاربان في المعنى. وقوله تعالى: ﴿وَأَثْلٍ﴾ الأثل: ما عظم من شجر الطرفاء. وقوله تعالى: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ والسدر إذا كان برياً لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسول كما يكون ورق السدر الذي ينبت على الماء، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ يعني أن الخمط والأثل كان أكثر في الجنتين المبدلتين من السدر. قال قتادة: وكان شجر القوم من خير الشجر فصيره تعالى من شر الشجر بأعمالهم[4]، والسدر: هو شجر النبق.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾ أي جزيناهم ذلك التبديل والتخريب بكفرهم بنعم اللَّه تعالى ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ بمثل هذه العقوبة في تعجيل سلب النعمة ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ أي إلا الكافر المعاند، وقيل معناه: أن المؤمن تكفر عنه ذنوبه

---

(1) ذكره البغوي في المرجع نفسه.
(2) تراجع هذه الأقوال في تفسير القرطبي، 14: 285، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج، 4: 248.
(3) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 528، والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.
(4) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 100، رقم 22005، وكذا القرطبي في تفسيره، 14: 287.

بطاعاته، والكافر يجازى على كل سوء بعمله، وقال الفراء: المؤمن يجزى ولا يجازى[1] أي يجزى الثواب بما يعمله، ولا يكافأ بسيئاته، قرأ أهل الكوفة: نُجازِي بالنون، وكسر الزاي، ونصب ﴿ٱلْكَفُورَ﴾ لقوله تعالى: ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ ولم يقل جُزُواً، وقرأ الآخرون «يُجازى» بالياء مضمومة[2]، ورفع الكفور وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ من قرأ بالنصب فهو اسم قبيلة، فلهذا لم ينصرف، ومن نونه وخفضه فهو اسم لرجل[3]. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي جعلنا بين أهل سبأ وبين قرى الأرض التي باركنا فيها، وهي الأرض المقدسة، باركنا فيها بالماء والشجر يعني قرى الشام ومصر وقوله تعالى: ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أي قرى متقاربة متصلة إذا خرج الرجل من واحدة من القرى ظهرت له الأخرى، فكانوا لا يحتاجون في سيرهم إلى الشام إلى زاد، وكانت المرأة تخرج، ومعها مغزلها، وعلى رأسها مكتلها ثم تغزل ساعة فلا ترجع بيتها حتى يمتلىء مكتلها من الثمار، وكان ما بين الشام، وأرض سبأ على تلك الصفة. قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أي جعلنا القرى متواصلة بقدر السير المتصل على قدر المقيل والمبيت من قرية إلى قرية، أنعمنا عليهم في مسيرهم كما أنعمنا عليهم في مساكنهم، فقلنا لهم ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ إن شئتم بالليالي، وإن شئتم بالأيام ﴿ءَامِنِينَ ﴿18﴾﴾ عن الظلم والجوع والعطش، وعن جميع ما يخاف في الطريق، ومعنى الآية: وقدرنا فيها السير من القرية إلى القرية مقداراً واحداً نصف يوم وقلنا لهم سيروا فيها، في تلك القرى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ ليلاً شئتم السير، أو نهاراً ﴿ءَامِنِينَ ﴿18﴾﴾ من الجوع والعطش والسباع والتعب، ومن كل خوف، ثم إنهم بطروا النعمة، وسألوا أن تكون القرى والمنازل بعضها أبعد من بعض فقالوا: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أي اجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز لنركب عليها الرواحل ونزود الأزواد وذلك أنهم قالوا: لو كانت ثمارنا أبعد مما هي لكان أجدر أن نشتهيها فاجعل بين منازلنا

---

(1) معاني القرآن، 2: 359.
(2) ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 528 ـ 529.
(3) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج، 4: 247، وكذا ابن مجاهد في المرجع المذكور، ص 480.

وبين مقاصدنا المفاوز، ويقال: كانت هذه مسألة تجارهم ليربحوا في أموالهم. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو «بَعِّدْ» على وجه الدعاء، وقرأ ابن الحنفية ويعقوب: ربنا برفع الباء باعد بألف وفتح العين، والدَّال على الخبر، واستبعدوا أسفارهم بطراً منهم وأشراً، وقرأ الباقون: ربنا بفتح الباء، باعد بالألف وكسر العين وجزم الدال على الدعاء، وقد قرىء بعُد بضم العين، وبين بالرفع[1] أي بعدما يتصل بسفرنا. قوله تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ يعني بترك الشكر والطاعة، وقيل: بالكفر فجعلناهم أحاديث لمن بعدهم يتحدثون بأمرهم وشأنهم، ولم يبق منهم ولا من ديارهم أثر. وقوله تعالى: ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ﴾ أي فرقناهم في البلاد المختلفة كل تفريق، وذلك أنهم شردوا في البلاد، وصاروا بحيث تتمثل بهم العرب يقولون: تفرق القوم أيدي سبأ، وأيادي سبأ، قال الشعبي: أما غسان فلحق بالشام، وأما الأنصار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، وأما الأزد فلحقوا بعمان[2]، فكانت غسان ملوك الشام. قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن فيما فعل بسبأ لآيات أي لعبراً ودلالات لكل صبار عن معاصي اللَّه شكور لأنعمه.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿20﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿21﴾ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿22﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿23﴾﴾.

---

(1) ينظر ابن مجاهد في المرجع السابق، ص 529، وابن جني في المحتسب، 2: 189. وكذا النحاس في إعراب القرآن، 3: 342. والفراء في المرجع السابق.

(2) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 195، رقم 22022.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ قرأ أهل الكوفة صدَّق بالتشديد[1] أي ظن فيهم ظناً حيث قال ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾[3] فصدق ظنه وحققه بفعله ذلك، واتباعهم إياه، وقرأ الآخرون: ﴿صِدْقٍ﴾ بالتخفيف[4] أي صدق عليهم في ظنه بهم. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على أهل سبأ، وقال مجاهد: على الناس كلهم إلا من أطاع اللّه عز وجل ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الذين قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[5] وقيل: إن إبليس لما وسوس إلى آدم، وعملت فيه وسوسته طمع في ذريته فقال: إنه مع فضله وعقله عملت فيه وسوستي فكيف لا تعمل في ذريته؟ فأخبر اللّه في هذه الآية أن القوم اتبعوا، وصدقوا ظنه إلا طائفة من المؤمنين لم يتبعوه في شيء وقيل: إن إبليس لما سأل النظرة فأنظره اللّه تعالى قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ﴾[6] ولم يكن في وقت هذه المقالة مستقيماً، وإنما قاله ظناً منه، فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما كان لإبليس عليهم من حجة ولا نفاذ أمر إلا بالتزيين والوسوسة، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ أي ما كان تسليطنا إياه عليهم إلا لنعلم المؤمنين من الشاكين. والمعنى: ما سلطناه عليهم إلا لنعلم إيمان المؤمن ظاهراً، وكفر الكافر ظاهراً، وقد يذكر العلم ويراد به الإظهار وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي هو العالم بكل شيء من الإيمان والشك، وغير ذلك. قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لكفار مكة: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون اللّه.

---

(1) ينظر النشر في القراءات العشر، 2: 350، وكتاب السبعة في القراءات، ص 529.
(2) سورة ص 38، الآية: 82.
(3) سورة الأعراف 7، الآية: 17.
(4) ينظر ابن الجزري، وابن مجاهد في المرجعين المذكورين.
(5) سورة الحجر 15، الآية: 42.
(6) سورة النساء 4، الآية: 119.

قال مقاتل: أي ادعوهم ليكشفوا عنكم الضر الذي نزل بكم في سني الجوع[1]، وقيل معناه: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة لكم لكي يرزقوكم ويدفعوا عنكم الشدائد. ثم بين أنهم لا يملكون مثقال ذرة أي لم يخلقوا زنة ذرة في السمٰوات ولا في الأرض فمن أين يستحقون العبادة. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي ما لهم في السمٰوات والأرض من شرك في خلقهما. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي وما للَّه تعالى منهم من معين فيما خلق. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أي لا تنفع شفاعة ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا أحد حتى يأذن اللَّه له في الشفاعة وهذا تكذيب من اللَّه لهم حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[2] قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: «أذن» بضم الألف، وقرأ غيرهم بالفتح[3]، فمن فتح كان المعنى: لمن أذن اللَّه له في الشفاعة، وكذلك من قرأ بالضم لأن الآذن هو اللَّه تعالى في القراءتين جميعاً. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ قرأ ابن عامر، ويعقوب: بفتح الفاء والزاي، وقرأ غيرهما بضم الفاء وكسر الزاي[4]، والمعنى: حتى إذا كشف الفزع والجزع عن قلوبهم ومن قرأ بالفتح فالمعنى: حتى إذا كشف اللَّه الفزع عن قلوبهم. واختلفوا في هذه الكناية والموصوفين بهذه الصفة من هم؟ وما السبب الذي من أجله فزع عن قلوبهم؟ فقال قوم: هم الملائكة واختلفوا في سبب ذلك، فقال بعضهم: إنما فزع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام اللَّه عز وجل.

قال عبد اللَّه بن مسعود: إذا تكلم اللَّه بالوحي سمع أهل السماء صلصلة

---

(1) ينظر البغوي في تفسيره، 4: 506.

(2) سورة يونس 10، الآية: 18.

(3) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 529، وابن الجزري في النشر، 2: 350.

(4) ينظر ابن مجاهد، وابن الجزري في المرجعين المذكورين، وابن جني في المحتسب، 2: 192، والفراء في معاني القرآن، 2: 361، والنحاس: في إعراب القرآن، 3: 345.

مثل صلصلة السلسلة على الصفوان فيصعقون لذلك، ويخرون سجداً، فإذا علموا أنه وحي فزع عن قلوبهم، فيرد إليهم، فينادي أهل السمٰوات بعضهم بعضاً: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير[1]، وعن رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم أنه قال: «**إن اللَّه تعالى إذا تكلم بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، فيقولون له: ماذا قال ربك؟ قال: يقول الحق**». وعن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إذا قضى اللَّه الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضوعاً لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق**»[2]، وقال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**إذا تكلم اللَّه بالوحي أخذت السمٰوات منه رجفة أو رعدة شديدة خوفاً من اللَّه عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السمٰوات صعقوا وخروا سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلمه اللَّه من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل بالملائكة، فكلما مر بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير، فيقولون مثل ما قال جبريل فينتهي جبريل بالوحي حيث أمره اللَّه**»[3]، وقال مقاتل والكلبي: لما كانت الفترة بين عيسى ومحمد صلى اللَّه عليه وسلم خمسمائة وخمسين عاماً، فلما بعث اللَّه محمداً صلى اللَّه عليه وسلم كلم اللَّه تعالى جبريل بالرسالة إلى محمد صلى اللَّه عليه وسلم، فسمعت الملائكة الصوت بالوحي، فظنوا أنها القيامة قامت فصعقوا مما سمعوا، فلما انحدر جبريل بالرسالة جعل أهل كل سماء يسألونه على وجه التعرف بعدما انكشف الفزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قال جبريل ومن معه: قال الحق[4]، وقيل لما سمعت الملائكة الوحي

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 110، رقم 22035 وما بعدها من حديث ابن مسعود.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري، 9: 496، رقم 4800 كتاب التفسير. والطبري في المرجع نفسه تحت رقم 22038.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره، 12: 111 رقم 22040 من حديث النواس بن سمعان.

(4) ذكره البغوي في تفسيره، 4: 507.

صعقوا فخروا سجداً ظانين أنها القيامة، فلما نزل جبريل بالوحي انكشف فزعهم، فرفعوا رؤوسهم، وقال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق يعني الوحي، وهو العلي الكبير أي الغالب القاهر السيد المطاع الكبير العظيم فلا شيء أعظم منه.

وقرأ الحسن: حتى إذا فرغ عن قلوبهم بالغين المعجمة والراء[1] بمعنى: فرغت قلوبهم من الفزع. وذهب بعض المفسرين: إلى أن قوله: حتى إذا فزع عن قلوبهم راجع إلى المشركين فإنهم إذا شاهدوا أهوال يوم القيامة غشي عليهم، فيزيل اللّه ذلك عن قلوبهم، ثم تقول لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ فيقولون: الحق، فأقروا حين لا ينفعهم الإقرار[2].

قال اللّه تعالى:

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (24) قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ (26) قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (27) وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (28) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (29) قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (30) ﴾.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة: من يرزقكم من السمٰوات المطر، ومن الأرض النبات، والثمر؟ وإنما أمر بهذا السؤال احتجاجاً عليهم لأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة لا غيره، وذلك أنه إذا استفهمهم عن الرزق لم يمكنهم أن يبينوا رازقاً غير اللّه، فيتحيروا في الجواب، فيؤمر النبي صلى اللّه عليه وسلم

---

(1) ذكر الطبري في تفسيره، 12: 113 هذه القراءة.
وكذا يراجع ابن جني في المحتسب، 2: 191.
والفراء في معاني القرآن، 12: 361.

(2) ذكره البغوي في تفسيره، 4: 507.

بالجواب، فيقول لهم: إن الذي يرزقكم هو اللّه عز وجل، وتم الكلام، ثم أمر بأن يخبرهم أنهم على الضلال بعبادة غير اللّه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا على وجه الإنصاف في الحجة لاستمالة قلوبهم كما يقول القائل من المتنازعين: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وصاحبه كاذب، والمعنى: ما نحن وأنتم إلا على أمر واحد أحد الفريقين مهتد، والآخر ضال، فالنبي صلى اللّه عليه وسلم ومن اتبعه على الهدى، ومن خالفه في ضلال مبين، قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿25﴾﴾ أي قل يا محمد للكفار: لا تؤاخذون بجرمنا، ولا نؤاخذ بجرمكم، فانظروا لأنفسكم، واعلموا أن حرصنا على إيمانكم لا ينفعكم، وهذا على وجه التبري منهم، ومن كفرهم. قوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يعني بعد البعث في الآخرة في المحشر ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ثم يقضي بيننا ويحكم بيننا بالعدل ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي وهو القاضي العليم بما يقضي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا﴾ أي قل لهم يا محمد: أروني الذين ألحقتموهم باللّه تعالى، وجعلتموهم شركاء للّه في العبادة هل لهم قدرة على الخلق والأمر؟ وهل يرزقون ويخلقون؟ قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر أي ارتدعوا عن مقالتكم وانزجروا فإنكم لا تقدرون أن تجعلوا للّه شركاء ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي المنيع الغالب لكل شيء ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره لخلقه فأنى يكون له شريك في ملكه، وقيل معناه: قل أروني الذين ألحقتموهم باللّه في العبادة معه شركاء هل يرزقون ويخلقون؟ كلا لا يرزقون ولا يخلقون بل الذي يخلق ويرزق هو اللّه العزيز في ملكه الحكيم في أمره. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي ما أرسلناك يا محمد إلا للناس كافة أي كلهم، أحمرهم وأسودهم، وقيل معناه: إلا مانعاً للناس من الكفر والضلال، والكف على هذا هو المنع[1]، وأدخلت الهاء ها هنا مبالغة كالراية والعلامة بشيراً بالخير لمن أطاع اللّه، ونذيراً أي مخوفاً بالنار لمن كفر باللّه ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني كفار مكة لا يتدبرون

---

(1) ينظر البغوي في تفسيره، 4: 508.
والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

القرآن فلو تدبروا لعلموا. قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي يقول الكفار متى هذا الوعد الذي تخوفوننا به من البعث والعذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في مقالتكم ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ أي قل لبعثكم وعذابكم ميقات يوم لا يؤخر عن وقت الوعد ولا يقدم وهو يوم القيامة.

قال اللّه تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿31﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿32﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿33﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي قال الكفار: لن نصدق بهذا القرآن، ولا بالذي بين يديه من أمر الآخرة والنشأة الثانية، وقيل معنى ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: يعنون التوراة والإنجيل[1]، وذلك أنه لما قال مؤمنو أهل الكتاب: إن صفة محمد صلى اللّه عليه وسلم في كتابنا وهو نبي مبعوث كفر أهل مكة بكتابهم[2]. قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ولو ترى يا محمد مشركي مكة محبوسين في أرض المحشر للحساب يوم القيامة يتجاوبون فيما بينهم يرد بعضهم على بعض القول في الجدال، ويحمل كل واحد منهم الذنب على صاحبه، فيقول الأتباع لرؤسائهم: لولا أنتم ودعاؤكم إيانا إلى الكفر لكنا مؤمنين كغيرنا، بل أنتم منعتمونا وصددتمونا عن الإيمان، فأجابهم رؤساؤهم على وجه الإنكار. ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ باختياركم الكفر عن الإيمان، فقال الأتباع للرؤساء: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ

---

(1) ينظر البغوي في المرجع نفسه.
(2) ينظر الفراء في معاني القرآن، 2: 362.

تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ قال الأخفش: الليل والنهار لا يمكران بأحد، ولكن يمكر فيهما، وهذا كقوله: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾[1]، وهذا من سعة العربية[2]، والمعنى: بل مكركم بنا في الليل والنهار إذ تأمروننا، وكذلك يقال: فلان نهاره صائم، وليله قائم. قال الشاعر:

.... ∴ وَنِمْتِ وما لَيْلُ المَطِيِّ بِنَائِمِ[3]

ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، وقيل: مكر الليل والنهار بهم طول السلامة فهما كقوله تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ﴾[4]. قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أي أضمروا في أنفسهم لأن موضع الندامة القلب، وقيل: أظهروها فيما بينهم، أقبل بعضهم يلوم بعضاً، ويعرف بعضهم بعضاً الندامة وهذا من ألفاظ الأضداد يقال: أسرَّ إذا كتم وأسرّ إذا أظهر. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي غلت أيمانهم إلى أعناقهم في النار ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿33﴾﴾ من الشرك في الدنيا.

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿34﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿35﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿36﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴿37﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ أي ما أرسلنا في

---

(1) سورة محمد 47، الآية: 13.

(2) معاني القرآن، 2: 663.

(3) هذا شطر بيت لجرير، صدره:
لَقَد لمتنا يا أم غيلان في السُّرَى
ينظر شرح ديوان جرير، ص 554، والكامل، 118، والكتاب، 1: 80.

(4) سورة الحديد 57، الآية: 16.

أهل قرية من رسول إلا قال رؤساؤها، وأعيانها، وأولوا النعمة فيها: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ من الإيمان والتوحيد ﴿كَٰفِرُونَ ﴿34﴾﴾، وقالوا للرسل: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ فكما فضلنا عليكم في الدنيا لن نعذب بذنوبنا في الآخرة افتخر مشركو مكة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين بأموالهم وأولادهم، وظنوا أن اللّه إنما خولهم المال والولد كرامة لهم عنده فقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿138﴾﴾ إن اللّه أحسن إلينا بالمال والولد فلا يعذبنا.

فقال اللّه لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يعني أن بسط الرزق وتضييقه من اللّه تعالى يفعله ابتلاء وامتحاناً، ولا يدل البسط على رضا اللّه تعالى ولا يدل التضييق على سخطه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني أهل مكة لا يعلمون حين ظنوا أن أموالهم وأولادهم دليل على كرامة اللّه لهم. قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي ليست كثرة أموالكم وأولادكم بالخصلة التي تقربكم عندنا زلفى أي بالتي تقربكم إلى الثواب والكرامة قربة، وقيل معناه: بالتي تقربكم عندنا قربى قال الأخفش: زلفى اسم المصدر كأنه أراد بالتي تقربكم عندنا تقريباً[1] ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بصرف المال في وجوه الخير، وبصرف الأولاد في طاعة اللّه، وقيل معناه: إلا من آمن وعمل صالحاً فإن إيمانه وعمله يقربه مني. وقوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي لهم الجزاء المضاعف على حسناتهم بالحسنة الواحدة عشراً وهم في غرفات الجنة آمنون من كل آفة ومكروه، والغرفات[2]: هي البيوت فوق الأبنية. قرأ حمزة: وهم في الغرفة على الواحدة[3] لقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾[4]، وقرأ الباقون: ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ على الجمع[5] لقوله تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾[6]، وقرأ يعقوب: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءً﴾

---

(1) معاني القرآن، 2: 663 بتصرف.
(2) في النسخة ك: والغرفة.
(3) ينظر مكي في الكشف عن وجوه القراءات، 2: 208، وابن خالويه في الحجة، ص 295.
(4) سورة الفرقان 25، الآية: 75.
(5) مكي في المرجع نفسه، وابن خالويه أيضاً.
(6) سورة العنكبوت 29، الآية: 58.

بالنصب منوناً، الضعفُ بالرفع[1] تقديره: فأولئك لهم الضعفُ جزاءً على التقدير والتأخير.

قال اللّٰه تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿38﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿39﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿40﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿41﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿42﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي يسعون في دلائل التوحيد والنبوة معاندين يحسبون أنهم يفوقوننا ويعجزوننا أولئك في العذاب محضرون أي محبوسون. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ قد تقدم تفسيره وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي ما أنفقتم من مال في غير إسراف ولا تقتير فهو يخلفه في الدنيا بالعوض، وفي الآخرة بالحسنات والدرجات. وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي يخلفه لكم أو عليكم يقال: أخلف اللّٰه له وعليه إذا أبدل له ما ذهب عنه وعن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «**من فقه المرء رفقه في معيشته**»[2]. وقال الكلبي معناه: وما أنفقتم في الخير والبر فهو يخلفه إما أن يعجله له في الدنيا، وإما أن يدخره له في الآخرة. وعن سعيد بن يسار[3] قال: قال رسول اللّٰه

---

(1) ينظر ابن مهران الأصبهاني في كتابه: المبسوط في القراءات العشر، ص 364.
ينظر ابن الجزري في النشر، 2: 351، برواية رويس.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، 5: 254، رقم 6564 ـ 6565 من حديث أبي الدرداء «باب الاقتصاد في النفقة».

(3) أبو الحباب سعيد بن يسار مولى الحسن بن علي بن أبي طالب، كان ثقة كثير الحديث، روى عن أبي هريرة، وابن عمر، توفي بالمدينة سنة سبع عشرة ومائة. الطبقات الكبرى، 5: 217.

صلى اللَّه عليه وسلم: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يناديان أحدهما يقول: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**»[1]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي خير المخلفين، وإنما قال: ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لأنه قد يقال: رزق السلطان الجند. قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني المشركين، ثم نقول للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ هذا استفهام توبيخ للعابدين كقوله تعالى لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[2] فنزهت الملائكة ربهم عن الشرك، وقالوا سبحانك أي تنزيهاً لك مما أضافوه إليك من الشركاء ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ أي ما اتخذناهم عابدين ولا توليناهم ولسنا نريد غيرك ولياً، وأنت العالم بأمورنا وافترائهم علينا كنا نواليك ولا نواليهم ﴿بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي أطاعوا الشياطين في عبادتهم إيانا لأن الشياطين كانت تدعوهم إلى ذلك، فكان أكثرهم للشياطين مؤمنين قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي يقال لهم: اليوم لا يقدر بعضكم لبعض جرَّ نفع ولا دفع ضر، ويقول خزنة النار بأمر اللَّه للذين ظلموا: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (43) وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ (44) وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (45)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ معناه: وإذا يقرأ على أهل مكة آياتنا وهي القرآن وأصحاب الحجج قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ يعنون محمداً صلى اللَّه عليه وسلم ﴿إِلَّا

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح ابن حجر، فتح الباري، 58، رقم 1442، كتاب الزكاة. ومسلم في صحيحه بشرح النووي، 7: 95، كتاب الزكاة: باب كل نوع من المعروف صدقة.
(2) سورة المائدة 5، الآية: 116.

رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، وقالوا: ما هذا الذي آتانا به إلا كذب مفترى يعنون القرآن، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ وهو القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿43﴾﴾. قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿44﴾﴾ أي ما آتينا أهل مكة من كتب يقرؤونها، والمعنى: من أين كذبوك؟ ولم يأتهم كتاب ولا نذير بهذا الذي فعلوه، وما أرسلنا إليهم قبلك يا محمد من رسول ثم خوفهم، وأخبر عن عاقبة من كذب قبلهم فقال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني الأمم[1] الكافرة، ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ يعني أهل مكة ﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ أي ما بلغ هؤلاء الذين أرسلت إليهم عشر ما أوتي الأمم قبلهم من القوة والعدة فكذبوا رسلي، فانظر ﴿فَكَيْفَ﴾ كان إنكاري عليهم، وتعذيبي لهم أليسوا مهلكين بالعذاب إذا لم يؤمنوا، والمعشار، والعشر، والعشير: جزء من العشرة قال ابن عباس المعنى: وما بلغ قومك معشار ما آتينا من قبلهم من القوة، وكثرة المال، وطول العمر[2] فأهلكهم الله.

قال الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿46﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿47﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿48﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿49﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿50﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ أي آمركم وأوصيكم بخصلة واحدة: وهي ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي تقوموا لله اثنين اثنين، وواحداً واحداً فيتناظروا ويتفكروا في أمر النبي صلى الله عليه وسلم هل ترون في فعله، وقوله، ودعائه إلى توحيد الله ما يكون من كلام المجانين، وأفعالهم، أو هو كلام عالم جازم. قال مقاتل: والمعنى أن يتفكر الرجل منكم وحده، ومع

(1) وهم: عاد، وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وغيرهم.
(2) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 185.

صاحبه لتنظروا أن خلق السمٰوات والأرض دليلٌ على أن خالقهما واحد لا شريك له[1]. قوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ وذلك أن المشركين قالوا: إن محمداً ساحر مجنون، فقال اللّه تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾، وما صاحبكم بمجنون، فعلى هذا المعنى يكون: ما بصاحبكم من جنة ابتداء كلام من اللّه تعالى ويجوز أن يكون المعنى: ثم تتفكروا فتعلموا بطلان قولكم في نسبته إلى الجنون وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ أي ما هو إلا رسول مخوف لكم ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أي بين يدي القيامة لكي تخلصوا أنفسكم [من عذاب اللّه][2] بالتلاقي والتوبة .قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ﴾ معناه: قل لهم يا محمد: ما سألتكم على تبليغ الرسالة أجراً فتتهموني. وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ لَكُمْۖ﴾ هذا كالرجل يقول لغيره: ما أعطيتني فخذه يريد بذلك: لم يعطه شيئاً. وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي ما ثوابي إلا على اللّه وهو على كل شيء من أعمال العباد شهيد. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿48﴾﴾ القذف: هو الرمي بالسهم، والحصى، والكلام. قال الكلبي: فمعنى الآية: قل إن ربي يأتي بالحق، أي يتكلم بالوحي وهو القرآن يلقيه إلى نبيه عليه السلام. والمعنى: قل إن ربي ينزل الوحي من السماء فيقذفه ويلقيه إلى الأنبياء عليهم السلام وقوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ ظاهر المعنى ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني الإيمان والقرآن أي ظهر الإسلام، والقرآن ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿49﴾﴾ معناه: ذهب الباطل وزهق فلم تبق له بقية يبدىء بها ولا يعيد، وقال الحسن: الباطل: كل معبود سوى[3] اللّه. فإن كل معبود سوى اللّه لا يبدىء لأهله خيراً في الدنيا، ولا يعيد بخير في الآخرة، وقال قتادة: الباطل إبليس أي ما يخلق إبليس أحداً، ولا يبعثه[4]، ويجوز أن يكون هذا استفهاماً كأنه قال: وأي شيء يبدىء الباطل، وأي شيء يعيده؟

---

(1) ذكره البغوي في تفسيره، 4: 514.

(2) ما بين المعقوفتين ساقط من غير بياض من النسخة: ك.

(3) ينظر الثعلبي في تفسيره: خ.

(4) ينظر البغوي في المرجع المذكور.

وعن ابن مسعود قال: دخل رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم مكة، وحول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود معه[1] ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2] ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿49﴾﴾ أي ذهب الباطل بحيث لا يبقى له بقية لا إقبال ولا إدبار، ولا إبداء ولا إعادة كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾[3] ويقال فلان ظهرت عليه الحجة فما يبدىء وما يعيد، وما يحلي وما يُمرُّ. قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ﴾ وذلك أن كفار مكة قالوا للنبي صلى اللَّه عليه وسلم: لقد ضللت حين تركت دين آبائك، فقال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ﴾ أي ضرر ذلك راجع إلى نفسي، وإن اهتديت إلى الحق ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ﴾ من القرآن والبيان ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ﴾ لكل ما يقوله الخلق من حق، وباطل ﴿قَرِيبٌ ﴿50﴾﴾ مني لا تخفى عليه خافية.

قال اللَّه تعالى:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿51﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿52﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿53﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿54﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ أي لو ترى يا محمد الكفار إذ فزعوا يعني عند البعث فلا يمكنهم الغوث ولا الهرب مما هو نازل بهم لرأيت ما يعتبر به غاية الاعتبار، ومعنى الآية: ولو ترى إذ فزعوا عند البعث فلا يفوتونني أي لا يفوتني أحد ولا ينجو مني ظالم. وقوله تعالى: ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ يعني من القبور حيث كانوا، فهم من اللَّه قريب لا يبعدون عنه ولا يفوتونه. واختلف المفسرون[4] في معنى هذه الآية قال بعضهم: أراد بقوله إذ

---

(1) ينظر الثعلبي في تفسيره: ـ خ.
(2) سورة الإسراء 17، الآية: 81.
(3) سورة الأنبياء 21، الآية: 18.
(4) يراجع هذا الاختلاف في تفسير الطبري، 12: 128 وما بعدها.

فزعوا فلا فوت يعني فلا فوت مما أصابهم يوم بدر عند القتال، وقال بعضهم: أراد عند قبض الأرواح في وقت المعاينة وقال بعضهم: أراد به يوم القيامة إذ فزعوا من مشاهدة عذاب جهنم، وعلموا أنهم لا يفوتون اللَّه، وأخذوا بالعذاب من مكان قريب إلى جهنم فقذفوا فيها، وقالوا عند رؤية العذاب: آمنا باللَّه تعالى وبرسوله.

يقول اللَّه تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أي من أين لهم تناول ما أرادوا بلوغه من مكان بعيد يعني من الآخرة وقد تركوه في الدنيا يعني أنهم قد تعذر عليهم تناول الإيمان كما يتعذر على الإنسان تناول اللحوم. والتناوش: هو التناول يقال: نشته أنوشه نوشاً إذا تناولته كأنه قال: وأنى لهم تناول التوبة، وقيل: ما يتمنون. قال ابن عباس: يتمنون الردّ حين لا ردَّ[1]. قرأ أبو عمرو، والأعمش وحمزة والكسائي: التناوش بالهمز والمد: وهو الإبطاء والبعد أي من أين لهم أن يتحركوا فيما لا حيلة لهم فيه. يقال: نأشت الشيء إذا أخذته من بعيد والنشأ: الشيء البطيء، وقرأ الباقون بغير همز من التناول يقال: نشته إذا تناولته، وتناوش القوم في الحرب إذا تدانوا، وتناول بعضهم بعضاً، واختار أبو عبيد ترك الهمزة[2] لأنه قال معناه: من التناول، فإذا همز كان معناه: البعد فكيف يقول: أنى لهم البعد من مكان بعيد، قوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ يعني أنهم يريدون أن يتناولوا التوبة وقد صاروا في الآخرة، وإنما تقبل التوبة في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا فصارت بعيداً من الآخرة. قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ أي كانوا كافرين بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم والقرآن في الدنيا قبل ما عاينوا من أهوال القيامة. قوله تعالى: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ أي ينسبون محمداً صلى اللَّه عليه وسلم إلى السحر، والجنون، والكهانة رجماً منهم بالغيب، والقذف والرجم بالغيب: أن يلفظ الإنسان بشيء لا يتحققه، ومنه سمي الرمي بالفاحشة قذفاً، ومعنى قوله: بالغيب أي يقذفون محمداً صلى اللَّه عليه وسلم بالظن لا باليقين، والغيب على هذا الظن، وهو ما

---

(1) ينظر الطبري في تفسيره، 12: 132، رقم 22092.

(2) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات، ص 530، والنحاس: في إعراب القرآن، 3: 356.

غاب علمه عنهم، وقوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يعني بعدهم عن الحق، وقال قتادة: معنى ويقذفون بالغيب: يقولون لا بعث، ولا جنة، ولا نار[1] قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي حيل بين هؤلاء الكفار وبين الرجعة إلى الدنيا، وقال الحسن: معناه: حيل بينهم وبين الإيمان[2] والتوبة ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أي فعل بنظرائهم وأشباههم ومن كان على مثل حالهم من الكفار من قبل أي من قبل هؤلاء ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ﴾ من البعث، ونزول العذاب بهم ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي ظاهر الشك. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول، ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً، ومصافحاً**»[3].

---

(1) ينظر الطبري في تفسيره، 12: 134، رقم 22100.

(2) الطبري في المرجع المذكور.

(3) سبق تخريجه في أول السورة.

سورة فاطر

سورة الملائكة ـ مكية كلها وهي ألف ومائة وثلاثون حرفاً، وسبعمائة وسبعون كلمة، وخمس وأربعون آية. قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: «**من قرأها دعته يوم القيامة ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أي الأبواب شئت**»[1].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ② يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④﴾.

بسم اللَّه الرحمن الرحيم. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقها مبتدئاً من غير مثال سبق. قال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: ما كنت أعرف معنى فاطر حتى اختصم إلي أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها أي بدأتها[2]. قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ قال بعضهم: أراد به الملائكة كلهم، فإنهم كلهم رسل للَّه بعضهم إلى بعض، وبعضهم إلى الإنس، وقال بعضهم: أراد بذلك جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، والحفظة يرسلهم اللَّه إلى النبيين، وإلى ما شاء من الأمور. قوله تعالى: ﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ صفة الملائكة أي ذوي أجنحة: منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة اختارهم اللَّه لرسالته من حيث علم أنهم لا يبدلون. وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ أي يزيد في أجنحة الملائكة ما يشاء فمنهم من

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف في تفسير آخر السورة، 3: 313، وذكره الثعلبي في تفسيره عند تفسير أول السورة.

(2) الزمخشري في المرجع المذكور.

له: مائة ألف جناح، ومنهم من له أكثر، وعن ابن عباس رضي اللّٰه عنهما قال: رأى النبي صلى اللّٰه عليه وسلم جبريل ليلة المعراج، وله ستمائة جناح[1]، وعن ابن شهاب قال: سأل رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم جبريل أن يتراءى له في صورته، فقال له جبريل: إنك لن تطيق ذلك يا رسول اللّٰه، قال: «**إني أحب أن تفعل**»، فخرج رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم إلى المصلى في ليلة مقمرة، فأتاه جبريل في صورته فغشي على النبي صلى اللّٰه عليه وسلم حين رآه، ثم أفاق وجبريل مسنده إليه واضع إحدى يديه على صدره، والأخرى بين كتفيه، فقال النبي صلى اللّٰه عليه وسلم: «**سبحان اللّٰه ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا**»، فقال جبريل عليه السلام: كيف لو رأيت إسرافيل يا رسول اللّٰه له اثنا عشر ألف جناح منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، والعرش على كاهله[2].

وعن ابن مسعود رضي اللّٰه عنه أنه قال: إن للّٰه تعالى ملكاً يسع البحار كلها في نقرة إبهامه. وقيل معنى قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ يعني حسن الصوت كذا قال الزهري، وقال قتادة: هو الملاحة في العينين، والشعر الحسن، والوجه الحسن، والخط الحسن[3]. وقوله تعالى: ﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أي قادر على ما يريد من الزيادة والنقصان. قوله تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ أي ما يرسل اللّٰه إلى الناس من رسول فلا مانع له، وذلك لأن إرسال الرسول من اللّٰه تعالى رحمة لعباده كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[4]، وقيل أراد بالرحمة هاهنا: المطر، والرزق، والعافية، وجميع النعم، ما يفتح اللّٰه من ذلك فلا مانع له، ولا يستطيع أحد من الخلق حبسه، ولا إمساكه. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ أي وما يمسكه اللّٰه من ذلك فلا يقدر أحد على إرساله ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أي

---

(1) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، 3: 3 من حديث ابن مسعود باب في ذكر سدرة المنتهى.

(2) الثعلبي في تفسيره: ـ خ، والزمخشري في المرجع نفسه.

(3) ذكره القرطبي في تفسيره، 14: 320، وكذا البغوي في تفسيره، 4: 517.

(4) سورة الأنبياء، 21: 107.

العزيز فيما أمسك، الحكيم فيما أرسل. قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ يعني [يا] أهل مكة اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ أسكنكم الحرم، ومنعكم من الغارات ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ هذا استفهام ومعناه: التوبيخ أي لا خالق سواه قوله تعالى: ﴿يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي من السماء بإنزال المطر، ومن الأرض بإخراج النبات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ أي فأنى تصرفون عن الإلّه الذي هذه صفته إلى معبود لا يقدر على شيء قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ في هذه الآية تسلية للنبي صلى اللّه عليه وسلم لئلا يجزع على تكذيب قومه، وأن يصبر كما صبر على تكذيب الأمم من قبله من الرسل ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ عواقب الأمور في مجازاة المكذبين، ونصرة المرسلين.

قال اللّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿5﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿6﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿7﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿8﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿9﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ﴾ معناه: إن الذي وعده اللّه من المجازاة والبعث بعد الموت حق كائن ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزينتها وزهرتها حتى تشتغلوا بها عن أمر دينكم ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ أي ولا يستزلنكم عن طاعة اللّه الشيطان الذي من عادته الغرور، وقرأ أبو السمال العدوي: الغرور بضم[1] الغين، وهو أباطيل الدنيا، وأما الغرور بفتح الغين فهو الشيطان. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ أي احترزوا من

---

(1) ذكر القرطبي في تفسيره، 14: 323 هذه القراءة، وكذا النحاس: في إعراب القرآن، 3: 361.

كيده، ولا تقبلوا منه، ولا تطيعوه ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ﴾ أي أهل طاعته ليكونوا معه من أصحاب السعير أي ليسوقهم إلى النار. قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ نزلت[1] هذه الآية في أبي جهل، ومشركي مكة، وقيل: نزلت في أصحاب الأهواء، والملل التي خالفت الهدى، والمعنى: أفمن زين له سوء عمله كمن هداه اللّه، ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أي لا تغتم ولا تهلك نفسك عليهم حسرات على تركهم الإسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ في كفرهم فيجازيهم بما هو أولى بهم، قرأ أبو جعفر: فلا تُذهب: بضم التاء وكسر الهاء، ونصب السين[2]. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ معناه: اللّه الذي أرسل الرياح لإثارة السحاب فأجريناه ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ليس فيه نبات، ولا شجر فأحيا بالمطر الأرض بإخراج الزرع، والأشجار فيها بعد يبسها وذهاب النبات عنها كذلك البعث في القيامة، وهذا احتجاج على منكري البعث فإن موتهم كموت الأرض، وذهاب أثرهم كذهاب أثر الأشجار والزروع، والقادر على إخراج الأشجار والزروع من الأرض قادر على إخراج الموتى من الأرض ومعنى الآية: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ أي يزعجه من حيث هو فسقناه إلى بلد ميت أي مكان ليس فيه نبات ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي أنبتنا فيها الزرع والكلأ بعد أن لم يكن ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ⑨﴾ أي الإحياء والبعث. وعن أبي رزين العقيلي[3] قال: قلت: يا رسول اللّه كيف يحيي اللّه الموتى؟ قال: «**أما مررت بواد كان مجدباً**[4] **ثم مررت به خَضِراً؟**» قلت: بلى، قال: «**فكذلك يحيي اللّه الموتى**»، أو قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ⑨﴾[5].

---

(1) تراجع هذه الأقوال في سبب النزول في تفسير البغوي، 4: 518، حيث نسبها إلى أصحابها.
(2) ابن الجزري في النشر، 2: 351.
(3) أبو رزين لقيط بن عامر بن المنتفق العقيلي، روي له أحاديث عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم ـ الطبقات الكبرى: 6: 54 رقم 1693.
(4) في النسخة ك: ممحلاً.
(5) أخرجه الإمام أحمد في المسند، 4: 11. =

قال اللّه تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿10﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿11﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿12﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي من كان يطلب العزة بعبادة الأصنام فليطلبها بطاعة اللّه تعالى، وطاعة رسوله صلى اللّه عليه وسلم فإن العزيز من أعزه اللّه، وذلك أن الكفار كانوا يعبدون الأصنام طمعاً في العزة كما قال اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿81﴾﴾[1] وقيل معناه: من كان يريد أن يعلم أن العزة لمن هي فليعلم أنها للّه تعالى. قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أي إلى اللّه تصعد كلمة التوحيد، وهي قول: لا إله إلا اللّه، ومعنى إليه يصعد: أنه يعلم ذلك كما يقال: ارتفع الأمر إلى القاضي، وإلى السلطان أي علمه، وقيل: صعود الكلم الطيب أن يرفع ذلك مكتوباً أو مقبولاً إلى حيث لا مالك إلا اللّه أي إلى سمائه يصعد الكلم الطيب. قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ قال الحسن: معناه والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب إلى اللّه بعرض القول على الفعل، فإن وافق القول الفعل قبل، وإن خالف ردَّ[2]، والمعنى: أن العبد إذا وحد اللّه، وأخلص في عمله ارتفع العمل والكلام إلى اللّه تعالى. قال الحسن: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل، من قال حسناً، وعمل غير صالح، رده اللّه تعالى، ومن قال حسناً، وعمل صالحاً، رفعه العمل[3].

= والسيوطي في الدر المنثور، 5: 461.
الطبقات الكبرى، 6: 54، رقم 1693.

(1) سورة مريم 19، الآية: 81.

(2) ينظر الطبري في تفسيره، 12: 145.

(3) أخرجه البيهقي في الشعب، 1: 80 رقم 66، باب القول في زيادة الإيمان ونقصانه.

وقرأ أبو عبد الرحمن [السلمي] الكلام[1] الطيب. وعن أبي هريرة عن النبي صلى اللَّه عليه وسلم في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾: «**هو قول الرجل: سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إلَه إلا اللَّه، واللَّه أكبر إذا قالها العبد عرج بها ملك إلى السماء**»[2]، وقيل الكلام الطيب: لا إلَه إلا اللَّه، والعمل الصالح: أداء فرائضه، ومن لا يؤدي فرائضه ردّ كلامه، وجاء في الخبر: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب.

وقال صلى اللَّه عليه وسلم: «**لا يقبل اللَّه قولاً بلا عمل**». وعلى هذا المعنى: قال الشاعر:

لا تَرْضَ من رجل حلاوة قوله ∴ حتى يُصدِّق ما يقول فَعَالُ[3]

فإذا وزنت مقاله بفعاله ∴ فتوازنا فإخاء ذاك جَمَالُ

وقال ابن المقفع[4]: قول بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر[5]، وقيل معناه: والعمل الصالح يرفعه اللَّه أي يقبله. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي يفعلونها على وجه المخادعة كما كان الكفار يمكرون بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم في دار الندوة. وقيل معناه: والذين يشركون باللَّه، ويعملون السيئات لهم عذاب شديد في الآخرة، وقيل أراد بقوله: ﴿يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يعملون عملاً على وجه الرياء لما روي أن رجلاً قال: يا رسول اللَّه فيم النجاة غداً؟ فقال: «**لا تخادع اللَّه فإنه من يخادع اللَّه يخدعه، ويخلعه من الإيمان**»، فقال رجل: يا رسول اللَّه فكيف يخادع اللَّه؟

---

(1) ذكر النحاس: في إعراب القرآن هذه القراءة، 3: 364.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب، 1: 425 رقم 606.
وذكره الثعلبي في تفسيره بسنده.
والسيوطي في الدر المنثور، 5: 462 عن ابن مسعود.

(3) ذكره الثعلبي في تفسيره ـ خ، من غير نسبة إلى أحد، وكذا القرطبي في تفسيره، 14: 329.

(4) عبد اللَّه بن المقفع من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، وله مؤلفات منها: كتاب كليلة ودمنة، وكتاب الأدب الصغير، والأدب الكبير وغيرها، توفي سنة اثنتين وأربعين ومائة هجرية ـ دائرة المعارف الإسلامية، 1: 282، والبداية والنهاية: 10: 96.

(5) القرطبي في المرجع نفسه.

قال: «**أن تعمل ما أمرك اللَّه به تريد به غيره، فاتقوا اللَّه في الرياء فإنه الشرك باللَّه تعالى، وإنه لا يقبل مع الرياء عمل، وإن المرائي لينادَى يوم القيامة على رؤوس الأشهاد بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، ضل عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك التمس من كنت تعمل له يا مخادع**».

قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي يفسد ويهلك، ويكسد، ولا يكون شيئاً. قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي خلق أصلكم وآباءكم آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي ثم خلق نسل آدم من نطفة ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يعني ذكراناً وإناثاً ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ ولا تلد لتمام وغير تمام إلا بعلمه ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي ما يطول عمر أحد ولا ينقص من عمر أحد إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن كتابة الآجال والأعمال وحفظها من غير كتابة على اللَّه هين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ قيل: هذا مثل ضربه اللَّه يقول: كما لا يستوي البحران أحدهما عذب في غاية العذوبة هنيء شرابه مريء والآخر مرٌّ ذعاف لا يستطاع شربه فلذلك لا يستوي المؤمن والكافر، والتقي والفاسق، والسائغ: هو السالك في الحلق، والأجاج: شديد الملوحة. وقرأ عيسى: سيِّغ شرابه، مثل ميِّت وسيِّد[1].

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ أي ومن كل البحرين تأكلون السمك لا يختلف طعم السمك لاختلاف ماء البحرين، فكذلك قد يولد للكافر ولد مسلم مثل: خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهما، وقوله تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ قيل: أراد به إخراج اللؤلؤ من المرجان، من أحدهما خاصة وهو الملح، والمعنى: وتستخرجون من الملح دون العذب، قيل: إن اللؤلؤ: هو قطر المطر يقع في جوف الصدف فيكون منه اللؤلؤ. قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ أي ترى السفن جواري في البحر. قال مقاتل: هو أن يرى سفينتين إحداهما مقبلة والأخرى مدبرة، وهذه تستقبل تلك وتلك تستدبر هذه

---

(1) ذكر الثعلبي ـ في المرجع نفسه قراءة ـ عيسى بن عمر، وكذا القرطبي في المرجع نفسه.

يجريان بريح واحدة[1] وقوله تعالى: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي لتطلبوا من رزقه التجارة فتحمل النعم فيها من بلد إلى بلد. وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي فعل ذلك لتعلموا أن هذه النعم من اللَّه، ولكي تشكروه عليها.

قال اللَّه تعالى:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿13﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿14﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ قد تقدم تفسيره. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي الذي يفعل هذه الأشياء هو اللَّه ربكم له الملك الدائم الذي لا يزول ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ من الأصنام لا يقدرون أن ينفعوكم بقدر قطمير: وهو القشرة الرقيقة الملزقة بنواة التمر كاللفافة عليها. قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾ يعني الأصنام ﴿لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ ولو كانوا سامعين ما أجابوكم بإغاثة ولا نصرة. والمعنى: إن تدعوهم لكشف ضر لا يسمعوا دعاءكم لأنها جماد لا تنفع ولا تضر ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ﴾ بأن يخلق اللَّه فيهم السمع ما استجابوا لكم ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي يتبرؤون منكم، ومن عبادتكم كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾[2] والمعنى بقوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يتبرؤون من عبادتكم يقولون: ما كنتم إيانا تعبدون. قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ معناه: لا يخبرك بحقائق الأمور وعواقبها مثل اللَّه لأنه عالم بكل الأشياء لا يخفى عليه منها شيء، ولا تلحقه المضار والمنافع.

قال اللَّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿15﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿16﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿17﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

(1) ينظر الثعلبي في تفسيره: ــ خ.
(2) سورة البقرة 2، الآية: 166.

أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿18﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي المحتاجون إليه، وإلى نعمه، ومغفرته حالاً بعد حال ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ عن إيمانكم وطاعتكم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ أي المحمود في أفعاله عند خلقه، وإنما أمركم بطاعته لتنتفعوا بها لا حاجة به إليها ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي إن يشأ يهلككم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أطوع للَّه منكم ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿20﴾﴾ أي ليس إهلاككم والإتيان بمثلكم على اللَّه بممتنع. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل في القيامة حاملة حمل حاملة أخرى، أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ بالذنوب إلى أن يحمل عنها شيء من ذنوبها ﴿شَيْءٌ﴾ من ذنوبها ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو ذا قربة من الداعية لما في ذلك من غلظ حمل الآثام ولو تحملته لم يقبل تحملها لأن كل نفس بما كسبت رهينة فلا يؤخذ أحد بذنب غيره، وسئل «الحسين بن الفضل»[1] عن الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2] [فقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يعني طوعاً، وقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾][3] يعني كرهاً[4]، قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ قال: يقول الأب والأم: يا بني احمل عني؟ فيقول: حسبي ما عليّ[5]. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يقول: إنما ينتفع بإنذارك وعظتك الذين يطيعون ربهم في السرِّ ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ولأن من خشي اللَّه، واجتنب

---

(1) الحسين بن الفضل بن عمير البجلي، قال عنه المترجمون له: مفسرٌ معمرٌ كان رأساً في معاني القرآن، أصله من الكوفة، وانتقل إلى نيسابور، فأقام بها يعلم الناس إلى أن توفي بها سنة اثنتين وثمانين ومائتين هجرية، لسان الميزان، 2: 307.

(2) سورة العنكبوت 29، الآية: 13.

(3) ما بين القوسين ساقط من النسخة: س.

(4) تفسير الثعلبي: خ.

(5) البغوي في تفسيره، 4: 522.

المعاصي في السر، اجتنبها لا محالة في العلانية، ويقال إن الخشية في السر والإقدام على الطاعة في السر، واجتناب المعصية في السر أعظم عند اللّه ثواباً كما قال صلى اللّه عليه وسلم: «**ما تقرب امرىء إلى اللّه بشيء أفضل من سجود خفي في ليلة مظلمة**».

وأما عطف الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ على المستقبل في قوله تعالى: ﴿يَخْشَوْنَ﴾ ففائدة ذلك أن وجوب خشية اللّه لا يختص بزمان دون زمان ولا بمكان دون مكان، ووجوب إقامة الصلاة يختص ببعض الأوقات. قوله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أي من تطهر من دنس الذنوب والشرك ليكون عند ربه زكياً فإن منفعة تطهره راجعة إلى نفسه ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي إليه مرجع الخلق كلهم في الآخرة.

قال اللّه تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿19﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿20﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿21﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿22﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿23﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿24﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿25﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿26﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿19﴾﴾ يعني المشرك والمؤمن ﴿وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿20﴾﴾ أي ولا الشرك والضلالات كالنور والهدى والإيمان وقوله تعالى: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿21﴾﴾ يعني ولا الجنة والنار، وقال عطاء يعني ظل الليل وسموم النهار[1] ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ يعني المؤمنين والكافرين، وهذه أمثال ضربها اللّه، أي كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن. قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ أي يسمع كلامه من يشاء حتى يتعظ ويهتدي. قال عطاء: يعني أولياءه الذين خلقهم لجنته[2] قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي كما لا يقدر أن يسمع من في

(1) يراجع تفسير القرطبي، 14: 339.

(2) القرطبي في المرجع نفسه.

٣٧

القبور فكذلك لا يقدر أن يسمع الكفار. شبههم بالموتى لأنهم لا ينتفعون بما يسمعون كالموتى وقرأ الأشهب العقيلي: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعِ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ بلا تنوين على الإضافة[1]. قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿23﴾﴾ أي ما أنت إلا رسول تنذرهم بالنار وتخوفهم، وليس عليك غير ذلك. قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿24﴾﴾ أي ما من أمة إلا سلف فيها نبي ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ فلست بأول رسول كذب ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ وهي الكتب.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ﴾ يعني التوراة، ويقال: إنما كرر الزبر وهي الكتب أيضاً لاختلاف صفات الكتاب لأن الزَّبر: هو الكتابة الثابتة كالنقرة في الصخرة ثم قيل، ﴿وَبِٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ﴾ الموصوف واحد والصفات مختلفة، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أخذتهم بالعقوبة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿26﴾﴾، أي إنكاري عليهم، وتعذيبي لهم.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿27﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿28﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿29﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿30﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ يعني المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَاۚ﴾ وطعمها. وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي وخلقنا ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾ أي طرق تكون في الجبال كالعروق بيض وحمر وسود واحدها جدة قال المبرد: جدد طرائق وخطوط ونحو هذا، والجدد جمع الجدة، وهي الطريقة كالمدة والمدد، والعدة والعدد

(1) ينظر الثعلبي في تفسيره: خ، فقد ذكر هذه القراء ونسبها إلى قارئها.

وأما الجدد بضمتين فهي جمع جديد مثل: سرير وسرر قوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ يجوز أن يكون الغرابيب: هي الجبال السود كأنه قال: ومن الجبال غرابيب سود والغربيب الذي لونه كلون الغراب، وكذلك حَسُن أن يقال: سود وقال الفراء: هذا على التقديم والتأخير تقديره: وسود غرابيب قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ معناه: ومن الناس والدواب والأنعام ما هو مختلف ألوانه كاختلاف الثمار والجبال وتم الكلام على قوله: كذلك وقوله تعالى: إنما يخشى اللّه من عباده العلماء قال ابن عباس معناه: إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي وعزتي وسلطاني، وقال مقاتل: أشد الناس للّه خشية أعلمهم به، وقال المفسرون: كفى بخشية اللّه علماً، وكفى بالاغترار به جهلاً وفي الكشاف: من قرأ يخشى اللّه بالرفع ونصب العلماء فمعنى يخشى اللّه يختبر اللّه العلماء[1] قال الزمخشري[2]: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي عزيز قاهر غالب في ملكه غفور لذنوب المؤمنين[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن في الصلاة وغيرها ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي وأنفقوا مما أعطيناهم من الأموال تطوعاً وسراً فيسلموا بذلك عن تهمة الرياء وفريضة جهراً، فيسلموا بذلك عن تهمة المنع ويقال أراد بذلك النفقة في الجهاد يرجون بذلك تجارة لن تبور أي لن تكسد ولا يرد عليها الفساد والبطلان وقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي ليعطيهم أجور أعمالهم كاملاً ويزيدهم من فضله فوق ما استحقوا. قال ابن عباس: يعني سوى الثواب وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يعني أنه غفور بذنوبهم شكور يعامل بالإحسان معاملة الشاكر قال

---

(1) يراجع الزمخشري في الكشاف، 3: 308، بتصرف.

(2) ابن القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي إمام فاضل، وعالم كبير بالتفسير، وعلوم الدين، واللغة، والبلاغة والأدب له مؤلفات كثيرة منها تفسيره «الكشاف» و«أساس البلاغة» و«الفائق في غريب الحديث» وغيرها، توفي سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة هجرية، وفيات الأعيان، 2: 81، مفتاح السعادة، 1: 431.

(3) تفسير الكشاف، 3: 308، بتصرف.

ابن عباس: يغفر العظيم من ذنوبهم، وشكر اليسير من أعمالهم[1].

قال اللَّه تعالى:

﴿وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿31﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿32﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًاۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿33﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿34﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿35﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿36﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآن ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي موافقاً لما قبله من الكتب لأن كتب اللَّه تعالى كلها دالة على توحيده وإن اختلفت الشرائع. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿31﴾﴾ أي خبير بأقوالهم وأفعالهم ونياتهم فيجزيهم بما يستحقون. قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ قال مقاتل: يعني القرآن وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يريد أمة محمد صلى اللَّه عليه وسلم ثم قسمهم ربهم فقال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو الذي مات على كبيرة، ولم يتب منها، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو الذي لم يصب كبيرة، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ يعني المقربين الذين سبقوا إلى الأعمال الصالحة، وقال الحسن: الظالم الذي رجحت سيئاته على حسناته، والمقتصد: الذي استوت حسناته وسيئاته، والسابق: من رجحت حسناته على[2] سيئاته. وعن عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «**سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له**»[3]. وقوله تعالى: ﴿سَابِقُۢ﴾ أي إلى الجنة أو

---

(1) ينظر البغوي في تفسيره، 4: 525.

(2) ينظر البغوي في المرجع نفسه.

(3) ذكره القرطبي في تفسيره، 14: 346، ورواه الهيثمي في مجمع الزوئد، 7: 96.

إلى رحمة اللّٰه ﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أي بالأعمال الصالحة ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي بإرادة اللّٰه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ معناه: إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير، وسمي إعطاء الكتاب إيراثاً لازماً أعطوه بغير مسألة ولا اكتساب. وعن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم أنه قال: «**السابقون يدخلون الجنة بغير حساب، والمقتصدون يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، والظالمون يحبسون ما شاء اللّٰه أن يحبسوا ثم يرحمهم اللّٰه فيدخلهم الجنة وهم الذين يقولون:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾» إلى آخر الآيتين[1]، وعن الحسن أنه قال: السابق الذي ترك الدنيا، والمقتصد الذي أخذ الحلال، والظالم الذي لا يبالي من أين أخذ، ويقال الظالم صاحب الكبائر، والمقتصد صاحب الصغائر، والسابق الذي لا يلقى له سيئة. فإن قيل: ما الحكمة في تقديم الظالم، وتأخير السابق؟ قيل: الواو لا توجب الترتيب كما قال تعالى: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾[2] وقيل: قدم الظالم لئلا ييئس من رحمته، وأخر السابق لئلا يعجب السابق بنفسه، وقيل: قدم الظالم لأنه لم يكن له شيء يتكل عليه إلا رحمة اللّٰه، وثنى بالمقتصد لحسن ظنه بربه، وقيل لأنه بين الخوف والرجاء، وأخر السابق لأنه اتكل على حسناته، وقيل: لئلا يأمن أحد مكره، وكلهم في الجنة لحرمة كلمة الإخلاص، وعن عقبة بن صُهبان[3] قال: سألت عائشة عن قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾. فقالت: يا بني كلهم في الجنة. أما السابق فمن مضى على عهد رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم شهد له النبي صلى اللّٰه عليه وسلم بالجنة، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به، وأما الظالم فمثلي ومثلك[4]، وقال سهل بن عبد اللّٰه: السابق العالم، والمقتصد المتعلم، والظالم الجاهل[5]، وقيل السابق الذي اشتغل بمعاده، والمقتصد الذي اشتغل بمعاده، ومعاشه، والظالم الذي

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره، 12: 164، رقم 22185، من حديث أبي الدرداء.

(2) سورة التغابن 64، الآية: 2.

(3) عقبة بن صُهبان الراسبي كان ثقة وله رواية للحديث، توفي في أول ولاية الحجاج بالعراق ـ الطبقات الكبرى، 7: 107.

(4) ذكره البغوي في تفسيره، 4: 526.

(5) ذكره القرطبي في تفسيره، 14: 348.

اشتغل بمعاشه عن معاده، وقيل الظالم طالب الدنيا والمقتصد طالب العقبى، والسابق طالب المولى.

وقيل الظالم المرائي في جميع أفعاله، والمقتصد المرائي في بعض أفعاله دون بعض، والسابق المخلص في أفعاله كلها، وقيل الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه، والمقتصد من استوى ظاهره وباطنه، والسابق الذي باطنه خير من ظاهره، وقيل الظالم الذي يجزع عند البلاء، والمقتصد الذي يصبر عند البلاء، والسابق الذي يتلذذ بالبلاء، وقيل الظالم الذي يعبد اللَّه خوفاً من النار، والمقتصد الذي يعبده طمعاً في الجنة، والسابق الذي يعبده لا لسبب من الأسباب أولاً لوجهه الكريم، وقيل الظالم الذي يعبد اللَّه على الغفلة، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة، والسابق الذي يعبده على الهيبة. وقيل الظالم الذي أعطي فمنع، والمقتصد الذي أعطي فبذل، والسابق الذي منع فشكر، وقيل الظالم غافل، والمقتصد طالب، والسابق واجد، وقيل الظالم من استغنى بماله، والمقتصد من استغنى بدينه، والسابق من استغنى بربه، وقيل السابق الذي يدخل المسجد قبل الأذان، والمقتصد الذي يدخل المسجد وقت الأذان، والظالم الذي يدخل المسجد بعد الأذان، وقد أقيمت الصلاة، وقيل الظالم الذي يحب نفسه، والمقتصد الذي يحب ربه، والسابق الذي يحبه ربه. وقيل الظالم مدعو، والمقتصد مأذون، والسابق مقرب. قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ يعني الأصناف الثلاثة: الظالم، والمقتصد، والسابق، ومعنى الآية: لهم جنات عدن أي بساتين إقامة لا تزول ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي يلبسون فيها من أقلبة من ذهب والسوار: القلب وقوله تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ من قرأ بالكسر فالمعنى: من ذهب ومن لؤلؤ ومن قرأ بالنصب[1] فمعناه: ويحلون لؤلؤاً قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ أي يقولون بعد دخولهم الجنة: الحمد للَّه الذي أذهب عنا الحزن أي حزن الموت، وأهوال القيامة وقيل: حزن المعاش، وهموم الدنيا، فإن الدنيا سجن المؤمن، وقال عكرمة: حزن الذنوب والسيئات. وعن ابن عمر: سمعت رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم يقول: «**ليس على أهل لا إله إلا اللَّه وحشة في قبورهم، ولا في**

(1) ينظر النحاس: في إعراب القرآن، 3: 373.

محشرهم، كأني بأهل لا إلّه إلا اللَّه يخرجون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، وهم يقولون: الحمد للَّه الذي أذهب عنا الحزن»[1]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي متجاوز عن الذنوب يقبل اليسير من العمل، ويعطي الجزيل من الثواب.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ أي دار المقام وهي الجنة بتفضله لا بأعمالنا. وسمي دار المقامة لأن من دخلها مخلد لا يموت، ويقيم فيها لا يحول. وقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبنا فيها تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي مشقة وتعب وإعياء وفتور. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ أي الذين كفروا بمحمد صلى اللَّه عليه وسلم، والقرآن لهم في الآخرة نار جهنم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بموت فيستريحوا من العذاب ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم﴾ من عذاب النار طرفة عين. قرأ الحسن: فيموتون بالنون[2]، ولا يكون حينئذ جواباً للنفي، والمعنى: لا يقضى عليهم ولا يموتون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿36﴾﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ أي هكذا نجزي في الآخرة كل كفور بنعم اللَّه تعالى قراءة العامة: نجزي بالنون، ونصب اللام، وقرأ أبو عمرو وحده بضم الياء، وفتح الزاي على ما لم يسم فاعله، ورفع اللام[4]. ١٠٧

قال اللَّه تعالى:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿37﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿38﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿39﴾﴾.

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب، 1: 111. رقم 100 باب في الإيمان.

(2) ينظر ابن جني في المحتسب، 2: 201، وكذا النحاس: في إعراب القرآن، 3: 374.

(3) سورة المرسلات 77، الآية: 36.

(4) ينظر ابن مجاهد في كتاب السبعة، ص 535، وابن الجزري في النشر، 2: 352.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ أي يستغيثون في النار وهو افتعال من الصراخ يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من النار ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي نقول: لا إلّه إلا اللّه. وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي غير الشرك فوبخهم اللّه تعالى فقال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ معناه: أولم نعمركم مقدار ما يتعظ فيه من كان يريد أن يتعظ ويؤمن، قال عطاء: يريد ثماني عشرة[1] سنة، وقال الحسن: أربعين[2] سنة، وقال ابن عباس: ستين[3] سنة، قال: وهو العمر الذي أعذر اللّه فيه إلى ابن آدم، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجوز ذلك**»[4]، وقال صلى اللّه عليه وسلم: «**معترك منايا أمتي ما بين ستين إلى السبعين**»[5]، قوله تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ قال جمهور المفسرين يريد النبي صلى اللّه عليه وسلم، وروى عكرمة، وسفيان بن عيينة: أن المراد بالنذير: الشيب، ومعناه: أولم نعمركم حتى شبتم.

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: من أناف سنه عى أربعين سنة، ولم تغلب حسناته على سيئاته فليتجهز إلى النار. قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي فذوقوا العذاب فما للمشركين من مانع يمنعهم من العذاب. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (38)﴾ أي عالم سر أهل السمٰوات وأهل الأرض إنه عليم بما في القلوب من الخير والشر. قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خلفاً عمن كان قبلكم أمة بعد أمة وقرناً بعد قرن ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي فعليه ضرر كفره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي إلا نقصاً ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي إلا غبناً في الآخرة.

---

(1) يراجع البغوي في تفسيره، 4: 529.
(2) البغوي في المرجع نفسه.
(3) ينظر الطبري في تفسيره، 12: 170.
(4) أخرجه ابن ماجه في سننه، 2: 1415، رقم 4236، كتاب الزهد.
(5) أخرجه البيهقي في الشعب، 7: 264، رقم 10253، باب في الزهد وقصر الأمل.

قال اللّٰه تعالى:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿40﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿41﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿42﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي أخبروني عن شركائكم الذين أشركتموهم مع اللّٰه في العبادة بأي شيء أوجبتم لهم شركاً مع اللّٰه؟ أبخلق خلقوه من الأرض أم لهم نصيب في خلق السمٰوات؟ أم أعطيناهم كتاباً فيه ما تدعونه فهم على بينة[1] منه؟ وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي لا هذا ولا ذاك، ولكن ما يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا خداعاً وأباطيل. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ أي يمنعهما من الزوال والذهاب، ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ أي ولو زالتا عن أماكنهما لم يمسكهما أحد غير اللّٰه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي حليماً على مقالة الكفار غفوراً لمن تاب منهم، والحليم: هو القادر الذي لا يعجل بالعقوبة، والغفور كثير الغفران قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي حلف كفار مكة باللّٰه غاية أيمانهم قبل أن يأتيهم محمد صلى اللّٰه عليه وسلم ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي رسول ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ أي ليكونن أسرع إجابة، وأصوب ديناً من إحدى الأمم، يعنون اليهود والنصارى والصابئين وغيرهم فلما جاءهم ﴿نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً صلى اللّٰه عليه وسلم ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحق، وتباعداً عن الهدى.

قال اللّٰه تعالى:

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿43﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟

---

(1) نسب البغوي في تفسيره، 4: 530، هذا القول إلى مقاتل.

فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿44﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿45﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ منصوب على أنه مفعول له أي ما زادهم إلا نفوراً للاستكبار في الأرض عتواً على اللَّه، وتكبراً عن الإيمان، وقيل على البدل من قوله: ﴿نُفُورًا﴾، وقيل على المصدر قوله تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي والقصد إلى الإضرار بالنبي صلى اللَّه عليه وسلم وأصحابه من حيث لا يشعرون به، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أي لا يحيق ضرر المكر السيىء إلا بفاعله فقتلوا يوم بدر. والمكر السيىء: هو العمل القبيح. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ أي ولا يحل، ولا ينزل إلا بأهله قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي ما ينتظر أهل مكة إلا أن ينزل بهم العذاب بمثل ما نزل بمن كان قبلهم من الأمم السالفة المكذبة. وقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي لن تجد لسنة اللَّه في العذاب تبديلاً أي تغييراً، ولن تجد لسنة اللَّه تحويلاً أي لا يقدر أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ معناه: أولم يسافروا فينظروا كيف صار آخر أمر الذين من قبلهم عند تكذيبهم الرسل كيف فعل اللَّه بهم ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾ من أهل مكة قوة، ومكّن لهم في البلاد ما لم يمكن لهؤلاء ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي لم يعجزه أحد من الخلق في السمٰوات ولا في الأرض إنه كان عليماً بخلقه قادراً عليهم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ أي لو يؤاخذهم بما كسبوا من المعاصي ما ترك على ظهر الأرض من دابة، ولكن يؤخرهم بتفضله إلى وقت معلوم، فإذا جاء ذلك الوقت، فإن اللَّه كان بعباده بصيراً يفعل بهم ما يستحقونه من ثواب أو عقاب.